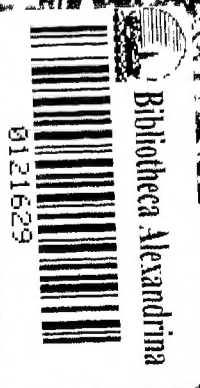




دکتور عادل هلال

وآثرها على العالم الإسلامى



العلاقات بين المغول و أوروبا وأثرها على العالم الإسلامى

تأليف

دكتور عادل اسماعيل محمد هلال

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٩٧

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

عين FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارين

د . أحمد إبراهيم الهواري

د . شوقي عبد القوي حبيب

د . علي السيد علي

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spas - Elherm - A.R.E. Tel : 3851276

إهداء

وتحيةة وتقدير إلى الصديق النبيل،

والزميل الكريم :

الدكتور / رشوان محمود جاب الله

وإلى كل الشرفاء الذين يتقون الله سرّاً وعلائية .

عادل هلال

المحتويات

صفحة

١١	مقدمة
	تمهيد تاريخي
١٥	الصلات بين آسيا وأوروبا قبل العصر المغولي
	الفصل الأول :

٣١ الاتصالات بين المغول وأوروبا من عام ١٢٣٧ إلى ١٢٥٥ م

(ظهور المغول على مسرح الأحداث - غزو المغول لجنوب روسيا عامي ١٢٢٢-١٢٢٣م) غزو روسيا ١٢٣٦-١٢٤٠م - موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لروسيا - غزو بولندا ١٢٤٠-١٢٤١م - غزو المجر ١٢٤١-١٢٤٤م - موقف غرب أوروبا من الغزو المغولي لبولندا - السفارات المتبادلة بين البابوية والمغول في عهد انوسنت الرابع - الاتصالات بين المغول ولرس التاسع - بعثة وليم روبروك إلى المغول ١٢٥٣ - ١٢٥٥م) .

الفصل الثاني :

٩٥ التحالف المغولي - اللاتيني ضد المسلمين

(المتغيرات السياسية في الشرق الأدنى في بداية النصف الثاني للقرن الثالث عشر - موقف الصليبيين من الغزو المغولي لبلاد الشام - الاتصالات بين مغول فارس واللاتين في عهد هولاكو - السفارات المتبادلة بين الإيلخانيين والغرب الأوروبي - أسباب فشل التحالف المغولي- اللاتيني) .

الفصل الثالث :

١٦٥ السياسة الدينية للمغول وجهود البابوية لتنصيرهم

(معتقدات المغول وسياساتهم مع الأديان المختلفة - جهود البابوية لتنصير قادة المغول ١٢٤٥-١٢٥٤ / سياسة هولاكو مع المسلمين والمسيحيين - علاقة الإيلخانيين البوذيين برعاياهم المسلمين - محاولات الغرب الكاثوليكي تنصير مغول فارس البوذيين - سفارة رابان صاوما للغرب وتمهيد كنيسة النساطرة لكنيسة روما - بعثة جون مونت

كورفينو للمغول - جهرد الراهب ريكولدمونت كرونسى التبشيرية -
اعتناق غازان الإسلام وأثره على أهل الذمة - البعثات التبشيرية فى
عهد الايلخانيين المسلمين - تقييم إنجازات الرهبان الفرنسيسكان
والدومنيكان- أسباب فشل البعثات التبشيرية فى تنصير المغول) .

الفصل الرابع :

تجار المدن الإيطالية فى آسيا المغولية ٢١٧

(عصر السلام المغولى وفتح الطرق التجارية وتأمينها - المزايا التى
حصل عليها التجار الإيطاليون فى أسواق الإيلخانية - السلع التى
تاجر فيها الإيطاليون فى أسواق المغول - أوضاع التجار الإيطاليين فى
الإيلخانية - التجار الإيطاليون فى الهند والصين - نتائج الحصار
الاقتصادى ضد المماليك على تجار اللاتين مع إيلخانية فارس - بداية
النهاية للوجود اللاتينى فى أسواق المغول - أسباب توقف التجار
الإيطاليين عن ارتياد أسواق المغول منذ منتصف القرن الرابع عشر
الميلادى تقريباً)

الخاتمة ٢٦٥

الملاحق ٢٦٩

١- ثبت بأسماء حكام وقادة القوى السياسية التى تناولتها هذه
الدراسة - ٢- التقرير الذى قرأه سفير أبغاخان أمام مجمع ليرن
المسكونى عام ١٢٧٤م - ٣- خطاب أرغون خان إلى فيليب الرابع ملك
فرنسا عام ١٢٨٩م - ٤- خطاب أولجاتيوخان إلى فيليب الرابع عام
١٣٠٥م) .

الخريطة ٢٨٧

قائمة المصادر والمراجع ٢٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلي آله وصحبه أجمعين ... أما بعد: فموضوع العلاقات بين المغول و أوروبا موضوع تناولته أقلام المؤرخين المحدثين في الشرق والغرب علي حد سواء . ولكن تمت دراسته من بعض الجوانب دون البعض الآخر واعتماداً علي مصادر معينة شرقية أوغربية حسب موقع المؤرخ و رؤيته للأحداث واهتماماته . ويُحسب لهؤلاء المؤرخين شرف الريادة في طرق موضوعات بكر وفتح أبواب جديدة لمن أتى بعدهم من جيلي ومن هؤلاء J.B.Chabot فسي دراسته القيمة للعلاقات بين أرغون خان والغرب التي نشرها عام ١٨٩٤ م ، و Paul Pelliot في بحثه غير المسبوق عن البابوية والمغول الذي نشره في أعوام ١٩٢٢، ١٩٢٤، ١٩٣١ و A.G, Moule في مقالاته وكتابه عن المغول والمسيحية في وسط آسيا وفي الصين التي نشرها في الفترة من ١٩١٤ حتى ١٩٣١ و J.J.Saunders في كتابيه عن تاريخ غزوات المغول والمسلمين والمغول. والجدير بالذكر أن الكتاب الأخير نشر عام ١٩٧٧ بعد وفاة مؤلفه وبالفصل الأخير منه خطة بحث لموضوع العلاقات المغولية الأوربية مات دون استكمالها. وهذا ما استفدت منه فائدة كبيرة . وأنه أيضاً برساتي الدكتوراه لكل من Charles W.Connell. و Barbra Rose Phaire ١٩٦٤، ١٩٧٢ علي التوالي في موضوعات تمس الفصل الاول من هذا الكتاب، وكذلك كتاب Igorde Rachewiltz عن سفراء البابوية لقادة المغول المنشور عام ١٩٧٠ وكان يمكن أن يكون دراسة طيبة لو اهتم الباحث بتوثيقه والأخذ في الاعتبار تأثير هذه العلاقات علي العالم الإسلامي .

ويسعدني ان أنوه أيضاً بجهد أساتذتنا الدكتورة فؤاد عبد المعطي الصياد - وهو رائد الدراسات المغولية بلا منازع ، وحافظ أحمد حمدي و فايد حماد عاشور ، وغيرهم ممن كتبوا بعمق واعتماداً علي المصادر الشرقية عن المغول وعلاقاتهم بالقوي الإسلامية في وسط آسيا وغربها .

ومن توفيق الله تعالي أن وفقني للعشور أو الاطلاع علي مجموعات المصادر الأولية الشرقية والغربية علي حد سواء عن طريق الاتصالات الشخصية بمكتبات الجامعات الأمريكية و بالاطلاع المباشر عليها في أرشيفات الجامعات الألمانية (الغربية) إبان دراستي لهذا الموضوع بجامعة كيبل في الفترة من ١٩٨٥ حتى ١٩٨٧ م.

و يتكون هذا الكتاب من تمهيد تاريخي لموضوع الدراسة وأربعة فصول وخاتمة وأربعة ملاحق .

فالتمهيد التاريخي عبارة عن نبذة مختصرة للاتصالات بين آسيا وأوروبا في العصور الوسطى الباكورة ، و دراسة لأسطورة الكاهن يوحنا وتطورها وذلك لارتباط هذه الأسطورة في أذهان الأوربيين بوجود مملكة مسيحية في اسيا خلف ظهر المسلمين على استعداد للتحالف مع الصليبيين لتطويق المسلمين ، وذلك لتطور نظرة الغربيين لهذه الاسطورة بظهور المغول وانتصاراتهم المتتالية علي المسلمين في وسط آسيا وغربها وتصوروا أن خلفاء جنكيز خان يمكن ان يقوموا بالدور المأمول من «الكاهن يوحنا» .

وتناول الدارس في الفصل الاول «الاتصالات بين المغول و أوروبا من عام ١٢٣٧ حتي عام ١٢٥٥ م. و درس الباحث بإيجاز غزو المغول لروسيا و بولندا و المجر و مورافيا في الفترة من ١٢٣٧-١٢٤٣ م ، و رد الفعل للغرب الكاثوليكي من اكتساح المغول لشرق أوروبا و ما نتج عن ذلك من تدمير مدنها وكنائسها و ذبح سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعهم . و تعرض الكاتب للسفارات المتبادلة بين البابوية وقادة المغول وللاتصالات المتبادلة بين الأخيرين والملك الفرنسي لويس التاسع وكذلك لبعثات الرهبان الكاثوليك لقادة المغول في تلك الفترة .

و استعرض الباحث «محاولات التحالف العسكري بين مغول فارس و الغرب الاوربي ضد المماليك » في الفصل الثاني ، فتمت دراسة موازين القوى السياسية في الشرق الادني في باكورة النصف الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي ، و موقف الصليبيين من الغزو المغولي لبلاد الشام، والسفارات العديدة التي أرسلها إيلخانات المغول للبابوية وكل من ملكي المجلترا وفرنسا طلباً للتعاون المشترك ضد المماليك . و ربط الباحث جميع هذه السفارات وردود الغرب الأوربي عليها بالملايسات الإقليمية والمؤثرات السياسية الدولية لطرفي التحالف والطرف المتحالف ضده (أى المماليك) . وتناول المؤلف في نهاية هذا الفصل أسباب عدم خروج «مشروع» التحالف المغولي - اللاتيني ضد المسلمين إلي حيز التنفيذ بالصورة التي أرادها له الطرفان .

و عالج الفصل الثالث «السياسة الدينية للمغول وجهود البابوية لتنصيرهم» . وفيه تم دراسة موقف قادة المغول - بوذيين أو مسلمين - من أتباع الديانات المختلفة من رعاياهم والظروف المحيطة بتواجد الرهبان الكاثوليك في إيلخانية فارس و الهند والصين و إنجازاتهم والمشاكل التي اعترضتهم و أهدافهم من تنصير المغول . ونظراً لاعتناق قادة المغول فى ثلاثة

إيلخانيات (من أربعة للمغول في كل آسيا و شرق أوربا) للإسلام فكان من الأهمية بمكان - في نهاية هذا الفصل - تفسير أسباب فشل البعثات الكاثوليكية في تنصير المغول .

و خصص الفصل الرابع لدراسة «أوضاع التجار الإيطاليين في الأسواق المغولية» . وبدأ الباحث بدراسة سياسة المغول في فتح الطرق التجارية وتأمينها لجميع التجار ، والمزايا التي حصل عليها تجار المدن الإيطالية في أسواق المغول و السلع التي تاجروا فيها والمعاهدات التي عقدها مع المغول . ولم يغفل الباحث دراسة تأثير الحصار الإقتصادي اللاتيني علي المواني المصرية والشامية علي تجارة اللاتين في أسواق المغول . وأتمع ذلك بدراسة أثر انهيار الاستقرار السياسي في دولة مغول فارس بوفاة الخان أبو سعيد عام ١٣٣٥ دون وريث شرعي علي أوضاع التجار الإيطاليين في أسواق آسيا الداخلية . وانتهى هذا الفصل بدراسة لأسباب توقف تجار المدن الإيطالية عن ارتياد أسواق المغول في وسط آسيا وشرقها منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي .

و قد عرضت «الخاتمة» ملخصاً للنقاط الهامة في البحث و الجديد في الموضوع . وأرفق المؤلف بالكتاب أربعة ملاحق: الأول قائمة بأسماء حكام القوي السياسية في الشرق المغولي والعربي الإسلامي والغرب الأوربي في الفترة التاريخية التي يعالجها البحث. و الثاني ترجمة- غير مسبقة - للتقرير الذي قرأه سفير أباخان في مجمع ليون الثاني عام ١٢٧٤، والثالث و الرابع ترجمة لخطابين لهما أهمية خاصة لموضوع البحث من حكام مغول فارس الي الملك الفرنسي فيليب الرابع في عامي ١٢٨٩، ١٣٠٥م.

تقديم

المغول فى التاريخ ، موضوع مثير ومثير ومربك. ذلك أنهم مضوا فى تاريخ البشرية مثل شرارة حارقة مذهلة . وحين خرجوا من بلادهم تحت قيادة جنكيز خان على خيولهم القصيرة ليتجهوا غرباً صوب المنطقة العربية والبلقان نشروا الرعب والفرع والذهول بين الشعوب التى قهروها ودمروا بلادها. ولهذا السبب نُسجت حولهم أساطير كثيرة تجعل منهم قوة خارقة ، وتجعل من أفعالهم أفعالاً وراء تاريخية؛ أى تخرج عن نطاق قوانين التاريخ المعروفة. وشارك فى نسج خيوط هذه الأساطير المؤرخون العرب المسلمون ومؤرخوا أوروبا على السواء . وربما كان اجتياحهم للخلافة العباسية فى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وقضاؤهم على هذه الخلافة بقتل الخليفة وأهل بيته وتخریب عاصمته ، وراء الصدمة الكبيرة التى أصابت المسلمين وانعكست أصدائها فى كتابات مؤرخيهم وأدبائهم ، وحالة الإحباط واليأس والقلق التى انتابت سكان المنطقة العربية بعد أن وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم .

ومن ناحية أخرى ، كان العالم العربى مكشوقاً أمام الهجمة الأوربية الكاثوليكية تحت راية الصليب ، ويات القلق والخوف عنواناً على الوجود العربى الإسلامى ذاته . لذا كانت معركة عين جالوت التى خاضها المسلمون بقيادة السلطان المملوكى سيف الدين قطز انعطافاً إيجابياً حاداً فى تاريخ المنطقة العربية خاصة ، وفى تاريخ العالم الإسلامى كله بوجه عام . وتولت دولة سلاطين المماليك مهمتها التاريخية لتصفية الوجود الصليبي على الأرض العربية من ناحية ، والتصدي لأهوال الغزو المغولى وكسر موجته العاتية من ناحية أخرى . وكان هذا الوضع التاريخى إغراء للغرب الأوربي الكاثوليكي لمحاولة تكوين حلف مغولى / أوربي لتطويق العالم الإسلامى وإنهاء الوجود الحضارى والسياسى للأمة الإسلامية . وهذا هو موضوع هذه الدراسة الجادة التى يقدمها الدكتور عادل هلال فى صفحات هذا الكتاب . وهذه الدراسة تقدم للقارئ نموذجاً فى العلاقات الدولية العدوانية ؛ بين قوة شرقية وثنية صاعدة وقوة أوربية كاثوليكية طامعة لحصر الأمة العربية الإسلامية وتجريدها من أسباب قوتها وعناصر وجودها . وعلى الرغم من أن التنافس على المغول بين المسيحية والإسلام قد حسم بشكل نهائى لصالح الإسلام حين تحول المغول إلى الإسلام ولم يلبثوا أن صاروا قوة دفع إضافية فى بناء حضارته على نحو ما يشهد به تاريخهم فى فارس والهند . نقول إنه على

الرغم من ذلك فإن الدراسة تكتسب مشروعيتها من حقيقة أنه العلاقات الدولية ، وهى تسعى إلى تحقيق مصالح أطرافها ، تتغاضى كثيرا عن الاختلافات الدينية واللغوية والبشرية والثقافية .

لقد كانت بابوية أوروبا العصور الوسطى مثالا لهذا النمط من الانتهازية السياسية ، وهو الأمر الذى يكشف عنه الباحث فى دأب وصبر يحسبان له . ولست أظن أن القارئ بحاجة لأن أكرر على مسامعه تفاصيل هذه الدراسة الجيدة والجادة ، فإن صفحات الكتاب تحمل الكثير مما يمكن أن يكتب أو يقال ، بيد أننى أود أن أشير إلى أن الدراسة التى بين أيدينا اعتمدت على كل ما أمكن الوصول إليه من المصادر التاريخية الأصلية فى عدد من لغات البشر ، كما استشارت الدراسات الحديثة التى نشرت حول جزئيات هذا الموضوع . ولاغرو أن جاءت هذه الدراسة متكاملة قوية تحمل بصمات منهجية واضحة . ولست أزكى هذا الكتاب لأنه يزكى نفسه بجهد صاحبه ، والله الموفق والمستعان.

دكتور قاسم عبده قاسم

شكر وتقدير

أحمد الله - أولاً وأخيراً- أن هياً لي أسباب التوفيق في جميع مراحل هذه الدراسة التي كانت في الأصل موضوعاً لرسالتي لدرجة الدكتوراة التي نوقشت بآداب الزقازيق عام ١٩٨٧ . وأسجل شكري وتقديري للأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم الذي شرفت بأن تتلمذت علي يديه وأشرف علي هذا البحث - كما أنه بأسلوبه الديمقراطي في المناقشة واعطاء التوجيهات وتشجيعه لي على ارتياد مناطق مجهولة في مجال البحث - وأشكر أيضاً الأستاذ الدكتور (المرحوم) صبحي لبيب الأستاذ السابق بجامعة كييل بألمانيا (الغربية) الذي أشرف علي دراستي بتلك الجامعة وساعدني وأسرتي في حل جميع مشاكلنا هناك والذي قدمني للعديد من المتخصصين في مجال المغول والصليبيات بالجامعات الألمانية .

وسعدني أن أشير بالتقدير لأستاذي الأمريكي البروفيسير جون الدن وليامز John.A.Williams لتفضله على بتصوير كثير من المصادر الأساسية و ثلاثة رسائل دكتوراه- غير مطبوعة - في موضوع البحث وهذا ساعدني كثيراً علي الاطلاع علي أهم ما كتب عن هذا الموضوع . وأشكر أيضاً البروفيسور Franz Qudlbauer- أستاذ اللغة اللاتينية بجامعة كييل و الدكتورة Viviana Amari بجامعة باليرمو بإيطاليا و صديقي الألماني- الإيطالي Helmut Weiser و الأب منصور مستريح بمعهد الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة علي تفضلهم بمساعدتي في ترجمة أهم الوثائق اللاتينية والإيطالية .

و أسجل تقديري للصديق النبيل و الزميل الوفي الدكتور رشوان محمود جاب الله علي مساعداته القيمة التي قدمها لي إبان مراحل هذا البحث و بعدها .

و أشكر عشرات الشخصيات الذين قدموا لي مساعدات علمية وإدارية ساعدتني علي أداء مهمتي علي خير وجه بجامعات ومكتبات الزقازيق و الجامعة الامريكية بالقاهرة ومكتبة المعهد الفرنسي بالقاهرة ، ومكتبة معهد الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة أيضاً و في جامعتي كييل وهامبورج بألمانيا (الغربية) .

وأخيراً يسعدني أن أسجل بكل معاني العرفان بالجميل لوالدي الكريمين علي ما بذلاه من توضيحات وعرق في المراحل الأولى لدراستي وعلي دعواتهما لي بالتوفيق من قبل ومن بعد . وكذلك أسجل بالتقدير لزوجتي الفاضلة السيدة/فايزة أبو بكر صالح حميده أنه كان لها أكبر الأثر في منحي الاستقرار العائلي المنشود و الصفاء الذهني اللازمين للتفرغ الكامل للبحث والدراسة .

و بعد :

فلا أدعي أنني قد وفيت موضوع الكتاب حقه من البحث و الدراسة فهذا اكبر من إمكانياتي البشرية ، فالموضوع يحتاج الي جهد جماعي لكتابة كثير من التفاصيل التي أغفلتها ، فعنوان كل فصل من فصوله بلغاتها يصلح أن يكون كتاباً مُستقلاً بذاته ، وهناك عشرات الوثائق ما زالت مخطوطة الأصلية في انتظار باحثين يتحلون بالصبر و اتقان اللغات القديمة لترجمتها ودراستها و نشرها . والكمال لله وحده . و يكفيني أنني اعتمدت علي المصادر الأصلية الشرقية و الغربية علي حد سواء و علي الدراسات التي كتبت فيه بعدة لغات أوربية ، و حسبى ارتباد موضوع صعب و طويل ، حاولت فيه كتابة بحث يغطي أهم جوانبه دون تطويل مُل أو اختصار مُخل ، فإن أكن قد نجحت في مساعي فهذا توفيق من الله سبحانه و تعالي و بفضل الذين عاونوني إشرافاً و مُراجعة ، وإن كانت الأخرى فحسبي أنها فتحت للباحثين -باللغة العربية - أبواباً مغلقة يمكن أن يطرقوها لعلمهم يوضحون بجهدهم غامضاً أو يفصلون مجملأ أو يُضيفون جديداً . وفوق كل ذي علم عليم .

عادل هلال

الموافق ١٩ مايو ١٩٩٦ ميلادية

دمشق في شرة محرم عام ١٤١٧ هـ

تمهيد تاريخي

الصلات بين آسيا وأوروبا قبل العصر المغولي

إن الصلات بين وسط آسيا وجنوبها وأوروبا سواء علي المستوي الفردي او الرسمي موعلة في القدم . وقد ساعدت حملة الإسكندر الأكبر على الهند ٣٢٦ - ٣٢٤ ق.م على الاحتكاك المباشر بين الإغريق وسكان وسط آسيا بما في ذلك انتقال الثقافات والمؤثرات الإغريقية لهذه المناطق . وتصور مؤرخو الإسكندر وخلفاؤهم أمثال سترابو Strabo وبليني Pliny وآريان Arrian أن صحراء الهند هي أرض الذهب والمعادن النفيسة، وأن وديانها هي موطن التوابل . والأعشاب الطبية، وأن أنهارها مصدر الحيوانات المفترسة والعجيبة . وقد انتقلت المنتجات الهندية والفارسية للجزر الإغريقية منذ ذلك الحين عن طريق الوسطاء و بالطرق البرية في وسط آسيا والخليج العربي و البحر الأحمر^(١)

و كان بين الساسانيين (٢٢٦ م - حتي منتصف القرن السابع الميلادي) و الإمبراطورية الرومانية حروب مريرة وطويلة ترجع أساساً لرغبة الطرفين في السيطرة علي المناطق الغنية في القوقاز وآسيا الصغرى . و بعد اعتراف الإمبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية كأحد الديانات المرخصة في إمبراطوريته في الربع الأول للقرن الرابع الميلادي ، فإن منافسة الفارسي شاپور الثاني (٣٠٩-٣٧٩ م) و حلفاءه اضطهدوا النصارى في إمبراطوريتهم نكاية في الرومان والبيزنطيين ، وإن كانت معاملتهم لرعاياهم المسيحيين قد مالت للاعتدال بعد أن تحول الأخيرون للمسيحية النسطورية في نهاية القرن الخامس نظراً لاضطهاد البيزنطيين للنسطورة بعد مجمع إفسوس عام ٤٣١م الذي حكم علي نسطور بالهرطقة و الانشقاق .

و في ذلك الوقت كانت هناك أيضا معتقدات ظهرت في إقليم فارس مثل المانوية والمزدكية فضلاً عن الزرادشتية التي كان لها مؤيدين خارج فارس ، و من ثم تغيرت نظرة الأوروبيين لفارس من اعتبارها مركزاً لاضطهاد المسيحيين إلي اعتبارها «ملجأً للمهرطقة»^(٢).

و لما كان خسرو انوشروان مغرماً بالفلسفة اليونانية ، فإنه عهد الي صفوته بترجمة بعض مؤلفات أرسطو وأفلاطون وغيرهما إلي اللغة البهلوية Pahlavi . وشاعت شهرته كإمبراطور فيلسوف يعمل علي تحقيق جمهورية افلاطون المثالية في مملكته حتي أنه عندما أغلق الامبراطور جستنيان مدرسة أثينا المشهورة حينئذ بدراسة القانون والفلسفة ، فإن أشهر فلاسفتها فروا إلي فارس و عوملوا معاملة كريمة من إمبراطور الشرقي الذي طلب من غريمه البيزنطي -أثناء مفاوضات الصلح بينهما - حسن معاملة هؤلاء الفلاسفة في موطنه.^(٣)

و من الناحية التجارية ، فقد كان الحرير الآسيوي يصل الي روما منذ عصر الجمهورية، فعندما رجع بومبي من رحلته في الشرق فإنه كان مرتدياً قلنسوة من الحرير الفاخر الذي كانت الصين المصدر الأساسي لمواده الخام . وكان يعاد تطريزه في مصر و سوريا ليناسب الذوق الروماني . و كان القفل و غيره من البهارات من جنوب آسيا يقدم علي موائد القادة الرومان كما أشار بلييني المؤرخ الروماني . وفي العصر الامبراطوري المسيحي ازداد تدفق التوابل لروما بعد وصول النفوذ الروماني للبحر الأحمر و ظهور مملكة أكسيوم المسيحية في الحبشة و قيامها بدور هام في التجارة من المحيط الهندي للبحر الأحمر حتي ظهور الإسلام .^(٤)

و بعد انتقال مركز الثقل السياسي والاقتصادي للقسطنطينية منذ النصف الأول للقرن الرابع فإن مركزا لثقل والتجارة قد تركز في الطرق البرية في آسيا الصغرى و الشام بجوار العاصمة الجديدة التي وصلتها تجارة الحرير و التوابل الواردة إليها من الشرق من خلال التجار الفرس والسريان والسوريين . ولكن تجارة الحرير واجهت ضربة قوية عندما اكتشف الأوروبيون - بواسطة راهبين فارسيين - لغز صناعة الحرير وانتاجه. ولكن استمر ولع الطبقات العليا في روما والقسطنطينية - حتي قادة البرابرة الجرمان - بالبهارات و المنتجات الآسيوية كبيراً ، حتي أن آلريك القائد الجرمانى طلب أن تدفع له روما عام ٤٠٨م التوابل كجزء من ضريبة التبعية. بل إن الأباطرة البيزنطيين كانوا يقدمون الحرير و التوابل لقادة القبائل الجرمانية في القرنين الخامس والسادس كنوع من الهدايا أو الرشوة كيلا يغيروا علي ممتلكاتهم .^(٥)

و عندما كانت الحرب سجالاً بين الفرس والبيزنطيين ، فإن الأسري الأوربيين قد شاهدوا عن قرب الصناعات و الحرف الفارسية التي كانت منتجاتها تصل لأوروبا عن طريق التجار البيزنطيين أو السريان أو الفرس ، ووصلت شهرة المنسوجات الفارسية حتي غالة .

و باختصار فإن نظرة أوروبا لفراس الساسانية كانت مزيجاً من الاحترام لقواتها العسكرية التي حالت دون توسيع حدود الإمبراطوريتين الرومانية و البيزنطية في القوقاز و وسط اسيا ، ومزيجاً من الفضول و الرهبة من معتقداتها الدينية و خشية انتقالها للحدود الرومانية ، وازدراءً لفلسفتها الشرقية، و أخيراً إعجاباً بالمنتجات الآسيوية من حرير و توابل بصفة عامة وبالمنسوجات الفارسية بصفة خاصة .^(٦)

وفي القرن السابع الميلادي استطاعت الجيوش الإسلامية الزاحفة شرقاً و غرباً تغيير موازين القوى في العالم ، ففي غضون حوالي قرن من الزمان تم الفتح الإسلامي للمنطقة الواقعة بين

نهر سيحون شرقاً والمحيط الأطلنطي غرباً ، وأصبحت أقاليم وسط آسيا وغربها ومصر وكل شمال أفريقيا والأندلس خاضعة لخليفة المسلمين في دمشق . ومن ثم لم تعد هناك حدود أو صلات مشتركة بين أوروبا ووسط آسيا عامة وفارس خاصة ، وإنما هي علاقات عدائية بين الخلافة العباسية بعد ذلك والإمبراطورية البيزنطية للصراع علي منطقة آسيا الصغرى ومحاولات مد الزحف الإسلامي إلى قلب بيزنطة . وقد بدأت اتصالات سلمية في عهد الخليفة هارون الرشيد مع شارلمان لبلورة مصالح الطرفين للتحالف ضد بيزنطة شرقاً والأمويين في الأندلس غرباً . ولكن هذا التحالف لم يخرج عن تبادل الوفود والهدايا بين العاهلين العباسي والكارولنجي لأسباب كثيرة منها أن قوات البيزنطيين والأمويين في الأندلس كانت في حالة تسمح لهما برد الاعتداء بل وأحياناً بنقل ميدان المعركة لأرض الخصوم . ويعيننا هنا أيضاً أن التجار المسلمين واليهود حلوا محل التجار البيزنطيين والسريريان والفرس والأقباط في نقل التجارة بين الشرق الآسيوي والغرب الأوربي وظهرت الأهمية التجارية لمدي ومواني جديدة في بغداد والبصرة وسيراف .

ولانعزل وسط آسيا وجنوبها عن أوروبا فإن مؤلفات المؤرخين الإغريق والكتاب المقدس ظلت مصدراً جغرافياً لفكرة أوروبا عن الشرق الآسيوي . فروايات سفر التكوين عن الجنة التي تقع في الناحية الشرقية من العالم ، و تقسيم الأرض بين أولاد نوح و وجود قبائل يأجوج و مأجوج المتوحشة ^(٧) في مناطق مغلقة كان لها تأثيره علي رؤية أوروبا العصور الوسطي الباكورة للمناطق الآسيوية شرقي نهر دجلة . ^(٨)

وفضلاً عن ذلك ، فإن الاعتقاد بوجود رفات القديس توما - كأحد الحواريين الذين ذهبوا الي الهند للتبشير بالمسيحية ومات ودفن بها - جعل الأنظار تتجه إلي الهند ليس فقط باعتبارها بلاداً للمعادن النفيسة والتوابل بل أيضاً باعتبارها أحد المزارات المقدسة التي تحدث فيها معجزات للقديس الشهيد كل عام في ذكرى مولده . ^(٩)

وتروي حولية الأنجلو-ساكسون في أحداث عام ٨٨٣م أن الملك الفريد السكسوني قد أوفد بعثة من قبله للبحث عن رفات هذا القديس أو معجزاته . ولكن لم يعثر علي اثر مادي حتي الآن يدل علي وصول هذه البعثة الي الهند هذا إذا كانت قد خرجت من إنجلترا من الأصل . ^(١٠) ولكن يهمننا ان تصور الغرب الأوربي حينئذ بوجود شعب مسيحي خلف جدران العالم الإسلامي كان مصدراً خصباً لروايات وأساطير عن إمكانية التحالف مع هذا الشعب ضد العالم الإسلامي ، أو علي الأقل البحث في إمكانية تكملة مهمة القديس توما في الهند

وما يجاورها . وقد ارتبطت أسطورة القديس توما بأسطورة أخرى كان لها دوراً كبيراً فيما بعد. وهي أسطورة القس أو الكاهن يوحنا أو «البريسترجون» Prester John كما يسميه الأوروبيون.

وتشير حوليات «أودو» Odo مقدم دير القديس رئيس (١١١٨-١١٥١م) بمدينة رئيس ST.Remi in Rheims انه في مايو عام ١١٢٢م قام أسقف شرقي يدعي حنا John بزيارة روما ، و ادعى أنه أتى من الهند من بلاد المالابار (المعبر كما يسميها ابن بطوطة) و عدد للبابوية و لمن قابله في إيطاليا معجزات القديس توما ، و مدي اتساع مملكة المسيحيين بالهند وثرواتها^(١١) بصورة مبالغ فيها جعلت احد المؤرخين المحدثين يعتقدون انه إما أحد النساطرة أو أحد «الأدعياء المحتالين»^(١٢) و لكن مؤرخا آخر يعتقد أن هذا الأسقف قدم من غرب آسيا وبالتحديد من الرها التي كان لها دور كبير في انتشار أسطورة القديس توما .^(١٣)

و بعد عقدين من الزمان- وكانت السفارة الهندية السابقة ما تزال عالقة بالأذهان- انتشرت في الغرب الأوروبي قصة مؤداها أن حاكما آسيويا كبيرا يحكم مملكة مسيحية مترامية الأطراف قد وجه هزيمة كبيرة للمسلمين في الشرق ويدعي الكاهن يوحنا Prester John^(١٤)

وتحت أحداث عام ١١٤٦م كتب أوتو أسقف فريزيا في حوليته «تاريخ مدينتين» في الفصل الرابع من الكتاب السابع^(١٥) ما هو ترجمته :

و انه (اي أسقف جبله) يروي أيضاً أنه منذ سنين كثيرة مضت ، فان ملكا و كاهنا يدعي يوحنا الذي يعيش فيما وراء فارس و أرمينيا في الشرق البعيد (القصي) مع كل شعبه يعتقدون المسيحية ، و لكنه نسطوري و انه (اي هذا الملك) قد شن حرباً ضد الآخرين ملكي فارس و ميديا الذي يدعي ساميرادي^(١٦) Samiardi ، ودمر اكباتانا Ekbatana التي تم الاشارة اليها من قبل. وعندما تقابل معه الملكان المذكوران بجيش مكون من الفرس والميديين والآشوريين (١٢) Assyrians فإن المعركة استمرت ثلاثة أيام، لأن كلا الفريقين فضل الموت على الهروب من الميدان. و اخيراً فإن يوحنا Presbyter Johannes- كما هم معتادون أن يلقبوه- أجبر الفرس على الفرار بعد مذبحه بشعة توجت بانتصاره النهائي (عليهم).

وقال أيضاً (أي أسقف جبله) انه بعد هذا الانتصار فإن يوحنا السابق الذكر قد نقل جيشه لمساعدة كنيسة بيت المقدس ، ولكنه عندما وصل إلى نهر دجلة فإنه لم يستطع نقل جيشه عبر ذلك النهر بأية وسيلة ، ومن ثم فإنه تراجع ناحية الشمال حيث كان قد علم بأن هذا النهر متجمد بسبب برد الشتاء. وعندما مكث هناك عدة سنوات بدون أن تتحقق أمنيته القلبية، وفقد كثيراً من جنوده الذين لم يتعودوا على هذا المناخ غير المألوف لهم، فإنه أجبر على الرجوع من حيث أتى .

ويقال أنه (أي الكاهن يوحنا) منحدر من سلالة ماجي Magi الذي ورد ذكره في الإنجيل، وأنه يحكم نفس الشعب الذي كان يحكمه (ماجي) ويتمتع بالمجد والرفاهية التي تجعل صولجانه من الزمرد النقي. ومقتنيا خطي أسلافه الذين اعتنقوا الدين المسيحي من المهد فإنه كان يشوي أن يذهب إلى بيت المقدس، ولكنه منع من ذلك لنفس السبب المشار إليه سابقاً، وهذا ما يرويه الناس وكفى!

ويجمع من تناول أسطورة الكاهن يوحنا بالنقد والتحليل على أن النص السابق ترجمته هو أقدم نص في الحوليات اللاتينية يذكر «الكاهن يوحنا» بالاسم.^(١٧) و هيو Heugh أسقف جبله قد تقابل مع أوتو الفريزي في مدينة Viterbo الإيطالية عام ١١٤٥م حيث كان-كما روي الأخير- في مهمة للغرب الأوربي لطلب نجدة الشرق اللاتيني بعد عام واحد من سقوط إمارة الرها^(١٨) في يد عماد الدين زنكي، والذي ترتب علي سقوطها انفصال الصليبيين عن المناطق المسيحية في وسط آسيا، وعن المناطق الغنية خارج بلاد الشام، هذا من ناحية.

ومن الناحية الأخرى فإن هناك اتفاقاً عاماً علي أنه وإن كانت هذه الرواية غير صحيحة تاريخياً إلا أنها إنعكاس لأحداث تاريخية وقعت بالفعل في وسط آسيا وشرقها في تلك الفترة وإن اختلف الأشخاص الذين قاموا بها ودوافعهم من وراء ذلك.

فإذا صح نسبة هذه الرواية لأسقف جبله الصليبي فإن الذي قام بدور ما يسمي بالكاهن يوحنا هو في الواقع يي لوتاشي-Yeh Lu Tashih حاكم القره خطاي، وأن المهزوم Samairdi أو Saniardes أي Sanjar سنجر السلجوقي الذي هزم هو وأخوه مسعود عام ١١٤١م وتلا ذلك هزيمة الخوارزميين علي يد خلفاء يي لوتاشي في العام التالي مباشرة.^(١٩)

وليس صحيحاً أن يي لوتاشي كان مسيحياً نسطورياً، إذ أنه اتخذ الديانة البوذية ديانة رسمية لدولته. وبالرغم من ذلك فقد وجدت المسيحية مجالاً للانتشار بفضل المبشرين النساطرة.^(٢٠) فقد كتب مصدر صيني معاصر عنه أنه «في العام التالي (١١٢١) وفي الشهر الثاني وفي يوم كي يو Kia wu فإن تي شي بعد أن ذبح ثور أسوداً وحصاناً أبيضاً للسماء والأرض ولأسلافه فإنه رتب قواته وانطلق بها إلى الشرق»^(٢١) وهذه المعتقدات البوذية المحضة لهذا الحاكم تنفي اعتناقه للمسيحية.

ومسألة أن تجمد نهر دجلة كانت حاجزاً لعبور قوات ما يسمي بالكاهن يوحنا تناقضها الأدلة الجغرافية والتاريخية التي تؤكد اعتدال مناخ هذه البقعة وندرة تجمد هذا النهر، وحتى في حالة تجمده فإن ذلك لا يستغرق عدة سنوات كما ذكر أوتو الفريزي نقلاً عن أسقف جبله.

كما أن هذا النهر لم يكن حائلا دون عبور العديد من القوات و الغزاة عليه منذ اقدم العصور وحتى تاريخ هذه الرواية .

ويعلق المؤرخ الألماني فردريش زارنكاFriedrich Zarncke علي عبارة « فلان الكاهن يوحنا كماهم معتادون أن يلقبوه » الواردة في رواية أوتو الفريزي ، أن هذا الاسم كان شائع الاستخدام من قبل و ارتبط كاسم مسيحي شرقي مع أسطورة مملكة القديس توما في الهند.^(٢٢) و يري باكنجهام Beckingham أن أسقف جبلة عندما روي هذه القصة لمركز صنع القرار في الغرب الأوربي كان يبغى تحذيرهم من الاعتماد علي ايقمعونة منتظرة من شرق دجلة لأنه ليس في استطاعة الملك المسيحي شرقه الوصول إلى غرب آسيا لظروف جغرافية.^(٢٣)

والرأي عندي أن باكنجهام يحمل النص أكثر مما يحتمل لأن أسقف جبلة يربط بين هزيمة حاكمين مسلمين علي يد حاكم مسيحي علي حد قوله، وأن الأخير تحرك بقواته تجاه القدس و بالطبع ليس من أجل الموضوع الذي سافر له أسقف جبلة للغرب الأوربي و هو نجدة الصليبيين وتدعيم صفوفهم بقوات جديدة في مواجهة الزنكيين بعد سقوط إمارة الرها في أيديهم. وهذا يتضح من خلع لقب كاهن مسيحي علي ملك بوذي، لأن الراوي كان يحلو له أن يفتح سامعيه بأن كل من يحارب المسلمين فهو مسيحي و من أجل الأراضي المقدسة.

وأن نشر هذه الرواية في الوقت الذي صدم فيه الغرب بسقوط الرها كان لبث الأمل في نفوس السلطتين الدينية و العلمانية في الغرب الأوربي وفي الشرق اللاتيني علي حد سواء في إمكانية هزيمة المسلمين بسهولة و امدادات حربية يمكن توقعها من خلف ظهر المسلمين شرقي دجلة .

ومهما يكن من أمر ، فإنه بعد عشرين عاما من هذه الرواية وفي حوالي عام ١١٦٥م وصل أوروبا خطاب من يسمى بالكاهن يوحنا Prester John قيل أنه أرسله في الأصل للإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنين (١١٤٣-١١٨٠) الذي أرسله بدوره للإمبراطور فردريك الأول بارباروسا (١١٥٢-١١٨٩م) و حوكه الأخير للبابا الكسندر الثالث (١١٥٩-١١٨١م). و هذا الخطاب-الذي ذاعت شهرته في أوروبا للدرجة التي وجد منه حوالي مائة نسخة مخطوطة ومحفوطة لأن المكتبات والمتاحف الكبرى في الغرب الأوربي ، و منها عشرة نسخ بمكتبة المتحف البريطاني وحدها^(٢٤)-كان و ما يزال مشار جدل بين المؤرخين، ولم يتفقوا حول شخصية الراسل و مكانه ودوافعه من وراء ذلك و اللغة الأصلية المكتوب بها، و ذلك لأن أيا من

المصادر المعاصرة حينئذ لا يشير الي محتويات هذا الخطاب العجيب سوي إشارة واحدة من المؤرخ البريكوس الذي بدأ في كتابة حويلته عام ١٢٣٢م. أي بعد سبعين عاما من وصول هذا الخطاب المزعوم لأوروبا، فضلا عن أن هذا المؤرخ مشكوك في أمانته في النقل. (٢٥).

ولكن هناك خطاب بابوي مؤرخ في ٢٢ أو ٢٧ سبتمبر من رياتو بالبندقية يعتبره المؤرخون ردا علي خطاب الكاهن المزعوم. وهذا الخطاب البابوي والسفارة التي حملته للشرق وردت أخبارهما في العديد من الحوليات اللاتينية حينئذ. (٢٦)

ويتفق جميع من تناولوا هذا الخطاب بالدراسة علي انه مزيج من الأسطورة والخرافات فهووجه من «يوحنا الكاهن: ملك الملوك، بقوة الرب وقوة ربنا المسيح عيسي وسيد الأسياء، إلي صديقه إيمانويل أمير القسطنطينية». ويدعوه لزيارة مملكته كي يهديه ما يقدر علي حمله من ذهب وفضة وأحجار نفيسة. ويقول الخطاب أن كاتبه يحكم كل المخلوقات التي تعيش تحت السماء، وأن سبعين ملكا هم من توابعه وأن ضيوف مائدته مائة وثلاثين ألفا يوميا، ولا يوجد لص أو محتاج أو شرير في مملكته، وأن رؤساء أساقفة كنائس القديس توما وسمرقند وسوسة يرافقونه غدوة وعشية، وأن عنده أنهارا لا تجف من العسل واللبن، ولا يضارعه ملك علي وجه البسيطة في ملكية المعادن النفيسة، وأن أقاليمه وأرضه وجيوشه أكثر من أعداد نجوم السماء...!! (٢٧) ويهنا هنا أن كاتب هذه الرسالة يقول علي لسان ما يسمى بالكاهن يوحنا «أنه مسيحي غيور، وجامي المسيحيين في إمبراطوريته، وأنه يمدم بالأعطيات وأنه قرر زيارة المقدس للرب بجيش جرار طبقا لمجد الرب في الأعالي كي يذل أعداء الصليب ويشتت شملهم» (٢٨)

ويعتقد المؤرخ ألكسندر فازيلييف أن كاتب هذا الخطاب إغريقي الأصل وأنه كتبه باللغة اليونانية ثم أعيدت ترجمته إلي اللغة اللاتينية (٢٩). ولكن مالكولم ليتس Malcolm Letts أثبت أن العجائب والأساطير التي وردت بهذا الخطاب مستمدة من الأدب اللاتيني متمثلا في كتابات بليني و سولينوس وإيسيدور والقديس أغسطين (٣٠)، ويؤيده في ذلك سليساريف في أطروحته للدكتوراة عن «الكاهن يوحنا: خطابه وأسطورته» التي قدمها لجامعة مينسوتا عام ١٩٥٩م. (٣١)

وهناك اتجاه عام أن هذا الخطاب العجيب ربما يكون قد كتبه أحد المثقفين الغربيين علي لسان الكاهن يوحنا، وأن كاتبه له اطلاع واسع علي الأدبين اللاتيني واليوناني علي حد

سواء ، وله خيال خصب ومعرفة عميقة بالأوضاع السياسية السائدة آنئذ في الغرب الأوربي ، وذلك كي يلفت أنظار قادة أوروبا إلى خطورة التردى فى الخلافات السياسية والعقائدية ، وليقدم لهم أملا جديدا في وجود مملكة مسيحية قوية خلف نهر دجلة لمساعدتهم ضد أعدائهم المسلمين ، خاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٨) التي باركتها وشجعها ، البابوية ، وقام بها اثنان من ملوك الغرب الأوربي. (٣٢) ولهذا فإن هذا الخطاب تعبيري عن العقلية الشعبية الأوروبية التي كانت تفرز في أوقات الأزمات من الأساطير والخرافات ما يعتبر تعويضاً عن الإحباط الجماعي .

والمهم أنه في سبتمبر عام ١١٧٧ وبعد أن فرغ البابا ألكسندر الثالث من حروبه ومشاكله مع الإمبراطور فريدرىك بارباروسا ، فإنه كتب خطابا لما يسمى بالكاهن يوحنا وأعطاه لمبعوثه وطبيبه الخاص «فيليب» لكي يقوم الأخير بتسليمه لهذا الملك . ويفهم من هذا الخطاب أن فيليب هذا أرسل للشرق في هذه المهمة كمبعوث بابوي. ويبدأ البابا بالفقرة المعتادة عن سمو كنيسة روما. ثم يستطرد البابا للمرسل إليه أنه سمع كثيرا أن الملك يوحنا يرغب في اعتناق المذهب الكاثوليكي «الذي ينجو معتنقه من الأثام» . وأنه يريد منه حسن استقبال المبعوث البابوي الذي أوفد لمعرفة تفاصيل أكثر عن هذا الأمر ، وعلي الملك يوحنا أن يرسل مبعوثين من قبله. وفي نهاية رسالته ، فإن البابا يذكر الكاهن يوحنا أنه سيستمع لطلباته لو أنه أظهر قدرا من التواضع في الحديث عن ثرواته وسطوته ونفوذه. (٣٣) والجملة الأخيرة في خطاب البابا تدل علي عدم تصديق الأخير للمبالغات الواردة في الخطاب المزعوم إرساله من يسمي بالكاهن يوحنا.

ويعتقد البعض أنه ربما نزل فيليب في الأراضي المقدسة كي يخترقها إلى الشرق حيث مملكة الكاهن يوحنا بعد برج بابل كما كان يعتقد آنذاك ، وأنه ربما تقابل مع الرهبان النساطرة-في آسيا الصغرى- الذين أحاطوه علما بصعوبات وصوله إلى الهند. ويعتقد البعض الآخر أن كلمة Indians الواردة في خطاب البابا للكاهن يوحنا علي أنه ملك الهند King of Indians ربما كانت تعني أيضا مملكة جورجيا المسيحية أو النوبة أو الحبشة وأن يكون المبعوث البابوي قد ذهب لأحد هذه المناطق ولقي حتفه بها . (٣٤) ولكن هذه مجرد افتراضات ، لأنه لقي حتفه حيثما ذهب ولم يترك أثرا ماديا عن وجهته ، وكل ما نعرفه عن هذه البعثة البابوية هو هذا الخطاب الذي ورد في بعض الحوليات اللاتينية المعاصرة حينئذ .

ولم تنته أسطورة الكاهن يوحنا عند هذا الحد، بل استمرت حبة في أذهان الغرب الأوروبي باعتبارها نوعاً من الإبداع الشعبي الذي عبر عن رغبات وأطماع المجتمع الكاثوليكي في ذلك العصر.

وفي الربع الأخير من القرن الثاني عشر استطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد الجبهة الإسلامية والاستيلاء على كثير من القلاع والموانئ الاستراتيجية للصليبيين، وأهم من ذلك كله استرداد مدينة بيت المقدس على أثر هزيمة كاسحة للصليبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧م. ومن ثم نجحت البابوية في حشد أكبر قوة عسكرية أوربية ضد المسلمين بقيادة امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملكى فرنسا والمجترات فيما سمي بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م). ولكن الأول غرق في أحد أنهار آسيا الصغرى وتشتت قواته على اثر ذلك، والثاني انسحب بقواته راجعا لبلاده بعد خلافاته مع ريتشارد الأول، وكل ما كان في استطاعة الملك الإنجليزي هو وقف المد الإسلامي لتقويض بقية قواعد الصليبيين في السواحل الشامية فضلا عن الاستيلاء على بعض المدن والحصون. وهكذا فشلت هذه الحملة في إعادة الاستيلاء على المدينة المقدسة لحوزة الصليبيين.

ودعت البابوية إلى حملة أخرى يطلق عليها الصليبية الرابعة. ولكن البنادقة وقادة هذه الحملة وجدوا أن مكاسبهم الاقتصادية في القسطنطينية أكثر كثيرا منها في الأراضي المقدسة وأقل خطرا. ولهذا فإن قادة هذه الحملة عام ١٢٠٤ قد أضافوا رصيذا جديدا للحماسة الأوربية في العصور الوسطى، لأن إستيلاءهم على القسطنطينية لم يحقق الهدف الأساسي والاستراتيجي وهو التغلغل من القسطنطينية إلى الأراضي المقدسة.

وانشغلت البابوية في مواجهة مسلحة تحت شعار الصليب مع المنشقين (الالبيجنسيين) في جنوب فرنسا، وفي جمع شمل الأوربيين الذين صدمتهم مسألة انحراف الحملة الرابعة عن أهدافها. وفي مجمع اللاتيران عام ١٢١٥ استطاع البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) الحصول على موافقة كثير من قادة الغرب الأوربي لتمويل وإرسال حملة صليبية بعد ذلك بعامين، ولكن وفاته عام ١٢١٦ أجلت ذلك إلى ١٢١٨م فيما عرف بالحملة الصليبية الخامسة التي أوكل أمر قيادتها إلى جان دي برين : الوصي على مملكة بيت المقدس الإسمية في عكا وللمندوب البابوي بلاجيوس.

وقبيل تحرك هذه الحملة إلى الشرق فإن جاك دي فيتري - أسقف عكا وأحد الذين يقع على عاتقهم الدعوة والتبشير بهذه الحملة والمشاركة في قيادتها وفشلها - كتب خطابا للغرب

الأوروبي عام ١٢١٧م أشار فيه إلي أن «الكاهن يوحنا والعديد من الملوك المسيحيين الذين يعيشون في الشرق قد سمعوا باقتراب مجيئ الحملة من الغرب وأنهم يستعدون لمساعدة القادمين لنصرة المسيح ضد المسلمين»^(٣٥) وسواء سمع جاك دي فيتري بهذه الخرافات من الرهبان النساطرة أو من غيرهم أو قام هو ومعاونوه بتزييف الحقائق، فالمقصود هنا هو إثارة الحماسة بين الأوروبيين الرافضين الحضور للأراضي المقدسة فضلا عن الصليبيين القابعين في بلاد الشام لمساعدة إخوانهم الأوروبيين الذين كانوا قد اتخذوا مصر هدفا لمحلتهم .

وليس هذا فقط بل انتشرت الشائعات بين صفوف الحملة الخامسة- قبيل سقوط مدينة دمياط في أيديهم وبعدها- عن انتصارات لملوك مسيحيين في الشرق والجنوب علي المسلمين ، وأن بعضهم قادم لاسترداد بيت المقدس من الآخرين. وأشارت واحدة من هذه الشائعات إلي أن ملك الحبشة المسيحي يستعد للانضمام لجانب الصليبيين ضد «أعداء الدين» وأنه بالفعل قد استولي علي مدينة مكة^(٣٦) (المكرمة) ، ولم يتوقف الأمر علي إطلاق الشائعات المقصودة بل تعداه لإرسال خطابات للغرب الأوروبي بمعلومات لا أساس لها من الصحة.

فها هو خطاب كتبه بلا جيوس للبابا هنريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٩) وتسلمه الأخير في مارس عام ١٢٢١م ، فحواه أن الملك داوود King David قد حقق انتصارات كبيرة علي المسلمين ، وأن الرب أرسله ليقضي علي «الكفرة أعداء الدين» ويسترد المدينة المقدسة . ولهذا فإن البابا أرسل خطابا في ١٣ مارس لرئيس أساقفه تريير Trier ولغيره من رجال الدين ليزف لهم الأنباء السارة التي أرسلها له مندوبيه في الشرق . وتقول سطور هذه الرسالة:

إن الرب قد بدأ يحكم في قضيته بصورة جلية لأنه مدرك للألام التي يعاني منها شعبه كل يوم وتوسلات الذين يدعونه. وكما تلاحظ فإن أخانا المبجل بلا جيوس؛ أسقف البانو Albano ومندوب الكرسي البابوي (في الحملة الصليبية الخامسة) قد أبلغنا أن الملك داوود (ديفيد) الذي يسمى عادة بالكاهن يوحنا Prester John ملك كاثوليكي يخشي الرب- قد اقتحم فارس بجيش جرار وهزم سلطانها في معركة ضارية وأنه توغل في مملكته مدة مسير عشرين يوما واحتلها واستولي هناك علي كثير من المدن والقلاع. وأن جيشه علي مسافة مسيرة عشرة أيام فقط من بغداد وهي المدينة الكبيرة والمشهورة والمكان الخاص بأسقفهم ورئيس كهنتهم الذي يلقبه «المسلمون Saracens بالخليفة» . والخوف من هذه الأحداث جعل سلطان حلب- وهو شقيق سلطان دمشق والقاهرة- يسحب جيوشه - والتي كان يعدها لمهاجمة الجيش المسيحي (الصليبي) في دمياط- ويوجهها ضد الملك (يوحنا) وفضلا عن ذلك، فإن مندوبنا قد أرسل رسلا إلي جورجيا- وهم رجال كاثوليكيين ولهم قوة حربية ضخمة- يسألهم

ويلتمس منهم أن يشعلوا الحرب مع المسلمين من ناحيتهم. ومن أجل ذلك فنحن نأمل أنه لو حصل جيشنا في دمياط على المساعدة التي يتوقعها هذا الصنف، فإنه سيكون بمساعدة الرب من السهل احتلال أرض مصر بينما قوات المسلمين التي تم تجميعها من كل الجهات للدفاع عنها (أي عن مصر) ستكون مشتتة للدفاع عن حدود بلادهم (ضد ملك جورجيا من الشمال والكاهن يوحنا من الشرق) (٣٧)

ويكرر البابا في خطاب آخر - ويتفصيل - كيف أن الملك دارود يقود جيشا من ٤٠٠ ألف محارب من بينهم ١٣٢ ألف فارس مسيحي، وكيف أن قواته قد قوضت إقليم فارس، وأن سقوط بغداد متوقع في القريب العاجل. (٣٨)

وهذه الخطابات البابوية والشائعات التي أطلقها بلاجيوس وذاك دي فيتري وغيرهما تعبير عما كان يدور في مخيلة الصليبيين - سواء هؤلاء الذين كانوا في الأراضي المقدسة آنذاك أو في أوروبا نفسها. ويرى البعض أن هذه الأنباء عن مجزة تأتي من الشرق لوضع المسلمين بين فكي الكماشة كانت أحد الأسباب التي جعلت المندوب البابوي يرفض عروض الأيوبيين المغرية نظير جلاء الصليبيين عن مصر ويتصرف بحماقة أودت بالحملة للفشل الذريع. (٣٩)

وإذا فرض أن بلاجيوس ومعاونيه صدقوا هذه الإشاعات التي أطلقها الرهبان النساطرة كي يضغطوا على الأمراء المسلمين في غرب آسيا ومصر لتحسين معاملتهم لأهل الذمة في بلادهم: (٤٠) فإن تصديق البابوية لها أمر يدل على المستوي الذي كان عليه الجهاز الإعلامي للبابوية خاصة ما يتعلق بأوضاع المسيحيين في الشرق. فلم تكن جورجيا الصغرى مملكة كاثوليكية، ولم يكن عندها جيش جرار ولم يكن بينها حدود مشتركة مع المسلمين في بلاد الشام، إذ أنها كانت أرثوذكسية تدين بالولاء لسلاجقة آسيا الصغرى ويفصلها عن سوريا السلاجقة ومملكة أرمينيا الصغرى.

ولا يتفق الباحث مع المؤرخين الغربيين الذين ألقوا مسئولية تغذية الصليبيين بالشرق بهذه النبوءات والأساطير على الرهبان النساطرة وحدهم؛ فالأعم الأغلب أن هؤلاء الأخيرين كانوا منها براء لأنه لم يكن لهم مصلحة فيها أو في رواجها. ويكفي أن مقرر بطريق النساطرة في كل آسيا كان في مدينة بغداد التي هي مقر الخلافة العباسية التي كانت تقود العالم الإسلامي ولو من الناحية الاسمية.

ثم أن المسلمين- خاصة في أيام العادل والكمال الأيوبيين- كانوا يعاملون أهل الذمة بصفة عامة باحترام وتقدير كاملين بصرف النظر عن أحداث فردية أو شخصية أو مؤقتة حدثت ضدهم هنا أو هناك. ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا يعاملونهم علي أنهم هراطقة !

ومن ثم فالرأي عندي أن الصليبيين أنفسهم كانوا وراء هذه التداعيات التلقائية التي تعبر عن الروح العدائية للغرب الكاثوليكي ضد العرب والمسلمين التي غشلت في تدبيح الأساطير والحكايات عن ملك مسيحي يأتي من الشرق ليساعدهم في استرداد المدينة المقدسة أو يتحالف معهم ضد المسلمين. وكما سبق ذكره فإن أسطورة الملك المسيحي الشرقي بدأت بعد سقوط الرها ، أي في وقت حاجة الصليبيين للنجدة، وتكررت بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة، وازدادت رواجاً أثناء فشل الحملة الخامسة في تحقيق مكاسب سريعة متوقعة علي المصريين. إذن هي محاولة ديناميكية مستمرة لتوحيد الصفوف في الغرب لاستعادة الأراضي المقدسة وللتغافل في الشرق.

ويتضح أيضا من هذه الخطابات أن الغرب الأوروبي كان يجهل تماما ما يحدث في الشرق ، فما تصوره علي أنه الكاهن يوحنا أو الملك داوود ليس إلا جنكيز خان، ومسألة هزيمته لسلطان فارس في معركة ضارية فهذا صحيح إذ أن قواته استطاعت في الفترة ما بين ١٢١٨ و ١٢٢٢ أن تحطم أهم المدن الإسلامية في وسط آسيا ، وتشتيت شمل الخوارزميين . ولكن إمبراطورية جنكيز خان لم تكن مسيحية أو إسلامية ولم يكن يعمل لحساب أحد، وكان يعمل لتكوين إمبراطورية عالمية يحكمها هو وأولاده في ظل الاعتقاد بأنه مفوض من السماء لحكم البشر. كما أن قوات جنكيز خان وخلفائه كانت وبالا على شرق أوروبا وشمالها مثلما كانت نقمة على العالم الإسلامي .

وعلى الرغم من هذا كله ، لم تتوقف تفاصيل الأسطورة عند هذا الحد، فقد وصلت للغرب الأوروبي بعد ذلك معلومات (عن طريق الأرمن) عن جنكيز خان أنه إمبراطور مسيحي ، ثم عدلت هذه الأخبار بالقول بزواجه من ابنة أو حفيدة الكاهن يوحنا . وحاول الغرب الأوروبي أن يسقط أحلامه في الكاهن يوحنا علي جنكيز خان وخلفائه للتحالف معهم ضد المسلمين أو لشغل الأخيرين عن مواجهة الصليبيين ، أو تنصير المغول للاستفادة بهم في حسم الصراع مع المسلمين . علي أية حال تطورت أسطورة الكاهن يوحنا مع تطور الأحداث والظروف والملابسات تبعا لتطور صلات وعلاقات الأوروبيين بالمغول وبقارة آسيا .^(٤١)

الهوامش

- 1- Lach,Donald :Asia in the Making of Europe .Vol.I :The Century of Discovery . Chicago , 1965,p.9.
- 2- Lockhart, L., "Persia as Seen by the West,"in A.J. Arberry (ed.):The Legacy of Persia. Oxford, 1953,pp. 334 ,35 .
- 3- Ibid, pp. 336 ,37.
- 4- Lach, op.cit .,pp . 16-20.
- 5- Rachewiltz , Igor de :Papal Envoys to the Great Khans .London, 1970, P. 21.
- 6- Lockhart, op .cit .,p. 338 .

٧- كان الاعتقاد- في العصور الوسطى المبكرة- بأن آسيا هي موقع الجنة الأرضية وأن أنهار الجانج وجيحون و النيل والفرات هي مصادر لينة عدن . وأن أناسا مقبدين بسلاسل حديدية يوجدون خارج حدود هذه الجنة. وفي الشرق الآسيوي يوجد أبناء يالوث وهم براهرة ذوو أشكال مخيفة سوف يخرجون في نهاية العالم ليقضوا على البشر ، وأن هؤلاء يعيشون في أرض يأجوج ومأجوج ، وأن الإسكندر الأكبر قد قام ببناء سور حديدي ونحاسي في معبر دارديل في القوقاز وشمال تفلنس ليمنع هؤلاء البراهرة من تدمير العالم المسيحي . ويوجد في القرآن الكريم.(سورة الكهف آيات ٨٢-٩٩) رواية عن هؤلاء القوم. وسري أن الأوروبيين عندما سمعوا بفظائع المغول ووحشتهم في تدمير المدن وذبح من فيهادون تفرقة فإتهم اعتقدوا أنهم من قبائل يأجوج ومأجوج وجاءوا ليدمروا العالم

عن مصادر وجذور أسطورة يأجوج ومأجوج والرؤية اليهودية والمسيحية والإسلامية لها انظر Andersen, R. :Alexande`s Gate ,Gog and Magog ,and the Inclosed Nations . Cambridge , 1932 ;

وعندما زار ابن بطوطة مدينة الزيتون الصنية حوالي عام ١٣٤٠م كتب يقول "وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوما فيما ذكر لي ويسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم ، لم أرَ بتلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رآه..." رحلة ابن بطوطة : طبعة بيروت.د.ت، ص. ٦٣٥.

- 8- Rachewiltz , op .cit ., p.26

- ٩- ماركو بولو: رحلات ماركو بولو ترجمتها للعربية عن الإنجليزية عبد العزيز جاويد. القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٠٠ .
Lach ,op . cit ., p . 25.
- 10- Lach , op . cit., pp. 25, 26; Slessarev , Vsevolod: Prester John :the Letter and the Legend . Minnesota , 1959 ;pp. 7-9 .
- 11- Slessarev , op.cit ., pp.10 , 11; Letts, Malcolm , Prester John: Sources and . Illustrations", in Notes and Queries , vol .188, 1945, pp179. 128.
- 12- Rachewiltz , op .cit.p .30.
- 13- Slessarev , op . cit., pp.23, 24 .
- 14- Lach , op . cit., p . 26; Rachewiltz , op . cit ., pp . 31-34.
- 15- Otto , Bishop of Freising :The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1146 A.D Trans. and Notes by Charles Christopher Mierow. Columbia University Press, 1928, pp.443, 444 .
- ١٦- وردت هذه الكلمة في مخطوطة أخرى لأوتو الفريزي علي أنها Saniardes ويعني أوتو بهسا الحاكم السلجوقي سنجر Sanjar
- Cf . Rachewiltz , op . cit ., p . 33.
- 17- Ullendorff, Edward ; C . F. Beckingham :The Hebrew Letters of Prester John. Oxford University Press , 1982,p. 1.
- ١٨- يقول أوتو الفريزي إنه قد سمع أسقف جبلة وهو يشكو بالدموع من الخطر الذي يحيق بالكنيسة الكاثوليكية وبالصليبيين في الشرق بعد سقوط الرها
- Cf. The Two Cities, p. 343.
- ١٩- لظروف كثيرة انهارت دولة الخطا في شمال بلاد الصين ١١٢٥ م . وقبيل سقوطها تحت أسرة كين الصينية فر أحد أمرائها وهو يي لوتا شي نحو الغرب يصحبه بعض رجاله المخلصين حيث استقروا في بلاد التركستان ، ووسعوا نفوذهم حتي وصلت حدود مملكتهم من صحراء جوبي إلي نهر سيحون ومن هضبة التبت إلي سيبيريا وتسمي بلقب غورخان أي ملك العالم ، ونقل عاصمته من بلاد بلاساغون إلي كاشغر علي حدود ممتلكات السلاجقة . وفي هذه الفترة كانت الدولة السلجوقية في طور نهائيتها وفاء ملوكهم العظام وسيطرة السلطان سنجر بن ملكشاه علي القسم الشرقي منها .
- ٢٠- أن قطب الدين محمد خوارزمشاه الذي يسعى للاستقلال عن السلاجقة قد دخل في معركة مع

حاكم الخطا ولكنه هزم واضطر أن يدفع له جزية كبيرة، ولكنه عرض عبده القرة خطاي علي السلاجقة للتخلص منهما معا أو من أحدهما. وفي عام ٥٣٦هـ / ١١٤١م اندلع بين لوتاشي في جيش ضخيم إلي ماوراءالنهر وأوقع هزيمة منكرة بالسلاجقة وأسر زوجة سنجر قرب سمرقند ، ويروي ابن الأثير أن عدد قتلي السلاجقة بلغ مائة ألف فارس ، وفي العام التالي استدار المنتصرون على الخوارزميين وهزمهم واستولوا على بعض أملاكهم وأجبروهم على دفع جزية كبيرة لهم . أنظر للمزيد من التفاصيل :

حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول (القاهرة ١٩٤٩)، ص ٥٤٥٠ . Slessarev,op. cit. p.28.

٢٠- حافظ حمدي، المرجع السابق ٥١ .

21- Si Liao, cf. E.Bretschneider (ed.&trans.) Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources (London,1910) vol. I, p.214.

22- Slessarev,op. cit. ,pp 29,30

23- Beckingham,C. F.,” The Achievment of Prester John“,An Inaugural Lecture at the SOAS. London,1966, pp.8-10

24- Ross, E. Denison,“Prester John and The Empire of Ethiopia”, in Newton,A.P. (ed.) Travel and Travellers of the Middle Ages” London 1930, p.179.

25- Beckingham , op . cit ., pp. 10 , 11 .

26- Loc .cit ., Letts,op .cit ., Notes and Queries , vol .188, 1945, p.179.

27- Slessarev, op. cit ., pp. 67-80; Ullendorff:The Hebrew Letters of Prester John , pp.38-72.

28- Ross,“Prester John “op. cit,p. 175, Slessarev,op. cit., p . 35.

29- Slessarev ,op. cit ., p.41.

30- Malcolm Letts, op. cit ., vol. 188, pp .146-248,266.

31- Slessarev : Prester John, the Letter and the Legend ,p.41.

32- Letts, op.cit .,pp.266,7; Rachewiltz : Papal Envoys ,pp.35,36.

33- Beckingham, op. cit.,pp.11 , 12; Rachewiltz, op .cit., pp.19,20.

34- Beckingham,op.cit ., pp . 12, 13; Ross,op. cit .,p.180;Rachewiltz, op. cit .,pp.12,13.

- 35- Rachewiltz: Papal Envoys to the Great Khans, pp. 37, 38.
- 36- Ibid , pp. 38, 39.
- 37- Southern, R.W. (trans.): Western Views of Islam in the Middle Ages. Harvard University Press , 1962, pp. 45, 46.
- 38- Ibid, p. 46.
- 39- Rachewiltz, op.cit . p. 39.
- 40- Ibid, p. 40.
- ٤١- للمزيد من التفاصيل انظر -فضلا عما سبق ذكره من مصادر ومراجع عن أسطورة الكاهن يوحنا- :
جوانفيل ، جان دي : حياة القديس لويس ورحلاته . ترجمة حسن حبشي القاهرة ، د.ت ، ماركو بولو :
رحلاته ، ترجمها إلي العربية عبد العزيز جاويد . القاهرة ١٩٧٧ ص ١٩٩-١٠٢ ،
Whitaker" An Historical Explanation of the Asiatic Myth of Prester John ١١٩-١٢١
"Asiatic Review , 42, 1952, pp. 74-79; Nowell , Charles E., "The Historical prester John
"Speculum , vol . 28, 1953 , pp. 4-35; Connell, C. W." The Western Views of the Or-
igin of the Tartars" The Journal of Medieval and Renaissance Studies, vol. 3, 1973, pp.
115-137; Beckingham, C. F., " The Quest for Prester John" "Bulletin, of the John Ry-
lands University Library 62 , Manchester , 1980, pp. 291 , 310 Rachewiltz Igor de:
Prester John and Europe's Discovery of East Asia Canberra , Australian National Uni-
versity Press, 1972.

الفصل الأول

الاتصالات بين المغول و أوروبا من عام ١٢٣٧ حتي عام ١٢٥٥م

العناصر

- ظهور المغول علي مسرح الأحداث .
- غزو المغول لجنوب روسيا في عامي ١٢٢٢-١٢٢٣ م.
- غزو روسيا ١٢٣٦-١٢٤٠ م.
- موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لروسيا.
- غزو بولندا ١٢٤٠-١٢٤١ م.
- غزو المجر ١٢٤١-١٢٤٢ م.
- موقف غرب أوروبا من الغزو المغولي لبولندا .
- السفارات المتبادلة بين البابوية و المغول في عهد إنوسنت الرابع :
- بعثة لورانس البرتغالي .
- بعثة يوحنا الكاريني
- بعثة آندريه لونجيجيمو الأولي .
- بعثة أسيلين اللومباردي .
- الاتصالات بين المغول و لويس التاسع.
- بعثة وليم روبروك للمغول ١٢٥٣-١٢٥٥
- الخاتمة .

ظهور المغول علي مسرح الأحداث :

أسهبت المصادر الشرقية والغربية علي حد سواء في الحديث عن غزوات المغول وتوسعاتهم شرقاً وغرباً في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي . واهتم فريق من المؤرخين المحدثين بتناول هذه الغزوات بالنقد والتحليل .^(١) ومن ثم يعني الباحث هنا ليس تكرار ما سبق دراسته ، ولكن وضع الخطوط العريضة للتوسع المغولي في أوربا كتمهيد ضروري لمعرفة جوانب القوة والضعف في رد الفعل الأوروبي تجاه المغول ولدراسة أبعاد الاتصالات السلمية بين الطرفين في النصف الأول للقرن الثالث عشر الميلادي .

نشأ المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي ، وهي صحراء قفراء مناخها قاري . واستطاع (تيموجين) - أحد قادة هذه القبائل الرعوية ، بما وهبته حياة الصحراء من قسوة وفراصة ، أن يوحد قبائل أقاليم آسيا الشرقية شمالي بلاد الصين تحت لوائه مستعينا بقبيلة ضد أخرى ، ومتحالفا مع القوى ضد الضعيف حتى تربع على عرشها واختير ملكا عليها سنة ١٢٠٦م وسمى نفسه جنكيز خان أي "إمبراطور كل البشر" .

وكانت عوامل الضعف والانحلال تنخر في الأقاليم الخصبة الغنية المجاورة لأمالك جنكيز خان ، ومن ثم عمل على الاستيلاء عليها . واستطاع المغول في الفترة من عام ١٢١١م حتى ١٢١٥م أن يخضع مملكة كين الصينية والاستيلاء على بكين ، وقبل ذلك وأثناء قضى على دولة الخطا المجاورة . وقد استفاد المغول من ثروات وكنوز المناطق المحتلة في تدعيم قوتهم الاقتصادية فضلا عن استعانتهم بخبرة الأسرى الصينيين في فنون الحصار والقتال والإمداد والتموين .

وكان الهدف من وراء ذلك كله السيطرة على الأملاك الواسعة للدولة الخوارزمية ، وسواء قتل حاكم مدينة أوترار الخوارزمي سفراء المغول أو جواسيسهم أو أبقى عليهم ، فإن المغول كان لديهم من المبررات لغزو الدولة الخوارزمية وغيرها من الدول والممالك في آسيا وأوربا ، وأهمها ما كانوا يعتقدونه من أن زعيمهم مفوض من السماء لحكم العالم شرقه وغربه . ومن ثم ، فإن أي إقليم لا يعلن خضوعه الكامل للمغول ويسلمهم جزءا من رجاله وخيوله ومحبصولاته يعتبر عدوا يستحق القتل والتدمير . ولا غرو أنه في غضون أربعة أعوام (١٢١٩-١٢٢٣م) اكتسحت قوات جنكيز خان الدولة الخوارزمية بعد أن قاد الهجوم بنفسه على أهم المعاقل والحصون ، ووزع أولاده وقواده لمحاصرة بقية المدن فيما وراء النهر وخوارزم وأذربيجان

وخراسان وغزنه وإخضاعها . ولم يتوقف المغول عن الوصول إلى بقية أطراف الدولة الخوارزمية .
فى فارس والعراق إلا بسبب عودة جنكيز خان لإخضاع بقية القبائل الصينية ووفاته سنة
١٢٢٧م .

غزو جنوب روسيا عامى ١٢٢٢ و ١٢٢٣م:

وصلت القوات المغولية إلى أذربيجان وشواطيء بحر قزوين الجنوبية أثناء مطاردة إثنيتين
من الفرق المغولية بقيادة سوبداي Subudey وجيبى أو شيبى Jebe لفلول قوات السلطان
جلال الدين خوارزم شاه (١٢١٩-١٢٣١) شمال مملكته سنة ١٢٢١م، ومن ثم استأذن قائدا
الفرقتين جنكيز خان فى التقدم شمالا إلى القوقاز لاستكشاف المناطق الغربية والشمالية (١) .

ويبدو أن الروس لم يعرفوا شيئا عن المغول قبل ذلك ، إذ أن حولىة "نوفوجارد " الروسية
تشير إليهم للمرة الأولى فى أحداث عام ١٢٢٣ بقولها : "وفى هذا الصام قدمت قبائل شير
معروفة لنا بسبب ذنوننا ، ولا أحد يعرف من هم ولا من أين أتوا ، ولا أحد يعرف لغتهم أو
جنسهم أو دينهم ، فأطلق عليهم تارتار Tartar مرة وتورمان Tourman (تركمان ؟) مرة
أخرى ، كما وصفوا مرة ثالثة بأنهم شعب البشناق Pecheng ، والرب وحده هو الذى يعلم
من هم ولكننا سمعنا أنهم استولوا على كشير من البلاد وذبحوا عددا هائلا وشردوا
آخرين وأن الرب الرحيم أراد تحطيم شعب الكومان الشرير من أبناء اسماعيل الذين أراقوا
دماء الكثيرين من المسيحيين ..."(٣) .

وهكذا ، نرى أن الانطباع الأول لدى الروس أن الرب أرسل هؤلاء الغزاة لتخليصهم من
قبائل الكومان الذين يعيشون فى شمال القوقاز والذين كانوا يغيرون على الأقاليم الروسية
باعتبارهم قبائل رعوية غير مستقرة (٤) واعتنقت قبائل كثيرة منها الإسلام بسبب الاحتكاك
مع المناطق الإسلامية المجاورة وبفضل التجار المسلمين.

ونقضى الحولىة فى سرد تفاصيل اكتساح القوات المغولية لمناطق روسيا التى يسكنها
العديد من القبائل التركمانية. كما توضح أن ملك الكومان قد أرسل سفراءه للاستنجاد ببقية
الأمراء الروس حتى لايلتهم المغول إماراتهم الواحدة تلو الأخرى ، وأن الأمراء الروس قتلوا
السفراء الذين طلبوا منهم التسليم . وانتهى الأمر بهزيمة ساحقة للقوات الروسية
والتركمانية المتحالفة على نهر كالكا Kalka فى ٣١ مايو ١٢٢٣م ، ونتج عن ذلك دمار
وتحطيم المناطق المحيطة بموقع المعركة وقتل معظم القوات المتحالفة وأسر الباقي ، ثم عاد
الغزاة عن طريق نهر الدنيبر من حيث أتوا (٥) .

ومن المدهش أن رواية ابن الأثير عما فعله التتار بقفجاق الروس تتفق في مضمونها مع حولية نوفوجارد مع اختلاف في بعض التفاصيل هنا. أو هناك. وربما يرجع هذا إلى أنهما استمدا معلوماتهما من تجار الرقيق الذين وجدوا في هرب الآلاف من أبناء القبائل التركمانية فرصة لجمعهم وحملهم إلى أسواق الشام حيث اهتم الأيوبيون بشرائهم وضمهم إلى جيوشهم . ويرجع ابن الأثير سبب الغزو المغولي إلى "أن بلاد القسفجاق كشيرة المراعى فى الشتاء والصيف" (٦).

والهم أن هذه الغارة الاستكشافية لم تكن غزوا منظما ، ومن ثم انسحب الغزاة ولم يعودوا إلا بعد أربعة عشر عاما لأن المغول توقفوا عن الغزو بوفاة جنكيزخان سنة ١٢٢٧م وما تبع ذلك من فترة استرخاء فى منغوليا .

وكان جنكيزخان ، قبيل وفاته، قد وزع أجزاء مملكته على أولاده الذكور من زوجته الأولى؛ وهم تولوى وجوشى وأوجوداى وجغطاي . وكانت المناطق الجديدة شمال بحر آرال من نصيب ابنه جوشى الذى توفى قبل والده ، ومن ثم منحت لباتو أكبر أبنائه . وفى اجتماع للقوريلتاي ، أى المجلس الأعلى الذى يضم أبناء جنكيزخان وأحفاده وقواده ، عام ١٢٣٥م فى قراقورم تمت الموافقة على تسيير الجيوش فى أربعة اتجاهات رئيسية :

أولا : ضد كوريا التى تمردت على المغول بعد خضوعها سنة ١٢٣١م.

ثانيا : ضد مملكة سونج فى جنوب الصين .

ثالثا : ضد العراق وسوريا ومنطقة بحر قزوين ، وسلاجقة آسيا الصغرى ومملكة أرمينيا الصغرى .

رابعا : ضد روسيا والغرب الأوربي . (٧)

غزو روسيا ١٢٣٦-١٢٤٠:

أصدر الخاقان أوجوداى (١٢٢٧-١٢٤١م) أمرا يلزم كل قواد المغول بإرسال فرقة حربية لمساعدة باتو فى حملاته فى روسيا وأوربا. ومن ثم انضم تحت لوائه مجموعة كبيرة من أمراء بيت جنكيزخان أشهرهم جويك Guyuk وقادان Kadan ابني أوجوداى ، ومونجوك Mongka ، ابن تولوى ، وبيدار Baidar وبيرى Buri ابن جغطاي وحفيده . وتم تعيين سويداى فيما يسمى اليوم أركان الحرب لأنه كان على علم وخبرة بميدان القتال من خلال تجربته فى حملته السابقة

على جنوب روسيا عامي ١٢٢٢-١٢٢٣م. وقيل إن جيش باتو كان يتألف من حوالى خمسين ألفا من المغول ، فضلا عن سبعين ألفا من عناصر التركمان الذين جندهم باتو لجيشه من المناطق التى احتلها فى جنوب روسيا عند بدء حملته (٨).

وكان على المغول أن يبدأوا بإخضاع مملكة البلغار ، التى كانت قابضة فى منطقة الحوض الأعلى لنهر الفولجا حتى جبال الأورال ، وذلك لتأمين خطوط الاتصال بين القوات المزمع تقدمها غربا وبين مركز الإمداد فى أقصى الشرق . وتشير حولية "نوفوجارد" فى عام ١٢٣٧ إلى أن «التتار الأشرار قد أتوا واستولوا على كل بلاد البلغار وأخذوا مدينتهم الكبيرة وذبحوا كل السكان ؛ رجالا ونساء وأطفالا» (٩) وهكذا استطاعت القوات المغولية توجيه ضربة مفاجئة لهذه المملكة تحولت على إثرها للتبعية المطلقة للغزاة . وتم بعد ذلك إخضاع قبائل الباشكير Bashkirs التى كانت تعيش فى منحدرات نهر الأورال . وفى نفس الوقت أرسلت فرقة مغولية بقيادة مانجيو إلى الحوض الأدنى لنهر الفولجا شمالى بحر قزوين حيث طاردت قبائل القفجاق (الكومان) وحاكمهم فى نهر الفولجا والغابات المحيطة ، كما أعدم قائد الكومان على الطريقة المغولية (١٠) ثم واصلت إحدى الفرق المغولية إخضاع القفجاق على حين فر الآلاف منهم بقيادة ملكهم كوتان Kutan إلى سهول المجر حيث منحوا حق الإقامة هناك . وكان تعقب المغول لهؤلاء الفارين وبالا على المجرىين بعد ذلك بقليل. (١١)

وفى نهاية عام ١٢٣٧م اتجه المغول غربا تجاه مدينة ريازان Riazan وأرسلوا لأميرها يورى إجورفيتش Iurii Igorvich إنذارا بتسليم عشر السكان وكل العتاد والخيل للمغول ؛ فضلا عن تدمير حصون المدينة. ولكن الأمير الروسي منع سفراء المغول من دخول مدينته وأبلغهم "أن كل شيء سيؤول إليهم بعد فنائهم جميعا" وهذا يعنى تفضيله الموت على الاستسلام للشروط المغولية . وأرسل يورى مبعوثيه إلى أمير مدينة فلاديمير القوي لنجدته ، ولكن الأخير رفض الذهاب إليه مفضلا ملاقاتة المغول بمفرده . والمهم أنه فى ديسمبر ١٢٣٧م دمرت القوات الغازية الإمارة ومدنها ؛ Kolomna, Riazan, Pransk, Murom وقتلوا كل من فيها حتى أنه "لم تبق عين مفتوحة تبكى الموتى" على حد تعبير حولية روسية معاصرة (١٢)

والأمر الذى يسترعى الانتباه أن المغول قد بدأوا عملياتهم فى شمال روسيا فى فصل الشتاء القارس الذى كان حائلا فيما بعد ضد قوات نابليون وهتلر من تحقيق الانتصار على الروس . ويرى المؤرخ الروسي جورج فيرنادسكى أن الجنود المغول قد تعودوا فى منغوليا على

البرد القارس وقسوة الظروف المناخية وأنهم كانوا يرتدون الفراء وجلود الحيوانات لكي تقيهم قسوة الطبيعة في هذه المنطقة ، وأن وسيلة الانتقال المغولية كانت الخيول القادمة من شرق آسيا حيث تعودت البرد والجليد ، وكانت تنبش بحوافرها الجليد الرخو للوصول إلى جذور النباتات التي كانت تتغذى عليها ، كما أن تجدد الأنهار والقنوات والبحيرات الكثيرة في شمال روسيا في فصل الشتاء كان يجعل عبور القوات المغولية عليها أمرا سهلا دون مشقة بناء القناطر أو الجسور في غير فصل الشتاء (١٣).

وبعد حصار استمر ستة أيام فقط استطاعت قوات سويداي الاستيلاء على مدينة فلاديمير الحصينة في ٨ فبراير ١٢٣٨م وحرقها بمن فيها ، حتى أن بقية السكان هربوا إلى كنيسة الأم المقدسة للاحتباء فيها ، ولكن المغول أشعلوا النار فيها لتحترق وهم داخلها. وكان حاكمها يورى الثانى قد هرب إلى الشمال للإعداد للمعركة القادمة في أعالي نهر الفولجا ولكن تقدم قوات المغول شمالا جعل اكتساح هذه التحصينات أمرا ميسورا في مارس ، كما تم قتل دوق فلاديمير . ولم تجدد قوات باتو وسويداي صعوبة خلال شهري فبراير ومارس في الاستيلاء على ما يجاورها من مدن :وهى موسكو (التي كانت مدينة صغيرة آنذاك) وسوزدال Suzdal ودميتروف Dmitrov وسوريف Yuriev وتيفير Tver وتسوزوك Torzhok وقتلوا ما استطاعوا قتله وشردوا وأسروا الباقين ولم يعد أمامهم من المدن القوية في شمال روسيا سوى مدينة نوفوجارد القوية (١٤).

وفى الوقت الوقت الذى كان فيه الغزاة على بعد خمسة وستين ميلا فقط من مدينة نوفوجارد ، وارتعدت فرائص سكانها خوفا من موت عاجل ، ولكن «تراجعت قوات باتو عن الشمال وانسحبت إلى الجنوب وبذلك أنقذت المدينة من المصير المحقق الذى لقيته بقية المدن الروسية التى واجهت المغول . وتعزو حولية نوفوجارد سبب هذا التوقف الفجائي للمغول إلى "بركة الرب وبركة كاتدرائية سانت صوفيا ودعوات وابتهالات رجال الدين المخلصين وأميرها التقى ورهبانها الأسوياء» (١٥) والتفسير الديني للأحداث ليس غريبا عن حولية كنسية في العصور الوسطى لأن ذات الحولية فسرت الغزو المغولى بأن الرب أراد تطهير المسيحيين من ذنوبهم فسلط عليهم التتار.

وهناك من المؤرخين من يرى إن دفء مارس وبداية فصل الربيع قد جعل الجليد يذوب وأن الأنهار والقنوات العديدة التى تصب في بحيرة إلمان Elman ، الواقعة جنوب نوفوجارد قد

فاضت وغطت الأرض الواقعة جنوب المدينة ومن ثم فقدت القوات المغولية ميزة سرعة الحركة على الجليد^(١٦).

والرأى عندى أن هذا وحده غير كاف لانسحاب القوات المغولية التى لم تكن تعوقها الأنهار أو الفيضانات ، لأنهم اكتسحوا الأراضى البولندية والمجرية بما فيها من أنهار وفيضانات فى أبريل ١٢٤١م ، أى فى وقت ذوبان الجليد ، كما أن المغول الذين لم يتأثروا فى زحفهم على شمال روسيا بقسوة البرد ونزول الجليد ، لم يكن دفء الربيع عائقا أمامهم ، إن لم يكن ميزة فى حد ذاته^(١٧).

ولهذا أعتقد أن القوات المغولية اتجهت إلى شمال روسيا لتأمين القوات فى الوسط ناحية كييف والزاحفة جنوبا ناحية المجر وذلك لقطع الإمدادات من الشمال . وأن هذا الهدف قد تحقق تماما بتحطيم كبريات المدن الروسية فى الشمال والقضاء الرعب واليأس فى قلوب سكان نوفوجارد للدرجة التى لا يستطيعون بها لنجدة مدن أخرى فى الجنوب تبعد عنها مئات الأميال، فى الوقت الذى يتوقعون أن يعيد المغول الكرة عليهم بين الحين والآخر . ولهذا وجد المغول أن هدفهم قد تحقق تماما دون مشقة الذهاب إلى نوفوجارد ولهذا انسحبوا جنوبا.

وأثناء تراجع المغول من الشمال إلى الجنوب اتخذوا طريقا غير الذى تقدموا منه قبل ذلك ودمروا المدن والمراعى التى مروا بها ، وصمدت أمامهم مدينة كوزليسك Kozelesk الصغيرة فى إقليم كالوجا Kaluga فترة من الوقت ، واستولى عليها المغول بعد أن قتلوا جميع من فيها ثم وصلوا إلى الخوض الأدنى لنهر الدون حيث استراحت القوات المغولية وجاءتهم إمدادات حربية جديدة من جراء الاستيلاء على خيول قبائل الكومان .

وفى عام ١٢٣٩م تمت عمليات حربية محدودة . إذ قامت قوة بقيادة مانجو بغزو قسم كبير من القوقاز شمال بحر قزوين. وفى الوقت نفسه أجبرت قوات باتو معظم قبائل القفجاق على الاعتراف بالسيادة المغولية، ومع ذلك فر حوالى أربعين ألفا منهم بقيادة ملكهم كوتيان إلى المجر حيث منحهم ملكها بيلا الرابع حق الاستقرار^(١٨) .

وفى عام ١٢٤٠م أعيد تنظيم القوات المغولية وتخطيط عملياتها على ضوء التجارب السابقة مع المدن الروسية وعلى ضوء المعلومات التى جمعها قواد المغول من حكام المدن التعيسة وأسراها الذين وقعوا فى أيدى الغزاة. وسقطت مدينتا Pereiaslav, Chernigov فى أيدى القوات المغولية فى صيف ذلك العام^(١٩). وبعد ذلك أرسل باتو سفراءه إلى مدينة

كيفية، التي كانت أهم المدن الروسية، للإنذار بالتسليم أو التدمير. وبعد أن قتل أمير كييف. السفراء المغول حاصر الغزاة المدينة من جميع الجهات حتى بات من المستحيل علي أي فرد الخروج منها أو الدخول إليها، لدرجة أن " ضجيج العربات وصهيل الخيول وصوت الآلات وأنفاس الآلاف المؤلفة من المحاصرين جعل من الصعب على السكان أن يسمع أحدهم صوت الآخر" (٢٠). وأسر أهل كييف أحد المغول الذي أخبرهم بأسماء قواد المغول وبأن باتوقد أمر بإحضار آلات الحصار التي نقتب جدران المدينة ليل نهار حتى أحدثت فيها فتحات دخل منها الغزاة، الذين رموا السكان المذعورين بالسهم والأقواس، وقتلوا معظمهم وفر الأحياء منهم إلى كنيسة المدينة التي سقطت جدرانها وسقفها من كثرة الزحام، واستولى المغول على كل المدينة يوم ٦ ديسمبر ١٢٤٠م بعد هروب أمراء المدينة وقادتها إلى المجر (٢١).

وسقوط مدينة كييف القوية صار الطريق مفتوحا عبر غاليسيا Galicia وبولندا إلى وسط أوروبا وغربها. وأنه بسقوطها أيضا سارع أمراء منطقة أوكرانيا وأدواقها بتقديم فروض الطاعة والولاء للسلادة الجدد وتعهدوا لهم بتقديم محاصيلاتهم غذاء لجيوشهم وخيولهم. وهكذا استطاعت القوات المغولية في غضون سنوات تعد غلى أصابع اليد الواحدة اكتساح مساحات جغرافية هائلة وإخضاع قبائل الباشكير والبلغار والقفجاق للسيادة المغولية، فضلا عن الاستيلاء على معظم المدن الروسية واعتراف الباقي بالولاء للمغول. ولا ريب أن تفكك الإمارات الروسية وعدم توحيدها أمام جحافل المغول، فضلا عن عدم وجود تحصينات قوية أو موانع طبيعية حاجزة أمام الغزاة، بالإضافة إلى الأثر النفسي السيء الذي نجم عن سرعة اكتساح المغول للمدن الروسية وذبح سكانها وأسره، كل هذا ألقى الرعب والفرع فى قلوب سكان المدن الأخرى حتى شكوا فى جدوى الصمود فاستسلموا لليأس.

أما العوامل التي أدت إلى النجاح السريع للمغول فهى كثيرة: إذ كان الغزاة يعملون فى تنسيق بارع وتحت قيادة خبيرة ويختارون الوقت المناسب للحصار أو الهجوم أو الانسحاب، مع تخطيط مدھش لتنظيم وسائل الإمداد والتموين والاتصال. وبطبيعة الحال كان سقوط مدينة فى أيديهم يضيف قوة جديدة لهم لأنهم كانوا يستخدمون الأسرى الأشداء فى حصار أو قتال بنى جلدتهم ويأخذون من الأسرى معلومات كاملة عن الضحايا القادمين، فضلا عن أنهم كانوا يستولون على ما يكفيهم من مؤن وعتاد. ولا شك فى أن قوة الجندى المغولى وشدة بأسه والفرق الشاسع بين العسكرية المغولية، التي تطورت وازدادت خبرة من جراء حصار وقتال

عشرات المدن والشعوب من الصين شرقًا حتى شمال روسيا غربًا، والعسكرية البدائية للقبائل الرعوية مثل الباشكير والبلغار والكومان والمدن الروسية المفككة، كان لها الدور الحاسم فى تحقيق هذه الإنتصارات السريعة.

موقف الغرب الأوربي من الغزو المغولى لروسيا

وفى خضم حوادث الاكتساح المغولى للمدن والأقاليم الروسية (١٢٣٦-١٢٤٠) وصلت أخبار كثيرة عن الغزو والغزاة إلى أوروبا سواء بحكم الموقع الجغرافى أو من التجار أو من فرار العديد من قادة المدن الروسية إلى المجر وبولندا. ولكن لم يتحرك أحد أو يأبه بمساعدة الروس، ربما لأن الأخيرين كانوا يدينون بالمسيحية الأرثوذكسية وكانوا بعد سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين عام ١٢٠٤م يعتبرون أن كنيستهم رائدة الأرثوذكسية فى العالم. وبالطبع نظر اللاتين للروس على أنهم هراطقة. وهذا يدل على عنصرية الكاثوليك الغربيين وعجزهم عن فهم حقيقة ودوافع الغزو المغولى إذ كانوا لا يتصورون بالطبع إمكانية وصول المغول بعد شهور قليلة من القضاء على آخر معادل الروس إلى بولندا والمجر ووسط أوروبا.

بل إن بعض القوى الأوربية اللاتينية اعتبرت أن الظروف الصعبة التى تمر بها الأقاليم الروسية فى مواجهة الاكتساح المغولى هى اللحظة المناسبة للهجوم على روسيا. ولهذا حاول الفرسان التيوتون وقبائل السويديين الاستفادة من مصائب الروس وانشغالهم وقاموا بمهاجمة المناطق الشمالية والشرقية عام ١٢٣٨م من خليج فنلندا حاملين السيف والصليب على اعتبار أن الروس الأرثوذكس مثل الوثنيين.

وفى يولييه ١٢٤٠م هاجم السويديون وحلفاؤهم مصب نهر نيفا Neva لقطع مسدنة نوفوجارد عن البحر البلطى مستغلين انشغال المدينة بالغزو المغولى. وتقدم حولية نوفوجارد تفصيلات هذا الغزو ودوافع الحقد لدى اللاتين من تبجيل الروس "للآباء المقدسين فى خلقدونيه" إشارة إلى أرثوذكسيتهم ولكن قوات المدينة الروسية شتت شمل الغزاة^(٢٣). ومن المستبعد ألا تكون أخبار الغزو المغولى لوسط آسيا وشمالها قد وصلت للغرب الأوربي عن طريق التجار البنادقة فى منطقة البحر الأسود والقسطنطينية أو عن طريق الصليبيين فى بلاد الشام.

ومهما يكن من أمر فإن أقدم وثيقة لاتينية عثر عليها حتى الآن عن المغول وتوسعاتهم وخططهم وأهدافهم هي تقرير جوليان المجرى ، وهو أحد الرهبان الدومينيكان الذين أرسلوا عام ١٢٣٧م إلى جنوب روسيا في بعثة تبشيرية لتنصير قبائل الكومان ولكنه رجع فور مقابلته لأحد سفراء المغول للأمرء الروس حيث أخبره الأخير أن "المغول عازمون على احتلال المانيا Alemania وأنهم يتوقعون وصول فرقة مغولية أخرى من إقليم فارس وأنهم قد أخضعوا خمسة عشر شعبا وأنهم يدمرون كل من يقابلهم" (٢٤) . ولهذا رجع جوليان لإبلاغ مليكه بيلا الرابع بما سمعه وراه ، وقد ذهب جوليان بنفسه للمقر البابوي لإبلاغ البابا بذلك راجيا أن يحفزه على القيام بشيء لإنقاذ العالم المسيحي من كارثة محققة (٢٥) .

وفضلا عن ذلك ، فإن جوليان المجرى قد حمل معه - في طريق عودته لبلاده رسالة شخصية من دوق مدينة سوزدال الروسية إلى بيلا الرابع يخبره فيها أن المغول « يتآمرون ليل نهار ضد المجر ، وأنهم قد خططوا لد توسعاتهم حتى إلى روما وما وراءها (٢٦) - كما أن حاكم المدينة الروسية قد أعطى جوليان الرسالة التي كان قد بعثها باتو القائد المغولي - إلى ملك المجر . وقد أورد جوليان - في تقريره - ترجمة لاتينية لهذه الرسالة ومنها :

إننى قد سمعت أنك قد أويت (قبائل) الكومان الخاضعين لنا تحت حمايتك ، وإننى آمرك بوقف إيوائهم وتجنب تحريضهم على معاداتنا . وإنه لمن السهل عليهم أن يهربوا لأنه لا منازل لهم وهم يعيشون في الخيام ، ولكنه ليس من السهل عليكم ذلك ، لأنكم تعيشون في منازل وتقيمون في مدن فكيف تستطيعون الهرب منا ؟ (٢٧) .

وقدم جوليان المجرى للغرب الأوربي - لأول مرة - معلومات وافية وصحيحة عن الجيش المغولي وتقسيماته وأسلحته ، واستخدام الأسرى في قتال بنى أوطانهم وخوف المغول من الحصون (٢٨) وغير ذلك من معلومات أكدها المبعوثون الرسميون للبابوية بعد ذلك بعقد من الزمان (٢٩) .

وهكذا فإن الملك المجرى قد أحيط علماً بخطط المغول ضد غرب أوروبا عامة وبلاده خاصة سواء من تقرير جوليان نفسه أو من رسالة دوق سوزدال له أو من إنذار القائد المغولي له . وعلى أقل تقدير فإن الملك المجرى قد أبلغ البابوية وبقية قادة غرب أوروبا بهذه الأخبار للاستعداد والتحوط هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن أخبار الاكتساح المغولي قد وصلت الغرب الأوربي أيضا عام ١٢٣٨م عن طريقين :

أولا : سفارة من طائفة الاسماعيلية^(٢٠) فى فارس أو بلاد الشام لبعض ملوك الغرب .
بغرض طلب معاونتهم ضد المغول .

ثانيا : التجار الأوربيون

وفى أحداث عام ١٢٣٨ يروى المؤرخ الإنجليزى المعاصر متى الباريسى^(٣١) ما ترجمته:

وفى هذا الوقت وصل سفراء خصوصيون من المسلمين Saracens^(٣٢) وبصفة أساسية بالنيابة عن شيخ الجبل الكبير إلى ملك فرنسا كى يخبروه أن جنسا غربيا من البشر الهمجيين قد ظهر فى الجبال الشمالية ، وأنه استولى على بقاع واسعة من الأراضى الغنية والمزدهمة بالشرق ، وأنه قد جرد منطقة هنغاريا الكبرى^(٣٣) من سكانها وأنهم (أى التتار) قد أرسلوا خطابات تهديد مع سفراء فى شكل كريد . وأن رئيسهم قد أعلن أنه مفوض من الرب لإخضاع الشعوب التى تتمرد ضده ... وأن رئيسهم رجل عدوانى شرير يسمى خان . وأن هؤلاء الأقوام يعيشون فى المناطق الشمالية إما فى جبال القوقاز أو فى المناطق المجاورة ، وأن اسمهم تارتار Tartars نسبة إلى نهر التار Tar . وأنهم كثيرون جدا ويعتقد أنهم أرسلوا كرواء للجنس البشرى . وعلى الرغم من توسعهم (للأمام) فى مناسبات كثيرة ، إلا أن شروهم وخطرهم هذا العام أكثر عنفا من ذى قبل .

وإن سكان جزرلاتند Gothland وفسريزيا Friesland - الذين يخشون هجومهم (أى التتار) ثم حضروا إلى ميناء يارموث Yarmouth فى إنجلترا كما هى عاداتهم فى موسم وفرة سمك الرنجة حيث قتلأ به سفنهم - ولهذا السبب ، فإن الرنجة هذا العام (١٢٣٨م) رخيصة جدا بسبب وفرتها حتى أن أربعين أو خمسين قطعة منها - رغم جودتها - كانت تباع بقطعة فضية واحدة ، حتى فى المناطق البعيدة قاما عن البحر .

وأن هؤلاء النبلاء : سفراء المسلمين الذين أتوا للملك الفرنسى قد أرسلوا نيابة عن كل شعب الشرق كى يخبروه بهذه الأمور وأنه (أى شيخ الجبل) قد طلب المصونة من شعوب الغرب (الأوربي) كى يكبح جماح التتار ، وكان (شيخ الجبل) قد أرسل أيضا سفيرا من طائفته إلى ملك إنجلترا كى يخبر عن هذه الأحداث ، ويقول لو أنهم (أى الإسماعيلية أو شعوب الشرق) لم يستطيعوا التصدى لهجمات هذا الشعب (التتارى) ، فإن أحدا لن يمنع تدميرهم لبلاد الغرب (الأوربي) طبقا لقول الشاعر : عندما تحرق النار منزل جارك دون أن تفعل شيئا لإنقاذه ، فإنها ستلتهم منزلك تباعا . ولهذا فإن شيخ الجبل قد طلب المساعدة

العاجلة والطارئة حتى يتمكن المسلمون والمسيحيون من مقاومة هجمات هذا الشعب (التتارى) .

ولكن أسقف ونشستر (Winchester) الذى كان موجودا حينئذ (عند الملك الإنجليزي) مرتديا علامة الصليب قاطع حديثه وأجاب هازلا : دعنا نترك هذه الكلاب (يقصد المغول والمسلمين) كى يفترس أحدهما الآخر حتى يهلكوا ويفنوا ، عندئذ نتحرك ضد أعداء المسيح لنُدحرهم وننظف وجه الأرض منهم وبذلك يخضع العالم للكنيسة الكاثوليكية . ويكون حينئذ راع واحد «أى البابا» لقطيع واحد «أى المسيحيين» .

ويوجد فى نص متى الباريسى ثلاثة أمور جديرة بالتعليق . أولها السفارة الإسماعيلية ، وثانيهما موقف الغرب الأوروبى من هذه السفارة لوصحت رواية متى الباريسى عنها . وأخيرا عدم مجيئ التجار لاستلام أسماك الرنجة من الموانئ الإنجليزية .

وبادئ ذى بدئ لم يرد ذكر هذه السفارة فى جميع المصادر الإسلامية من قريب أو بعيد وهى مصادر معنية بالأمر ، وربما بسبب موقف المصادر السنية من أخبار الحشاشين الخاصة . كما أن متى الباريسى لم يحدد أسماء السفراء ولا هويتهم ولا من أين جاؤا سوى أنهم سفراء "The Old Man of the Mountain" أى شيخ الجبل وهو لقب معروف للأوروبيين عن طائفة الإسماعيلية أو الحشاشين "Assassians" كما كانوا يلقبونهم . ولكن هذا لا يمنع القول أنهم اتصلوا بالغرب لأن تحركاتهم فى الشرق كانت تحاط بالسرية . كما أن المركز الرئيسى لهذه الطائفة فى قلعة «الموت» Alamut فى شمال فارس كان يتعرض لخطر مغولى محقق . فالجيوش المغولية قد اكتسحت التركستان وما وراء النهر فى الفترة من ١٢١٨ حتى ١٢٢٢م . وبعد ذلك أرسلت الجيوش لتعقب الخوارزميين الفارين فى شمال فارس . وفى عام ١٢٣١ دخلت القوات المغولية بقيادة جورماغان لإقليم أذربيجان وغزت جورجيا للمرة الثانية عام ١٢٣٦م وكذلك منطقة آسيا الصغرى . وبعد ذلك مباشرة كانت قوات أخرى بقيادة باتو تغزو جنوب روسيا وشمال القوقاز . ولهذا ظل الخطر المغولى المدمر يهدد إسماعيلية فارس من كل ناحية . ومن المنطق السليم أن طائفة الإسماعيلية كانت لها مصلحة فى التحالف مع الغرب الأوروبى طالما أنه لا فائدة ترجى من الشرق الإسلامى ، لأن رصيد هذه الطائفة من الكراهية لدى كل القوى الإسلامية فى المشرق كان كبيرا ، ولأن الإسماعيليين يعلمون تماما أنه لا الخلافة العباسية الضعيفة ولا الإمارات الأيوبية المتنازعة فى بلاد الشام والعراق يستطيعون

مد يد المساعدة لهم أو لغيرهم لأنه لم يجرؤ أحد منهم من قبل على القيام بنجدة الخوارزميين ولا أمهات المدن الإسلامية التي تعرضت للتدمير وتعرض أهلها للذبح والفناء .

ولهذا حاول سفراء الإسماعيلية اقناع الغربيين أن الدور سيحل عليهم ما لم يقدموا العون للشرق الإسلامي باعتباره منطقة فاصلة بين المغول وأوروبا .

وإن كنا لانعرف رد الفعل الفرنسى تجاه هذه الفارة ، إلا أنه من السهل استنتاجه . فالذكريات المريعة التي يحملها الغرب الأوروبى من «الحشاشين» من جراء محاولة اغتيال أو قتل بعض قادة الصليبيين فى الشرق ، تجعلهم لا يحملون إلا الكراهية والازدراء لهم^(٣٤) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن فكرة التحالف بين المسلمين والمسيحيين الكاثوليك فى غرب أوروبا لم تكن سهلة التحقيق بعد عدة قرون من الحروب والعداء منذ ظهور الإسلام ، تلك العداوة التي ازدادت اشتعالا منذ بداية المواجهة المسلحة بين الطرفين فى بلاد الشام فى نهاية القرن الحادى عشر فيما يعرف بالحركة الصليبية .

ولكن رد الفعل الإنجليزى كان حاسما ومعلنا على لسان أسقف ونشستر الذى قيل أنه كان بالأراضى المقدسة أثناء حملة فردريك الثانى عام ١٢٢٩م وهو رد يدل على الفرحه والتشفى فى المسلمين بقوله «دعنا نترك هذه الكلاب يفترس أحدهم الآخر» . وبطبيعة الحال هذه وجهة نظر قاصرة ، لأن المغول حطموا عدة ممالك مسيحية فى شرق أوروبا بعد ذلك بثلاثة أعوام . ولولا وفاة الخاقان المغولى أوجوداى عام ١٢٤١م ، وما نتج عنه من انسحاب مفاجئ للقوات المغولية من أوروبا لربما تغير وجه التاريخ . وعموما تغيرت هذه النظرة بعد قليل ، ليس للتحالف مع المسلمين ضد المغول ولكن للاتجاه العكسى تاما باعتبار أن المسلمين عدو مشترك للطرفين .

وأخيرا فإن متى الباريسى ببرر كساد تجارة سمك الرنجة فى الموانى الإنجليزية بعدم حضور تجار جوتلاند وفريزيا لنقله لأسواق الاستهلاك كما هى عادتهم ، وهذا بالقطع أضر باقتصاديات المدن الساحلية فى ذلك العام (١٢٣٨) . ويفسر فيرنادسكى Vernadsky هذا الأمر بوجود علاقات تجارية بمقتضى معاهدة عام ١١٩٥ م بين مدينة نوفوجارد الروسية (والتي كانت حلقة الوصل بين المدن الروسية الداخلية وبين الأقاليم الأوربية الساحلية) وجزيرة جوتلاند (فى البحر البلطى) وموانى فريزيا (الأراضى الواطئة الآن) لاستيراد الأسماك وبيع أخرى ، وإن تجار المناطق الأخيرة كانوا يقومون بدور الوسيط بين نوفوجارد والموانى الإنجليزية^(٣٥) .

ولكن عندما اكتسح المغول روسيا وكانوا غير بعيدين عن نوفوجارد نفسها ، فان حاكم المدينة الأخيرة جند كل سكانها القادرين على حمل السلاح للدفاع عن مدينتهم والسهر ليل نهار خلف الحصون وأمام الأسوار انتظارا للنكبة التى ستحل بهم ، لهذا لم يفكروا فى بنود معاهداتهم مع جوتولاند وفريزيا (٣٦) ، وفى نفس الوقت لم يكن البؤساء من سكان نوفوجارد وقتذاك فى حاجة لأكل السمك فى ذلك الوقت العصيب .

ولكن لهذا الحديث دلالة تشير الانتباه ، لأن قرارا أصدره الخاقان الأعظم فى الطرف الشرقى للكرة الأرضية بغزو روسيا وأوربا يصيب الشعب الإنجليزى - فى الطرف الغربى للعالم المعروف حينذاك - فى رزقه وقوته اليومى . وهذا أكبر اذار وإشارة تحذير للغرب الأوروبى كى يستعد لهذه الطامة الكبرى ، ولكن أحدا لم يستفد من هذه الإشارة مثلما لم يستفيدوا من تخذيرات جوليان المجرى وسفراء الإسماعيلية .

غزو بولندا : ١٢٤٠-١٢٤١ م .

لما كانت الاستراتيجية الثابتة لجنكيز خان وخلفائه من الأباطرة العظام هى إخضاع العالم بأسره للحكم المغولى ، فإنه بعد الانتهاء من إقليم روسيا فقد أصبح الطريق مفتوحا إلى بولندا غربا والمجر جنوبا . وكان هروب معظم أمراء غرب روسيا وحكامها لهاتين الدولتين ، فضلا عن إيواء ملك المجر للكومان الفارين أمام المغول وحاجة الأخيرين لمراع جديدة لخيولهم حافزا للقوات المغولية فى أوربا على المزيد من التوسع .

ويبدو أن هدف المغول من غزو بولندا كان لتأمين قواتهم الموجهة بقيادة بيدر Baidar وقادان Kadan لغزو بولندا بجيش لايزيد عن ثلاثين ألفا (٣٧) رغم المبالغات التى قيلت فى هذا الصدد (٣٨) . وقد انسحبت هذه الفرقة للحاق بالجيش الرئيسى الذى اتجه إلى المجر بمجرد تحطيم القوة العسكرية البولندية .

وقد ظهرت القوات المغولية فى بولندا (٣٩) فى أواخر عام ١٢٤٠ م ، ودمرت مقاطعة Lublin ولكنها تراجعت إلى غاليسيا الروسية ، ومرة ثانية عبرت هذه القوات نهر فيستولا Vistula المتجمد وعاثت فسادا فى مدينة ساندومير Sandomir ، ووصلوا إلى مسافة سبعة أميال من مدينة كراكوف Gracow ، وفى أثناء تراجعهم دمروا الكثير من القرى والأديرة وحملوا معهم الغنائم والأسرى . وفى طريق عودتهم فاجأهم أمر المدينة الأخيرة وأنقذ منهم كثيرا من الغنائم والأسرى ، ولكن المغول استداروا عليه وقتلوه وحطموا قواته (٤٠) .

وفى بداية عام ١٢٤١م انقسمت القوة المغولية الزاحفة على بولندا إلى جزئين : فرقة تحت قيادة بيدر الذى زحف إلى كراكوف ، والجزء الآخر تحت قيادة أخيه قادو إلى Sieradia Cu-javia , Lancitia وفى ١٨ مارس من ذات العام سحقت القوة المغولية بقيادة بيدر قوة بولندية فى Chmielnik وبعد ذلك وجد المغول مدينة كراكوف خالية من سكانها الذين هجروها (خشية الغزاة) ومن ثم سويت بالأرض .

وبعد ذلك تجمعت القوات المغولية وتقدمت غربا وعبرت نهر الأودر Oder ووصلت مدينة بريسلاو Breslau فى إقليم سيليزيا حيث تجمع سكانها فى قلعتها . ومن ثم حرق المغول المدينة ، ولكنهم تركوا حصار القلعة عندما علموا بأن القوات البولندية المؤلفة من عشرين ألفا تؤازرها قوات من الفرسان التيوتون الألمان وقوة من مورافيا تتجمع تحت قيادة هنرى الثانى دوق سيليزيا فى منطقة ليجنيتز Liegnitz لانتظارهم (٤١).

وقد ظهرت - فى هذه المعركة - العبقرية الحربية للمغول والمدمعة بالخبرة الصينية والتي صقلتها ممارسة القتال فى العديد من الميادين والأجواء وضد الكثير من الشعوب والقبائل . فقد استخدم المغول ما يشبه اليوم بالغازات السامة ، وذلك باشعال النيران فى الغابات المحيطة بميدان القتال ، واستخدام مداخل سامة وتوجيه كرات النفط المحترقة تجاه القوات المتحالفة . وظهرت كذلك براعة المغول فى تطويق الأعداء والالتفاف حولهم وغير ذلك من وسائل أحبطت البولنديين قبل بدء المعركة . ولاغرو أنه فى يوم ٩ أبريل عام ١٢٤١م حصدت القوات المغولية زهرة فرسان بولندا والتيوتون ومورافيا وعلى رأسهم هنرى الثانى دوق سيليزيا . وطبقا لرواية مؤرخ بولندى معاصر ، فإنه بعد انتهاء المعركة قطع المغول أذنا واحدة من كل جثث أعدائهم وملأوا بها تسعة أجولة كبيرة (٤٢) . وربما فعلوا ذلك لأنهم قوم بدائيون لا يعرفون القراءة والكتابة ، وأراد قواد هذه الفرقة تقديم الدليل على مهارتهم العسكرية إلى باتو قائد العمليات فى أوربا والموجود وقتذاك فى المجر ، فوجدوا أن هذه الطريقة البربرية خير وسيلة لإحصاء قتلى ضحاياهم !!

وبعد هذه الهزيمة الساحقة للقوات المتحالفة فى بولندا ، لم تجد القوة المغولية أدنى مقاومة فى بقية بولندا أو مورافيا ، وتم تدمير الإقليم الأخير . ولأن باتو كان قد أصدر أوامره لقواده فى بولندا للتحرك شرقا لملاقاته فى المجر ، فإن القوة المغولية التى كانت فى بولندا قد دمرت المدن الصغيرة والأديرة المجاورة لها فى إقليم بوهيميا (فى تشيكوسلوفاكيا السابقة) ، وهرب الناجون إلى الكهوف والغابات . ولم يكن هناك وقت يسمح للقوة المغولية بتدمير بوهيميا أو منازلة ملكها - رغم ادعاءات بعض المصادر التشيكية فى هذا المجال (٤٣).

غزو المجر : ١٢٤١-١٢٤٢م

كانت القوة المغولية الرئيسية تحت قيادة باتو وسويدانى فى طريقها عام ١٢٤٠ لغزو المجر وذلك بعد تحطيم قوة مدينة كييف الروسية ، وكان ملك المجر يتوقع هذا الغزو - للظروف التى سبق دراستها - ورغم ذلك كانت الحالة الداخلية للمجر وقتذاك لاتسمح لها بمواجهة هذا الغزو الضارى (٤٤).

حاول بيلا الرابع تحصين ممرات جبال الكارثيا التى تفصل بلاده عن جيرانه الروس وذلك لمنع تقدم القوات المغولية لبلاده . وعهد لقائد جيشه بحمايتها ، وأرسل كذلك لاستدعاء جميع النبلاء وكبار رجال الدين لمقابلته فى مدينة بودا Buda فى ١٧ فبراير ١٢٤١م ومعهم جبرشهم وأسلحتهم وعتادهم ، وكذلك استدعى كوتان - قائد الكومان - للمشول بين يديه بقواته . ولكن حدثت خلافات بين النبلاء ومليكيهم لرغبة الأخيرين فى الحصول على امتيازات اقطاعية حرّمهم منها والده أندرو الثانى (١٢٠٥-١٢٣٥م) ، وكذلك لرغبتهم فى طرد قبائل الكومان من المجر باعتبارهم سببا مباشرا للتهديدات المغولية للمجر . ولكن إذا كان الملك قد رفض شروط نبلائه فانه اعتقل قائد الكومان ، ولهذا عاثت قوات الأخير فى البلاد فسادا فى وقت الحاجة لجهودهم . بل واستطاع المغول بعد ذلك مباشرة استخدامهم ضد المجرىين . والمهم أنه فور علم ملك المجر باقتحام المغول دفاعاته فى ممرات الكارثيا فانه أرسل زوجته وأولاده وجزءا من ثرواته بصحبة رئيس الأساقفة إلى دوق النمسا (اوستريا) للاحتماء بقوته ولطلب نجده وعون بقية قوى الغرب الأوربي (٤٥).

ولكن القوات المغولية زحفت على المجر - فى تخطيط عسكري بارع يقوده الخبير سوبداى- من ثلاثة جهات : من ممرات الكارثيا فى الشمال ، ومن ناحية الشرق ومن بولندا فى الغرب . وبعد أن حقق المغول بعض الانتصارات الصغيرة ، أسروا عددا كبيرا من الكومان واستخدموهم فى قتال المجرىين . وحدث أن تقابلت فرقة مغولية بقيادة باتو مع القوات المجرية بقيادة ملك المجر وشقيقه يوم ١١ أبريل ١٢٤١ قربا من قرية موهى Mohi على نهر Saje حتى قبل أن تتجمع بقية القوات المغولية وكانت مذبحة مريعة للقوات المجرية ، قتل وأسر فيها جميع قادة المجر وخمسة وستين ألفا من قواتهم باستثناء ملكها الذى هرب متخفيا بمعجزة (٤٦). وهكذا انهارت مقاومة المجرىين بعد يومين فقط من انهيار قوة بولندا فى موقعة ليجنتز فى ٩ أبريل .

ودون الدخول فى تفاصيل بقية العمليات العسكرية المغولية فى المجر والبلقان ، يكفى القول أن قوة مغولية قد حطمت مدينة جران وإقليم ترانسلفانيا (المجريين) ووصلت على مقربة من فيينا ، بينما تتبععت فرقة أخرى الملك المجرى الهارب ناحية الجنوب الغربى من خلال كرواتيا (فى يوغسلافيا السابقة) إلى زغرب ، ثم إلى دالماشيا ، حتى هرب بيلا الرابع فى جزيرة تراو Trau (أمام سواحل ألبانيا الحالية) . وزحفت هذه الفرقة المغولية إلى Cattaro على البحر الأدرياتي وعاثت فى ألبانيا فسادا ، ثم انضمت لقوات باتو فى بلغاريا (٤٧) . ولم تجد هذه الفرقة ولاغيرها أية مقاومة . وفى مايو ١٢٤٢م انسحبت الفرق المغولية من المجر والبلقان بنفس السرعة والتنظيم التى دخلت بها هذه المناطق دون أن تجد فى طريقها أحدا يقاومها ، وعسكرت فى جنوب روسيا فى منتصف ذلك العام على الضفاف الجنوبية لنهر الفولجا .

ويتفق جميع من تناولوا الغزو المغولى لأوربا بالدراسة أن وفاة الخاقان المغولى أو جوداى فى ديسمبر عام ١٢٤١م ، ووصول الخبر لقادة المغول فى وسط أوروبا فى ربيع ١٢٤٢ هو السبب الرئيسى للانسحاب باعتبار أن باتو - قائد الجيش - كان أفضل المرشحين لهذا المنصب ، فهو أكبر أحفاد جنكيز خان ، وأكثرهم تحقيقا للانتصارات. ولهذا سحب قواته من وسط أوربا إلى جنوب روسيا ليشارك هو وبقية أحفاد جنكيزخان فى القوريلتساي الذى سيختار الخاقان الجديد وبذلك يكون قريبا من مركز صنع القرار فى قراقورم .

وهناك وجهة نظر أخرى مفادها أنه حدثت خلافات شخصية بين باتو من ناحية وبين جويك ابن الخاقان (المتوفى) وبيورى حفيد جغتاي من ناحية أخرى أثناء حصار كييف فى ديسمبر ١٢٤٠م ، ورجوع الأخيرين حانقين عليه فوراً إلى قراقورم . وعندما علم باتو بوفاة الخاقان فإنه اضطر للانسحاب إلى جنوب روسيا خشية وصول أحدهما للمنصب الخاقانى (وهذا ما حدث فعلاً بتولى جويك لهذا المنصب عام ١٢٤٦م) وقد يمنع عنه الإمدادات الحربية من الشرق وهو فى وسط أوربا (٤٨) . وربما لإدراك باتو أن الفترة التى تعقب وفاة الخاقان وتولية غيره تكون فترة استرخاء عسكرى . ولهذا خشى باتو من رد فعل فورى للغرب الأوروبى بعد المذابح التى ارتكبها فى شمال أوروبا وشرقها وأن يؤدى ذلك إلى تدمير كل جيوشه .

موقف غرب أوروبا من الغزو المغولي لبولندا والمجر :

لقد سبق الإشارة أن أسقف ونشستر حينما علم بالكارثة التى حلت بالشرق الإسلامى فانه هلل وقال : « دعنا نترك هذه الكلاب تفتقرس بعضها » ، وأن قبائل السويدى والفرسان التيوتون وجدوا فى انشغال المدن الروسية بالغزو المغولى فرصة سانحة للإغارة على ممتلكات المدن الأخيرة من ناحية الشمال والشرق وعلى الطرق التى تربط مدينة نوفوجارد بالبحر البلطى.

ولم يتغير هذا الموقف حتى حينما كانت الضحايا شعورياً تدبى بالمسيحية الكاثوليكية وتقع فى أوروبا ومجاورة تماما للإمبراطورة الرومانية المقدسة .

سبق القول أن ملك المجر قد أرسل زوجته وأولاده بصحبة رئيس الأساقفة لدوق النمسا للاحتماء عنده وطلب لمجدهته العاجلة . وبعد موقعة Mohi فى ١١ أبريل عام ١٢٤١م وتدمير قواته وانسياب القوات المغولية فى مملكته ، فان بيلا الرابع فر أمام الغزاة إلى حدود النمسا حيث وصلتته دعوة من دوقها فردريك باللجوء إليه والاحتماء عنده . ولكن للأسف - كما تقول حولية معاصرة « كان ملك المجر مثل سمكة حاولت الهرب من الثلج فألقت بنفسها فى النار » فبمجرد وصول الملك عند دوق النمسا فإن الأخير اعتقله وطلب منه فدية ضخمة قدرها ثلاثة أقاليم مجرية مجاورة لحدود دوقيته ومبلغا ضخما من المال . ولم يساعد الملك على أمره إلا أن يتعهد له كتابة بذلك ، وأن يترك رهينة جزءا كبيرا من الذهب والفضة التى كان قد أنقذها من مخالب المغول . وليس هذا فقط بل وهاجم دوق النمسا مملكة المجر المنكوبة حتى وصل إلى الناحية اليمنى لنهر الدانوب لاحتلال مدينة Gijor التى أحرقتها المجرىون بأنفسهم حتى لا يستفيد بها الدوق الغادر^(٥٠) . ومن ثم ترك ملك المجر مضيفه الخائن وفر إلى كرواتيا ثم إلى زغرب ثم لجأ إلى إحدى الجزر فى البحر الإديريانى أمام سواحل ألبانيا .

وفى هذا الوقت ، كان الشغل الشاغل للبابوية وأنصارها هو تحطيم الإمبراطور فردريك الثانى (ت ١٢٥٠م) وليس الدفاع عن العالم المسيحى ، حتى أنه فى منتصف فبراير ١٢٤١م أي قبيل اكتساح المغول للأراضى المجرية بعدة أيام - قام المندوب البابوى فى المجر بالدعوة إلى حملة صليبية ليس ضد المغول كما هو متوقع ولكن ضد الإمبراطور^(٥١) وكان فردريك الثانى هو الأخير مشغولا بحصار أنصار البابوية فى مدينة Faenza واستولى عليها عام ١٢٤١م بالقوة المسلحة ، وكان مقيما فى صقلية تاركا شئون الإمبراطورية لابنه وولى عهده : كونراد .

ولم يكن ملك المجر يتوقع العون من الإمبراطور المشغول لأذنيه فى صراعه مع البابوية وأنصارها من المدن الإيطالية . ومع ذلك فإنه أثناء وجوده فى النمسا ، أرسل مبعوثيه برسائل يتضرع فيها للبابوية بالدعوة لحملة صليبية ضد المغول ، ويتوسل إلى الإمبراطور للعمل على حشد قواته وإرسالها لتجده . كما عرض عليه فى مقابل ذلك ولائه وتبعيته له فى حالة إرسال مجدة عاجلة تخلص بلاده من المغول (٥٢).

وحتى قبيل تلقى نداءات بيلا الرابع ، فإن أخبار الكارثة التى كانت قد حلت بالمدن الشمالية لبولندا (قبل موقع Liegnitz) كانت قد وصلت إلى الغرب الأوربي عن طريق رسالة كتبها هنرى كونت اللورين فى ١٠ مارس عام ١٢٤١م إلى والد زوجته هنرى الأول دوق بربانت (١٢٣٥-١٢٤٨) . وفى هذه الرسالة يلفت كاتبها نظر الغرب إلى أن عددا لا يحصى من التتر قد استولت على الأقاليم المحيطة به ، وأن ابن عمه ملك بوهيميا قد أبلغه بعزم الغزاة على غزو مملكته بعد عيد القيامة ، وأن هؤلاء «البرابرة» يقومون - وقتذاك - باكتساح بلاد المجر وذبح من يقابلونه وتدمير الأخضر واليابس ، وفى نهاية الرسالة طلب من دوق بربانت حث الهيئات الدينية عنده بل وحث كافة رجال الدين للدعوة لحملة صليبية ضد الغزاة باعتبار أن هذا العمل يرتبط بالسيد المسيح وأعداء المسيحية قبل أن يدمروا العالم المسيحى (٥٣).

وعلى الفور قام دوق بربانت بإرسال نسخ من هذه الرسالة إلى كل من أسقف باريس وملك إنجلترا ورئيس أساقفة كولونيا كي يعملوا على وقف النزاع بين البابا والإمبراطور والانتفاذ لهذا الخطر المحدق بهم .

وذهب أسقف باريس - فور تلقيه هذه الأنباء - لمقر مليكه لويس التاسع ووجد والدته الملكة بلانش وعرض عليها هذا الأمر . ومن ثم استدعت الملكة ولدها لويس التاسع على عجل وقالت له باكية « أين أنت يا ولدى ؟ ماذا سنفعل إزاء هذه الأحداث المفجعة التى نقلها هذا التقرير المخيف عما يحدث فى أراضينا (تقصد العالم الكاثوليكي) ؟ إن - تدميرا شاملا لنا جميعا وللكنيسة المقدسة وشيك الوقوع فى زمننا هذا بسبب هذه الغزوات التترية » وطبقا لرواية متى الباريسى ، رد عليها ملك فرنسا ينغمة مفعمة بالحزن والآسى « أرجوا يا أماء أن تنزل علينا سكينه من السماء ، ولو أتى هؤلاء القوم الذين نسميهم تترتارا فإما أن ندفعهم ثانية إلى أقاليم الجحيم التى أتوا منها أو أنهم سيرسلوننا جميعا إلى السماء (كناية عن الاستشهاد) (٥٤).

وكتب فردريك الثانى رسالة - على أثر تلقيه توسلات ملك المجر - فى ٣ يولييه (١٢٤١) وأرسل نسخا منها إلى جميع قادة الغرب الأوربي . وقد نشر متى الباريسى رسالته للملك المجلترة كاملة وجاء فيها « .. إننا لانستطيع السكوت على أمر لا يخص فقط الإمبراطورية الرومانية بل أيضا كل الممالك التى تعتنق المسيحية فى العالم » . ويحكى الإمبراطور للملك الإنجليزى المعلومات التى وصلته عن المذابح التى ارتكبها المغول ضد الجميع دون تفرقة بين جنس أو نوع أو ديانة أو طبقة معينة لضحاياهم . ولم ينس فردريك الثانى أن يلقى باللائمة على الملك المجرى لأنه «رجل تافه كسول ... لم يأخذ حذره ولم يستعد لهذا الخطر ..» !! وألقى الإمبراطور بمسئولية ذلك أيضا على البابوية وكيف أن طمع البابا وعدوانيته هى سبب انقسام العالم المسيحى ومشاكله . وطلب فردريك الثانى من الملك الإنجليزى التدخل فوراً مع كل القادة الأوربيين لدى البابا كى يعدل الأخير عن حروبه ضد الإمبراطور وابتعد عن تأليب المتمردين عليه حتى يتفرغ فردريك بكل قواته ضد المغول . كما أبلغ فردريك المرسل إليه بأن البابا « قد أمر بالدعوة لحملة صليبية ضدى وأنا حامى الكنيسة والمدافع عنها ، ومن واجبه بل ومن الأفضل له أن يفعل ذلك ضد الغزو التتارى » .

ويطلب الإمبراطور من هنرى الثالث (١٢١٥-١٢٧٠) أن يجند قوة من خيرة فرسانه مجهزين بالعدد والعتاد ويرسلها إلى الأراضى الألمانية للاشتراك مع بقية القوات للدفاع عن الدين المسيحى تحت قيادة ابنه كونراد «لأنه لو أن الترتار غزوا الأراضى الألمانية لا قدر الله بدون مقاومة تصدهم ، فانهم سيخضعون كل الغرب ويدمرون الدين واسم المسيح» . وفى نهاية رسالته يلعن الإمبراطور « من بيدهم أمور العقيدة والدين الذين غرقوا فى شرور الربا ومختلف أنواع الطمع والسيمونية» ^(٥٥) . وتلك إشارة واضحة للمساوئ العديدة للبابوية وقتذاك .

وهكذا فان الإمبراطور - من ناحيته - وجد فى الخطر المغولى المهدق بأوروبا فرصة لتوحيد الغرب تحت لوائه ، والقاء المسئولية على البابوية على أنها المسئولة عن انقسام العالم الكاثوليكي بين مؤيد لها ومعارض ، وأنها السبب فى استنزاف قواته ضد المتمردين عليه بدلا من توجيهها ضد المغول .

والمتتبع للصراع الدامى بين البابوية وفردريك الثانى لا يجد صعوبة فى استنتاج أن دعوة الأخير لتكوين قوات من غرب أوروبا للدفاع المشترك عن القارة ضد المغول لم تعجد آذانا صاغية ، وذلك لأن الداعى نفسه كان فى نظر الكنيسة والغرب الكاثوليكي « كافرا » لأنه

صدر ضده قرار الحرمان ، ولم يحلل منه بعد ، وطبقا لهذا القرار فان من يتعاون أو يتحالف معه يستحق نفس الجزاء ، ولم يكن فى استطاعة أى قائد أوروبى وقتذاك المجاهرة بمعاداة البابوية حتى لا يتعرض لأسلحتها التى أذلت العروش الأوربية منذ هنرى الرابع فى حادثة كانوسا عام ١٠٧٦م حتى الملك جون الإنجليزى فى العقد الثانى من القرن الثالث عشر . كذلك كان تلبية هذه الدعوة فى إرسال قوات تحت إمرة فردريك الثانى أو ابنه معناه تعريض مركز البابوية للخطر . وقد كانت البابوية تنظر بعين القلق لأى تقارب بين أى حاكم أوروبى وبين هذا الإمبراطور ، خاصة وأن متى الباريسى يروى أنه فى تلك السنة أيضا (١٢٤١) قبض فردريك الثانى على مجموعة كبيرة من الأساقفة والكرادلة والمندوبين البابويين من عدة دول أوربية وهم فى طريقهم إلى المقر البابوى فى روما^(٥٦) . بل وحاصرت قواته - فيما بعد - روما نفسها لإرغام البابوية على تحليله من قرار الحرمان بالقوة . ولهذا فان البابا - عندما دعا إلى عقد مجمع مسكونى عالمى - اختار مدينة ليون الفرنسية ليكون تحت حماية لويس التاسع وليستطيع دعوة من يشاء من معارضى الإمبراطور وتقرير ما يشاء ضده دون إمكانية تدخله .

ولهذا كان على الإمبراطور سرعة التحرك بمفرده لحماية بلاده من المغول الذين كانوا وقتذاك داخل امبراطوريته من الناحية الشمالية . فأمر ابنه هنرى فى صقلية بالانضمام إلى أخيه كونراد فى إيطاليا على رأس أربعة آلاف فارس للدفاع عن الامبراطورية . وفى نفس الوقت دعا البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١) لحملة صليبية ضد المغول . وفى ١٩ مايو ١٢٤١م تقلد كونراد شعار الصليب وتوالت التبرعات والإمدادات عليه من ألمانيا . ولكن دوق النمسا لم ينضم له بحجة أن جنوده مشغولين بالدفاع عن حدود دوقيته (وهم فى الحقيقة كانوا يذهبون ما تبقى من المجر) . وكتب فى ١٣ يونيو يشجعه على الضغط على ملوك فرنسا وأسبانيا والمجترات لإمداده بقوات وعتاد ، ودعا الفرسان للمرور من دوقيته على نفقتهم الخاصة^(٥٧) .

وفى تلك الفترة ، كانت القوات المغولية المعسكرة فى وسط المجر - بعد تحطيم مقاومة المجر وفرار ملكها - قد أرسلت فرقة استطلاعية صغيرة إلى الشمال الغربى للمجر . وقد تجولت هذه الفرقة على حدود النمسا وداخلها ، ولكن قوات دوق النمسا - التى كانت فى طريقها لاحتلال مدينة مجرية - أجبرت هذه التجريدة المغولية على التراجع وأسرت منها أسيرا

واحدا اتضح فيما بعد أنه المجليزي الأصل . وعلى الفور كتب هذا الدوق إلى كونراد تفاصيل معركة بين جنوده «البواسل» وبين قوة ضخمة للمغول ودبجها بالمبالغات . فادعى أنه كبدهم فيها ثلاثمائة قتيل ! ثم كتب بعد أسبوع واحد لأسقف كونستانس يبلغه بتفاصيل المواجهة مع المغول ويرفع عدد ضحايا عدوه إلى سبعمائة (٥٨)!

وقد مرت عدة شهور على قوات كونراد دون الاشتباك مع المغول الذين كانوا حينذاك فى فترة استرخاء فى وسط المجر . ولم يكن كونراد ساذجا ، كى يذهب على رأس قواته لطرد الغزاة من المجر . ومن ثم بدأ القلق يسيطر على المتطوعين فى جيش كونراد . وصدرت أوامر مندوبى البابا لهؤلاء الفرسان بالعودة إلى منازلهم إلى أن يحين الوقت لدعوتهم لحملة ضد الامبراطور الذى كانت قواته تحاصر روما نفسها فى ذلك الوقت . «وقبل أن يعود الأساقفة والأمراء (المشاركون فى قوات كونراد) للمناطق التى جاؤا منها ، فإنهم أخذوا كل الأموال التى جمعت للإتفاق على الجنود ووزعوها على أنفسهم» (٥٩) !!

ولكن الرحيل المفاجئ للقوات المغولية عن شمال أوروبا وشرقها فى ربيع عام ١٢٤١م لم يعط الأمان للأوروبيين الذين كانوا يتوقعون عودة الغزاة مرة ثانية ، خاصة وأن عشرات الآلاف من جيش البولنديين والمجريين لم تجد من يدفنها ، وأن حطام عشرات المدن والكنائس لم تجد من يرفعها بعد . ولهذا ظلت ندابات الذين يحيطون بالمواقع التى دمرها المغول تجوب الغرب الأوربي لطلب النجدة ضد عدو يتوقعون قدومه ثانية .

فها هو هنرى دوق ثورنجيا وساكسونى يرسل لدوق بربانت يصف له ما فعله الغزاة من خراب وتدمير «وأن الشعوب المسيحية كانت تفر أمامهم كما تفر الحيوانات أمام الأسد» (٦٠).

وفى خطاب مشترك كتبه اثنان من الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان فى نهاية عام ١٢٤١م موجها إلى جميع قادة هاتين الهيئتين الدينتين وأعضائها ، وذلك لإبلاغهم بتفاصيل الدمار الذى أحدثه المغول فى شمال أوروبا وقوة الغزاة وأسلحتهم (٦١).

وفى خطاب من مقدم دير السيدة العذراء فى المجر ، مؤرخ من النمسا فى يناير ١٢٤١ «إلى كل رجل دين يمكن أن يراه أو يقرأه أو يسمع عنه» للإخبار بتفاصيل اكتساح المغول للمجر وقتلهم خمسة وستين ألفا فى هذه البلاد ، وأربعين ألف بولندى ، وعددا لا يحصى من الروس وعلى رأسهم خمسة وعشرين دوقا ، وأن الغزاة ارتكبوا المفاصد فى الكنائس ولم يراعوا أية حرمانات . ويتوسل الراسل - فى نهاية رسالته - إلى رجال الدين أن يفتحوا صدورهم لكل اللاجئين الفارين أمام الغزاة (٦٢).

وينشر متى الباريسى - ضمن أحداث عام ١٢٤٣م - خطابا مطولا من إيفو الناربوني Ivo of Narbonne إلى جيرالد رئيس بوربدو ، كتبه من إحدى المدن النمساوية التي اقترب منها المغول قبل ذلك بعامين . ويتفق خطابه - فى عرض تفاصيل الغزو المغولى لأوروبا والفظائع التي ارتكبوها هناك - مع الخطابات الأخرى السابق دراستها ، ويضيف إليها بعض المعلومات الجديدة ومنها أن النمساويين قد أسروا أحد رجال القوات المغولية ويدعى بيتر^(٦٣) . ويروى عن لسان الأخير أن هدف المغول من حروبهم هو إخضاع العالم كله لسيادتهم . كما يحكى عنه تفاصيل كثيرة عن جيش المغول وتقسيماته وأسلحته . هذا فضلا عن عدم احترام المغول لنصوص المعاهدات المبرمة مع غيرهم إلى جانب تدميرهم لكل من يقاومهم^(٦٤) .

ويتساءل إيفو الناربوني - ساخرا - عن مهمة رجال الدين عامة إذا لم يكن لهم دوراً فى إنقاذ العالم المسيحى من الخطر المحدق به ، ويطلب منهم أن يصرخوا فى الأذان ليقاظ الغافلين عن الخطر المغولى ، ويستنكر غفلة مستشارى الملوك والأساقفة ومقدمى الأديرة عن الدعوة لحملة صليبية ضد الغزاه ويقول أيضا :

إن ست ممالك مسيحية قد دمرت بالفعل ، وأن نفس المصير معلق على رقاب الآخرين ، بينما لم يأخذ الأحياء عظة وعبرة من الذين هلكوا ، ولكننا نهمل أسوأ أعدائنا بين ظهرانينا (أى المغول) ونهاجم هؤلاء الذين لا يؤذوننا فيما وراء البحار (أى المسلمين) . ولهذا الأسباب أرجو منك أن تنصح ملوك فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ... أن يدعوا جانباً خلافاتهم الخاصة للأبد أو مؤقتاً ، وأن يعقدوا اجتماعاً سريعاً وحكيماً فيما بينهم كي يقرروا كيف يواجهون هذه الآلاف من البرابرة^(٦٥) .

ولكن لم تثمر كل هذه النداءات شيئاً ، حتى أن متى الباريسى يقول - بعد أن نشر النص الكامل للخطاب السابق « أفسد النزاع بين الامبراطور والبابا كل شئ » وقال أيضاً أنه رغم أن هذا الخطاب قد أزعج قلوب الملوك والأمراء الذين قرأوه ، كما أثار الحماسة فيهم للانتقام من الأضرار التي لحقت بالعالم المسيحى ، فإن الانقسامات والنزاعات بين الامبراطور والبابا نشرت القلق والفوضى فى كل مكان^(٦٦) .

أما البابا جريجورى التاسع فلم يصنع شيئاً لأنه شغل بالصراع مع الامبراطور وأعوانه ولم يكن فى جعبته سوى الدعوة لحملة صليبية فى ألمانيا فقط ضد المغول . ولم يأخذ خطوات أخرى أكثر من ذلك ، ربما لحرج موقفه ، إذ أن قوات فردريك الثانى قبضت على أعوانه ،

ولأنها كانت محاصرة فى روما . وجاءت وفاة جريجورى التاسع فى ٢٢ أغسطس عام ١٢٤١م وخلو الكرسي البابوى لمدة عامين تقريبا إضافة جديدة لفتور رد الفعل الأوربي تجاه المغول .

فالامبراطور الذى لم يعد أمامه أية أعذار يتعلل بها بعد أن ساعده القدر فى التخلص من جريجورى التاسع وعدم وجود من يخلفه لمدة عامين - لم يتقدم بقواته ليعسكر بها فى المجر أو فى كرواتيا أو حتى على حدود امبراطوريته انتظارا لرجوع المغول ، أو المشاركة فى اصلاح الدمار الذى سببه الغزاه فى كبريات المدن البولندية والمجرية . ولكنه بقى بجوار روما للضغط على الكرادلة ، زاعما بأن فى يده وحده إنقاذ أوروبا من غزو تتارى وشيك الوقوع لو أنهم اختاروا أحد أصدقائه من الكرادلة للكرسي البابوى (٦٧).

ووجه أنوسنت الرابع فور اعتلائه الكرسي البابوى (١٢٤٣-١٢٥٤) اهتماما شديدا للمسألة المغولية . فقد جدد جهود سلفه فى الدعوة لحملة صليبية ضد المغول ، وأرسل لندوبيه فى الامبراطورية الرومانية لترغيب الفرسان والعامة على حد سواء لحمل الصليب ضد المغول بمنحهم نفس الامتيازات الممنوحة للصليبيين المتجهين إلى الأراضى المقدسة . وأرسل إلى الكرادلة فى بوهيميا ومورافيا للاستعلام عن حجم الخسائر التى لحقها الغزاة بأراضيهم ، كما أرسل إلى دوق النرويج طالبا منه الانضمام لملك المجر فى حالة عودة المغول لأراضى الأخير (٦٨).

ولجأ أحد رؤساء الأساقفة الروس ويدعى بيتر لانوسنت الرابع طالبا منه المساعدة العسكرية ضد المغول الذين حطموا الكنائس والأديرة فى إقليمه . وحصل البابا الجديد على معلومات وافرة عن المغول من هذا المطران الروسى . ومنها - طبقا لرواية متى الباريسى - أن التتر يعتقدون بوجود حاكم واحد فقط للعالم هو خليفة جنكيز خان ، وأنهم يعتقدون أيضا « أن الرب وابنه God and His Son فى السماء وأن جنكيز خان فى الأرض ، وأنهم يرفعون أيديهم كل صباح ناحية السماء ليعبدوا خالقهم وأنهم « يتخذون من يوحنا المعمدان قدوة لهم ، وأنهم يبتهجون كذلك عند رؤية كل قمر جديد » . كما أنهم يستقبلون السفراء بكل لطف ويسرون مهمتهم ويعيدونهم سالمين (٦٩).

وكان هذا التقرير على درجة كبيرة من الأهمية لانوسنت الرابع فى تقرير سياسته نحو المغول ، وقيل أنه وضعه أمام مجمع ليون المسكونى فى العام التالى (٧٠) ، وذلك لأن البابا وجد فى أقوال المطران الروسى عن معتقدات المغول شيئا شبيها بالمسيحية الكاثوليكية خاصة

فى الاعتقاد « بالأب والابن » فى السماء وأن البابا يمثل الرب على الأرض ، وكذلك رفع اليد ناحية السماء ، وتبجيل يوحنا المعمدان ، ولهذا اعتقد أن هؤلاء القوم أقرب إلى المسيحية ، وأنه يمكنه تحويلهم للدين المسيحى لأن فى اعتناقهم ديانة مشتركة مع الغرب الأوربى إنقاذاً لأوربا من أخطارهم المتوقعة . وقد شجعتهم شهادة المطران الروسى عن احترام المغول للسفراء وتسهيل مهمتهم على التفكير فى إنفاذ مبعوثين من قبله لقادة المغول .

وقد وقعت أحداث مقلقة فى الأراضى المقدسة - فى هذا العام أيضا (١٢٤٤م) - أثارت الغرب الأوربى عامة والبابوية خاصة وهى استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس . وكان أولئك الخوارزمية هم قلول الثارين أمام المغول الذين استدعاهم الأيوبيون للاستقرار فى بلاد الشام . وقد ألحقوا أضرارا كبيرة بالمدينة المقدسة ، واستطاعوا بعد عدة شهور إلحاق هزيمة ضارية بقوات الصليبيين قرب غزة . وقد وصلت خطابات الصليبيين فى الشرق للبابوية لطلب النجدة العاجلة (٧١) . وقد انعشت هذه الخطابات - بإضافة المبالغات للوقائع - الروح الصليبية من جديد بعد أن فترت لإساءة البابوية للصورة المثالية للجهاد الصليبي .

وتحت تأثير هذه الخطابات ، وللفظائع التى ارتكبها المغول فى شمال أوربا وشرقها ، وخطورة الصراع مع الامبراطور ، أرسل انوسنت الرابع خطابات لكل القوى المسيحية للدعوة لعقد مجمع مسكونى عالمى فى مدينة ليون التى كان قد لجأ إليها - مختارا - للهرب من مدينة روما التى أضحت تحت رحمة قوات الامبراطور .

وبهمنا أنه فى خطابه لرجال الدين فى انجلترا فى نهاية يناير عام ١٢٤٥ للدعوة لعقد هذا المجمع فى العيد التالى للقدس يوحنا المعمدان ، حدد انوسنت الرابع للمدعوين أهداف هذا المجمع ومنها « كى نجد المعونة ضد التتر » (٧٢) .

وإذا كانت جلسات هذا المجمع قد بدأت فى ٢٠ يونية من ذات العام (١٢٤٥م) فإن البابا قد أرسل عدة سفراء من قبله لقادة المغول فى شمال ووسط آسيا وشرقها قبل ذلك بثلاثة شهور تقريبا (٧٣) ، وذلك كى يتفرغ فى جلسات المجمع لما هو أهم من المغول بالنسبة للبابوية وقتذاك : وهو الترتيب لاستخدام سلاح الحرمان ضد الامبراطور وقطعه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه . ومع ذلك ففى الخطبة الافتتاحية لجلسات هذا المجمع التى حدد فيها البابا جدول الأعمال فانه بدأ بـ « وحشية التتر الهمجيين الذين دمروا العالم المسيحى » (٧٤) .

وفى نهاية الجلسات أعلن البابا باسم المجمع القرارات التى توصل إليها أعضاؤه ومنها المادة رقم ١٦ (Canon 16) التى تتعلق بالمغول . وقد ورد فى مقدمتها وصفاً لوحشية الغزاة الذين « دخلوا بولندا والمجر وممالك مسيحية أخرى ، وأحدثوا قتلا وتدميراً لم يسبق له مثيل » . ومما جاء فى هذا الشأن :

وبناء على توصية المجمع المقدس ، فإنا نحث ونذكر وندعو كل المؤمنين إلى فحص كل الطرق والممرات التى يمكن أن يعبر منها هذا الجنس (التتارى) إلى البلاد المسيحية فحصاً جيداً ليتم تقويتها بالخنادق والحواجز وكل التحصينات التى يمكن أن تكون ضرورية ... وفى حالة العودة الفعلية لهؤلاء (الغزاة) ، فيجب أن تبلغ الكنيسة الرسولية بذلك فى حينه ، حتى يستطيع البابا أن يحصل على معونة المؤمنين ... وسوف نساهم كثيراً فى هذه التكاليف التى ترونها ضرورية ومفيدة .

ونحن نرى (أنه من الأفضل) أن يشارك كل المسيحيين من كافة الأقاليم بدرجة مناسبة لمواجهة هذا الخطر العام . كما أننا سنبحث بوسائل مشابهة لهذا القرار لكل المسيحيين الذين يحتمل أن يمر هذا الجنس السابق الإشارة إليه فى أراضيهم (٧٥) .

ولم يكن باستطاعة انوسنت الرابع أن يفعل أكثر من هذا البيان الفاتر الذى يدعو لاتخاذ اجراءات دفاعية لتحسين الطرق التى يحتمل أن يعبر منها الغزاة إذا رجعوا ثانية لأوربا .

والدراسة المتأنية الفاحصة لجلسات هذا المجمع والقرارات الصادرة عنه ترجح أن البابا لم يعط للمسألة المغولية ما تستحقه من اهتمام . ومن الجلى أنها لم تنل نفس الاهتمام الذى أعطاه لمسألة الأراضى المقدسة . فانوسنت الرابع قدم للمجمع الأساقفة الحاضرين من هذه البقاع ، واختار أحد الفرنسيين المشهورين بالبلاغة والفصاحة لقراءة الخطابات التى حملوها من الأراضى المقدسة ، والتى تصور - بعد المبالغات التى أضيفت إليها - كيفية استيلاء الخوارزمية على المدينة المقدسة ، ولاغرو أن «بكى كل الحاضرين» (٧٦) . وخرجت قرارات هذا المجمع تدعو وتبشر وتحث على إعداد حملة صليبية عاجلة لإنقاذ الأراضى المقدسة . وإنهالت التبرعات لهذا الغرض ، وحولت ضريبة العشور الصليبية لتجهيز حملة تحت قيادة ملك فرنسا وحامى مجمع ليون : لويس التاسع . وكان البابا ذكياً فى التعامل مع هذه المسألة لأنه يعرف أنها قضية مخدرة لمشاعر العامة والخاصة على حد سواء ، وأن الاهتمام بها سوف يظهر هيبة البابوية وزعامتها وحرصها على كل ما يخص الدين والمسيح ، وذلك لشغل الحاضرين فى

المجمع والرأى العام فيما بعد عن الترتيبات والاجراءات والإقرارات التى اتخذها البابا بموافقة الحاضرين فى المجمع ضد الامبراطور فردريك الثانى من حرمانه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه الامبراطورى^(٧٧) . أما بالنسبة للمغول ، فكل ما وعد به البابا هو «دعوة المؤمنين للنجدة» إذا رجع الغزاة لأوربا .

وقد حاول البابا استغلال مأساة الخطر المغولى على أوروبا لإقناع الأمراء الروس بالانضواء تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية ثمنا لمؤازرتهم فى حالة عودة المغول مرة ثانية وطمعا فى الاستفادة بهم فى إمداد البابوية بمعلومات عاجلة فى حالة تقدم الغزاة للأراضى الأوربية باعتبار أنهم أول من سيواجه المغول فى أوربا . ولهذا فإنه منح الأمير دانيال الروسى دوق غاليسيا لقب «ملك روسيا» وتبادل معه السفراء لهذا الغرض .

وطبقا للأرشيفات البابوية ، فإن أنوسنت الرابع أرسل الأخ الكسيوس من جماعة الرهبان الدومينكان فى ٣ مارس عام ١٢٤٦م إلى ملك روسيا كى يولى الأخير أذانا صاغية للبابا . وفى ٢٢ يناير ١٢٤٨ م طلب أنوسنت الرابع من دانيال الروسى سرعة إمداد جماعة الفرنسكان التيوتون فى بروسيا بأية معلومات جديدة عن تقدم التتر ضد العالم المسيحى . وفى نفس اليوم أرسل البابا خطابا لمقدم جماعة التيوتون فى بروسيا يأمره فيه بسرعة إمداد البابا بكل ما يصله من معلومات من الأمراء الروس عن التقدم المغولى^(٧٧ ب) .

ولكن دانيال الروسى - الذى حضر موقعة كلكا عام ١٢٢٣ حيث هزمت فيها القوات الروسية أمام المغول وكان أيضا شاهد عيان لما حدث لبلاده من دمار فى الفترة من ١٢٣٧ إلى ١٢٤٠م - لم يكن من السذاجة بحيث يعتمد على البركات الرسولية التى يبعثها له البابا من مدينة ليون الفرنسية - التى اتخذها الأخير مكانا حتى وفاة الامبراطور عام ١٢٥٠م لأنه لم يكن بإمكانه حتى حماية مدينة روما نفسها . ومن ثم ذهب دانيال إلى مقر باتو عند (سراى) نهر الفولجا حيث أقسم له يمين الطاعة والولاء ، ولهذا انقطعت العلاقات بينه وبين البابا منذ عام ١٢٤٩م . هذا بالنسبة لتطور الموقف البابوى من روسيا^(٧٨) .

أما بالنسبة للمجر التى تمثل خط الدفاع الثانى ضد المغول فقد أرسل ملكها : بيلا الرابع فى نوفمبر عام ١٢٥٤م خطابا للبابا أنوسنت الرابع يبلغه بالأنباء التى وصلتته عن حشود مغولية قادمة لأوربا ، ويخبره أنه لا مفر من عمل حائط تحصينات دفاعية على نهر الدانوب لحماية أوروبا مستقبلا من القبائل الآسيوية بصفة عامة ومن المغول بصفة خاصة . وطلب الملك

المجرى من الباب مساعدات فعلية إعمالا لنص المادة السادسة عشر من قرارات مجمع ليون الأول ، وليس مجرد عود وابتهالات وبركات رسولية . وأعلن بيلا الرابع استعدادده للخضوع الكامل للبابا فى حالة إرسال هذه المساعدة . ولم يرد البابا ، ولم تصل المساعدة المرجوة للملك المجر . ربما لأن انوسنت الرابع نفسه لم ير هذا الخطاب المؤرخ فى نوفمبر - لأنه توفى فى ٧ ديسمبر (١٢٥٤م)^(٧٩) وربما كان قد رآه ولكنه قنع بالاتصالات الدبلوماسية مع المغول .

السفارات المتبادلة بين البابوية والمغول فى عهد انوسنت الرابع :

اكتسب انوسنت الرابع - من الناحية الدبلوماسية - شهرة كبيرة من جراء اتصالاته مع قادة المغول . فقد أدرك هذا البابا مدى الخطر الذى يَحِيْق بأوروبا من جراء المغول ، ولمس بنفسه مدى تفكك الغرب ومدى وطأة الصراع مع الامبراطور فضلا عن عجزه عن تأليف قوة حربية لمواجهة هذا الخطر الداهم . ولهذا وجد أن أفضل السبل المتاحة له هو إيفاد رسل ومبعوثين للمغول . وشجعه على تحقيق هذه الخطوة رواية بيتتر الأسقف الروسى عن معتقدات المغول واحترامهم للسفراء . ولهذا أرسل أربعة سفارات قبل انعقاد جلسات مجمع ليون الأول وذلك فى مارس من عام ١٢٤٥م . اثنتين منها من جماعة الرهبان الفرنسيسكان^(٨٠)؛ جون (أو يوحنا) بلاتو الكاريني John of Plano Carpini ولورانس البرتغالى ، والاخيرتين بقيادة اثنين من جماعة الرهبان الدومنيكان^(٨١) يقودهما أسيلين اللومباردى وأندريه لونجيجيموه .

وقد يبدو أن إيفاد سفراء من هاتين الهيئتين أمرا غريبا خاصة إذا كان الأمر يتعلق بأقوى قوة عالمية حينئذ . ولكن ارتكز هذا الاختيار إلى خبرة هاتين الجماعتين فى التبشير بالدين المسيحى على المذهب الكاثولىكى فى شرق أوروبا وشمالها وفى شمال آسيا وغربها ، فضلا عن محاولتهما توحيد الكنائس الشرقية تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم فى روما . هذا إلى جانب دورهما الكبير فى غرب أوربا أيضا ، إذ اعتمدت عليهما البابوية فى الدعاية لها عند أنصار الامبراطور وفى جمع الهبات والضرائب الكنسية ، ولقد كان رهبان هاتين الجماعتين مندوبين مخلصين للبابوية إلى الملوك والنبلاء ورجال الدين . ونظرا لانتشار أعضاء هاتين الجماعتين بين عامة الناس وخاصتهم على حد سواء فى مختلف بقاع الغرب الأوربى ، فانهم أمدوا البابوية بمعلومات كاملة وسريعة عن الأوضاع فى الغرب ومن ثم فان المحافظة على هيبة البابا وعلى السلطة البابوية فى القرن الثالث عشر - رغم الأزمات العنيفة التى مرت بها - يرجع إلى حد كبير إلى هاتين الهيئتين^(٨٢).

ولهذا فان انوسنت الرابع لم يجد حوله خيرا منهم للتبشير بالدين المسيحى بين المغول ولجمع المعلومات عنهم . فهؤلاء الرهبان نذروا حياتهم للتبشير بالدين بين «الكفرة» وأوقفوها لهذا الغرض رغم ما يتطلب ذلك من عبور آلاف الأميال فى الغابات والأحراش والقفارى بدون مؤن أو عتاد ، ودون الخوف من موت محقق بسبب الجوع أو الحيوانات المفترسة أو بسيوف المغول .

بعثات الفرنسيسكان :

كان مقررا لبعثة لورانس البرتغالى السفر إلى لمغول فى ٥ مارس عام ١٢٤٥م ، ولكن البابا غير مسارها إلى الشرق اللاتينى لتؤدى رسالة أخرى . كما حملت خطابات منه إلى الأمراء المسلمين فى بلاد الشام وآسيا الصغرى لحثهم على اعتناق الديانة المسيحية ، وكان من مهامها أيضا إقناع رجال الدين النساطرة والبيحاقبة والإغريق لتوحيد كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية فى روما . ومن ثم فإنها لاتدخل فى نطاق هذا البحث (٨٣) .

بعثة يوحنا الكارينى (١٢٤٥-١٢٤٧م) :

تعد سفارة يوحنا (جون) بلاتو الكارينى واحدة من أشهر البعثات البابوية للمغول وذلك لأنها أول بعثة أوربية تصل إلى قراقورم : عاصمة الإمبراطورية المغولية ، وأول فرصة للاحتكاك المباشر وتبادل المعلومات بصورة علنية ومكتوبة بين المغول وأوربا . وترجع أهمية هذه السفارة أيضا إلى دقة وغزارة المعلومات التى دونها الرحالة الفرنسيسكانى - فى تقريره الذى قدمه إلى البابا - عن حياة المغول ونظمهم الاجتماعية وجيوشهم وخططهم الحربية ، ومعتقداتهم الدينية ، وشرائعهم ، وطريقة غزوهم ، وأسلوب حكمهم للبلاد التى احتلوها ، فضلا عن معلومات جغرافية وتاريخية لم تكن معروفة للغرب الأوروبى من قبل عن مناطق وسط آسيا وشرقها . كما أن الكارينى ورفاقه الذين حضروا حفل تنصيب كيوك خان خاقانا على المغول فى أغسطس عام ١٢٤٦م قد تقابلوا مع كبار قادة المغول وتحدثوا معهم لأول مرة واستمعوا إليهم ، ونقلوا للغرب الأوروبى ما سمعوه ورأوه . ومن ثم فإن هذه السفارة قد وضعت الأساس للاتصالات السياسية والتجارية والدينية بين المغول والغرب الأوروبى فى المائة عام التالية .

وقد غادر الكارينى ورفاقه مدينة ليون الفرنسية - حيث مقر البابا المؤقت - فى ١٦ أبريل عام ١٢٤٥م ، وفى ٢٢ يولية ١٢٤٦ وصلوا إلى خيمة المغول قرب قراقورم (٨٤) .

ويشرح المبعوث البابوي الأهداف الكاملة لسفارته - فى تقريره - من خلال حديثه مع أول قائد مغولى يقابله فى جنوب روسيا قائلا :

عندما تقدمنا إلى خيبتهم ، فإن رؤسائهم قابلونا وسألونا عن سبب مجيئنا لهم وما هى مهمتنا عندهم . ونحن أجبنا قائلين : إننا مبعوثون من السيد البابا : سيد وأب لكل المسيحيين - وأرسلنا إلى ملوك التتر وأمرائهم ، لأن رغبته أن يكون كل المسيحيين أصدقاء للتتر ، وأن يكونوا فى سلام معهم . كما أنه يرغب أن يكون للتتر عظماء أمام الرب فى السماء أيضا (مثلا هم فى الأرض) . ولهذا فإن السيد البابا يحثهم - سواء عن طريقنا ، أو من خلال الخطابات التى أرسلها معنا لهم - كى يكونوا مسيحيين وأن يعتنقوا دين سيدنا عيسى المسيح ، وإلا فإنهم لن ينقذوا (من الهلاك فى الآخرة) . كما أن البابا يبلغهم باستيائه من المذاهب الوحشية للناس من التتر ، خاصة رعاياه من المسيحيين المجريين والمورافيين والبولنديين ، وذلك لأنهم لم يحدثوا ضررا للتتر بل ولم يحاولوا أن يضرهم . ولأن السيد البابا قد أذى بصورة محزنة من جراء ذلك ، فإنه يحثهم على تجنب ارتكاب هذه الأفعال (الآثمة) فى المستقبل ، وأن يكفروا عن خطاياهم السابقة . ونحن (أى السفراء) أضفنا لذلك أن السيد البابا طلب منهم (أى من قادة المغول) أن يكتبوا له عما يريدونه فى المستقبل ، وما هى نواياهم وأن يعطونا الإجابة فى خطاب عن كل النقاط الواردة بعالية (٨٥).

ومن ثم فإن أهداف سفارة حنا الكارينيى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

أولا : دعوة المغول لاعتناق المسيحية .

ثانيا : التساؤل عن سبب المذاهب التى اقترفوها ضد الدول الكاثوليكية.

ثالثا : جمع المعلومات عن أهداف المغول فى المستقبل وطلب هذه المعلومات من قادة المغول شخصا أو عن طريق شخص السفير .

وعند وصول أعضاء السفارة البابوية إلى العاصمة المغولية فإنهم انتظروا حتى انتهت مراسم تعيين الخاقان الجديد : كيوك خان (١٢٤٦-١٢٤٨م) الذى تم فى مجمع مغولى عام (قوريلتاي) حضره عدد كبير من المبعوثين والسفراء من معظم أنحاء آسيا وشرق أوروبا - قدرهم كارينيى بأربعة آلاف مدعو (٨٦). ويصف الكارينيى مراسم تولي كيوك خان للسلطة ، وكذلك الهدايا الفاخرة التى قدمها له هؤلاء السفراء - رغم أنوفهم بطبيعة الحال - وكيف أنه وجد العديد من الأسرى الروس والمجريين الذين يعرفون اللغتين الروسية واللاتينية ويشغلون وظائف لدى المغول و «عن طريقهم عرف التتر كل شئ» «عن أوروبا» (٨٧).

وقد حمل يوحنا الكاريني خطابين من البابا : أولهما مؤرخ فى ٥ مارس ١٢٤٥م وهو خطاب غير موجه لشخص معين بل مفتوح لكل المغول .

والخطاب الثانى مؤرخ فى ١٣ مارس وموجه إلى «امبراطور التتار» دون تحديد اسم معين لأنه لم يكن معروفا وقتذاك شخص الخاقان الجديد .

وقام البابا - فى الخطاب الأول - بشرح خطيئة آدم ورسالة السيد المسيح «الذى تنازل وعاش بين البشر وليكون فداء عن خطاياهم» وبعد قيامته ترك لبطرس وخلفائه سلطان الحل والعقد على الأرض وفى السماء . وأبلغ انوسنت الرابع المغول أنه لهذا السبب أرسل مبعوثيه لهم وهم على درجة كبيرة من التقوى والدراية بالكتاب المقدس . وطلب البابا من امبراطور المغول وأمرائهم الاستماع إليهم لعلهم «يحتنقوا شعائر عيسى المسيح ابن الله ويبدجلوا اسمه المجيد ويمارسوا العقيدة المسيحية» . وطلب البابا من المغول حسن معاملة الرسل كأنهم يعاملون الراسل شخصيا ، ويزودونهم بالمؤن والمساعدات إبان رجوعهم . وفى نهاية رسالته قال انوسنت الرابع إنه يعتقد «أن هؤلاء سيكونون مصدر عون كبير للمغول ، لأنهم فى تواضعهم يقتفون أثر منقذنا» ، وأنه لن يتردد فى إرسال المزيد من رجال الدين الأقوياء للمغول لو علم أنهم سيكونون مصدر نفع وقبول عندهم (٨٨) .

ومن الواضح أن هدف هذا الخطاب هو دعوة المغول لاعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، لأنه لو تحقق هذا الأمر فإن زملاءهم فى الدين سيأمنون جانبهم وربما يستفيدون بهم ضد أعدائهم ، وكان يهم انوسنت الرابع مخاطبة قادة المغول فى ذلك الأمر لأن فى اعتناقهم المسيحية ، انتشارا لهذه العقيدة بين الملايين من رعاياهم . ولهذا فإن البابا يبلغهم باستعداده لإرسال المزيد من رجال الدين لو وجد منهم استجابة لهذا الأمر .

وفى الخطاب الثانى المؤرخ فى ١٣ مارس عام ١٢٤٥م والموجه «لامبراطور» المغول شخصيا ، يبدأ انوسنت الرابع بأبداء دهشته وانتقاده لغزو المغول للكثير من الممالك المسيحية وتدميرها وقتل سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعها . ولهذا فإنه مقتفيا أثر «ملك السلام» ورغبة فى أن يعيش كل البشر فى وئام وبخشون الرب (فقط وليس المغول) « فإن البابا يحشهم ويرجوهم الإقلاع عن هذه الاعتداءات وخاصة على المسيحيين والتكفير عن الخطايا السابقة ، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك فإن الرب سينزل عليهم عقابه فى الدنيا والآخرة . ويكرر انوسنت الرابع طلبه السابق بحسن معاملة السفراء والتناقص معهم فى المسائل التى

تخص السلام بين الطرفين، وأنه على المغول إبلاغ البابا (كتابة) بالأسباب التى دفعتهم إلى تدمير الشعوب الأخرى، وكذلك أحاطته علما بنواياهم فى هذا الشأن مستقبلا. وفى نهاية رسالته طلب البابا إعادة المبعوثين مزودين بالمؤمن والضروريات حتى يعودوا إليه سالمين (٨٩).

وهذا الخطاب السياسى يعكس وضع البابوية فى العصور الوسطى المتأخرة التى كانت لا تترك ما لقيصر لقيصر، ولكنها كانت تعزل الملوك وتعين غيرهم، وتعتبر نفسها مسئولة عن أرواح «المؤمنين» وكذلك عن علاقاتهم بملوكهم وشئونهم الدنيوية. فيها هو انوسنت الرابع يرى أنه إذا كان مسئولاً عن «هداية أرواح البشر جميعا»، فإنه مسئول أيضا عن أمن بولندا والمجر ومورافيا، ويجعل سفراءه يتفاوضون باسمه فى مسائل سياسية خاصة بأمر الحرب والسلام، ولم يترك هذا الأمر مثلاً لسفراء من قبل السلطة العلمانية فى إنجلترا أو فرنسا أو الامبراطورية الرومانية، وهذا التصرف يعكس وضع البابوية وقتذاك فى الهيمنة على الشئون الروحية لغرب أوروبا والتدخل أيضا فى الشئون السياسية.

وثمة ملاحظة أخرى - ألا وهى اللهجة العنيفة فى انتقاد تصرفات المغول فى شرق أوروبا، وهى لهجة لم يتعود - من يعتبرون أنفسهم - سادة العالم على سماعها. ولهذا فانه بمجرد اعتلاء الخاقان الجديد العرش المغولى فى ٢٤ أغسطس عام ١٢٤٦، استمع - عن طريق المترجمين - للخطابات البابوية، وظهر الامتعاض على وجهه، حتى أن بلاتو الكارينى يقرر أنه لم يشاهده - ضاحكا أو حتى متبسما. وأمر بسفراء البابا - الذين تعودوا على كرم الضيافة فى قراقورم أربعة أسابيع كاملة قبيل اعتقال كيوك خان العرش - أن يوضعوا فى مكان أشبه بالسجن حيث حرّموا من الطعام والشراب حتى كانوا يتضورون جوعا لولا أن قدم لهم أحد الروس - الذين يعملون فى خدمة المغول - الطعام خفية. ولهذا فان المبعوث البابوى كتب يقول أن الخاقان «كان يود إعلان الحرب على العالم الغربى» فى اليوم التالى لمقابلته. ومعرفته لفحوى خطابات البابا (٩٠).

وهكذا كانت سياسة البابوية من وراء إرسال بعثة بلاتو الكارينى تهدف إلى محاولة إقناع قادة التتار لاعتناق المسيحية والانضواء تحت لواء البابوية وبذلك تضمن كسبا كبيرا لأوربا وللمسيحية الكاثوليكية، وكذلك استطلاع نواياهم إزاء الغرب الأوروبى (٩١)، وجمع كل المعلومات عنهم لبحث أفضل السبل لاستبعاد خطرهم أو الاستعداد لهم. ولكن ليس هناك أية إشارة على الإطلاق سواء فى تقارير بلاتو الكارينى أو زميله بندكت البولندى أو فى

خطابى انوسنت الرابع المشار إليهما بعاليه لمسألة «إشراك التتار مع اللاتين فى القيام بحرب صليبية عامة لانتزاع الأراضى المقدسة من الحكم الإسلامى»^(٩٢). وذلك لأن البابا فى أول اتصال مباشر مع المغول - الذين كانوا يعرفون فى أوروبا باسم تترار وهو تعبير لاتينى يطلق على الشيطان - كان يحتج بشدة على المذابح الجماعية من المغول ضد رعاياه ، ومن ثم فليس معقولا أن البابا أو حتى مبعوثيه فكروا فى تحويل المغول فى لقاء واحد من ألد أعداء أوروبا إلى حلفاء لهم . ولكن فكرة التحالف هذه جاءت بعد ذلك بعدة سنوات فى خطاب يشك الباحث فى صحة نسبته لقادة المغول^(٩٣).

ومهما يكن من أمر فقد جاء الرد المغولى محبطا للأمال . ورغم وجود نسختين - بينهما بعض الاختلافات^(٩٤) - للخطاب الذى أرسله الخاقان المغولى للبابا انوسنت الرابع فى نوفمبر عام ١٢٤٦م، فليس هناك خلاف فى العناصر الأساسية لمضمون الرد المغولى .

وردا على طلب البابا بعقد سلام بين الطرفين يقول الخاقان للبابا (طبقا للنص الفارسى) :

عندما يصلك أمرنا ، فانك أيها البابا تحضر مع جميع الأمراء (يقصد ملوك الغرب الأوروبى) بصفة شخصية لخدمتنا ، وحينئذ فإننى سوف أبلغك جميع أوامر البابا^(٩٥).

(وطبقا للنص اللاتينى) :

أنه بعد ما اتفقتم على عقد السلام معنا ، فانك أيها البابا وجميع الأمراء قد أرسلتم لنا مبعوثا كما سمعنا منه وكما أعلنت خطاباتكم . وحيثما تكونوا ، فانكم لو رغبتم فى سلام معنا ، فانكم : البابا وجميع الملوك والحكام تحضرون إلينا بدون تأخير كى توقعوا بنود هذا السلام ، وحينئذ سوف تسمعون أيضا إجابتنا وإرادتنا^(٩٦).

وهكذا فان الخاقان المغولى طلب من البابا وملوك الغرب الأوروبى أن يحضروا بأنفسهم ليقدموا له فروض الولاء والطاعة - مثلما فعل معظم حكام آسيا حريا أو سلما - ويركعوا أمامه وليؤدوا له الجزية عن رعاياهم وهم صاغرين .

وردا على طلب البابا بأن يستمعوا لمبعوثيه ومواعظه ويتنصروا على يديه فان الخاقان المغولى يقول - طبقا للنص الفارسى - «وأنتم تقولون أنكم قدمتم (لنا) الصلوات والابتهاالات كى أجد مدخلا طيبا للمعمودية ، ولكنى لم أفهم صلواتكم »^(٩٧). ولكن الكاريبنى ينقل هذه العبارة - فى ترجمته اللاتينية - كالآتى « أن محتويات خطاباتكم تقول

أنه لا بد وأن نعلم ونصبح مسيحيين وعلى هذا لمجيب باختصار أننا لم نفهم بأية طريقة يجب أن نفعل ذلك» (٩٨).

والاختلاف البسيط هنا بين النصين ربما يكون متعمدا من الكاريبنى نفسه ، وذلك لأن النص الفارسي - الرسمي - يدل على رفض قادة المغول لدعوة البابا للدخول فى المسيحية ، ولكن إضافة المبعوث البابوى لكلمته « إننا لم نفهم بأية طريقة يجب أن نفعل ذلك » ، تدل على أن المغول لم يرفضوا الدخول فى الديانة المسيحية ولكنهم فقط لا يفهمون ممارسة شعائهم. والكاريبنى - باعتباره أحد أعضاء جماعة الفرنسيسكان ، ووظيفته التبشير بالدين المسيحى بين من لا يعتنقهم - لم يرد أن يغلق باب دخول المغول فى ديانته ، ولكنه تركه على الأقل مواربا ، بدليل أنه فى تقريره - الذى رفعه إلى البابا فور عودته - ركز على رؤيته لكثير من المسيحيين فى عاصمة الخاقان وقصره ، وأنه سمع من بعضهم أن الخاقان نفسه « على وشك أن يكون مسيحيا » ويدلل على صحة وجهة نظر من نقل عنهم هذا الرأى بأن كيوك خان يستخدم كثيرا من المسيحيين فى الوظائف الهامة وأن هداياه لهم عبارة عن متعلقات مسيحية ، وأنه يحتفظ بجوقة ترتيل Chapel أمام خيمته الرئيسية ، وأنهم يرتلون على الطريقة الإغريقية ، وأن كثيرا من التتر يستمعون لهذه التراتيل (٩٩).

ويعضى الخاقان - فى رسالته إلى لبابا - قائلا :

وفى بقية محتويات رسائلك تتعجب من المذابح الكثيرة للبشر خاصة المسيحيين البولنديين والمورافيين والمجريين منهم ... فذلك لأنهم لم يطيعوا كلمة الرب وأمر جنكيز خان والخان (اوجوداى ١٢٢٩-١٢٤١م) ولكنهم اتفقوا على قتل مبعوثينا (إليه) ومن ثم فإن الرب أمرنا بأن ندمرهم وأعطاهم لأيدينا ... وكيف يستطيع أى فرد أن يأمر أو يقتل معتمدا على قوته (فقط) على غير مشيئة الرب ؟ .. ، فالأرض التى تقع بين شروق الشمس وغروبها قد خضعت لسلطانى . ومن يستطيع أن يفعل ذلك على غير مشيئة من الرب ؟ ولكنكم يا معشر الغرب تعتقدون أنكم فقط مسيحيون وتحترقون الآخريين (١٠٠).

وفى هذه الفقرة يؤكد كيوك خان بأن تدمير الممالك المسيحية - وبالتأكيد الإسلامية أيضا - قد تم بأمر من الرب الذى أبلغه إلى جنكيز خان ، وأنه ينفذ مشيئة الرب فى إخضاع العالم لخلفائه . وهذه اللهجة توضح اعتناق المغول لفكرة السيادة العالمية وأنهم مبعوثون من قبل السماء لحكم العالم بأجمعه . وعلى الرغم من أن شعوبا كثيرة ما زالت غير خاضعة

لحكمهم ، فانهم يعتبرونها أعضاء داخلون لا محالة فى الامبراطورية المغولية العالمية ولهذا فالخاقان اعتبر الشعوب الأوربية التى دمرها شعوريا متمردة على حكم السماء (١٠١) ، ومن ثم استحققت القتل والتدمير بواسطة المغول الذين أخضعوا الأرض من شروق الشمس حتى غروبها بموافقة السماء .!

وفى نهاية رسالته يبلغ الخاقان انوسنت الرابع بما هو آت :

والآن يجب أن تقول بقلب صادق : سوف أخضع لك وأخدمك ، وأنت بنفسك على رأس جميع الأمراء (الملوك) تأتون فى الحال لتخدمونا وتنتظرون (على أبرابنا) . وفى هذه الحالة فائنى سوف أقبل خضوعكم ، ولو لم تطع أمر الرب ، ولو تتجاهل أوامرى لسوف أعرف أنك من أعدائى . وفى هذه الحالة لا أعرف ماذا سيحدث (لك) فالرب وحده يعلم (١٠٢) .

ومسألة اعتناق المغول لفكرة السيادة على العالم لم تكن غائبة عن المبعوث البابوى، ففى موضع آخر من تقريره للبابا يقول « أنهم تلقوا الأوامر من جنكيز خان باخضاع كل العالم لهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا » . ويقول الكاريني أن كيوك خان كتب للبابا - لهذا السبب أيضا - عبارات « بقوة الرب ، امبراطور كل البشر » ، وأن ختم الخاقان على الخطاب « الرب فى السماء ، وكيوك خان على الأرض ، ختم امبراطور كل البشر » . ومن ثم يفسر المبعوث البابوى رفض المغول إبرام أى سلام مع أى شعب احتكوا به إلا بعد خضوعه التام لهم باعتقادهم أنهم سادة البشر (١٠٣) .

وبناء على ما تقدم ، فان بلاتو الكاريني يحذر البابا بأن الدور سيحل على الغرب الأوروبى ، لأن الخاقان السابق كان ينوى إخضاعه لولا وفاته مسموما ، ولهذا فهو يناشد البابا وملوك الغرب بتوحيد الصفوف وجمع الجيوش الجرارة تحت قيادة مشتركة ليقاتلوا المغول قبل دخول الأخيرين للأراضى الأوربية ، لأنهم - طبقا للكاريني أيضا - لو قاموا بغزو أوروبا فان كل حاكم سيسغل بالدفاع عن بلاده ولن يستطع مساعدة الآخرين . ولو حدث ذلك فانهم لن يصمدوا أمام الغزاة (١٠٤) .

ولا غرو أن المبعوث البابوى رفض اصطحاب سفراء للمغول معه إلى الغرب الأوروبى رغم طلب المغول ذلك . وفى تبريره لهذا التصرف أورد الكاريني عدة أسبابا :

أولا : « خشينا أن يروا (أى سفراء المغول) الخلافات والحروب المنتشرة بيننا وهذا يشجعهم على مهاجمتنا » .

ثانيا : خشية أن يكون الهدف الحقيقي للمغول من إرسال السفراء هو التجسس على الغرب .

ثالثا : أن جموع الأوربيين كانوا وقتذاك فى حالة غليان من جراء تدمير المغول لعشرات المدن والكنائس والأديرة وذبح عشرات الآلاف من السكان بلا رحمة أو تفرقة . ولهذا خاف الكاريينى من مقتل أو أسر سفراء المغول بواسطة هذه الجموع الغاضبة وليس معه قوة تحميهم . ولهذا فهو يقرر أن من عادة التتر عدم عقد أى سلام مع الشعوب التى تقتل سفراءهم حتى ينتقموا منهم بالذبح والأسر (١٠٥) .

ولهذا فضل المبعوث البابوى قيامه بمهمة نقل رسالة الخاقان السابق ترجمتها وذلك لتجنب مخاطر اصطحاب السفرائه ، ولأن الرد المغولى نفسه لا يشجع على تبادل السفراء .

وهكذا رجعت هذه السفارة بخفى حنين . فالخاطاب الذى كتبه كيوك خان إلى البابا يخاطبه فيه كأحد اتباعه . وعادت البعثة من نفس الطريق الذى قدمت منه ، حتى وصلت إلى مدينة ليون فى نوفمبر عام ١٢٤٧م ، ورغم ذلك قبولت بحفاوة بالغة من البابا وذلك بسبب المعلومات غير المسبوقة التى قدمت له عن المغول من خلال تقرير السفير . ومن ثم أوفد البابا بلاتو الكاريينى إلى لويس التاسع فوراً لإبلاغه تفصيلاً بنتائج سفارته ولبعض المهام الأخرى المتعلقة بحملة الأخير الصليبية التى كانت ستقلع من فرنسا عن قريب (١٠٦) .

سفارات الدومنيكان :

أما عن المبعوثين الدومنيكان الذين أرسلهم البابا أنوسنت الرابع للمغول عن طريق منطقة الشرق الأدنى ، فمعلوماتنا قليلة عن بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى ، ولكن التقرير الذى تركه سيمون أوف سانت كوينتين Simon of Saint- Quentin رفيق أسيلين اللومباردى فى بعثته لغرب آسيا ووسطها ، جعلت سفارتهما تحظى بشهرة قريبة من سفارة بلاتو الكاريينى .

أولا : بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى :

ما نعرفه عن بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى أن البابا أنوسنت الرابع أرسله على رأس مجموعة من الرهبان الدومنيكان عام ١٢٤٥م لتسليم رسائله لقادة المغول فى فارس وآسيا

الصغرى ، وكتابة معلومات وافرة عنهم ، وكذلك تسليم رسائل منه للأمرء المسلمين فى بلاد الشام والعراق وإيران ودعوتهم لاعتناق الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، وكذلك إبلاغ خطابات انوسنت الرابع إلى كبار رجال الدين النساطرة واليعاقبة والأرثوذكس تدعوهم للاتضاء تحت لواء البابوية (١٠٧) .

ولايهمنا هنا تسجيل مدى نجاح أو فشل هذه البعثة مع الأمرء المسلمين أو رجال الدين المسيحي : الأرثوذكس والنساطرة واليعاقبة (١٠٨) ، ولكن يهمنا أن أندريه لونجيجيمو قد تقابل مع فرقة مغولية فى منطقة تبريز ، وقام بتسليم خطابه البابا لقائد هذه الفرقة الصغيرة ، ولكنه فشل فى مقابلة القائد المغولى بايجو Baiju فى غرب اسيا (١٠٩) . ومن ثم رجع هو ورفاقه إلى مدينة ليون الفرنسية لمقابلة البابا عام ١٢٤٧م . ويعتقد البعض أن الخطابات البابوية لم تصل إلى بايجو أو الخاقان المغولى نفسه فى قراقورم . ومن ثم فإن النجاح الذى حققته هذه البعثة يتمثل فى لقائها بأسقف النساطرة فى تبريز والحصول على معلومات عن خطة المغول فى غزو العالم وعن روايات جديدة لأسطورة الكاهن يوحنا (١١٠) .

ثانيا : بعثة آسيلين اللومباردى:

ترأس الراهب آسيلين اللومباردى البعثة الثانية من جماعة الرهبان الدومنيكان إلى الشرق وقد غادرت هذه البعثة مدينة ليون الفرنسية فى مارس أو إبريل عام ١٢٤٥م ، ورجعت لنفس المكان فى سبتمبر أو أكتوبر عام ١٢٤٨م بعد غياب ثلاثة أعوام وسبعة شهور تقريبا (١١١) .

وهذه البعثة - مثل بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى - أرسلت لمنطقة الشرق الأدنى ، وذلك خشية البابا أن يفشل أندريه فى الوصول إلى المغول من الشمال فيستطيع آسيلين توصيل خطابات البابا لقادة المغول من طريق آخر أقل خطرا . وقد استطاع المغول فى هذه الفترة إخضاع مملكتى جورجيا الصغرى وأرمينيا الصغرى المسيحيتين : الأولى بحد السيف والثانية طواعية واختيارا . ولهذا خشى البابا من أن يكتسح المغول أملاك الصليبيين ومواقعهم فى الأراضى المقدسة ، ولهذا أرسلت هاتين البعثتين المنفصلتين (١١٢) للتفاهم مع الغزاة ، وكذلك لتوحيد الكنائس الشرقية تحت لواء البابوية ، وجمع معلومات عن نية المغول وأهدافهم فى غرب اسيا ، كما كانت البابوية تهدف من وراء ذلك حث المغول على اعتناق المسيحية الكاثوليكية والتكفير عن ذنوبهم والكف عن قتل السكان المسيحيين أو تدمير املاكهم والدعوة إلى حسن معاملتهم (١١٣) .

ولما كان أسيلين اللومباردى قد خرج من مدينة ليون بمفرده ، فإنه أشرك معه أربعة من الرهبان الدومنيكان من الأديرة التى كان يمر بها حتى أصبحت البعثة تتألف من خمسة أفراد أهمهم أسيلين نفسه ، وسيمون أوف سانت كوينتين ، وجويشارد دى كريمونا وكان الأخير من أعضاء الدومنيكان فى تفليس عاصمة جورجيا المسيحية ويجيد لغات تلك المنطقة ويعرف عادات سكانها وتقاليدهم ، وعن طريقه حصل السفراء على معلومات تاريخية هامة دونها سيمون فى تقريره عن غزو المغول لآسيا الصغرى .

ومن مدينة أياس عبر السفراء أرمينيا وجورجيا حتى تقابلوا مع القائد المغولى فى آسيا الصغرى فى منطقة سيسان Sisian (أو Sitiens) قرب الشط الجنوبى الغربى لبحر قزوين شمال تبريز . ولما كانت تعليمات البابا لهم بتسليم رسائله لأول قائد مغولى يقابلونه ، فإن بعثة أسيلين سلمت هذه الخطابات للقائد بايجو Baiju (وينطق أحيانا Baiiothnoy أو Baiotney) الذى طلب من الرسل التوجه شرقا لتسليمها إلى الخاقان شخصيا^(١١٤).

ويصف سيمون أوف سانت كوينتين ما حدث لهذه البعثة فى مقر القائد المغولى فى يولية عام ١٢٤٧م وكيف رفض الرهبان الركوع للقائد المغولى بحجة أنهم يمثلوا الأب الأعلى لكل المسيحيين على الأرض . كما أن عدم إحضارهم هدايا - كما تعود المغول من بقية السفراء تعبيرا عن الولاء للمغول - حمل بايجو على أن يصدر حكمه بإعدام أعضاء البعثة كلها . ولكن بعض قواده اقترحوا إعدام بعضهم - ومنهم أسيلين نفسه - وإرسال رموسهم مع الأحياء منهم للبابا . ولم ينقذهم من هذا المأزق سوى وصول مبعوث من الخاقان المغولى فى قراقورم وهو الجيجداى Eljigidei وكان على دراية ببعثة بلاتو الكاريينى إلى قراقورم ورد الخاقان عليها فى العام السابق . وطلب الجيجداى من بايجو إطلاق سراح أسيلين ورفاقه والرد على الرسائل التى حملوها من البابا بمثل ردود الخاقان على الأخير مع بلاتو الكاريينى ، ولهذا كانت إحدى الرسالتين اللتين بعث بهما بايجو للبابا مماثلة تقريبا لسابقتها ، حيث طلب بايجو من انوسنت الرابع المشول بنفسه أمام «سيد البشر» فى قراقورم . وفى رسالته الثانية ندد بايجو للبابا من غطرسة السفراء ورفضهم الركوع أمامه وحماقاتهم المتكررة بقولهم أن سيدهم أعلى مقاما من الخاقان نفسه^(١١٥).

وبناء على طلب الرهبان فان بايجو أرسل معهم اثنين من السفراء هما أبيع Ai-beg وسرجيس ، ويعتقد أن الأول من أصل تركى ، والثانى نسطورى ، وذلك لتوصيل رسائله للبابا ، وربما للتجسس على الغرب^(١١٦).

وهكذا فشلت بعثتا الدومنيكان - مثلما فشل الفرنسيون من قبل - فى تنصير المغول . أو تحقيق تقارب معهم أو حتى حثهم على وقف اعتداءاتهم على المسيحيين . والنجاح الوحيد لهذه السفارات ينحصر فى التقارير والمعلومات التى حملها الرهبان للغرب الأوربي عن المغول وحياتهم وعقائدهم ونظمهم الاجتماعية والقانونية ، إلى جانب المعلومات التاريخية والجغرافية الكثيرة عن المناطق التى زاروها والطرق التى ارتادوها . وكان لهذه المعلومات أثرها المباشر على فتح طرق التجارة أمام تجار المدن الإيطالية ، وكانت هذه البعثات رائدة لغيرها من بعثات تبشيرية فى المائة عام التالية » .

والمهم أن سفارة بايجو وصلت - برفقه بعثة آسيلين اللومباردى - إلى مدينة ليون الفرنسية فى سبتمبر أو أكتوبر عام ١٢٤٨م . ويقرر متى الباريسى فى حوادث ذلك العام « أن مبعوثين تتارين قد حضرا من قبل أميرها إلى البابا » ويقرر متى الباريسى أيضاً أن البابوية قد أحاطت السفارة المغولية بالكتمان الشديد ، « وأن الرسائل التى حملتها قد ترجمت من لغة غير معروفة » . وبغض النظر عن تأويلات متى الباريسى لغرض هذه السفارة ، فإن البابا قد تقابل مع سفيرى بايجو وعقد معهم عدة اجتماعات ليعرف مدى استعداد المغول لاعتناق المسيحية ، وبعد ذلك سمح لهما بالعودة ، بعد أن زودهما بالرسائل والهدايا للقادة المغول ومنح البابا هدايا « من الذهب والفضة » لشخصى السفيرين طبقاً لرواية متى الباريسى (١١٧) .

وكانت رسائل أنوسنت الرابع إلى بايجو وزملائه قائل فى المضمون تقريباً تلك التى حملها بلاتو الكارينيى للخاصان المغولى قبل ذلك بثلاثة أعوام . فبعد أن أبلغ المرسل إليهم باستقباله الحار لسفرائهم ، ذكر أن من واجبات منصبه السامى أن يحقق الوحدة بين كل البشر أمام الرب لتخليص أرواحهم من الذنوب قبل الموت المحقق . ولهذا - على حد قول البابا - فهو قد أرسل المبعوثين ليشرحوا مبادئ العقيدة لهم . ومضى البابا يقول إن استمرار العناد المغولى جعله يشعر بالقلق والألم معا ، ومن ثم فهو يعاود حثهم على اعتناق المسيحية لأنهم بذلك سوف يتوقفون عن سفك الدماء خاصة ضد المسيحيين لأن هذا « عمل عدائى ضد الرب » (١١٨) .

وهكذا فإن كل الردود التى تسلمها أنوسنت الرابع من المغول تأمره بالثول بين أيديهم والاعتراف بأنه أحد أتباعهم وتقديم الطاعة والولاء والجزية لهم . كما أن رسائله إليهم كانت تدعوهم لاعتناق المسيحية ، والكف عن قتل المسيحيين (لأنه لم يكن يهمه غيرهم) . وتعتبر السفارة المغولية برفقة آسيلين اللومباردى هى السفارة المغولية الأولى للغرب . ولكن البابوية

لم تجد ما يشجعها على الاستمرار فى إرسال السفراء للمغول خوفا على حياتهم ، وذلك لأن أعضاء بعثة أسيلين نفسها كان مُقررًا لهم الإعدام. وهكذا فشلت البعثات فى عهد انوسنت الرابع فى تحقيق الأهداف السياسية والدينية المرجوة. لأن الجانبين كانا على طرفى نقيض فكلاهما كان يدعى السمو على الجانب الآخر والسيادة على العالم ، وكلاهما ادعى أنه ممثل السماء على الأرض ، وأن قراراته لها صفة القداسة. كما أن المغول لم يكونوا حتى ذلك الوقت بحاجة إلى التعاون مع الأوروبيين أو التفاوض معهم . فانتصاراتهم كانت كاسحة ، وجيوشهم لا يقف أمامها أحد ، وأمر رئيسهم الأعلى نافذ على الجميع، ولم تكن امبراطوريتهم الواسعة قد قسمت بعد إلى عدة أقاليم متنازعة .

الاتصالات بين المغول ولويس التاسع (١١٩)؛

كان أول رد فعل إيجابى من المغول تجاه الغرب الأوروبى مرتبطا بحملة الملك الفرنسى لويس التاسع على مصر (١٢٤٨-١٢٥٠) فيقول جوفانفيل - الذى كان مراقبا للحملة الصليبية السابعة ومؤرخها - أنه «بينما كان الملك مقيما فى قبرص أنفذ إليه ملك التتار العظيم رسولين من قبله يحملان له رسائل طيبة كريمة وكان من بين ما ذكره ملك التتار استعداداه لمعاونة الملك (الفرنسى) فى غزو الأراضى المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين» (١٢٠).

وثمة شكوك كثيرة حول حقيقة إرسال هذين «الرسولين» برسالة من قبل أى قائد مغولى فى وسط آسيا أو آسيا الصغرى أو فى قراقورم لعدة أسباب منها : -

أولا : أن السفيرين داوود ومارك - وهما موفدين من بايجو- من المسيحيين النساطرة وليسوا من المغول أو واحدا منهما على الأقل ، مثلما كان الأمر فى أول بعثة مغولية للغرب. إذ كيف يأمن المغول- وهم فى أوج قوتهم - أن يتفاوض أثنان من رعاياهم من السكان المحليين باسمهم مع الغرب الأوروبى- تلك المنطقة التى كانوا يخططون للاستيلاء عليها- كما يقول بلانو الكاريينى نفسه ؟ .

ثانيا : أن الخطاب الذى حمله هذا السفيران إلى لويس التاسع فى قبرص - حسبما أورده متى الباريسى (١٢١) ، يختلف نصه جملة وتفصيلا عن الخطابات التى أرسلها نفس الخاقان : كيوك خان إلى البابا مع بلانو الكاريينى وتلك التى أرسلها بايجو ومعه الجيجداى -El-jigidei- القائد المغولى الجديد فى فارس - إلى الباب . وقد درسنا آنفا أن هذه الرسائل

دعت البابا إلى المثل بنفسه على رأس ملوك الغرب الأوربي لتقديم الولاء للمغول . وليس معقولا أو متصورا أن الموقف قد تغير تماما في مدى ستة شهور .

ثالثا : أن النص الكامل الذي أورده متى الباريسى لهذه الرسالة - التي وصلت إلى لويس التاسع في قبرص في ديسمبر عام ١٢٤٨م - يختلف تماما عن المقتطفات التي أوردها جوفانفيل عن فحوى هذه الرسالة . فالنص الذي نشره المؤرخ الإنجليزي يتعلق بكيفية معاملة التتار للمسيحيين والدعوة لعدم التفرقة بين مذاهبهم ، وليس بها إلا التمنى بنصرة المسيحية «فوق أعدائها الذين يحتقرون الصليب» ولكن جوفانفيل يقول صراحة « أن من بين ما ذكره ملك التتار استعداداه لمعاونة الملك (لويس) في غزو الأراضي المقدسة وتخليص بيت المقدس من المسلمين » ورغم أن جوفانفيل كان موجودا مع مليكه إبان وصول رسل المغول ووداعهم ويفترض فيه أنه أكثر ثقة وموضوعية من متى الباريسى ، ولكن واقع الأمر يدحض ذلك تماما لعدة عوامل هي :-

أ- أن المندوب البابوي في حملة لويس التاسع أرسل نسخة من هذه الرسالة - من قبرص - إلى البابا انوسنت الرابع - ومعها أخبار مبالغ فيها عن تحول المغول إلى المسيحية بناء على هذه الرسالة . ومن ثم نقل المؤرخ الإنجليزي هذه الرسالة وتلك الأخبار فورا في حوليته (١٢٢) ، ولكن جوفانفيل كتب مذكراته بعد قرابة خمسة وخمسين عاماً من أول مصاحبة له للويس التاسع في حملاته على مصر والشام أي في الفترة بين ١٣٠٥ و ١٣٠٩م حينما كان في العقد التاسع من عمره (١٢٣) .

ب- وبناء عليه ، ربما تكون الذاكرة قد خانت جوفانفيل في تسجيل وقائع هذه السفارة المغولية مثلما خانت في مواضع أخرى من مذكراته منها أنه ذكر أن سقوط بغداد في يد المغول كان في أثناء وجود لويس التاسع في بلاد الشام (١٢٤) (١٢٥٠-١٢٥٤) وهذا ليس صحيحا لأن ذلك حدث بعد أربعة أعوام من رحيل الملك الفرنسي وقواته من الشرق .

ج- ربما أدى تقدم العمر بالمؤرخ الفرنسي للخلط بين العديد من سفارات مغول فارس التي ذهبت مراراً إلى فرنسا بدءاً من العقد السابع من القرن الثالث عشر حتى العقد الأول من القرن الرابع عشر لعرض التحالف مع الملوك الأوربيين ومنهم ملك فرنسا ضد المالكين نظير مساعدة المغول «للفرنجة» في تخليص بيت المقدس من المسلمين - وبين سفارتهم إلى لويس التاسع في قبرص عام ١٢٤٨م .

ومهما يكن من أمر ، ففي الرسالة - موضع الشك - يخاطب الراسل الملك الفرنسى بكل الود والاحترام ويصفه بأنه «الملك العظيم» ... سيف العالم ، نصير الملة المسيحية ، ويدعو الرب «لنصرة المسيحية فوق أعدائها الذين يحتقرون الصليب» ويمضى الراسل فى سرد ما فعله للمسيحيين فى إقليمه من عدم التعرض لهم وإعادة بناء كنائسهم وإعفائهم من الضرائب . وبلغ الملك الفرنسى أن المبعوثين (مارك وداوود) سوف يخبرانه شفاهة بهذه الأخبار الطيبة بالتفصيل . وما يجعل الباحث أن يعتقد أن كاتب هذه الرسالة هو جاثليق (أو بطريق) النساطرة فى تبريز- (وليس القائد المغولى فى آسيا الصغرى كما يعتقد متى الباريسى أو «ملك التتار العظيم» كما كتب جوانفيل) وأنه أرسل بها هذين المبعوثين على أنها من قبل المغول العبارة التى وردت فى نهاية هذه الرسالة وترجمتها : «وبعد ذلك فانه طبقا لنا موسى المسيح فانه لا يوجد هناك أية فروق بين (المسيحيين) اللاتين والإغريق والأرمن والنساطرة واليعاقبة وغيرهم ممن يبجلون الصليب لأنهم جميعا فى درجة واحدة فى نظرى . ومن ثم فنحن نطلب من الملك (لويس) العظيم ألا يضع تمييزا بينهم ، بل تكون رحمته دائمة فوق كل المسيحيين ..» (١٢٥).

فالنساطرة وحدهم هم الذين كانوا يعانون من هذه التفرقة منذ الحكم على زعيمهم نسطور بالهرطقة فى مجمع افسوس عام ٤٣١م (١٢٦). وكان بين هذا البطريق والبابا انوسنت الرابع رسائل متبادلة عن طريق مبعوثى الرهبان الدومنيكان : أندريه لوتجيجيمو - وآسيلين اللومباردى قبل ذلك بعدة شهور . ومن ثم فرميا أرسل البطريق سفارة من قبله للبابا وأن هذه السفارة - حين علمت بوجود لويس التاسع وقواته فى قبرص - عرجت على هذه الجزيرة ، وقامت بتسليم الرسالة للملك الفرنسى ، وحينما تأثر السفيران بحوار الاستقبال فانهما أضافا الكثير من المبالغات ، خاصة وأن نص الرسالة يوضح أنهما سيبلغا المرسل إليه شفاهة بـ «أخبار طيبة» كما أنه لو حدث ذلك فعلا لكان إنجازا لهم يباهون به الغرب الكاثوليكي الذى ينظر إليهم على أنهم منشقين وهراطقة . حتى أن وليم روبروك - الراهب الفرنسيسكانى الذى زار قادة المغول فى روسيا وقرقورم (١٢٥٣-١٢٥٥م) قال إن النساطرة «تعودوا أن يبالغوا فى الحقيقة بعشرة أمثالها وأنهم ينشرون الإشاعات من لا شئ» (١٢٧).

ومهما يكن الراسل أو مضمون الرسالة ، فان لويس التاسع استقبل السفيرين بحفاوة بالغة وأرسل معهما بعثة من قبله على رأسها أندريه لوتجيجيمو - باعتبار أن الأخير له خبرة سابقة

فى السفر إلى المغول والتعامل معهم ، وزودها برسائل وهدايا ثمينة منها خيمة على هيئة كنيسة صغيرة وبعض الرفات المسيحية وبعض الأشياء اللازمة لإقامة القداس (١٢٨). وقطعت هذه السفارة الرحلة من قبرص إلى انطاكية ثم إلى الموصل ، ومنها إلى تبريز ، حيث أرسلها القائد المغولى الجيجداى إلى قراقورم . وكانت زوجة كيوك خان وصية على العرش بعد وفاة زوجها . ولضعف مركزها فى البلاط المغولى ، فانها استدعت ممثلين عن أتباع المغول الآسيويين لمشاهدة ما اعتبرته رمزا لولاء الملك الفرنسى . وعبرت عن ذلك بقولها « أيها السادة ، لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمسا عطفنا للدخول فى طاعتنا ، وهاكم الجزية التى أنفدنا إلينا فانظروها ، فإذا لم تستسلموا لنا فاننا مرسلون فى طلبه للقضاء عليكم » (١٢٩).

ولهذا فان الرد المغولى الذى حملته أندريه لوتجيجيمو إلى لويس التاسع لا يختلف عن ردودهم السابقة على البابوية وجاء فيه « ... لن نعرف معنى السلام إلا إذا عقدته معنا ... لذلك ننصحك أن تبعث إلينا عاما بعد عام بشئ من ذهبك وفضتك ... فان لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك كما فعلنا مع غيرك من الملوك ... » وكان طبيعيا إزاء هذا الرد المحبط - كما يقول جوانفيل - أن يندم لويس التاسع « أشد الندم على إرساله رسلا » (١٣٠) للمغول. والمهم أنه فى تلك الأثناء هزمت قوات لويس التاسع وأسر الملك الفرنسى بالمنصورة ورحل ملك فرنسا وقواته من مصر بعد دفع فدية ضخمة ، ووصلته بعثة أندريه لوتجيجيمو - ومعها السفراء المغول بالرد السابق اقتباسه - وهو فى قيساريه فى مارس عام ١٢٥١م (١٣١). ولهذا لم يكن لهذه الاتصالات مع المغول أدنى تأثير على مجريات الأحداث ، ولم تحرز أى تقدم فى تقارب أوروبى - مغولى دينيا أو سياسيا .

بعثة ولیم روبروك للمغول (١٢٥٣-١٢٥٥م)

أثناء وجود لويس التاسع وقواته فى بلاد الشام (١٢٥٠-١٢٥٤) ترامت إليهم الأنباء - عن طريق المسيحيين الشرقيين عامة والأرمن خاصة - عن حسن معاملة المغول لرجال الدين المسيحيين ، وأن سارتاك بن باتوخان قد تنصر ، وأن عددا من قادة المغول فى طريقهم إلى اعتناق المسيحية وأنهم بحاجة إلى رهبان يعلمونهم أصول تلك العقيدة ، وأن كثيرا من الأسرى الأوربيين - الذين أسرتهم القوات المغولية من أوربا فى عامى ١٢٤٠-١٢٤١م متواجدون فى وسط آسيا ومعزولون عن الكنيسة وعن أية مساعدة وأنهم بحاجة إلى رجال الدين لإقامة الشعائر الدينية لهم (١٣٢).

ولهذا فان الراهب الفرنسيسكانى وليم روبروك William Rubruck استأذن مقدم الفرنسيسكان فى الأراضى المقدسة ومليكته (لويس التاسع) فى الذهاب إلى مغول روسيا (القفجاق) لمقابلة سارتاك للتبشير بين المغول ، والبحث عن الأسرى الأوروبيين وذلك بمبادرة شخصية منه فى بعثه دينية للمغول .

وقد انقسم المؤرخون فى تفسير ماهية رسالة روبروك فى الشرق : هل كان مبعوثا رسميا من الملك الفرنسى لقادة المغول (١٣٣)، أم أن بعثته كانت مبادرة منه باعتباره راهبا فرنسيسكانيا من واجباته ومستوليته للتبشير بالمسيحية بين من لا يدينون بها (١٣٤). ورغم أن هؤلاء المؤرخين لم يوضحوا أسبابهم لنفى إحدى وجهتى النظر أو تأييدها ، إلا أنه بعد الرجوع إلى التقرير الذى كتبه وليم روبروك نفسه والذى نشر وترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية الحديثة ، يمكن كشف الغموض عن هذا الأمر بجلاء .

فالذين يقولون بالطابع الرسمى لبعثة وليم روبروك لهم عدة مبررات من أهمها :-
أولا : أن وليم نفسه كان فرنسيا من منطقة روبروك بجوار مدينة كاسل باقليم الفلاندرز الفرنسى

ثانيا : أن الملك لويس التاسع أرسل معه أحد الفرنسيين محملا بالهدايا إلى قادة المغول وأيضا زوده بخطاب إلى سارتاك ، وأن الخاقان المغولى قد أرسل بدوره رسالة إلى الملك الفرنسى مع وليم روبروك ونشرها الأخير فى تقريره .

ثالثا : أن وليم روبروك كتب تقريره الطويل عن كل ما صادفه وسمعه ورآه عن المغول على هيئة خطاب مرفوع إلى ملك فرنسا ، وهذا كله يؤيد الطابع الرسمى لهذه البعثة .

ولكن الدراسة النقدية الفاحصة لتقرير وليم نفسه تنفى أنه كان مبعوثا رسميا للملك الفرنسى للأسباب الآتية :

أولا : أعلن وليم روبروك نفسه - عدة مرات وفى عدة مناسبات فى تقريره وأمام القادة المغول أنفسهم - أنه ليس مبعوثا من قبل الملك الفرنسى ولكنه قدم إليهم بصفته راهبا فى هيئة الفرنسيسكان (١٣٥). وكان أيسر وأفضل لوليم روبروك أن يقول لهم أنه مبعوث ملك فرنسا لأن ذلك أدعى لمزيد من التقدير والتبجيل له ، لهذا وجد كثيرا من القسوة والجفاء لأنه لم يكن يمثل أحدا من ذوى الحيشة والنفوذ ، وأنه - على حد روايته - كان يتنقل فى قصورهم حافى القدمين عارى الرأس فى ملابس الرهبان الرثة ، لأنه لا يمثل إلا نفسه فقط باعتباره أحد الفرنسيسكان الذين تدربوا على حياة التقشف وشظف العيش .

ثانيا : أن خطاب لويس التاسع إلى سارتاك - كما يروى ولیم نفسه - كان لتهنئته باعتراف الدين المسيحي ، ويدعوه لحسن معاملة المسيحيين ، وكذلك حسن استقبال روبروك ورفاقه والسماح لهم بالبقاء بين ظهرائي المغول للتبشير بالعقيدة المسيحية (١٣٦). أى أنه بمثابة خطاب تذكية لتقديم الحماية المعنوية لروبروك حتى إذا رفض رجال القصور السماح لهذا الراهب حافى القدمين عارى الرأس بمقابلة سادتهم ، فعلى الأقل سيقراً هؤلاء القادة خطابات ملك فرنسا ويعرفوا أهمية هذا الراهب وغرضه .

ثالثا : أن ولیم روبروك فى نهاية تقريره يقول للملك الفرنسى أنه وصل إلى طرابلس (فى ١٥ أغسطس عام ١٢٥٥م) وأن مقدم هيئة الفرنسيسكان بالأراضى المقدسة رفض السماح له بالذهاب إلى فرنسا ، وطلب منه أن يكتب ما يريد إلى الملك كى يرسله مقدم الفرنسيسكان مع أحد الرهبان لفرنسا ، ومن ثم فإن ولیم يعتذر للملك الفرنسى عن عدم مقابلته بل ويقول له « وإننى أرجوك أن تكتب إلى الرئيس (يقصد رئيس دير الفرنسيسكان بالأراضى المقدسة) وتطلب منه أن يأذن لى بأن أحضر إليك وبعد مقابلتك سوف أعود ثانية للأراضى المقدسة بعد وقت قصير » (١٣٧). وتروى مصادر أخرى أن لويس التاسع بعد تسلمه تقرير ولیم روبروك عن المغول والتناسه هذا فانه تدخل لدى رئيسه فى الشرق ، وذهب ولیم إلى فرنسا فعلا بعد ذلك. وهذا يدل دلالة واضحة على أن ولیم ذهب للمغول - كما يقول هو نفسه - باعتباره أحد أعضاء الفرنسيسكان وليس سفيراً من قبل ملك فرنسا ، لأنه لو كان سفيراً لما كان فى حاجة للذهاب للأراضى المقدسة (بعد رحيل لويس التاسع عنها) لاستئذان رئيسه للذهاب إلى فرنسا ، ولما كان بحاجة إلى تدخل الملك الفرنسى بنفسه لدى رئيسه كى يلتبس منه الإذن لولیم روبروك بالذهاب إليه فى فرنسا .

ولكن هذا كله لاينفى أيضا رغبة الملك الفرنسى فى إعادة فتح باب المفاوضات مع قادة العمليات المغولية فى شمال آسيا وشرق أوروبا ريثما يفلح فيما فشل فيه سابقا مع قادة المغول فى وسط آسيا وشرقها . ولهذا فانه شجع رحلة ولیم روبروك وباركها وزوده بالهدايا والرسائل والمؤن ، وطلب منه أن يكتب له عن كل كبيرة وصغيرة يراها أو يسمع عنها عند أو عن المغول كى يعرف نواياهم تجاه الغرب الأوربى وإمكانية تحويلهم إلى المسيحية - خاصة بعد الانباء التى وصلتته عن تنصر سارتاك وحسن معاملة المغول للمسيحيين بين ظهرائهم .

ومهما يكن من أمر فقد غادر وليم روبروك ورفاقه مدينة عكا فى بداية عام ١٢٥٣م ، ووصلوا إلى القسطنطينية التى أقاموا فيها حتى أول يونيو للراحة والتزود بالمؤن وجمع المعلومات عن مغول روسيا . وبعد رحلة لمدة شهرين فى جنوب روسيا فانه تقابل مع سارتاك وسلمه رسالة لويس التاسع فى أول أغسطس ١٢٥٣ مع ترجمة لها بالعربية والسريانية (١٣٨).

وفى اليوم التالى أخبره كويك : الراهب النسطورى القائم على خدمة سارتاك « أن (الملك (الفرنسى) كتب عبارات ثناء لسيده (سارتاك) ولكن (خطابه) يحتوى على مسائل صعبة لايجرؤ على أن يفصل فيها بدون نصيحة والده (باتو) ومن ثم يجب عليكم أن ترحلوا لوالده» (١٣٩). وذلك فى إشارة واضحة لرفض سارتاك السماح لوليم ورفاقه بالبقاء فى إقليمه للتبشير بالمسيحية ، وفى موضع آخر من تقريره فان وليم روبروك يقول إن سارتاك ومانجوخان (الخاقان الجديد ١٢٥١-١٢٥٩م) لا يعتنقا المسيحية بل أنهما فقط يعطيان احتراماً كبيراً للمسيحيين (١٤٠).

والمهم أنه بعد وصول وليم روبروك إلى حضرة باتوخان - (مؤسس مغول القبيلة الذهبية وعاصمتها سراى فى الخوض الأدنى لنهر الفولجا) - فانه ركع أمامه طبقاً للعادة المغولية حتى لا يتكرر معه ما حدث مع آسيلين اللومباردى . وخاطب باتوخان قائلاً بأنه «لن ينال مغفرة السماء دون أن يكون مسيحياً» ، حتى أن قادة المغول فى حضرة باتو قد ذهلوا من هذه اللهجة غير الودية ، ويقول روبروك أن المترجم «ارتعدت فرائصه وحبست أنفاسه ، ولكننى شجعته على ألا يخاف» (١٤١) . وكالعادة لم يستطع باتوخان أن يفصل فى الأمر بمفرده ، فأرسل الرهبان الفرنسيسكان إلى قراقورم التى وصلوها فى يناير ١٢٥٤م (١٤٢).

وقد شاهد وليم روبروك كنيسة صغيرة قريبة من القصر الامبراطورى بها مجموعة من الأيقونات الثمينة وبها راهب أرمنى . وأبلغه الأخير أن عليه أن يبلغ الخاقان بأنه لو اعتنق المسيحية فان كل العالم سيخضع لسلطانه وأن الفرنج والبابا نفسه سيكونوا تابعين له . ولكن وليم أبلغ محدثه أنه يسعده لو أن الخاقان اعتنق المسيحية لان هذه هى مهمته ، ولكن سيعد ، أن البابا والفرنج سيكونون أصدقاءه واخوته فى الدين ولكنه لا يستطيع أن يعده أنهم سيكونوا له أفضالا يقدمون له الجزية مثل بقية الشعوب (١٤٣).

وقد تناول وليم - فى تقريره - بشئ من التفصيل أوضاع المسيحيين فى عاصمة المغول والمحاورات - تحت إشراف الخاقان - بين ممثلى الأديان المختلفة (١٤٤) بصورة توضح أن المغول كانوا غير متعصبين لديانة بعينها .

وعند مقابلته لمانجوخان ، فان وليم روبروك أبلغه بأن سبب ذهابه لبلاده هي سماعه باعتناق سارتاك للمسيحية ، وأنه حضر لمقابلته حاملا رسالة من الملك الفرنسي ولكن سارتاك أرسله لوالده باتوخان والأخير أرسله ورفاقه إلى قراقورم .

وقد شرح وليم للخاقان بأن من واجباته « تعليم الناس أن يعيشوا وفقا لشرعة الرب ... وأنت رجل قد أعطاك الرب ممالك شاسعة على الأرض ، ولهذا فنحن نرجو أن تعطف علينا بالسماح لنا بالبقاء هنا في بلادك كي نقوم بخدمة شئون الرب نيابة عنك وعن زوجاتك وأولادك . نحن لانملك ذهباً ولافضة ولا معادن ثمينة لنقدمها هدية لك ولكننا نملك فقط أنفسنا التي نقدمها لخدمة الرب والدعاء له من أجلك .. » (١٤٥) . وأجاب الخاقان بنغمة متعالية أن ممالكه تنتشر في كل مكان مثل أشعة الشمس وأنه ليس بحاجة إلى الذهب والفضة (١٤٦) .

والمهم أن مانجوخان سمح للربان بالبقاء في عاصمته عدة شهور . وأرسل الخاقان في ٣٠ مايو ١٢٥٤م يخبرهم أنهم قضوا عدة شهور في بلاده وعليهم الرجوع إلى بلادهم وسألهم عما إذا كانوا يرغبون في اصطحاب سفراء للمغول معهم لأوربا ، ولكن الربان أجابوه بالنفي المهذب بدعوى عدم ضمان سلامتهم (١٤٧) .

وبهمنا هنا أن نذكر أن الخطاب الذي أرسله الخاقان إلى الملك لويس التاسع - مع وليم روبروك ، وأورد الأخير نصه كاملا في تقريره - لا يختلف في لهجته المتعالية عن خطابات كيوك خان وزوجته للبابوية ولويس التاسع قبل ذلك بعدة أعوام .

فيبدأ الخاقان المغولي - رسالته بقوله : « هذا مرسوم الرب الخالد ، يوجد في السماء رب واحد خالد ، ويوجد في الأرض سيد واحد هو جنكيز خان ابن الرب » ويضئ الخطاب قائلاً أن العالم سيكون في سلام وأمان في حالة واحدة فقط هي خضوعه من مطلع شروق الشمس إلى موضع غروبها تحت إمرة الخاقان المغولي « سيد العالم » وأنه على الملك الفرنسي أن يسرع بتقديم الطاعة والولاء وإرسال الرسل والجزية . وحذر مانجوخان لويس التاسع من الاعتقاد بأن بلاده بعيدة وأن جباله مانعة وأن بحاره واسعة (١٤٨) ، لأنه لن يفلت من قبضة المغول .

ولهذا السبب فان وليم روبروك ينصح ملك فرنسا بعدم إرسال رهبان إلى التتار ، ولكن من الأفضل - على حد قوله - إرسال أسقفا بصحبة عدة مترجمين أكفاء للرد فقط على حماقات التتار وبذاءاتهم التي أرسلوها إلى البابا وإلى الملك الفرنسي عدة مرات (١٤٩) .

وهكذا فشلت أيضا بعثة وليم روبروك فى جذب قادة المغول للمسيحية أو حتى البقاء بين المغول للتبشير بهذه الديانة ، أو فى تحقيق أى درجة من درجات التقارب بين الغرب الأوروبى من ناحية وبين المغول (السادة الجدد للعالم كما كانوا يعتقدون) من ناحية أخرى .

الخاتمة :

كان اهتمام أوروبا بوسط آسيا وجنوبها فى العصور الوسطى المبكرة يرجع إلى حاجتها إلى التوابل والتحرير والمنسوجات وغيرها من منتجات آسيوية وجدت رواجاً فى الأسواق الأوروبية . وبعد ظهور الإسلام وسيطرة المسلمين على غرب آسيا وشمال أفريقيا ، فإن الاتصال المباشر بين أوروبا ووسط آسيا أصبح صعباً إلا عن طريق وسطاء من التجار المسلمين وغيرهم . وقد انتشرت شائعات وأساطير - فى عصر الحروب الصليبية - فى الغرب الأوروبى عن وجود مملكة مسيحية فى الهند ، ثم عن مملكة الكاهن يوحنا المسيحية وذلك فى مناسبات وأوقات حاجة الصليبيين فى الشرق إلى نجدات جديدة كلما حقق المسلمون انتصارات عليهم ، وتطورت هذه الأسطورة - فى نظر الأوربيين - بتطور الأحداث السياسية فى آسيا ، وحاول الغرب أن يجد فى جنكيز خان وخلفائه صورة لما توقعوه من أحلام فى الكاهن يوحنا ومملكته المسيحية التى تتحالف معهم ضد المسلمين .

ولكن القوات المغولية دمرت معظم مدن روسيا وبولندا والمجر ومورافيا وعانت فساداً فى منطقة الادرياتي وبلغاريا دون أن تجد أية مقاومة منظمة من الغرب الأوروبى فى وجهها . وكان الصراع بين البابوية والامبراطور فريديريك الثانى وتدهور مركز البابوية من أسباب فتور رد الفعل الأوروبى تجاه الغزو المغولى ، ولم يشغل ملك إنجلترا نفسه بالأمر لأنه يعرف أن المغول لا يستطيعوا عبور القنال الإنجليزي ، والملك الفرنسى وعد بالتحرك ولكن إذا قدم المغول إلى بلاده ، والامبراطور فريديريك الثانى وعد بالتحرك بعد هزيمته للبابا ! وكانت وفاة الخاقان المغولى (أوجوداى فى ديسمبر ١٢٤٠م) إنقاذاً لبقية أوروبا من دمار محقق وخضوع للسيطرة المغولية .

ولم يكن فى جعبة البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) سوى الاتصالات الدبلوماسية التى كان لها طابع دينى وسياسى مع قادة المغول : لتنصير الأخيرين ولإبعاد خطرهم عن أوروبا . ولكن خطابات قادة المغول أمرته بالذهاب بنفسه لتقديم الولاء لسادة العالم الجدد . وجاءت الفرصة للويس التاسع عن طريق مبادرة مغولية ، ولكنه اكتشف أن السياسة المغولية

لم تتغير بعد . وذهب إليهم وليم روبروك (١٢٥٣-١٢٥٥) فى بعثة دينية للتبشير بينهم ، ولكنهم رفضوا بقاءه فى بلادهم ، وأرسلوا للملكه للمساعدة بتقديم فروض الطاعة والولاء لهم. وهذا كله لأن ميزان القوى كان يميل بشدة لصالح المغول ولأن الأخيرين لم يكونوا فى حاجة للأوروبيين بعد .

ولكن بعد أن استقر الأمر على تقسيم الامبراطورية المغولية إلى أربعة أجزاء بين أحفاد جنكيز خان فى باكورة النصف الثانى للقرن الثالث عشر بدأت مرحلة جديدة فى العلاقات بين إحدى هذه الأجزاء : وهى مغول فارس - مع الغرب الأوروبى وذلك لحدوث تغيرات جذرية فى ميزان القوى فى منطقة الشرق العربى الاسلامى منذ بداية النصف الثانى للقرن الثالث عشر وهذا هو موضوع الفصل الثانى من هذه الدراسة .

الهوامش

١- للتفاصيل انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ، حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول : غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية . القاهرة ، ١٩٤٩ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، J.J. Saunders : The History of the Mongol Conquests . London , 1971 ; Chambers , James : the Devil`s Horsemen The Mongol Invasion of Europe . London ; 1979 ,

وكذلك المصادر والمراجع الواردة فى هوامش هذا الفصل .

2- Vernadsky : The Mongols and Russia . New Haven , 1953 , p. 40 .

3- The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471 . Trans . from Russian by Robert Mitchell and N. Farbes . Camden Third Series , vol . XXV , London . 1914 , p. 64 .

٤- كانت منطقة جنوب روسيا الواقعة فى الحوض الأدنى لنهر الفولجا والدون وشمالى بحر قزوين والبحر الأسود مصدرا لابتضاب للعديد من الهجرات للقبائل البدائية لأوروبا . فأولا وفد الهون فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، والآقاز فى النصف الثانى للقرن السادس (والذين حطمهم شلمان بعد ذلك) ، وقبائل البشتاق من ٨٩٠ حتى ٩٠٠ تقريبا ، من قبلها قبائل المايجار الذين استقروا فيما يعرف بالمجر فى الدانوب الأدنى فى منطقة الاستبس الممتدة من الدون حتى الدانوب ، وبعدها قبائل الكومان (القفجاق) الذين استقروا فى الدانوب الأوسط وهاجروا أمام الزحف المغولى إلى المجر . وجميع هذه القبائل تشترك فى كثير من الصفات مع المغول أنفسهم . وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ظهرت قبائل الكومان على مسرح الأحداث كقوة يعمل حسابها من جيرانهم البيزنطيين والإمارات الروسية والمجر . وفى نهاية القرن الحادى عشر استخدمهم الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين ضد قبائل البشتاق والأترار السلاجقة فى آسيا الصغرى واستخدمهم أيضا أحد امراء المجر ضد المجر فى نزاعهما على مناطق الحدود بينهما ، Cf . Denis Senior : History of Hungary . London . n . d . , pp . 66 , 67 ; Cheshire , Harold . T., "The GreatTartar Invasion of Europe , "in the Slavonic Review , vol . 5 , 1926- 7 , pp. 89-90 .

5- The Chronicle of Novgorod , pp . 65-66 .

٦- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص ٣٤٠، ٣٤١ .

7- Vernadsky : The Mongols and Russia , pp. 48,49 .

8- Loc . cit .

9- The Chronicle of Novgorod , p. 81 .

- 10- Chambers , James : The Devil's Horsemen : The Mongol Invasion of Europe . London , 1979 , pp. 70-71 ; Saunders , J. ; The History of the Mongol Conquests . London , 1971 , pp. 81, 82 .

١١- انظر حاشية رقم ٤٤ من هذا الفصل ، وما هو جدير بالذكر أن الكومان والماجيار (المجريين) من أصل واحد ومنطقة واحدة ، ويتحدثون لغة . واحدة ولكن الكومان ظلوا في المنطقة الأم يعيشون على الرعى وكمترزقة في الحروب لدى حكام الأقاليم المجاورة . واهتم الدومنيكان المجريون بتنصير إخوانهم قبائل الكومان وأرسلوا لهم العديد من البعثات التبشيرية حتى أن أمير الكومان تنصر على المذهب الكاثوليكي على يد روبرت رئيس أساقفة المجر عام ١٢٢٧ م وتبعه خمسة عشر ألفاً من أتباعه . ولهذا أولى ملك المجر جهوده لتنصير الكومان حتى أن الملك بيللا الرابع (١٢٣٥-١٢٧٠) عند اعتلائه عرش المجر تلقب أيضاً بملك الكومان . ومن ثم فانه بعد أن سحق المغول الكومان في عام ١٢٢٣ فان هذا الأمير الكوماني المسيحي وأتباعه وضعوا أنفسهم تحت حماية ملك المجر . وبعد توغل المغول في روسيا بدءاً من عام ١٢٣٦ وتشتيتهم للكومان فان زعيمهم كوتان Kutun أرسل سفراء إلى بيللا الرابع عام ١٢٣٩ م يعرض عليه لجوءه وأتباعه البالغين حوالي أربعين ألفاً للأراضي المجرية نظير اعتناقهم المسيحية الكاثوليكية ودفاعهم عن المجر ووجدت هيئة الدومنيكان في المجر في ذلك فرصة لتنصير الكومان ، واستقبل الكومان وزعيمهم بحفاوة بالغة من الملك المجرى الذي أراد استخدامهم في الدفاع عن بلاده ضد المغول الذين كانوا يبعدون مئات الأميال فقط عن حدوده الشمالية ، ولكن عدم تعدد هذه القبائل الرعوية على الاستقرار والزراعة وحياة التحضر والتكيف مع المجتمع الجديد خلق مشاكل كثيرة للمجريين في أصعب مراحل تاريخهم ، فضلاً عن أن استخدامهم في الدفاع عن المجر جاء بنتيجة عكسية تماماً لما أراداه الملك ، كما أنه خلق مبرراً للمغول في اكتساح المجر بحجة تعقب هؤلاء الكومان الفارين أمامهم .

Cf . Sinor : History of Hungry , pp. 67-71 .

- 12- Cf . Dmytryshyn , Basil (ed. & trans .) Medieval Russia : A Source Book , 900-1700 . New York , 1967 , pp. 87, 88 .

- 13- The Mongols and Russia , p. 50 .

- 14- The chronicle of Novogorod , pp. 82-83 .

وتشير حولية روسية أخرى معاصرة للأحداث أن المغول في فبراير عام ١٢٣٨ استولوا في إمارتي روستوف وسوزدال على أربعة عشر مدينة بالإضافة إلى توابعها من القرى وممتلكات الكنائس - وللمزيد من التفاصيل انظر : Cf . Dmytryshyn . op . cit . , p. 90; Chambers :

The Mongol Invasion of Europe , pp. 72-76 .

15- The Chronicle of Novogored , p. 84 .

16- Vernadsky , op . cit . p. 51 ; Chambers , op . cit . , p. 76 .

١٧- وما يؤيد ما ذهب إليه أن الأنهار لم تكن عائقا أمام المغول رواية ابن الأثير نفسه عن عبور قوات سويداي - نفس القائد الذي انسحب من أمام نوفوجارد - لنهر جيحون وذلك لتتبع فلول قوات وشخص السلطان الخوارزمي علاء الدين تحت أحداث عام ٦١٧ هـ أن القوات المغولية ولم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وألقوا الخيل في الماء وأمسكوا أذيالها . وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الخوض المملئ بالسلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة ولم يشعر بهم خوارزمشاه إلا وهم قد صاروا معه على أرض واحدة «الكامل في التاريخ ، ج٩ ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤». هذا وقد أيد يوحنا الكاريني - المبعوث البابوي إلى المغول عام ١٢٤٥م - في تقريره الذي رفعه إلى البابا هذه الرواية على أساس أن هذه الطريقة كانت شائعة ومعروفة عند المغول في عبور جميع الأنهار الواسعة والضيقة على حد سواء .

Cf . John Plano Carpini , History of the Mongols , Ed , in Christopher Dawson . The Mongol Mission . New York , 1955 , pp. 35-36 .

18- Vernadsky , op . cit . , pp . 51, 52 ; Saunders , op . cit . , p. 83 .

19- Bretschneider , E . (ed- & trans) Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources . London , 1910 , pp. 317, 318 .

20- Cf . Dmytryshyn , op . cit . , pp . 92-93 .

21- Loc , cit . , Bretschnieder , op . cit . , pp. 317, 320 .

22- Vernadsky , op . cit . , pp . 54و55 .

23- The Chronicle of Novogorod , pp . 84-5 .

24- Cf Diens , M . , " Eastern Missions , " Isis , vol . 27, 1937 , pp. 238 , 9 .

25- Ibid , p. 235.

26- Cf . Dienes , " Eastern Missions " , op . cit . , p. 240 .

27- Saunders : The History of the Mongol Conquest , p. 221, n . 35 .

28- Dienes , op . cit . , p. 234 .

29- Cf . John of Plano Carpini , op . cit . , pp. 32-38 .

٣٠- سميت هذه الطائفة بالاسماعيلية لأن أتباعها كانوا يدينون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، كما عرفوا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون ، وسبوا بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الإلحاد ، وقد سموا أيضا بالحشيشية لاعتمادهم على مادة مخدرة فى نشر مذهبهم الهدامة . القلقشندي : صبح الأعشى ج١٣ ، ص ٢٤٥ ، انظر أيضا ما يلى حاشية رقم ٣٤ .

31- Matthew Paris : English History from the Year 1235 to 1273 . Trans . from Latin by J.A Giles . London , 1852 , vol . I , pp. 131,132 .

٣٢- تعبير « Saracens » تعبير شائع فى المصادر الأوربية لعصر الحروب الصليبية للدلالة على أعدائهم المسلمين . وكان الإغريق والرومان يستخدمون تعبير Saraceni على القبائل العربية التى تقيم فى الصحراء السورية شرق البحر الأحمر والذين كانوا يعيشون على أطراف الامبراطورية الرومانية ، ولقد استخدم ابوزيوس وجيرون فى القرن الرابع الميلادى لفظ Saraceni مرادفا لأولاد اسماعيل مشيرين إلى أن نفس القبيلة تعرف أيضا بالهاجرين أى أولاد هاجر . وفى القرنين الخامس والسادس استخدم اسم Saracens لكل القبائل العربية على حد سواء ، وبعد ظهور الإسلام فان الإغريق أشاروا لكل المسلمين بهذا الاسم . وانتقل هذا التعبير - فى عصر الحروب الصليبية - للغرب الأوربي ليعنى أى شخص فى البقاع الإسلامية ، ولما كان هذا الاسم أطلقه الرومان أساسا على القبائل التى تعيش على أطراف أمبراطوريتهم وكانت نظرتهم فى أعين الرومان أنهم وجدوا للسلب والنهب والاغارة والاعتداء على امبراطوريتهم ، فقد ظل الأوربيون يستخدمون نفس التعبير لأن المسلمين - من وجهة نظرهم - سلبوهم كل مملكتهم فى أفريقيا وغرب آسيا وطردهم من الأراضى المقدسة التى يعتقد الغرب أنها تخصهم دون غيرهم . ولهذا ظل هذا التعبير شائعا للدلالة على رسوخ هذا المفهوم عند الغرب وليس عن خطأ أن العرب أولاد «ساره» وليسوا أولاد «هاجر» .

Cf . Connell , Charles William : Western Views of the Tartars , 1240 - 1340 . Unpublished Ph . D . Diss . The State University of Rutgers , 1969 . pp. 28و29 .

٣٣- هنغاريا الكبرى : المقصود بها المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين والبحر الأسود وهى مركز قبائل القفجاق التى هاجر منها المايجار فى القرن التاسع الميلادى إلى المجر أو هنغاريا . والإقليم الأول تعرض للغزو المغولى عامى ١٢٣٦-١٢٣٧ ، ولكن المجر لم تتعرض له إلا عام ١٢٤١ م .

٣٤- يجدر بالباحث عرض فكرة أكثر وضوحا عن هذه الطائفة ، فمنذ أن استتب الأمر للفاطميين فى مصر أخذوا يروجون للمذهب الشيعى فى بلاد المشرق وذلك لإضعاف الخلافة العباسية ، غير أنه حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) فادعى البعض أنه أوصى بالخلافة من بعده لإبنه نزاره وادعى البعض الآخر أنه أوصى بها لابنه المستعلى . واتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق ملجأ لها بزعامة الحسن بن الصباح ، وقد

اتخذ الأخير من قلعة آلوت - التي كان قد بناها ملكشاه السلجوقي قريبا من بحر قزوين - مركزا لنشر دعوته . وقد استولى الاسماعيليه فى فترة ضعف السلاجقة على كثير من البلاد والقلاع المجاورة فى قوهستان وخوزستان حتى بلغت خمسين قلعة . وكانوا يهدفون لإسقاط الخلافة العباسية بطرق القتل وسفك الدماء وساعدهم على ذلك جماعة الفدائيين من الشبان المتحمسين الذين كانوا يدينون بالطاعة العمياء لرئيسهم ، ومهروا فى فن التخفى واستعمال السلاح ، وقد أوعز السلاجقة لهم بقتل الخليفة المسترشد عام ٥٢٩هـ - ١١٣٤م وولده الراشد عام ١١٣٧م . وكانوا يقومون بحملات منظمة على القرى المجاورة للسلب والنهب والقتل وقطع طرق التجارة والحج . وكان لهم فروع فى سوريا واشتركوا فى قتل بعض الامراء الصليبيين والمسلمين على حد سواء لفرض الاتاوات والسلب والنهب . وقاد صلاح الدين الأيوبي الكثير من الحملات على فروعهم ببلاد الشام ودمر معظمها ، واستطاع الظاهر بيبرس تدمير الباقي . وفى فارس استطاع هولاكو عام ١٢٥٦م تدمير قلاعهم وقتل قادتهم (حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ص٩٧-١٠٠) .

ومن بين قتلى الحشاشين من زعماء الصليبيين ريموند الأول كونت طرابلس عام ١١٥٢م وتروى بعض المصادر أيضا أنهم قتلوا كونراد أمير أوستريا فى ٢٩ ابريل عام ١١٩٢ أثناء وجوده فى الحملة الثالثة . ويقول أحد المؤرخين المهتمين بعلاقات هذه الطائفة بالغرب الأوروبى أن سفارة الاسماعيليه جاءت إلى فرنسا عام ١٢٣٧ لقتل الملك لويس التاسع نفسه (وليس عام ١٢٣٨ للتحالف معه ضد المغول كما روى متى الباريسى) ، ومهما يكن من أمر فان مؤرخى لويس التاسع وإدوارد الأول ملكى فرنسا وانجلترا أفاضوا فى نسج حكايات عن تعرض هذين الملكين أثناء وجودهما فى الأراضى المقدسة ١٢٥٠-١٢٥٤ و ١٢٧٠م لمحاولات قتل من الحشاشين . للمزيد من التفاصيل انظر :

Nowell , C.E., "The Old Man of the Mountain , Speculum , vol XX 11 , 1947 , pp. 497-519 .

35- The Mongols and Russia , pp. 53 , 54 .

36- Saunders , J.J., " Matthew Paris and the Mongols" in Essays in Medieval History Presented to Bertile Wilkinson , ed. T. A. Sandquist and M.R. Powicke . Toronto , 1969 , pp. 118 , 119 .

37- Boswell A. Bruce , " Territorial Division and the Mongol Invasions , 1202-1300 " , in the Cambridge History of Poland ; vol . I, Cambridge , p. 92 .

٣٨- يذكر Shinabu Iwamura نقلا عن مصدر ألماني أن عدد القوات المغولية فى معركة ليجنتز Liegnitz فى بولندا كانت مائة ألف وأن عدد البولنديين وحلفائهم كانوا عشرين ألفا فقط .

Cf. his , "Mongol Invasion of poland in the Thirteenth Century" in Memoirs of the Research Department of the Tayo Bunko , Tokyo , No . 10 , 1938 , p. 110 .

ويذكر Harold T. Cheshir أن قوات المغول تحت قيادة باتو فى روسيا كانت نصف مليون وأن ريعهم قد أرسل إلى بولندا .

Cf . his : "The Great Tartar Invasion of Europe " The Slavonic Review , vol.5, 1926-7 , p. 94 .

بينما يرى Boswell أن كل جيش باتو كان مائة وثلاثين ألفا وأن ثلاثين ألفا فقط منهم قد أرسلوا إلى بولندا . ويقول أن المصادر الأولية ضخمت من تعداد جيش المغول لعدة أسباب منها السرعة الفائقة للفرسان المغول فى الدوران والالتفاف والكر والفر ، وكذلك وجود عدد ضخم من الخيول الاحتياطية للفرسان ووجود عدد كبير من الأسرى يسرون فى أعقاب الجيوش المغولية ، فضلا عن أن المصادر البولندية بالغت فى عدد المغول لتبرير هزائم البولنديين أمامهم Cf . Boswell , op . cit . pp . 92 , 3 .

٣٩- كانت حدود بولندا حينئذ : بروسيا من الشمال ، وليتوانيا وإمارة غاليسيا الروسية من الشرق ، وجبال كارثيا تفصل بينها من الجنوب وبين البحر ، ومن الغرب سيليزيا ومجر براندنبرج . وفى عام ١١٣٩ م فإن ملكها بوليسلاف الثالث قسم مملكته إلى أربعة أقسام على أولاده الأربعة تاركا وراءه خلافات وصراعات داخلية بين الأخوة المتنازعين . وفى عشية الغزو المغولى لبولندا كان بها تسعة إمارات مستقلة ، ولهذا لم يوجد بها حكومة مركزية قوية لتوحيد كل مصادر القوة البولندية للتصدى للغزاة .

ولا يدخل فى خطة هذا البحث تتبع الغارات المغولية على الأراضى البولندية بعد ذلك وبالتحديد فى أعوام ١٢٥٩-١٢٦٠ ، ١٢٦٤ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٩ م ، ولكن يهمنى هنا فقط وضع الخطوط العريضة للهجوم المغولى الأول على تلك البلاد بغية توضيح رد الفعل الأوروبى منه . وللتفاصيل انظر : Iwamura , op . cit . , pp . 103-157 .

حيث نشر النص اللاتينى والترجمة الانجليزية الخمسة عشر وثيقة من الحوليات البولندية وأرشيفات البابوية فى القرن الثالث عشر من هذا الموضوع ، وكذلك ، Szczeniak Boleslaw ، "Hagiographical Documentation of the Mongol Invasions of Poland in the Thirteenth Century" , "Memoirs of the Research of Department of the Toyo Bunko , Tokyo , 1953 , pp. 167-195 ,

حيث نشر أيضا النص اللاتينى والترجمة الانجليزية لاثنتين وعشرين وثيقة من الحوليات الكنسية البولندية المرتبطة بالغزو المغولى لبولندا حتى عام ١٣٠٠ م ، وكذلك Boswell ، "Territorial Division and the Mongal Invasions of Poland , 1202 - 1300 . " op . cit . , pp. 85-107 .

- 40- Iwamura , op . cit . , p. 107; Bretschneider , op . cit . , vol . I , p . 321 .
- 41- Cheshire , op . cit . , p. 95 ; Chambers , op . cit . , pp . 98 , 99 .
- 42- Iwamura , op . cit . , p. 110 ; Vernadsky , op . cit . , p. 55 ; Rachewiltz , op . cit . , p. 76 ; Chambers , op . cit . , pp. 98,99 .
- ٤٣- للمزيد من التفاصيل انظر Cheshire , " The Great Tartar Invasion of Europe , p. 95 ; Saunders , The Hist. of the Mongel of Europe , p. 85 op . cit . , p. 95 ; Chambers , op . cit . , pp. 99,100 ; Vernadsky , op . cit . p. 56 , n . 148 .
- ٤٤- انظر ما سبق حاشية ١١ ، كانت مملكة المجر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من القوى القوية في أوروبا . واستطاع العديد من ملوكها من أسرة آرباد Arpad أن يوسعوا حدودها ويؤمنوها ضد اعتداءات الألمان والبيزنطيين . وكانت كنيسة كاثوليكية . وساهم كثير من نبلائها وفرسانها في الحروب الصليبية في الشرق ، وكانت هذه المملكة أيضا ضعيفة أمام الأطماع البنادقة عام ١٢٠٢ حيث استولت الحملة الرابعة على المجر لأنه باع المدينة الأخيرة للبنادقة أيضا ، وrehn كثيرا من الاقطاعات لليهود وللنبلاء ، وحطم جيوشه في مغامرات عسكرية فاشلة مع جيرانه الروس للصراع على مناطق الحدود . وكانت علاقاته مع النبلاء وغيرهم لا حدود لها . وكان ابنه بيلا الرابع (١٢٣٥-١٢٧٠) شخصية متزنة . ولكن الافلاس ، الاقتصادى الذى ورثه عن والده ولبوء أربعين ألفا من الكومان واستقرارهم فى بلاده، فضلا عن عدم وجود جيش منظم كل هذه الاعتبارات وغيرها كانت حائلا دون تكوين دفاعات قوية للمجر أمام المغول
- Sinor : The Histoy of Hungry , pp . 57 , 71 .
- 45- Ibid , pp . 72 , 3 ; Saunders , op cit . , pp , 86,87 .
- 46- Sinor , pp . 72 , 3 ; Vernadsky , pp . 56 , 7 ; Chambers , pp . 101,105 .
- 47- Cheshire , op . cit . , pp . 98 , 9 Vernadsky , op . cit . p . 57 .
- 48- John of Plano Carpini , op . cit . , pp. 44 , 5 , Sinor ; op . cit . , p . 75 ; Vernadsky . , op . cit . , p. 58 .
- 49- Vernadsky , op . cit . p. 58 .
- 50- Sinor , op . cit . pp . 70-74 ; Chambers , op . cit . , pp . 104-107 .
- 51- Sinor , op . cit . , pp . 70 .
- 52- Ibid , pp . 70-74 ; Chambers , op . cit . , pp . 104-107 .

- 53- Cf . Matthew Paris , op . cit ., vol . I . pp . 339-340 .
- 54- Ibid , vol . I , p. 340 (حيث أورد نص هذه الرسالة)
- 55- Ibid , op . cit ., vol . I , pp . 341 , 6 .
- 56- Ibid , p. 356 .
- 57- Ibid , vol I , pp . 356 , 7; Chambers , op . cit ., p. 107 .
- 58- Chambers , op . cit ., p. 108 .
- 59- Ibid , p. 109 .
- 60- Matthew Paris , op . cit ., vol III , pp . 450 , 1 (حيث نص الخطاب)
- 61- Ibid , III , pp . 454 , 55 . (حيث نص الخطاب)
- 62- Ibid , pp . 453 , 54 . (حيث نص الخطاب)
- ٦٣- كان بيتر الإنجليزي الأصل ، وكان قد طرد من بلاده قبل ذلك بسنوات عديدة وذهب للأراضي المقدسة وتجول شرقا حتى وقع في يد المغول الذين استخدموه في جيشهم في أوروبا . ثم استعان به باتو في أعمال التجسس على الأوروبيين لمعرفة بعدة لغات أوروبية ومعرفة كذلك بلغة المغول
- Cf . Matthew Paris , op . cit ., vol . I , pp . 467 , 8 .
- 64- Ibid , pp . 467-472 .
- 65- Ibid , p. 473 .
- 66- Loc . cit .
- 67- Connell , Western Views of the Tartars , pp. 120 , 121 .
- 68- Ibid , pp . 122 , 3 .
- 69- Matthew Paris , op . cit ., II , p. 29 .
- 70- Saunders . "Matthew Paris and the Mongols" , op . cit ., p. 125 .
- ٧١- نشر متى الباريسي النص الكامل لجميع هذه الخطابات (op . cit ., I . pp . 29-49)
- 72- Ibid , vol . II , pp. 48 -49 .
- ٧٣- أنظر تفاصيل هذه السفارات ص٥٩-٧١ .
- 74- Matthew Paris , op . cit ., II , pp . 67-68 .
- 75- Sohroeder , J . : Disciplinary Decrees of the General Councils , Text , Translation and Commentary . London , 1937 , p. 311 .

76- Matthew Paris , op . cit . , II , p. 67 .

77- For details, Cf . Ibid , vol . II , pp . 66 , 68 - 73 , 77 - 86 .

77B- Iwamura , "The Mongol Invasion of Poland in the Thirteenth Century, "op . cit . Documents no . vii - xii , pp . 122- 124 ; also cf . Connell , op . cit . , p. 127 .

78- Iwamura , op . cit . , pp . 112 , 113 . Szczesnisak Boleslaw , "The Mission of Giovanni del Plano Carpini and Benedict the Pole of Vratislavia to Halicz" . in the Journal of Ecclesiastical History , vol . VII , no . I , April 1956 , pp. 12-20 .

79- Connell , op . cit . , pp . 129 , 130 .

٨٠- هيئة الفرنسيسكان أو الأخوة الصغار Minor Friars هيئة دينية أسسها فرانسيس الآسيسى Francis of Assisi (١١٨١-١٢٢٦م) فى أحد الأديرة فى منطقة Assisi بإيطاليا ، وحصلت على الموافقة البابوية الشفوية فى عام ١٢٠٩ م والرسمية عام ١٢٢٣ م . وسرعان ما أصبح لها فروع فى جميع أنحاء الغرب الكاثوليكي وكان الهدف منها التبشير بالدين المسيحى على المذهب الكاثوليكي ، وخدمة المسبيين الفقراء . وكان نظام حياتهم قائماً على العمل البدوى ، أو التسول وعدم إيدار شئ لليوم التالى ، وتحريم الملكية الخاصة . وقد حضر فرنسيس نفسه إلى الشرق مع الحملة الصليبية الخامسة بهدف التبشير بين قادة المسلمين ووضع سياسة - اقتفى أثرها خلفاؤه - مفادها أن أسير الطرق لهزيمة الأعداء هى تحويلهم إلى الدين المسيحى . ومن ثم كان لهذه الهيئة فروع عديدة فى شمال أفريقيا والأراضى المقدسة وبين المغول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . المتفاصيل انظر :

Moorman , John: A History of the Franciscan Order from its Origins to the Year 1517 . Oxford , 1968 ; Daniel E . Randolph : The Francis can Concept of Mission in the High Middle Ages . Kentucky , 1975 .

Friars Preachers

٨١- جماعة الدومنيكان أو الأخوة المبشرين

أسسها دومنيك (١١٧٠-١٢٢١م) فى مدينة تولوز فى بداية القرن الثالث عشر وحصلت على موافقة البابوية عام ١٢١٦ . ومن الخبرة الشخصية التى اكتسبها دومنيك من التبشير بين الالبينجيسين (١٢٠٥-١٢١٥) فى جنوب فرنسا ، فانه أنشأ هذه الهيئة الدينية للتبشير بين الهراطقة والملاحدين فى جميع أنحاء العالم . ومبادئها - المشابهة لنظم الفرنسيسكان - تقوم على عمل أعضائها فى الدفاع عن العقيدة والتبشير بين «الكفرة» واكتساب قوتهم اليومى من التسول والهبات . وكان لها فروع فى معظم أنحاء أوروبا وشمال آسيا ووسطها .

- Cf . The Encyclopedia Britannica , vol . 7 , pp . 517 - 520 , arts . Saint Dominic & Dominicans) .
- 82- Rachewiltz : Papal Envoys to the Great Khans , pp . 85 . 6 .
- ٨٣- للتفاصيل عن هذه السفارة انظر :
Phaire , Barbara Rose :
Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245 - 1254 : An Analysis . Un-
published Ph . D . Diss . New York University , 1972 , pp . 28 - 39 .
- 84- John of Plano Carpini , " History of the Mongols , " in C . Dawson (ed.) : The Mon-
gol Mission . New York , 1955 , p . 3 .
- 85- Ibid, pp. 53 , 54 .
- 86- Ibid, p. 62 .
- 87- Ibid, p. 66 .
- 88- Cf . Dawson : The Mongol Mission , pp . 73 - 75 .
(حيث أورد النص الكامل لهذا الخطاب مترجماً إلى الإنجليزية) .
- 89- Dawson , op . . cit . , pp . 73-75 .
(حيث أورد الترجمة الإنجليزية الكاملة لهذا الخطاب أيضا) .
- 90- John of Plano Carpini , op . cit . , pp . 65-66 .
- ٩١- جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ١٢٥٠-١٢٤٥م . القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٣٨ .
- ٩٢- جوزيف نسيم يوسف : نفس المرجع والصفحة ، ويشاركه هذا الرأي J . J . Saunders
Cf . , " John of Plan Carpini , " in History Today , vol . xxii , 1972 , p . 552 .
- ٩٣- انظر ص ٧١-٧٣ من هذا الفصل .
- ٩٤- يقول بلاتو الكاريني أنه في آخر مقابلة له مع كيوك خان فإنه سئل عما إذا كان سادته يستخدمون لغة المسلمين (المقصود بها هنا الفارسية) أو اللغة الروسية أو لغة المغول ولكنه أجاب بالنفي مقترحاً أن تكتب الرسالة باللغة المغولية ثم تترجم له بواسطة الأوربيين - الذين يعملون في خدمة المغول - إلى اللاتينية . وهذا ما تم فعلاً ، إذ أنهم أعادوا على مسامحه عدة مرات نص خطاب الخاقان مترجماً حتى تأكدوا من فهمه لما قصدوه ، وهذا ما دونه الكاريني وزميله بندكت البولندي في تقاريرهما أي ترجمة ما سمعوه من النص المغولي الشفوي . ولزيادة التأكيد

فان رجال الخاقان أعطوهما نسخة رسية لهذا الخطاب باللغة الفارسية ، والأخيرة عشر عليها
الباحث الفرنسي بول بليو في أرشيفات الفاتيكان عام ١٩٢٠ م وقام بترجمتها إلى الفرنسية
وأجرى لها دراسة نقدية فاحصة في سلسلة مقاله عن «البابوية والمغول (Cf. Revue)

de L'Orient Chretien , vol . XX III , 1922 , pp . 13-23) .

وقد اعتمد الدارس على الترجمة الانجليزية لكل من الأصلين اللاتيني والفارسي في :
The Mongol Mission , pp. 83-96 .

ويوجد عدة ترجمات أخرى لهذا الخطاب نشرها كل من :

Rachewiltz : Papal Envoys to the Great Khans , p. 213 ; Voegelin , Eric , “ The
Mongol Orders of Submission to European Powers , 1245-1255 “ { Byzantion ,
xv , 1944 , pp. 386 , 7 ; Spuler , Bertold . History of the Mongols Based on East-
ern and Western Accounts of the Thirteenth and Fourteenth Centuries . Eng .
trans by Helga and Stuart Drummond . London , 1972 , pp. 68 , 9 .

95- Cf . Dawson , op . cit . , p. 85 .

96- Ibid , p. 83 .

97- Ibid , p. 85 .

98- Ibid , p. 83 .

99- John of Plano Carpini , cf . Dawson , op . cit . , p. 68 .

100- Cf . Dawson , op . cit . pp . 83-86 .

(الترجمة عن النصين الفارسي واللاتيني)

101- Rachewiltz : Papal Envoys , pp . 104 , 5 .

102- cf . Dawson , op . cit . , p. 86 .

103- John of Plano Carpini , in Dawson , op . cit . , pp . 43 , 44 .

104- Ibid , pp . 45 , 46 .

105- Ibid , pp . 68-69 .

106- Rachewiltz , op . cit . , p. 111 .

107- Phaire : Papal Motivations for an Asian Apostolate 1245-54 , pp . 60 , 61 ; Rache-
wiltz , op . cit . , pp. 112 , 113 .

١٠٨- للمزيد من التفاصيل عن بعثة أندريه لونجيجيمو الأول، انظر :

Paul Pelliot "les Mongols et la Papauté", Revue de l' Orient Chretien , xxiv ,
1924 , pp. 225 ff ; Phaire : Papal Motivations , pp . 62-69 .

109- Guzman , Gregory G . , " Simon of Saint - Quentin and the Dominican Mission to
the Mongol Baiju " , Speculum , XLVI , 1971 , pp. 235 , 36 , 242 .

110- Rachewiltz , op . cit . , pp . 114 , 115 ; Phaire , op . cit . , pp . 69-70 .

111- Guzman , op . cit . , pp . 237-239 .

١١٢- تعتبر كثير من المراجع المكتوبة باللغات الأجنبية والعربية على حد سواء أن أندريه لونجيجيمو
كان عضواً في بعثة آسيلين اللومباردي ، ولكن الدراسات النقدية المعاصرة - خاصة بعد اكتشاف
تقرير سيمون أوف سانت كورنتين (أحد أعضاء بعثة آسيلين) ونشره وترجمته - أثبتت أنهما
بعثتان منفصلتان ، وإن كانت أهدافهما ووجهتهما واحدة ، وقد تولى الباحث الأمريكي
جريجوري جوزمان - في أطروحته للدكتوراه بجامعة كنكاتي عام ١٩٦٨ بالنقد والتحليل
المصحوبين بنشر الأصل اللاتيني لهذا التقدير - دراسة - كل ما ورد أو أثر حول هذه البعثة في
المصادر الأوربية عامة وفي السجلات البابوية خاصة ، ومن ثم فإنه قام بتصحيح وتعديل وتحليل
كل النقاط التي أثبتت حول هذا الغموض .

Cf . Guzman , Gregory G . : Simon of Saint Quentin and the Dominican Mission
to the Mongols , 1245 - 48 . (Unpublished doctoral Diss ., Univ . of Cincinnati ,
1968) , pp . 38-40 , 52-55 .

113- Ibid , p. 69 .

114- Guzman , " Simon of Saint - Quentin " , Speculum , XLVI , 1971 , p. 236 note
39, 246, 246 ; Phaire , op . cit . , p. 45 , ٢٤٣ ، ٢٤٢ : المرجع السابق ص

115- Guzman : Simon of Saint - Quentin and the Dominican Mission to the Mongols ,
pp . 52 - 65 ; Rachewiltz , op . cit . , 115-117 .

116- Guzman " Simon of Saint - Quentin " , op , cit . p . 70 ; Rachewiltz , op . cit . , pp.
116 , 117 . جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

117- Matthew Paris , op . cit . , II . p . 280 .

118- Phaire : Papal Motivations for an Asian Apostolate , pp . 46-47 .

- ١١٩- تناول الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف (المرجع السابق ص ٢٤٤-٢٧٠) السفارات المتبادلة بين المغول ولويس التاسع باسهاب يغنى عن المزيد من الإيضاح ، ومن ثم فأننى اكتفيت هنا بمناقشة النقاط الجديدة والتي أثارت اهتمامى أكثر من غيرها فى ضوء الوثائق والمراجع الجديدة فى الموضوع والتي ظهرت بعد دراسة سيادته فى الموضوع . انظر كذلك الفصل الثانى من هذا البحث عن مراسلات هولاكو إلى لويس التاسع .
- ١٢٠- جوانفيل ، جان دى : مذكرات جوانفيل ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة وتعليق حسن حبشى . الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ٨٤ ، ٨٥ .
- 121- Matthew Paris , op . cit . , III , pp . 419 , 20 .
- 122- Matthew Paris , op . cit . , III , p. 319 .
- ١٢٣- حسن حبشى : مذكرات جوانفيل ، ص ٨ .
- ١٢٤- مذكرات جوانفيل ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
- 125- Matthew Paris , op . , III , pp . 419 , 20 .
- ١٢٦- للتفاصيل عن مقدمات هذا المجمع ووثائقه انظر :
Schroeder H . J . Disceplinary Decrees of the General Councils . London , 1938 , pp . 69-77 .
- 127- William Rubruck`s Report , in Dawson : The Mongol Mission p . 122 .
- ١٢٨- مذكرات جوانفيل ، ص ٨٥ .
- ١٢٩- المصدر السابق ، ص ٢١٨ .
- ١٣٠- المصدر السابق ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .
- ١٣١- للتفاصيل انظر : جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ص ٢٥٠-٢٥٣ .
- 132- Rachewiltz , op . cit . , pp . 126 -8 ; Dawson : The Mongol Mission , op . cit . , pp . xxi , xxii .
- ١٣٣- يؤيد هذا الرأى عزيز سوربال عطيه وجوزيف نسيم يوسف (المرجع السابق ، ص ٢٥٤)
The Crusade in the Later Middle Ages , p. 243.
- ١٣٤- يزيد كشير من المؤرخين المحدثين هذا الرأى ومنهم (pp . 51 , 2) Barbara Phaire
Rachewiltz (op . cit . , p . 125) ; Dawson , (op . cit . , p . xxi xxii) .
- 135- William Rubruck`s Report , in Dawson : The Mongol Mission , pp . 91 , 204 , 205 .

136- Ibid , pp . 93 , 120 , 127 , 128 , 190 .

137- Ibid , pp . 218 , 219 .

138- William Rubruck , op . cit . , pp . 117 - 119 .

139- Ibid , pp . 119 , 120 .

140- Ibid , p. 122 .

141- Ibid , p. 128 .

١٤٢- جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

143- William Rubruck , op . cit . , pp . 150 , 151 .

144- Ibid , pp . 191-194 .

145- Ibid , p. 155 .

146- Loc . cit .

147- Ibid , p. 190 .

148- Ibid , pp. 202 - 4 .

149- Ibid , p. 220 .

الفصل الثانى

التحالف المغولى - اللاتينى ضد المسلمين

العناصر :-

- المتغيرات السياسية فى الشرق الأدنى فى بداية النصف الثانى للقرن الثالث عشر .
- خضوع مملكة أرمينيا الصغرى للمغول والتحالف معهم ضد القوى الإسلامية .
- موقف الصليبيين من الغزو المغولى للشام .
- رد فعل الصليبيين من الصدام بين المغول والمماليك فى عين جالوت .
- الاتصالات بين مغول فارس واللاتين فى عهد هولاكو .
- السفارات المتبادلة بين الإيلخانيين والغرب الأوروبى فى عهد كل من :

أبغاخان (١٢٦٥-١٢٨١م)

أرغون خان (١٢٨٤-١٢٩١م)

غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤م)

أولجايتو خان (١٣٠٤-١٣١٦م)

أبو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥م)

- أسباب فشل التحالف المغولى - اللاتينى ضد المماليك .

طرأت عدة أحداث هامة على منطقة الشرق العربى مع نهاية النصف الأول للقرن الثالث عشر الميلادى منها : فشل حملة لويس التاسع (ت ١٢٧٠م) على مصر فى تحقيق أهدافها المرجوة عام ١٢٥٠م وقيام دولة المماليك البحرية فى مصر ، ونجاح قوات المغول فى القضاء على أية مقاومة تقف فى طريقها شرقى نهر دجلة وفى آسيا الصغرى .

ولذا سارع هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى بتقديم فروض الطاعة والولاء للمغول مدركا أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مملكته الصغيرة من مصير محتوم ، وكذلك لإنقاذ المسيحيين فى غرب آسيا من براثن البرابرة الجدد حتى لا يلاقوا نفس مصير المسلمين فى الدولة الخوارزمية^(١) . وكان ملك الأرمن قد قام بتسليم قادة السلاجقة الفارين أمام المغول للأخيرين . وأرسل شقيقه سباد Sempad القائد العام للجيش - إلى قراقورم عام ١٢٤٦م محملا بالهدايا لحضور القوريلتاي الذى قرر اختيار كيوك خاقانا على المغول فى أغسطس من ذلك العام^(٢) . ولهذا فان الخاقان الجديد أرسل تقليدا لهيثوم الأول اعتبره فيه أحد تابعيه ومنحه وثائق تضمن إعفاء بلاده وأديرتة وكل المسيحيين من الضرائب المغولية^(٣) . وإذا كانت وفاة كيوك خان عام ١٢٤٨م قد حالت دون تنفيذ هذه الامتيازات بل وأدت إلى تعرض مملكة أرمينيا الصغرى للسلب والنهب من قبل الفرقة المغولية فى آسيا الصغرى ، فان زيارة هيثوم الأول لقراقورم عام ١٢٥٤ وحضوره تتويج مانجو خاقان على المغول (١٢٥٤-١٢٥٩م)^(٤) كان لها أكبر الأثر فى تقرير سياسة هذه المملكة تجاه المغول والمسلمين فيما بعد .

فلقد كانت جهود الملك الأرمنى فى المدة التى قضاها فى العاصمة المغولية منصرفة إلى إقناع الخاقان المغولى بالقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين . وبموجب معاهدة الصداقة والتحالف بين الطرفين ، أكد مانجو خان على عدم تعرض المغول للأرمن بسوء ، بل ومساعدتهم ضد أعدائهم ، وإعفاء الكنائس والأديرة الأرمينية وجميع المسيحيين الشرقيين داخل الامبراطورية المغولية من الضرائب . وتعهد هيثوم الأول - فى مقابل ذلك - بمعاونة المغول وإمدادهم بالجيش والمؤن وأن يدلهم على جميع الطرق والمعابر عند الحاجة^(٥) .

ومنذ ذلك الحين فصاعدا أصبح ملوك أرمينيا الصغرى تابعين للمغول عامة ولغول فارس (فيما بعد) خاصة ، ويؤلبونهم ضد جيرانهم المسلمين ، ويشتركون معهم بجيوشهم ضد المماليك كما سنرى .

وتحسنت العلاقات بين مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية الصليبية بفضل جهود ووساطة الملك الفرنسي لويس التاسع أثناء وجوده بالشام (١٢٥٠-١٢٥٤م) . ومن ثم توطدت روابط الصداقة بزواج حكام أنطاكية وقبرص وصيدا من بنات الأسرة الأرمينية الحاكمة^(٦) . وكان لهذا الأمر أكبر الأثر في جر إمارة أنطاكية هي الأخرى في علاقات صداقة وتحالف مع المغول ضد جيرانها المسلمين مما جلب عليها المتاعب فيما بعد .

كما أن ملك أرمينيا الصغرى حاول فرض حصار اقتصادي على المماليك . فأصدر أوامره المشددة عام ١٢٦٠م بمنع الأهالي من الاتجار مع المماليك . وكانت بلاده معبرا لكثير من المواد الأساسية لصناعة السفن وكذلك المواد الغذائية وتجارة الرقيق وهي مواد أساسية للنظام العسكري الذي قامت على أركانه دولة المماليك في مصر والشام ، في الوقت الذي كانت فيه العراق وإيران تحت حكم المغول ، وكانت موانئ البحر الأسود والقسطنطينية ما زالت في يد اللاتين . وكذلك لجأ إلى تخفيض الضريبة المفروضة على بضائع التجار الأوربيين المارة ببلاده وأصدر هو وخلفاؤه العديد من الامتيازات لهؤلاء التجار لجعل موانئه منافسا قويا وبديلا عن الموانئ المصرية^(٧) .

ولكن « سرعان ما أثبتت الأيام أن ملوك أرمينية الصغرى راهنوا على الجواد الخاسر وأنه صار عليهم أن يدفعوا ثمننا باهظا مقابل المكاسب السريعة التي حصلوا عليها »^(٨) . فالمماليك حرضوا سلاجقة الروم ضد الأرمن ، وشنوا الغارات العديدة - في فترات انشغال المغول بحروبهم ومشاكلهم الداخلية - على أرمينيا الصغرى ، كذلك فإن الهزائم التي ألحقها المماليك بالمغول تركت آثارها السلبية على الأرمن فمثل في خسارتهم في القتلى والأسرى والعتاد ، ومنذ عهد المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م) وجه المماليك ضربات قوية للأرمن حتى دفعوا لهم الجزية وهم صاغرون . وفضلاً عن ذلك كانت جيوش المماليك تقوم بعملية تمشيط لأرمينيا الصغرى كلما أبدى الأرمن تمردا أو امتنعوا عن دفع الجزية حتى استولوا على هذه المملكة نهائيا عام ١٣٦٨م بعد اضمحلال دولة مغول فارس .

ولقد أسهبت المصادر التاريخية في الحديث عن تقدم قوات هولاكو صوب العراق^(٩) . ويكفي القول أنه باختفاء آخر السلاطين الخوارزميين من الميدان عام ١٢٣١م ، توغلت الفرق المغولية التي أرسلت لملاحقته حتى وصلت إلى حران والرقه ونصيبين والخابور والموصل واربيل لايمنعهم مانع . وسارع الأمراء المحليون بتقديم فروض الطاعة والولاء للقادة المغول . ولم

يكتف هؤلاء الأمراء بالخنوع للذل المغولى بل وسارعوا عند وصول هولاكو فى طريقه نحو بغداد إلى تجديد طاعتهم وأبدوا استعدادهم لمرافقته نحو جاضرة الخلافة العباسية ، بل وشارك بعضهم فى حصار بغداد عام ١٢٥٨ و سقوطها^(١٠) .

وقد عبر هولاكو وقواته نهر جيحون فى أوائل سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م . وسارع سلطان سلاجقة الروم وأتابك فارس بإرسال الرسل لتحيته ، وقضى هولاكو هذا العام متنقلا بين مدن فارس المختلفة وأرسل الحملات للقضاء على طائفة الاسماعيلية وقتل آخر حكامهم وأزال حصونهم . وفى ٢١ سبتمبر ١٢٥٧م - ٩ ربيع الثانى عام ٦٥٥هـ أرسل هولاكو إلى الخليفة المستعصم العباسى رسالة يدعو فيها إلى تقويض حصون بغداد وأسوارها والحضور بنفسه إلى حضرته وتسليم المدينة وإلا فالحكم للسيف وحده . وكان من اليسير على قوات هولاكو وقوات تابعيه من الأرمن والجورجانيين والإمارات الإسلامية الاستيلاء على بغداد وإزالة أهم المعالم الحضارية والعلمية للمدينة فى صفر عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م . وقتل آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد على الطريقة المغولية ومعه حوالى مليون نسمة ، إذ أن قوات المغول " حرقوا الأخضر واليابس ماعدا قليلا من منازل الرعاة وبعض الغرباء " ^(١١).

وبعد سقوط بغداد فى يد قوات هولاكو أصبح الطريق إلى بلاد الشام مفتوحا خاصة وأن رسل الناصر صلاح الدين يوسف - أمير حلب ودمشق وزعيم البيت الأيوبي فى الشام - كانت قد وصلت إلى هولاكو تدعوه إلى القدوم إلى الشام لمساعدته على تخليص مصر من المماليك . وأسرع هولاكو بإرسال قوة من عشرين ألف فارس إلى الشام لانتهاز هذه الفرصة . ولكن قوات المغول بمصاحبة قوات من الأرمن والجورجانيين وإمارة أنطاكية الصليبية استباحت مدينة حلب فى يناير عام ١٢٦٠م / صفر ٦٥٨هـ حتى امتلأت الطرق والمسالك بجثث القتلى . وقيل أنهم أسروا زيادة على مائة ألف من النساء والأطفال . ثم دخل الغزاة دمشق بعد فرار الناصر يوسف عنها فى فبراير ١٢٦٠م وتسلموها بالأمان . وسلمت لهم بقيه مدن شمال سوريا وقلاعها طوعا أو عنوة فعاثوا فيها فسادا وقتلا وتدميرا^(١٢) ، وبات الطريق إلى مصر مفتوحا أمامهم .

موقف الصليبيين من الغزو المغولى للشام

كان ميسورا على هيثوم الأول - ملك أرمينيا الصغرى - أن يقنع زوج ابنته - بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس - بالتحالف مع المغول ضد الإمارات الأيوبية فى الشام .

وعندما ظهر هولاكو فى شمال بلاد الشام أسرع بوهيموند بزيارته فى معسكره عدة مرات (١٣) . وقد اشترك الأخير بقواته مع قوات هولاكو وصهره ملك أرمينيا فى الاستيلاء على حلب . وفى المقابل أعاد هولاكو إلى بوهيموند السادس جميع الأراضى التى كان المسلمون قد اقتطعوها من أمارته منذ عصر صلاح الدين الأيوبي (١٤) .

وعندما تقدم جيش هولاكو إلى دمشق كان يعاونه الأرمن وقوات بوهيموند السادس . وطلب هيثوم الأول وبوهيموند السادس من كتبغا - قائد الجيش التترى - إغلاق مساجد دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس ففعل ذلك ضاريا عرض الحائط باستعطافات المسلمين . بل وطاف هيثوم وبوهيموند وكتبغا بشوارع دمشق علانية تحجرا وعتيا (١٥) .

وقد رفضت بقية القوى الصليبية فى بلاد الشام موقف بوهيموند السادس من التحالف لخوفها من المغول الذين سبق لهم توجيه الانذار إلى حكام عكا بتدمير أسوار مدنها وحصونهم وقد مالا الصليبيون قادة المغول بالهدايا حتى تصلهم نجدة من الغرب الأوروبى بعد أن أرسل مقدموا الهيئات العسكرية خطابات بالفعل إلى قادة الغرب الأوروبى لطلب هذه النجدة (١٦) . كذلك فإن موافقة بوهيموند على إعادة بطريزك أنطاكية البيزنطى إلى منصبه - استجابة لأوامر هولاكو وإرضاء للملك أرمينيا - اعتبر شرخاً كبيراً فى وحدة مسيحي الشرق اللاتينى (١٧) .

كما أن صدام بعض القوى الصليبية مع قوات المغول قد نبه بقية القوى اللاتينية إلى خطورة الغزاة المجدد . فقد حدث أن اللورد جوليان Julian حاكم صيدا - وزوج ابنة ملك أرمينيا - أراد استغلال فرصة تحالف صهره مع المغول فى الاغارة على إقليم البقاع - الذى كان تحت سيطرة القوات المغولية حينئذ - للاستيلاء عليه من المسلمين . ولكن كتبغا - القائد المغولى - أرسل فصيلة صغيرة لدفعه من حيث أتى . وكان قائدها ابن أخى كتبغا فقتله حاكم صيدا ، ومن ثم أرسل كتبغا قوات توغلت فى صيدا ودمرتها . وحاول جون الثانى حاكم بيروت وقوات الداوية هناك مناصرة حاكم صيدا ولكن قوات المغول قامت بتأديبهم بشدة وأسر جون نفسه الذى تم اقتداؤه ، وربما أراد كتبغا الهجوم على بقية الصليبيين لولا علمه بقدوم المصريين لملاقاته (١٨) .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، كان خوف الصليبيين من المغول أكثر من خوفهم من المسلمين . فالتجربة كانت قد أظهرت لهم أن المغول لم يتركوا دولا مستقلة تعيش بجوارهم ولكن حلفاءهم كانوا بالنسبة لهم مجرد تابعين . أما المماليك فانهم منذ استيلائهم على السلطة فى

مصر عام ١٢٥٠م لم يقتربوا من الصليبيين ولم يؤذوهم بعكس المغول الذين دمروا الأخضر واليابس^(١٩). ويؤكد الباحث الانجليزي بيجر جاكسون Peter Jackson اعتمادا على رواية لرشيد الدين الهمداني بأن هولاكو كان قد أصدر أوامره لقائده في آسيا الصغرى بالتحرك ضد الفرنجة ، وعلى رواية متى الباريسي بانذارات هولاكو لقادة الصليبيين في سوريا وعلى رواية المؤرخ ابن العميد ، أن كتبغا قائد هولاكو بالشام بعد رحيل الأخير إلى الشرق - « قد ترك لحراسة البلاد وليكون قبالة نجدة الفرنج من جهة مصر » وهذا معناه بوضوح أن الصليبيين كانوا أيضا مستهدفين في الغزو مثل المسلمين تماما من ناحية المغول^(٢٠).

وأيضا كانت استهانة قادة المغول برسل البابوية وملك فرنسا قبل ذلك بعدة أعوام ، والخراب الذي ألحقه هؤلاء الغزاة بشرق أوروبا في الفترة من - ١٢٣٧-١٢٤٢ ، وهجوم مغول روسيا في ذلك الوقت أيضا (١٢٥٩-١٢٦١) على بولندا والمجر والمانيا وإرسالهم انذارا لملك فرنسا بالخضوع والتسليم^(٢١) من العوامل الرئيسية لكراهية الغرب الأوربي للمغول عامة وللتحالف أو التعاون مع أحد فروعهم خاصة .

ولهذا فان البابا الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١) أصدر قرار الحرمان ضد بوهيموند السادس حاكم أنطاكية وطرابلس لتحالفه مع المغول وإرجاعه للبطريك البيزنطي لأنطاكية^(٢٢). ولا غرو أيضا أن نجد أن موقف بقية القوى الصليبية كان متعاطفا مع الممالك في صدامهم المسلح الوشيك مع القائد المغولي في سوريا .

ومهما يكن من أمر فانه بعد استيلاء المغول على دمشق طوعية فان الرسل قدمت من ناحية المشرق لهولاكو تنعى له أخيه مانجو الخاقان الأعظم للمغول . ومن ثم فان هولاكو ترك كتبغا للمحافظة على الشام وذلك في جمادى الآخرة عام ٦٥٨هـ / مايو ١٢٦٠ ورجع إلى قراقورم لمواجهة الأحداث الجديدة الناجمة عن وفاة الخاقان . وخاصة وأنه حدثت خلافات وحروب بين إخوته قوبيلاي وأريق بوقا حول أحقية كل منهما في العرش المغولي . وربما وجد هولاكو في نفسه أنه المرشح المناسب للمنصب الشاغر ، ولهذا فانه جمع جيوشه المغولية ورجع بها إلى الشرق ولم يترك مع قائده كتبغا بالشام سوى عشرة آلاف فارس^(٢٣).

وربما يكون في وفاة مانجو خان عام ١٢٥٩م انقاذا لبقية العالم الإسلامي من الخضوع للسيطرة المغولية مثلما كانت وفاة أو جوداي خان عام ١٢٤١م إنقاذا لغرب أوروبا من الفعار الذي لحق بشرقها قبيل وفاته. ولهذا فان بقية العالمين المسيحي والإسلامي قد استفادا من مصائب المغول في وفاة قادتهم في عامي ١٢٤١ ، ١٢٥٩ على التوالي .

ويؤيد ما نحن بصدده رواية ابن العبري أن قوات هولاء كانت أربعمئة ألف من العساكر عندما دخل الشام (٢٤). وفي رواية رشيد الدين الهمذاني أن كتبغا نفسه قال للماليك قبيل مقتله على أيديهم أن جيش هولاء ثلاثمئة ألف (٢٥). ومع التسليم بالمبالغة في هذين الرقمين إلا أنهما يدلان على التفوق العددي الكاسح لقوة هولاء التي كانت تمكنه - لولا رجوعه الفجائي إلى الشرق - من تحقيق انتصار كاسح على الماليك .

وكان هولاء - قبيل رجوعه إلى قراقورم - قد أرسل إنذارا إلى الماليك في مصر جاء فيه " أى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيفونا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيفونا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، والحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع (٢٦) " . وفي نهايته طلب منهم الخضوع له والتسليم لأوامره دن قيد أو شرط .

ولم يكن أمام الماليك سوى توحيد صفوفهم وتعبئة الرأي العام في مصر للجهاد . وقام قطز - الذى تولى السلطنة لمواجهة هذا الخطر الداهم - بتعليق رموس سفراء المغول على باب زويلة ليلهب مشاعر العامة والخاصة على السواء للجهاد دفاعا عن الدين والوطن . وأرسل بيبيرس البندقدارى على رأس فرقة استطلاعية كسرت فرقة مغولية مماثلة فى غزة . والتقى الجمعان فى عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠م حيث منى المغول بهزيمة ساحقة قتل فيها كتبغا وبقية أمراء المغول الذين كانوا معه ، وتعقب الماليك أعداءهم فى حمص وتعقبهم العامة فى دمشق وفى شمال الشام حتى نهر الفرات حتى أفنوا كثيرا منهم وأسروا الباقى (٢٧) .

وإذا كان هناك شبه إجماع على أن موقعة عين جالوت تعتبر من المعارك الحاسمة فى العصور الوسطى لنتائجها على الصراع بين المسلمين والمغول وبين المسلمين - والصليبيين فى النصف الثانى للقرن الثالث عشر الميلادى (٢٨) ، فإنها تعد كذلك مرحلة تحول هامة فى سياسة هولاء وخلفائه - الذين أسسوا إيلخانية فارس بعد هذه الموقعة مباشرة - نحو الصليبيين . فبدلا من نظرة هولاء للأخيرين قبيل هذه الموقعة على أنهم مجرد تابعين يتوقع انضمامهم لدولته ، بدأ ينظر إليهم على أنهم خلفاء ضد أكبر قوة تخمضت عنها هذه الموقعة وهى سلطنة الماليك .

رد فعل الصليبيين تجاه الصدام بين المغول والممالك

كان تقدم قوات الممالك - بقيادة قطز - لملاقاة المغول بالشام قد قوبل بترحيب من القوى الصليبية في عكا لأنه سيخلصهم من الخطر المغولي في الوقت الذي لن يكلفهم شيئا خاصة وأن أحدا من الغرب الأوربي لم يتحرك لنجدتهم (٢٩).

ولما كانت قوات الممالك مضطرة إلى عبور أراضي في حوزة الصليبيين ، فان قطز قد أرسل رسلا من معسكره في غزة (قبيل موقعة عين جالوت) لقادة عكا لطلب السماح له بالعبور ، وطبقا للمصادر الصليبية فانه عرض عليهم إمداده بالمؤن وطلب منهم المساعدة العسكرية . وعندما اجتمع قادة المدينة الذين يمثلون مختلف الهيئات العسكرية والدينية والتجارية فانهم كانوا يميلون لتلبية كل طلبات الممالك ، ولكن مقدم فرسان التيرتون Anno Sangerhausen عارض هذا القرار بأنه «ليس من الحكمة أن تضيق حياة المسيحيين في نصر قد يشجع المصريين على أن يستديروا بعده ضد الفرنجة » . ولهذا فان المجتمعين اقتنعوا برأيه ورفضوا مساعدة الممالك عسكريا ، ولكنهم أعطوهم تصريحاً بالمرور من أراضيهم وشراء المؤن من أسواقهم (٣٠).

، ولم يكن هناك أى تدم في عكا عند سماع انتصار المصريين على كتبغا . بل ويرى المؤرخ بيتر جاكسون - اعتمادا على مصادر أوربية معاصرة للأحداث - أن الغرب الأوربي قد قابل هذا الانتصار على أن المصريين كانوا يحاربون معركة الفرنجة أيضا . وهذا كله في ضوء أن أحدا لم يكن يتوقع مقتل قطز ومجئى بيبرس بما فعله مع الصليبيين بعد ذلك (٣١).

وأراد هولاكو أن يرسل جنوده مرة ثانية إلى الشام لينتقم لمقتل قائده كتبغا وجنوده في عين جالوت ، ولكن الظروف الداخلية في الامبراطورية المغولية لم تكن تسمح له بذلك بسبب وفاة مانجو خان وظهور الخلافات بين أخوى هولاكو : أريق بوقا وقوبيلاي في النزاع على العرش المغولي وكذلك الخلافات بين هولاكو - باعتباره حاكما لإبلخانية فارس التى تضم كل المناطق غربى نهر جيحون وبين بركه خان حاكم مغول القفجاق أو مغول القبيلة الذهبية في جنوب روسيا (٣٢).

وكان الأمر الأكثر تأثيرا على السياسة الخارجية لهولاكو وخلفائه هو صراعهم الطويل والمرير مع أبناء عموماتهم إيلخانات مغول القبيلة الذهبية في جنوب روسيا ، ويتفق المؤرخون على أن باتوخان - أكبر أحفاد جنكيز خان والقائد المغولي الذى فتح روسيا وشرق أوروبا

للسيطرة المغولية والذي أسس سراي Sarai وجعلها عاصمة لمملكته فى الحوض الأدنى لنهر الفولجا - هو صاحب القول الفصل فى اختيار مانجو بن تولوى خاقاناً على المغول عام ١٢٥١م^(٣٣). ولكن بوفاة باتو عام ١٢٥٦ م ووفاة مانجوخان عام ١٢٥٩ م انتهت العلاقات الودية بين أبناء العمومة . ومن ثم بدأت الخلافات تطفو على السطح بين بركة خان أخو باتوخان وخليفته من ناحية وبين هولاكو خان عام ١٢٦٠ م من ناحية أخرى حتى أنفخس الطرفان وخلفاؤهما فى حروب بدأت منذ ذلك الحين .

وهناك أسباب كثيرة لهذه الخلافات نجملها فيما يلى : أولاً أن بركة خان قد مد يد العون لأريق بوقا ، واعترف به خاقاناً على المغول وهو ما أغضب كلا من قوبيلاي وهولاكو ومعظم أحفاد جنكيز خان^(٣٤). ثانياً : أن قوبيلاي بعد وتوليته خاقاناً أصدر فرماناً يقضى باقرار شقيقه هولاكو على البلاد " من ضفاف نهر جيحون حتى ديار مصر والشام ، ^(٣٥) وإدماج بلاد آران وأذربيجان داخل أملاك هولاكو » وهذا الأمر لم يعجب بركة خان باعتباره أن أذربيجان بمراعيها من إرث والد الأخير - جوشى - حسب وصية جنكيز خان^(٣٦). ثالثاً : أن بركة خان كان قد اعتنق الإسلام هو وقادته ومعظم جيشه ، وساء ما فعله هولاكو ببغداد عام ١٢٥٨ م. وينقل رشيد الدين عن بركة خان قوله عن غريمه " أنه دمر جميع مدن المسلمين وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم ، ولم يميز بين الصديق والعدو ، وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة (المغولية) ، فلو أمدنى الله تعالى لطالبته بدم الأبرياء »^(٣٧)، وأهم من هذا وذاك أن هولاكو قد منع عن بركة خان نصيبه المعتاد - حسب تقاليد المغول - من مغانم الحروب فى وسط آسيا وغربها . فأرسل الأخير اثنين من أقاربه إلى هولاكو برسالة ضمنها ما جرت به العادة من إعطاء بيت باتوخان نصيبهم من فتوح البلاد ومغانم الحرب ، ولكن هولاكو قتلها وقال عن بركة " ولو أنه كبير الأسرة (أى أسرة جنكيز خان ، وسيدها إلا أنه لايرعى الحياء والخجل ، ويخاطبنى بتهديد وعنف وإنى لن أحابه بعد هذا »^(٣٨).

ولهذه الأسباب فان بركة خان قد أرسل قائده بوقا على رأس ثلاثين ألفاً من قواته ومن أقارب رسولييه اللذين قتلها هولاكو للمطالبة بدمائهما . والتقى الجمعان فى ممرات درند ، ومنيت جيوش هولاكو فى النهاية بهزيمة كاسحة أعقبتها استعدادات ومناوشات وحروب بين الطرفين استمرت حتى انهيار حكم دولة مغول فارس^(٣٩). وكان لها أثرها البعيد على علاقة هولاكو وخلفائه ببقية القوى السياسية فى منطقة الشرق الأدنى .

ولقد كانت للحروب بين مغول فارس ومغول روسيا (١٢٦١-١٢٦٣م) نتائج مباشرة وغير مباشرة يهمننا منها أولا انشغال الطرفين بصراعهما عن التوسع غربا على حساب جيرانهم الذين سبق لهما أن أخضعوهم من قبل . فمن ناحية هولاكو لم يستطع الثأر لهزيمة قواته فى عين جالوت أو إعادة إخضاع بلاد الشام لحكمه . واكتفى فقط بارسال غارات صغيرة مؤقتة لاختبار قوة الماليك أو للزود عن حلفائه الأرمن ، وذلك لانشغاله باعداد جيوشه ومعداته فى أذربيجان للملاقاة قوات بركه خان والانتقام من هزمته منه . وبالنسبة لبركه خان فان قواته كانت فى عام ١٢٥٩م قد قامت بغزو لبولندا وهددت المجر وألمانيا وأرسل بركه إنذارا للملك فرنسا بالتسليم والخضوع له ^(٤٠) . ولكن تفجر الصراع مع مغول فارس أرغم بركه خان على سحب قواته من شرق أوروبا وتحويلها إلى ميدان الصراع الجديد تجاه بحر قزوين .

ومن الناحية الأخرى فان كلا من هولاكو وبركه خان بدأ البحث عن حليف قوى ضد منافسه وكانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ الإمبراطورية المغولية التى يستعان فيها بقوى أجنبية ضد قوى مغولية ، وما تبع ذلك من طلب علاقات متوازنة مع الحلفاء (وليس باعتبارهم أتباعا لهم) ، والتخلى عن نغمة السيادة العالمية والقداسة التى كانوا يدعون أن السماء أعطتها لجنكيز خان وخلفائه فى إخضاع البشر لحكمهم . وكانت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام هى الحليف المأمول لمغول فارس باعتبارهم العدو التقليدى للماليك الذين هزموا قوات هولاكو والذين توثقت علاقتهم بحكام مغول روسيا .

ومن اليسير معرفة عوامل التقارب بين بركه خان وسلطين الماليك بدءا من عام ١٢٦١ وأقواها العداء المشترك لهولاكو ورابطة الإسلام التى كانت تجمع الطرفين ^(٤١) فضلا عن ذلك كان الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧م) ومعظم قادة الماليك من منطقة القفجاق التى كان يسيطر عليها وقتذاك بركه خان ، ومن ثم فان الحنين للموطن الأصلى قد شجعهم على التقارب مع الأخير . كما أن هذه المنطقة ظلت المورد الأساسى للرقيق - الذين كانوا عماد العسكرية بالنسبة لسلطنة الماليك - وكان يهم الطرفين استمرار فتح طرق التجارة بينهما ^(٤٢) عن طريق القسطنطينية - بعد سقوطها فى يد آل باليو لوجس عام ١٢٦١م .

وقد وصلت أنباء الخلافات بين هولاكو وبركه للقاهرة فى ذى الحجة عام ٦٦٠هـ / نوفمبر ١٢٦٢ بوصول مائتين من القوات التابعة لمغول روسيا والتى كان بركه خان قد أرسلها لإمرة هولاكو لمساعدته فى فتح قلاع الاسماعيليه . وعندما تفجرت الصراعات بينهما فان بركه خان

أرسل لقواته بالحضور إليه وإن لم يستطيعوا فعليهم الذهاب «إلى عسكر الديار المصرية» وقد قبول هؤلاء «التتار المستأمنين» بحفاوة بالغة من الماليك . ويرى ابن عبد الظاهر «أن السلطان بيبرس نظر في مصلحة عامة للإسلام ، وهى إنفاذ رسل إلى الملك بركة .. وكتب له كتابا فيه شئ عظيم من الاستمالة والحث على الجهاد ... والإغراء بهلاون (هولاكو) خذله الله! وتهرين أمره وتقبيح الغفلة عنه .. » (٤٣).

وهكذا تلقف الماليك هذه المبادرة من بركة خان وردوا عليها بارسال سفارة لتشجيعه على الجهاد ضد هولاكو وما تبع ذلك من تبادل للسفارات والخطابات بين الدولتين . وتوطدت هذه العلاقة بزواج بيبرس وقلاوون الألفى وغيرهما من قادة الماليك من بيت بركة خان ورعاياه . وكانت هذه العلاقات على قدم المساواة بين الماليك - باعتبارهم أكبر قوة إسلامية فى المنطقة - وبين مغول روسيا . وكان التحالف مع الأخيرين جزءا من سياسة الماليك لمواجهة مغول فارس منذ ذلك الحين (٤٤).

الاتصالات بين مغول فارس واللاتين فى عهد هولاكو

إذا كانت هناك خلاقات فى وجهات النظر بين العديد من المؤرخين المحدثين حول التوقيت الدقيق لبداية تبادل السفارات بين اللاتين فى عكا وهولاكو من ناحية وبين هولاكو والغرب الأوربي من ناحية أخرى ، فإن هناك شبه اجماع على أمرين : أولهما أن هولاكو بدأ يتصل باللاتين بعد هزيمة قواته فى موقعة عين جالوت ، وبعد دخوله فى صراع مسلح مع مغول روسيا عام ١٢٦١م ، وذلك لأنه كان بحاجة فعلية للتعاون معهم . ثانيا : أن الغرب الأوربي - الذى سبق له إرسال عدة سفارات للمغول (١٢٤٥-١٢٥٤م) باءت جميعها بالفشل ، والذى وصلته عدة نداءات للنجدة من الصليبيين فى عكا إبان غزو هولاكو لبلاد الشام ، فى نفس الوقت تقريبا الذى كانت قوات مغولية (من فرع مغول القفجاق) تغزو شرق أوروبا - لم يثق فى مراسلات هولاكو ولم يعطها آذانا صاغية (٤٥) هذا إذا افترضنا أن الغرب الأوربي كان لديه القوة والقيادة الموحدة التى تجعله يرحب بالتحالف مع مغول فارس سواء بعمليات حربية ضد مغول روسيا فى شمال أوربا أو بعمليات عسكرية مباشرة ضد الماليك أو عن طريق الكيانات الصليبية فى شرق البحر المتوسط .

ويتضح من خلال التقرير الذى قرأه مبعوثوا أبغاخان بن هولاكو (١٢٦٥-١٢٨٢م) أمام مجمع ليون الرابع عشر عام ١٢٧٤م ، أنه أثناء وجود هولاكو فى بلاد الشام عام ١٢٦٠م ،

أرسل بطربرك مملكة بين المقدس فى عكا سفارة استطلاعية للقائد المغولى لمعرفة نواياه تجاه الصليبيين فى الشام . وكان على رأس هذه السفارة الراهب الإنجليزى الدومنيكانى ديفيد الأشبى David of Ashby « وأنه بعد أن جاء هؤلاء المبعوثون إلى الملك العظيم (هولاكو) حدثوه كثيرا عن عقيدة الدين المسيحى وعن قداسة الكرسي الرسولى (البابوية) وعن عظمة الملوك اللاتين الذين يدعون بالفرنج » (٤٦).

ويستنتج من تلك الوثيقة ومن تطور الأحداث بعد ذلك أن هولاكو قد احتجز «ديفيد الأشبى» لديه لاستخدامه فى بلاطه ، حيث مارس الأخير مهامه التبشيرية فى ابلخانية فارس حتى أرسله ابغا بعد ذلك على رأس بعثة مغولية للغرب الأوربى فى عام ١٢٧٤م (٤٧).

وفى عام ١٢٦٢م أرسل هولاكو خان سفارة من قبله تحمل رسائل للبابا والملوك الغرب الأوربى (٤٨). ولكن ما نفريد هوهنشتاوفن - ملك صقلية الذى كان فى المرحلة الحاسمة لحروبه مع البابوية وحليفها شارل الأنجوى فى ذلك الوقت - قبض على أفراد السفارة المغولية وصادر الوثائق التى كانت تحملها (٤٩)، ربما لكراهيته للمرسل إليهم وربما لأنه وجد فيها عروضاً بتحالف مغولى أوربى ضد أصدقائه المسلمين . وكان جون الهنغارى John the Hungarian ضمن أفراد هذه السفارة ويعتقد أنه غافل رجال مانفريد وهرب منهم واستطاع الوصول إلى البابا أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤م) وحكى له مقتطفات من الخطابات المفقودة وهدف السفارة المغولية (٥٠).

ورغم أن أحد الباحثين وهو باول ميفارت Paul Meyvaert عشر حديثا على خطاب هولاكو المرسل مع هذه السفارة إلى الملك الفرنسى لويس التاسع ، إلا أنه ليس هناك دليل واحد على أن الأخير قد تسلم هذه الرسالة ، والمهم أن هولاكو يكرر فيها نفس النغمة القديمة عن الرسالة السماوية التى تلقاها جنكيز خان بالسيادة العالمية ، وأنه يجب على كل أمراء البسيطة بما فيهم لويس التاسع نفسه الخضوع لإمرة المغول . ويعدد هولاكو - من قبيل الفخر - الولايات والأقاليم التى أخضعها لسيطرته بحد السيف . ويطلب فى نهاية رسالته من الملك الفرنسى «محاولة اقناع القوات اللاتينية (فى سوريا) بأن تستعد على طول السواحل وأن تستخدم السفن الحربية (ضد الممالك) حتى إذا ما هاجم المغول عدوهم المشترك فان (المسلمين) لا يجدون مكانا يتراجعون فيه (أو يهربون إليه) وبذلك يمكن تدميرهم» ولم ينس هولاكو أن يحذر الملك الفرنسى بأنه إذا لم تأت هذه المساعدة فان مصيرة يوما ما سيكون مثل

هؤلاء (الكفرة) العصاة . وفى محاولة من الایلخان المغولى لاستمالة الملك الفرنسى لقبول اقتراحه فانه يذكر له حبه للمسيحيين فى ایلخانيته وإعفائه للكنائس ورجال الدين من الضرائب . وأنه قد أمر أن مدينة بيت المقدس - بعد استردادها من المسلمين - سوف تعطى للبابوية عن طريق جون الهنغارى حامل هذه الرسالة^(٥١).

ونظرا لضیاع الخطابات الأخرى التى أرسلها هولاکو للقوى الكبرى فى الغرب الأوروبى فلانستطيع القول بأن هولاکو قد خص لریس التاسع بهذه الرسالة ، وعموما كان هولاکو يعلم تماما - كما أورد فى رسالته - بسفارات الملك الفرنسى للمغول من قبل ، وأن لریس التاسع كان آخر ملك أوروبى فى الشرق العربى (حيث رحل منه - عام ١٢٥٤) . ومن ثم فكلمته مؤثرة على اللاتين فى الشرق والغرب على حد سواء .

ومهما يكن من أمر فقد كان لوصول جون الهنغارى للمقر البابوى وإحاطته علما بمحتويات الرسائل المفقودة تأثيره على قيام البابا أوربان الرابع بكتابة رسالة إلى هولاکو فى ذلك العام (١٢٦٢م) .

وفى هذه الرسالة - غير المحددة التاريخ ولا اسم الراسل -^(٥٢) يبدأ البابا بإهداء سعادته لما سمعه من جون الهنغارى عن رغبة هولاکو فى اعتناق الدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى وأنه فى حاجة لشخص ذى حیثية لتعميده . وبارك أوربان الرابع هذه الخطوة من هولاکو وببلغه أنه وكل رعاياه الذين سيقفون أثره سوف ينالون المثوبة فى الآخرة إذا ما نالوا المعمودية . ويذكره كذلك بقصر الحیاة وقرب دنو الأجل ويطلب منه سرعة التعميد . وبدأ البابا يلقي الطعم لهولاکو بقوله أنه لو عمد فعلا فانه سیرى « كيف ستزید قوتك فى حرك مع المسلمين لو أن الجنود المسيحيين يساعدونك علانية وبكل قوتهم بفضل معونه الرب ، ومن ثم فانك ستزید قوتك فى الدنيا وبالتأكيد سوف تضمن المجد الخالد فى الآخرة ... » ويمضى البابا بأنه نظراً لأن جون الهنغارى لم يقدم الأدلة الدامغة على حقيقة نية هولاکو بالتنصر والتحالف مع الغرب نظرا لمصادرة ما نفرد للخطابات التى معه فانه (أى أوربان الرابع) قد أرسل لبطربرك مملكة بيت المقدس للتحرى عن هذا الأمر . ولهذا فان البابا يحث الخان المغولى على إبلاغ رغباته للبطربرك باعتباره ممثلاً للبابا فى الشرق اللاتينى وحينئذ فان الأخير سينظر فى الإجراءات الضرورية لهذا الأمر^(٥٣).

والمهم أن خطاب البابا وصل إلى هولاكو وهو فى أخريات حياته ، وكانت استعداداته للثأر من هزيمته من مغول روسيا ومشاكله الداخلية سببا فى عدم مرده على رسالة البابا . ثم مات هولاكو فى ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م . والأمر المؤكد أنه مات بوذيا بقول رشيد الدين أنه فى آخر حياته «بنى معابد للأصنام فى مدينة خوى» (٥٤). ومن ثم فإن خطابه السابقة للغرب الأوربي عن نيته التنصر على المذهب الكاثوليكي لم تكن إلا طعما للغرب الأوربي الذى كان يحلم بتنصر قادة المغول لجرهم للتحالف معه ضد المسلمين : العدو المشترك للطرفين.

فترة أبغا خان (١٢٦٥-١٢٨٢م)

تعتبر فترة حكم أبغا خان فترة هامة فى تاريخ العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوربي وذلك لازدياد حاجة الطرفين للتعاون العسكرى ضد المسلمين عن ذى قبل . فتفجر النزاع بين أبغا وبين مغول التركستان أو الجفطائيين بدءا من عام ١٢٦٨ ، وانشغال جزء هام من قواته فى حروب على الحدود الشرقية فى الوقت الذى لا يزال النزاع مستمرا على حدوده الشمالية مع روسيا جعل الإيلخان مغولى فى فارس يرسل العديد من السفارات للبابوية وملوك غرب أوروبا طلبا للتحالف العسكرى معهم ضد المماليك ليأمن شر أعدائه على حدوده الغربية .

ولقد عاصر ذلك الإيلخان الظاهر بيبرس الذى كان رجلا سياسيا حاذقا بعيد النظر فى التعامل مع أعدائه من الصليبيين والأرمن والمغول . فبعد سلسلة إصلاحات داخلية وعلاقات دبلوماسية لتطويق أعدائه . استطاع بيبرس أن يقود أكبر قوة عسكرية ضاربة فى المنطقة والافراد بخصومه واحدا بعد الآخر ، وبعد تحطيم أو تحييد أحد خصومه يستدير للخصم الآخر ولهذا كان الصليبيون فى الشرق بحاجة ماسة أيضا للتحالف مع مغول فارس فى ضوء انشغال البابوية بمشاكل سياسية فى جنوب أوروبا وكذلك انشغال بقية قادة الغرب الأوربي بمشاكلهم الإقليمية عن نجدة الصليبيين ضد المماليك .

فقد تمكنت قوات المماليك فى عامى ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ من الاستيلاء على قيساريه وحيفا وأرسوف وصفد من أصحابها الصليبيين بالإضافة إلى بعض القلاع الأخرى لفرسان الداوية . وعقد بيبرس معاهدات مع القوى الصليبية الأخرى يلزمهم فيها بعدم التحرش بالمسلمين أو مساعدة أحد ضدهم (٥٥). وكان ضروريا للسلطان المملوكى أن يقوم بتحصيل هذه القوى الصليبية فى صراعه المرتقب مع أهم أعدائه - بعد المغول - وهم الأرمن وإمارة انطاكية الصليبية اللذين تحالفا مع المغول ضد المسلمين عام ١٢٦٠م .

ومن ثم فان بيبيرس أرسل تجريدة عسكرية للاغارة على أملاك بوهيموند السادس فى طرابلس لشغل قواته عن مد يد العون لصهره وحليفه ملك أرمينيا الصغرى التى تعرضت بلاده فى أغسطس عام ١٢٦٦- ذى القعدة ٦٦٤هـ لهجوم كاسح من قوات الممالك التى انتهزت فرصة انشغال مغول فارس على حدودهم الشرقية . واستطاعت قوات الممالك هزيمة الأرمن وتدمير قلاعهم وحصونهم وقتل أحد أبناء هيثوم الأول وأسرا ابن ثان له (ليفون) مع عدد كبير من الأسرى والغنائم^(٥٦) . وكانت هذه ضربة قاصمة للملك أرمينيا الصغرى تعلم منها أن المغول لا يعتمد عليهم وأنهم لا يستطيعون حماية مملكته من الممالك .

وأسرع كل من هيثوم الأول وأبغاخان بإرسال السفارات للغرب الأوربي لطلب المساعدة العسكرية ضد الممالك وذلك فى نهاية عام ١٢٦٦م. ونظرا لعدم العثور على خطاب أبغاخان للبابا كليمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٨٢م) فيمكن من خلال الرد الذى أرسله البابا عام ١٢٦٧ م على هذه الرسالة بالإضافة إلى خطاب أبغا مع سفارته الثانية فى العام التالى لسنة ١٢٦٨م للغرب الأوربي استنتاج أهم النقاط الواردة فى الخطاب الأول لأبغا .

إذ يتضمن هذا الخطاب تهنئة للبابوية على انتصارها فى موقعة Benevento (٢٢ فبراير ١٢٦٦م) على ما نفريد بن فردريك الثانى ويطلب أبغا كذلك من البابا إرسال جيوش الغرب الأوربي بالتعاون مع قوات (صهره) ميخائيل الثامن باليولوجس (١٢٦١-١٢٨٢م) للشام لمحاصرة قوات المسلمين (الكفرة) بين المغول شرقا والقوات الأوربية غربا ، ويستفسر أبغا خان من البابا عن الطريق الذى ستسير فيه هذه القوات وعن موعد وصولها إلى الشرق .

ولما كان هذا الخطاب مكتوبا باللغة المغولية ولم يستطع أحد فى روما ترجمته ، فان البابا اعتمد على مبعوث الایلخان المغولى فى فهم محتواه . ويبدو أن هذا المبعوث قد أفهم البابا بأن الایلخان المغولى قد اعتنق الديانة المسيحية فعلا وذلك لكسب الغرب الأوربي لاقتراح أبغا خان فى مشروع التحالف العسكرى^(٥٧) .

ولهذا فان كليمنت الرابع فى خطابه عام ١٢٦٧م من مدينة Viterbo الإيطالية والذى أرسله مع مبعوثه Jaymo Alarich يبدى أسفه لأبغا خان أن أحدا فى بلاطه لم يستطع أن يقرأ خطابه لأنه غير مكتوب باللغة اللاتينية . ويبدأ البابا رسالته بشكر الرب أن أبغا قد اعتنق الدين المسيحى ، ويشكر الأخير على تهنيئته له بالانتصار على ما نفريد هو هشتافون، ويستمر البابا فى قوله أن ملوك فرنسا ونافار وكثيرا من البارونات وعددا لا يحصى من الجنود

يستعدون للذهاب للأراضي المقدسة ليهاجموا أعداء الدين . ويقول لأبغا « وأنتم قد كتبتم أنكم تنوون الانضمام لصهرك (الامبراطور البيزنطى) لمساعدة اللاتين (فى الشرق) ، ونحن سوف نفعل ما فى وسعنا لمساعدتك ولكننا لانستطيع القول- حتى نستفسر من هؤلاء أنفسهم أى الطرق سوف يسير فيها شعبنا (للأراضي المقدسة) ... » وكتب البابا لأبغا أنه سيرسل لهؤلاء الملوك والأمراء برغبته حتى يعدلوا من خططهم ويطوروها وأنه سوف يخطره (أى أبغا) فى موعد لاحق عن طريق مبعوث موثوق فيه بما طلبه . وطلب كليمنت الرابع من الايلخان المغولى أن يستمر فى خطته ومشروعه هذا وأن يعتقد فى الرب مانح النصر والحياة «والذى بيده الملكوت وقلوب الملوك ، ويرفع منهم من يشاء ويذل من يشاء بغير حساب» (٥٨).

وأرسل كليمنت الرابع خطابا لبطريك بيت المقدس فى عكا لمساعدة ملك أرمينيا الصغرى وأمير أنطاكية حينما يتقدمان بقواتهما مع قوات المغول ضد المماليك . وأرسل أيضا وعدا بالمساعدة لهيشوم الأول من قوات لويس التاسع عندما تصل للشرق . وأرسل البابا كذلك للإمبراطور البيزنطى يحثه على العودة لمظيرة كنيسة روما والمشاركة مع صهره - الايلخان المغولى - فى مساعدة الصليبيين ، وأخيرا فإنه أرسل لجيمس الأول ملك أراجون ولويس التاسع لتشجيعهما على سرعة إعداد قواتهما (٥٩).

والمهم أنه بوصول مبعوث البابا لأبغا خان قام الأخير على الفور بإرسال سفارة للغرب الأوروبى بخطاب مؤرخ من أذربيجان فى ٣ أغسطس عام ١٢٦٨م ، وذلك لأن موقف حلفاء مغول فارس فى الشرق الأدنى كان قد بلغ - حينئذ - درجة من السوء لم يتحدث من قبل.

فقبل ذلك بعامين كانت قوات المماليك قد حطمت أرمينيا الصغرى وقتلت ابن ملكها وأسرت ابنا آخر فى إطار خطة السلطان الظاهر بيبرس لتحطيم هذه المملكة أو إخراجها من صراعه مع إمارة أنطاكية . وفى مايو عام ١٢٦٨م / رمضان ٦٦٦ هـ قاد بيبرس جيشا ضخما وحاصر أنطاكية فجأة من عدة جهات . ولم يتمكن أحد من مجدهتها ، سواء من الأرمن أو المغول أو الصليبيين ، وكان أميرها بوهموند السادس فى طرابلس ولم يستطع شيئا لإنقاذ أمارته ، وطبقا لرواية ابن عبد الظاهر كان بانطاكية «مائة ألف نفر» (٦٠) ، وجميعهم إما قتل أو أسر . وحصل المماليك على غنائم لا تحصى حتى «طال الوزن ، فقسمت النكود بالطاسات... ولم يبق غلام (مسلم) إلا له غلام (صليبي) ، وبيع الصبى باثنى عشر درهما ، والجارية بخمسة دراهم ... وركب (السلطان) إلى قلعة أنطاكية وأحرقها وأخذ الناس حديد أبوابها ورصاص كنائسها» (٦١).

ومما يدل على حنكة بيهرس الدبلوماسية تأجيله تسليم ليفون بن هيثوم الأول - لوالده - رغم الثمن الفادح الذى قبله الأرمن نظير إطلاق سراحه - إلى ما بعد الانتهاء من أمر الاستيلاء على أنطاكية بشهر واحد فقط حتى يضمن تماما عدم تدخل قوات ملك الأرمن وحلفائه المغول لمساعدة صهره برهيموند السادس . وبعد أن تحقق للسلطان المملوكى ما أراد ، أطلق سراح ليفون الذى أخذه والده لاهبا خان كى يوافق على توليته عرش أرمينيا الصغرى . واعتزل هيثوم بقية حياته فى أحد الأديرة (٦٢) . وهكذا وجه الممالك ضربة قاصمة للتحالف المغولى الأرمنى الصليبي وذلك بتحطيم أرمينيا الصغرى والاستيلاء على أنطاكية ولم يعد لبقية الصليبيين أية حدود مشتركة مع الأرمن أو مع مغول فارس .

ولهذا فان أبغاخان كان يتوقع استجابة قوية من الغرب الأوروبى للتحالف معه ضد الممالك بعد سقوط أنطاكية . ففى خطابه الذى أرسله فى أغسطس عام ١٢٦٨م - يدخل أبغاخان فى تفاصيل مشروع التحالف المشترك وبلغ البابا أنه سيرسل أخاه Ejei على رأس قوة كبيرة إلى بلاد الشام وأن جيش البابا (الذى أخبره المبعوث البابوى أن ملك فرنسا سيقول قيادته) وجيش ملك أراجون سوف يهاجمان الممالك من الناحية الأخرى لحصار وتدمير عدوهما المشترك بينهما . ولم ينس الأيلخان المغولى من قبيل تحفيز الغرب الأوروبى للاستجابة له أن يشير لانتصاراته على أعدائه فى الداخل والخارج وحبه للمسيحيين وحمائمه لكنائسهم (٦٣) .

وعندما وصلت سفارة أبغا بصحبة المبعوث البابوى إلى روما عام ١٢٦٩م وجدت أن كليمنت الرابع قد مات . ومن ثم ذهبت إلى جيمى الأول ملك أراجون وبقية ملوك غرب أوروبا . وكانت أخبار سقوط أنطاكية قد وصلت للغرب ، وكانت استعدادات لويس التاسع وعدد من أمراء الغرب لحملة صليبية جديدة لنجدة الصليبيين فى الشرق فى مراحلها النهائية ، وإزاء الأنباء التى بعثها أبغا بوجود جيشه على أهبة الاستعداد لغزو سوريا فور ظهور الجيوش الأوربية على سواحلها ، فان جيمى الأول قاد أسطوله للشرق ، ولكن ريحا صرصرا عاتية حطمت معظم سفنه أمام السواحل الفرنسية ورجع لبلاده ، ولكن ولديه أكملوا الرحلة إلى عكا مع قوة صغيرة حيث اعتقدا أنه يمكنهما بقوتهم الصغيرة هزيمة الممالك ، ولكن نبلاء عكا نصحوهما بالعدول عن استخدام القوة ، وبعد غارة على قرية مسلمة رجعا من حيث أتيا (٦٤) .

ولكن الحملة الكبرى التي كانت تضم عددا كبيرا من أمراء وبارونات الغرب الأوربي وقواته تحت قيادة لويس التاسع انخرطت إلى تونس ضد الحفصيين الذين لم يكن بينهم وبين غرب أوروبا أية علاقات عدائية . والمهم أن الملك الفرنسي ومعظم قواته ماتوا بالطاعون بعد نزولهم لقرطاجنة ، ومن ثم رجع أولاده بجثمانه وبقول جيوشهم من حيث أتوا بعد أن حقق شقيقه شارل الأنجلوى أهدافه مع الحفصيين (٦٥).

وكان الأمير إدوارد بن الملك هنرى الثالث ملك إنجلترا قد قاد نحو ألفا من قواته للحاق بحملة لويس التاسع ولكنه وصل قرطاج في ٩ نوفمبر ١٢٧٠م أى بعد وفاة الملك الفرنسي بشهر واحد . ولم يعد إدوارد لبلاده مثل بقية قوات حملة لويس التاسع باعتبار أنه كان عليه الوفاء بنذر عليه وعلى والده سبق أن قطعاه للبابوية بحمل الصليب ومساعدة الصليبيين في الشرق (٦٦)، وكذلك لتفويت الفرصة على بارونات إنجلترا باعادة التمرد ضد الملكية ، ووصل إدوارد بحملته الصغيرة إلى عكا في ٩ مايو عام ١٢٧١م وأنعش آمال الصليبيين في الشرق وعلى الفور أرسل إدوارد ثلاثة من رفاقه إلى ابغاخان لطلب إرسال جيوشه وهو الوعد الذي سبق أن أبلغه للأوربيين فور نزولهم للشرق (٦٧).

ونظرا لانشغال قوات ابغاخان على الحدود الشرقية آنذاك فان الأخير أبلغ الأمير الإنجليزي في ٤ سبتمبر ١٢٧١م بأنه أرسل أوامره لقائده صمغار Samagar في أناضوليا لغزو بلاد الشام ، واقترح على ادوارد الترتيب مع هذا القائد لمواجهة الماليك . وقاد صمغار قوة مغولية من عشرة آلاف فارس واحتلت حلب وتقدمت قواته في البقاع حتى وصلت إلى ٢٠٠ ميل من مدينة عكا . ولكن القوة المغولية انسحبت إلى شرق الفرات بمجرد وصول القوات المملوكية بقيادة بيبس إلى تلك المنطقة . وهذه الغارة على شمال بلاد الشام كانت هي كل ما فعله أبغا لمساعدة حليفه الإنجليزي . أما قوة ادوارد فلم تفعل أكثر من غارة محائلة على قلعة صغيرة (٦٨).

ويعلق المؤرخ الإنجليزي Powicke على ذلك بقوله «إن حملة ادوارد التي لم تكن قادرة على انتزاع قلعة صغيرة ، لم تكن مؤهلة بأى حال لاسترداد مدينة بيت المقدس ولو أن أبغا كان حرا من خطر الجفطانيين (مغول التركستان) وانضم لحملة ادوارد بكل قواته ، فإن اللاتين كانوا من الضعف والانتقاس بالدرجة التي تجعلهم لا يستفيدون بهذا التحالف بل على الأكثر سيكونون خاضعين للحكم المغولى » (٦٩).

ولا عجب فى ضوء ما تقدم أن شجع الأمير الإنجليزى مبادرة شارل الأنجوى - الملك الاسمى لمملكة بيت المقدس الصليبية لأمرء عكا بعقد هدنة مع المماليك مدتها عشرة أعوام وعشرة شهور للمحافظة على البقية الباقية من أملاك الصليبيين . وبعد ذلك أسرع بقية المدن والقلاع الصليبية بطلب هدنة مماثلة من الظاهر بيبرس ، وفى ٢٤ سبتمبر ١٢٧١م غادر الأمير الإنجليزى وقواته سواحل الشام عائداً لبلاده حيث تولى ملكية المجلترة حتى عام ١٣٠٨ لوفاء والده أثناء وجوده بالشرق^(٧٠) . وهكذا لم ينجح هذا التحالف فى أول تجربه عمليه له .

ولكن زوال خطر حملة ادوارد وانتهاء حملة لويس التاسع بوفاته أطلق يد المماليك فى المنطقة ، فقام بيبرس بهجوم على ممتلكات أبغا شرقى نهر الفرات . وعبر السلطان المملوكى هذا النهر سباحة بنفسه مع قواده للإغارة والسلب والنهب لتأديب أبغا على حملته التى أرسلها إلى بلاد الشام فترة وجود ادوارد بها ، ورفض عروض الأخير للصلح التى أرسلها عن طريق ملك أرمينيا الصفرى تارة وحكام سلاجقة الروم تارة أخرى . ومن الناحية الأخرى ، لم تتوقف قواته عن الإغارة على القلاع الصليبية بها وأرسل سفنه لغزو قبرص نفسها عام ١٢٧١ ولكنها تحطمت قرب الجزيرة وأسرت قواته هناك^(٧١) .

ولم يكن الغرب الأوربى غافلاً عن حقيقة أنه ما لم ترسل نجيدات سريعة للصليبيين فى الشرق فإن البقية الباقية سوف تنهار أمام المماليك ، خاصة وأن البابا الجديد جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) كان بطريكاً لمملكة بيت المقدس فى عكا من قبل وكان عضواً فى حملة الأمير ادوارد . ولهذا دعا هذا البابا إلى عقد مجمع مسكونى عالمى فى مدينة ليون الفرنسية فى مايو عام ١٢٧٤ لبحث على رأس موضوعاته وسائل تقوية الكيان الصليبي وإرسال حملة صليبية عاجلة لإنقاذه .

وقد أرسل أبغا خان سفارة لحضور هذا المجمع مكونه من ستة عشر عضواً من بينهم عدد من الرهبان اللاتين والمترجمين . وقد قدم البابا سفراء أبغا خان للحاضرين فى نهاية الجلسة الرابعة لأعمال المجمع فى يوم ٧ يولية (١٢٧٤) حيث تليت رسالة الإيلخان المغولى باللغة اللاتينية . وجاء بها «لهذا نريد أن تعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملكنا صاحب العظمة أبغا خان يريد التحالف ، ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين للكنيسة الرومانية»^(٧٢) .

وفى حركة إعلامية بارعة من أبغا خان فإن ثلاثة من سفرائه المغول طلبوا من البابا تعميدهم على المذهب الكاثولىكى . وقام بذلك كاردينال أوستيا Ostia^(٧٣) أمام المجمع فى

جلسة يوم ١٦ بولية ، وقد قبل هذا التصرف بترحيب عام من ممثلى كنائس غرب أوروبا . وتشير إحدى الحوليات الإيطالية إلى أنه سرت إشاعة - حينئذ - فى الغرب الأوروبى مفادها أن أبغا خان سيحضر إلى روما للتعميد على يد البابا وتلقى التاج من الأخير شخصيا (٧٤).

وقد ذهب سفراء المغول بعد انتهاء جلسات مجمع ليون إلى العواصم الكبرى للغرب ، وقد نشر المؤرخ هنرى هوارث خطاب ادوارد الأول إلى أبغا خان المؤرخ فى ٢٦ يناير عام ١٢٧٥م من مدينة Beaulieu بمقاطعة هامبشير الإنجليزية ، وفيه يبلغ الملك الانجليزى الايلخان الفارسى أنه قد تلقى خطابه عن طريق سفيره ديفيد الأشبى وجاء فيه :

وقد علمنا منه مقدار الحب الذى يحملونه للدين المسيحى ومدى التصميم الذى قرروه لتخليص المسيحيين والأراضى المقدسة من أعداء المسيحية ، وهذا جميل كبير لنا ونحن نشكركم عليه ، ونحن ندعو لجلالتكم لتنفيذ هذا المشروع المقدس . ولكننا نستطيع فى الوقت الحاضر أن نبلغكم بأية أنباء مؤكدة عن موعد وصولنا للأراضى المقدسة ولاعن سير القوات المسيحية الأخرى ، لأن البابا لم يقرر شيئا بعد فيما يتعلق بهذا الأمر ، ولكننا سوف نخطركم (بأى جديد فى هذا الشأن) بمجرد العلم به . ونحن نوصيكم خيرا بمسألتى الأراضى المقدسة وبكل المسيحيين الشرقيين (٧٥).

وقد عرج سفراء المغول - فى طريق عودتهم للشرق على روما - لتسلم رسالة البابا جريجورى العاشر لملكهم . وفى رسالته المؤرخه فى ١٣ مارس عام ١٢٧٥ م ، فان البابا أشار إلى الوعد الذى تلقاه من مبعوث الايلخان بأن سيدهم سيعتقد الدين المسيحى . ووعد جريجورى العاشر فى رسالته أبغا خان بإرسال سفراء من لدنه فى موعد لاحق لإبلاغه بما يتلقاه من معلومات من الأمراء العلمانيين بخصوص الحملة الصليبية التى يجرى إعدادها للشرق للانضمام لقوات المغول ضد المسلمين . ويبلغه أيضا أن «الكرسى البابوى يكرس الوقت والجهد معا ليس فقط لمصير أرض المسيح ، ولكن أيضا لسعادة الملك الفارسى والشعب الذى يحكمه » (٧٦).

وعلى الرغم من الجهود المضنية التى بذلها جريجورى العاشر لتهيئة المناخ فى أوروبا للقيام بحملة صليبية للشرق ، فان الوعود التى تلقاها من الأمراء العلمانيين كانت مجرد شعارات لم تجد طريقها للتنفيذ لانشغال كل منهم بمشاكله الاقليمية (٧٧). ومات جريجورى العاشر فى ١٠ يناير عام ١٢٧٦ م ، وبموته خبأت الحماسة الصليبية التى أذكنتها شخصية هذا البابا الذى يعتبر أكثر البابوات فى النصف الثانى للقرن الثالث عشر اهتماما بالكيان الصليبي فى الشرق.

وفى تلك الأثناء كانت قوات الماليك قد وجهت ضربة أخرى لأرمينيا الصفرى عام ١٢٧٥م ، وذلك لأن ملكها ليون الثالث (١٢٧٠-١٢٨٩م) « قد حصلت منه أذية للتجار (المسلمين) ... وصار يستميل الفرنج إلى التتار ... »^(٧٨) ومن ثم غدت مملكته مسرحا للسلب والقتل والسبى والحرائق من قوات الماليك دون أن يتقدم حلفاؤها مغول فارس لمساعدتها .

بل أن بيبرس أراد أن يوجه لطمة أخرى مباشرة إلى ايلخانية فارس . فاختار أن يهاجم بلاد سلاجقة الروم التى كانت مشمولة بالحماية المغولية وذلك بالتعاون والدسياسة من وزير السلاجقة ، واستطاعت قوات الماليك تمزيق الجيش المغولى فى الأناضول عند ابليستين فى ١٣ من ذى القعدة ٦٧٥هـ / ١٩ أبريل ١٢٧٧م . وبعد عودة بيبرس إلى سوريا ، فان ابغاخان حضر بقواته لمكان الواقعة ، وبكى عندما شاهد قتلى التتار مكდسين^(٧٩) .

ولم يستطع الايلخان المغولى أن يفعل شيئا سوى إعادة إرسال سفارة عاجلة للبابوية وللملوك الغرب الأوربي . وأعاد أبغا على مسامح هؤلاء وعوده السابقة بالانضمام لقواتهم فور وصولها للشرق . ولكن فيليب الثالث ملك فرنسا (١٢٧٠-١٢٨٥م) لم يفعل أكثر من حسن استقباله للسفراء المغول ووداعهم . بل وتروى حولية فرنسية معاصرة أن الباريسييين اعتقدوا أن هؤلاء المغول جواسيس وليسوا سفراء^(٨٠) .

والحقيقة أن فيليب الثالث لم يكن يهتم من أمر الصليبيين شيئا إلا بالقدر الذى يحفظ علاقاته بالبابوية من المخاطر ، وربما يكون هذا الموقف ناجما عن هزيمة لويس التاسع - والد فيليب الثالث - فى مصر عام ١٢٥٠م ، وفشل حملته فى تونس ووفاته هناك عام ١٢٧٠م بحيث تركت آثارها على الفرنسيين . بل وأثرت تأثيرا خطيرا على الاقتصاد الفرنسى خاصة إذا ما عرفنا أن حملة لويس التاسع فى الشرق العربى (١٢٤٨-١٢٥٤) تكلفت ما يعادل مجموع دخل فرنسا - حينئذ - لمدة ستة أعوام^(٨١) . فضلا عن أن تورط فرنسا فى حرب مع ملكة قشتالة على وراثة العرش كبذرتها خسائر فادحة أبعدتها عن الاهتمام بالكيان الصليبي .

ونفس الرد تقريبا سمعه سفراء المغول من الملك الانجليزى عام ١٢٧٧م عندما طلبوا مساعدته « ضد الكفرة أعداء الصليب »^(٨٢) ، وفى عام ١٢٧٨م أرسل البابا نيقولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨٠م) عدة رهبان لمغول فارس للتبشير بالدين المسيحى ولتعميد أبغا نفسه^(٨٣) . وكان هذا رأى قادة أوروبا أى تنصر الايلخان المغولى قبل التحالف معه . ويرى « بالمر ثروب » Palmer Throop أن ذلك الموقف كان لإخفاء ميولهم الحقيقية ، لأنهم كانوا يخشون أن

يورطهم الخان المغولى فى حملة صليبية جديدة هم فى قرارة أنفسهم لا يريدونها ^(٨٤).

وعندما باءت جهوده للتحالف مع الغرب بالفشل ، قرر «أبغا خان» الاعتماد على القوى المحلية فى غرب آسيا لمواجهة الممالك خاصة بعد وفاة «الظاهر بيبرس» وقرده «سنقر الأشقر» على المنصور قلاوون (١٢٧٩-١٢٩٠م) واستقلاله ببلاد الشام ومراسلاته لقادة مغول فارس . ولهذا أرسل أبغا مبعوثا إلى عكا فى أكتوبر عام ١٢٨٠م لطلب التحالف مع الصليبيين عندما تتقدم جيوشه فى العام التالى ضد الممالك ^(٨٥). أما عن الأرمن والجيورجانيين فلم يكن أمامهم خيار آخر سوى الإذعان لمشيئة أبغا خان فى الانضمام لقواته ضد الممالك .

وكان للصليبيين موقفاً آخر ، فمعظم القوى الصليبية اختارت موقف الحياد لأنهم علموا من الدروس المريرة التى تلقتها كل من مملكة أرمينيا الصغرى وأماطة أن المغول غير قادرين على حماية حلفائهم .

ويهمنا فى مجال ذكر مرحلة الصدام المسلح بين الممالك من ناحية وبين المغول وحلفائهم من ناحية أخرى الذى دارت رحاه فى حمص فى أكتوبر عام ١٢٨١م / رجب ٦٨٠هـ. إلقاء الضوء على موقف اللاتين منه .

فالمصادر العربية أشارت إلى أن جيش المغول بقيادة مانكوت - شقيق أبغا خان - كان مكونا من «خمسين ألفا من المغل وثلاثين ألفا من الكرج» ^(٨٦) والروم والأرمن والفرنجية ^(٨٧). وذلك دون أية تفاصيل أخرى عن دور «الفرنجية» أو عددهم فى هذه المعركة . ورشيد الدين لم يشر لاشتراك الفرنجية مع المغول فى هذه المعركة ^(٨٨). وابن العبري أشار إلى أن المغول قد أخذوا معهم ملك الأرمن بعساكره مع خمسة آلاف كرج ^(٨٩) دون الإشارة لوجود «الفرنجية» مع المغول .

ولكن أحد فرسان هيئة الاستبارة فى حصن المرقب ويدعى «جوزيف دى كانسى» Sir Joseph de Cancy أرسل تقريرا للملك الانجليزى فى مايو عام ١٢٨٢م - أى بعد معركة حمص بسبعة شهور تقريبا - يصف فيه معركة حمص كشاهد عيان ، ويصف أحوال الشرق اللاتينى والممالك وقت كتابة هذه الخطاب .

ويقرر «دى كانسى» «أنه بناء على الحاج ملك أرمينيا الصغرى - الذى كان متواجداً بالمعركة- فإن استبارة حصن المرقب قد أرسلوا إليه مائتين من الفرسان والمشاة للانضمام لقواته» ^(٩٠) ولقد أشارت حولية المجليزية فى حوادث عام ١٢٨٢م بأن «ملك التتار انضم مع الاستبارة لقتال السلطان (المملوكى)» ^(٩١) ولكن لم يشر دى كانسى أو غيره من المصادر اللاتينية لطبيعة الدور الذى لعبه هؤلاء الاستبارة فى المعركة ، وربما كان دورهم قاصرا على

القيام بامداد قوات الأرمن بالمؤن والعتاد من قلعتهم القريبة من ميدان المعركة بل وربما كانوا يتجسسون على قوة المماليك تحسبا لصدام مسلح حاسم معهم .

وفى مايو ١٢٨٥ م استولى المنصور قلاوون على هذه القلعة من الإسماعيلية تأديبا لهم على اشتراكهم مع المغول ضد المسلمين^(٩٢) . فى أكتوبر عام ١٢٨١ م .

ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه الجولة بانتصار المماليك وأن المهزومين من المغول وحلفائهم ولوا الأدبار ، وأن قوات المسلمين تعقبتهم حتى شرقى نهر الفرات وحدود أرمينيا الصفرى ، وأن القوات المنسحبة خسرت أثناء الفرار أكثر مما خسرتها فى ميدان القتال^(٩٣) .

وقد أوضح دى كانسى فى تقريره أن نائب شارل الأنجوى بمدينة عكا قد تقابل مع السلطان المنصور قلاوون فى أثناء عودة الأخير لبلاده منتصرا وقدم له الهدايا والتهانى على انتصاره على المغول^(٩٤) . وكان هذا تعبيراً عن موقف مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا الودى للمماليك حرصاً على البقاء بجوار الأقوى .

وتوفى «أبغا خان» فى أول أبريل عام ١٢٨٢ بعد سماعه خبر هزيمة جيشه فى موقعة حمص . وتولى شقيقه تكودار (أحمد) منصب الإيلخانية (١٢٨٢-١٢٨٤م) ونظراً لاعتناقه وكثير من قواده الإسلام ، فإنه حاول التقارب مع المماليك وإنهاء حالة الحرب بين البلدين ليتفرغ لمشاكله الداخلية الناجمة عن تمرد ابن أخيه أرغون عليه ولكن مصرعه على يد الأخير أغلق باب الحوار مع المماليك إلى حين .

عهد أرغون خان (١٢٨٤-١٢٩١م)

وصل التقارب بين مغول فارس فى عهد أرغون خان والغرب الأوربى لمرحلة الذروة حيث أرسل هذه الإيلخان أربعة سفارات من قبله فى أعوام ١٢٨٥، ١٢٨٧، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ م لإعادة عرض مشروع التحالف العسكرى مع الغرب ودراسة تفاصيله وتحديد موعد التقاء القوات المتحالفة ، وقامت البابوية وملكا إنجلترا وفرنسا بارسال مبعوثين من قبلهم سواء برفقة سفراء المغول أو بدونهم للرد على عروض أرغون خان .

وكان الإيلخان المغولى هو صاحب المبادرة فى طلب التحالف ضد المماليك انتقاماً من هزيمة والده فى موقعة حمص فى ٣٠ أكتوبر عام ١٢٨١ م ، تلك الهزيمة التى شجعت المنتصرين على الانتقام من أرمينيا الصفرى مرة أخرى ، بل وتحريض أمراء العراق للتمرد على الحكم المغولى ومراسلة رجال الصفوة المسلمين الذين كانوا تحت إمرة المغول للجوء إليهم .

ولما كان أرغون قد ارتقى عرش الايلخانية على جثة عمه تكودار أحمد - الذى كان مسلما هو ومعظم قواده ، فضلا عن عدااء أرغون للمماليك وغيرهم من المسلمين فانه اتضح لأول مرة بصورة علنية عدااء الايلخان المغولى لرعاياه المسلمين وقمثل ذلك فى إبعادهم عن المناصب الهامة فى الدولة والبلاط وتودده وجهه للمسيحيين واليهود على السواء بل وإسناده منصب الوزارة « لسعد الدولة » اليهودى - رغم أن أرغون نفسه كان بوذيا . ولاعجب أن كانت مدينة تبريز تعج بالأوروبيين الذين يعملون فى خدمة المغول كمستشارين أو مترجمين أو سفراء لهم أو كأعضاء فى الجماعات التبشيرية الكاثوليكية من الفرنسيسكان والدومنيكان أو من التجار الإيطاليين .

أما الغرب الأوروبى فكان أيضا بحاجة ماسة للتعاون العسكرى مع المغول لأن قوات المماليك كانت تسقط عاما بعد آخر واحدا من مواقع الصليبيين الهامة فى بلاد الشام فى الوقت الذى انشغل فيه عن الآخرين بحروبه الاقليمية ومشاكله الداخلية.

أولا :- سفارة عام ١٢٨٥ م .

أرسل أرغون خان سفارته الأولى للغرب الأوروبى فور اعتقاله العرش والتخلص من عمه ومؤيديه . وهذه هى السفارة الوحيدة التى لا نعرف عنها أية تفاصيل سوى خطاب يتيم عشر عليه فى أرشيفات الفاتيكان من أرغون إلى البابا مؤرخ فى ١٥ مايو من عام ١٢٨٥ م^(٩٥).

وفى هذا الخطاب يوضح أرغون أنه تلقى أوامر الخاقان الأعظم قوبيلاي خان (ت ١٢٩٤) بوضع أراضى المسيحيين القريبة تحت حمايته ورعايته - وذلك فى إشارة إلى الأراضى المقدسة - سعزمة تقديم العون لها . ويقترح على البابوية أن تقون جيوشه بمهاجمة الشام وأن تقوم قوات البابوية و « الفرنجة » بمهاجمة مصر فى نفس الوقت حتى يمكن تحطيم المسلمين فيما بينهما » وذلك حتى يكون هناك سيدان (فقط) هما الخاقان (قوبيلاي) والبابا » .

وعند وصول سفارة أرغون الأولى عام ١٢٨٥ كان البابا هنريوس الرابع (١٢٨٥-١٢٨٧) رجلا طاعنا فى السن ، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا خاصة بعد اندلاع الثورة الصقلية (مارس ١٢٨٢) . فتمرد أهالى صقلية على حاكمهم الفرنسى شارل الأنجوى وتأييد بيزنطة وأراجون جعلت أوروبا منقسمة لعدة معسكرات متصارعة^(٩٦).

ولهذا يمكن تفسير عشور خطاب ارغون فى أرشيفات البابوية وعدم العشور على رد للبابا فى هذه السجلات أن البابا نفسه لم يكتب ردا لأرغون على هذه السفارة . ويعتقد الباحث أن

هنريوس الرابع هو الذى صرف سفراء أرغون برفق من روما وجعلهم لا يذهبون لعواصم الغرب الأوروى حتى لا يعلم الايلخان المغولى بما يحدث فى أوروبا فيصاب باحباط . ومن ثم فان البابا أراد أن يترك الخان لحماسته ضد المسلمين ربما يستطيع هو والأرمن أن يفعلوا ما لا يستطيع الغرب أن يفعله .

ثانيا : سفارة «رابان صاوما» ١٢٨٧-١٢٨٨م

ازداد موقف الأرمن والصلبيين سواء فى مواجهة الممالك فى الفترة من عام ١٢٨٥ حتى ١٢٨٧م ، إذ أن المنصور قلاوون عزم منذ انتصاره على المغول على الانتقام من حلفائهم . فى صفر عام ٦٨٢هـ / مايو ١٢٨٣م أرسل قلاوون أمراء فى الشام بقوات أغارت على الحدود الجنوبية لأرمينيا الصغرى سببت كثيرا من الخراب لها وقتلت وأسرت كثيرا من فرسانها^(٩٧) عقابا على ما فعلوه ببلاد الشام إبان الغزو المغولى لها عامى ١٢٨٠ ، ١٢٨١م. ولهذا فان ملكها ليون الثالث (١٢٧٠-١٢٨٩) أرسل سفراء لطلب الهدنة من الممالك ، ولكن قلاوون كذب بهم فى غياهب السجن ولم يفرج عنهم إلا بعد تدخل مقدم الداوية فى عكا وقبول ليون الثالث لمعاهدة مع الممالك من شروطها أن يدفع جزية سنوية للسلطان قدرها مليون درهم ، وإطلاق حرية التجار المسلمين فى بلاده وألا يعتدى أو يساعد أحداً ضدهم على المسلمين^(٩٨).

أما عن الاستراتيجية فكان مصيرهم أنكى ، إذ استولى الممالك على قلعة المرقب فى مايو عام ١٢٨٥ دون أن يتدخل أحد من إخوانهم الصليبيين لنجدتهم . ولهذا أرسل أرغون سفارته الثانية للغرب الأوروى عليها تنجح فى إقناع قادته بمديد العون للمغول ضد الممالك .

وقد انتقى أرغون بعناية بالغة شخص سفيره الجديد «رابان صاوما» «Rabban Sawma»^(٩٩) ومرافقيه ، ويبدو أن أرغون فى اختياره صاوما باعتباره من بكين عاصمة قوبلاى خان - أراد إفهام الغرب الأوروى أن سيده الأعلى راض عن صلاته بهم .

وكون «صاوما» أحد كبار رجال الكنيسة النسطورية فى آسيا يعكس رغبة أرغون فى كسب ثقة الأوروبيين عندما يستمعون من سفير مسيحي عن حسن معاملة المغول لرعاياهم المسيحيين ، وربما قصد أرغون من وراء ذلك أيضا تحقيق ولاء الكنيسة النسطورية للبابوية فى روما^(١٠٠) . وهو هدف كانت تسعى له البابوية منذ نصف قرن وذلك ليضمن تحقيق الأهداف السياسية التى من أجلها أوفد رابان صاوما .

وعندما وصل صاووما إلى روما كان كرسى البابوية شاغرا ، فذهب هو ورفاقه - ومنهم بوسكاريللو جيزولفو Buscarello of Gesulfo الجنوى - لمقابلة ملكى فرنسا والمجلى لتسليمها خطابات الایلخان المغولى . وقد عرجوا على مدينة جنوة حيث استقبلهم أميرها وأهلها بحفاوة بالغة^(١٠١) ترجع لأن تجار جنوة هم الذين كانت لهم اليد الطولى حينئذ فى ایلخانية فارس ومنهم اختار المغول مستشاريهم وسفراءهم .

وفى فرنسا أبلغ صاووما فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤) بهدف زيارته . ورد الأخير بأنه سوف يرسل أحد كبار قواده إلى أرغون^(١٠٢) .

وبعد عبور الحدود الفرنسية لمقابلة الملك الإنجليزى فى مقاطعة جاسكونى Gascony فان ادوارد الأول - بعد تسلمه خطابات وهدايا أرغون خان - أخبر صاووما أنه يحمل الصليب على صدره ، وأنه لا يفكر إلا فى أمر الأراضى المقدسة وأنه سعيد أن أرغون يفكر فى نفس الأمر الذى يشغله . وبعد ذلك قام السفير بزيارة للمقاطعة الإنجليزىة وكنائسها وتلقى الهدايا والمخطابات من الملك الإنجليزى^(١٠٣) .

ومن الواضح أن حسن استقبال ملكى فرنسا والمجلى لصاووما ورفاقه لم يجعل السفير الشرقى يغفل أن ردودهما على مشروع أرغون خان سلبية على غير ما توقع . ويخبرنا صاووما فى مذكراته أنه أبلغ أحد كرادلة روما أثناء مقابلته بمدينة البندقية ما هو ترجمته :

ماذا أستطيع أن أقول لك أيها الرجل المحبوب والنبيل ؟ أننى قد قدمت فى سفارة من الملك أرغون وبطريق الشرق بخصوص مدينة بيت المقدس . وهل تصدق أننى هنا (فى أوروبا) منذ عام ولم يتم اختيار بابا بعد ؟ وعندما سأرجع (لبلدى) ماذا سأقول ؟ وما هى الإجابة التى سأعطيها للمغول ؟ فهؤلاء (المغول) الذين لهم قلوب أكثر قسوة من الحجارة يريدون الاستيلاء على المدينة المقدسة ، وأن هؤلاء (الأوربيين) الذين يهتمهم أمرها لا يلقوا لهذا الأمر بالا فى أذهانهم . وقضلا عن ذلك فانهم لا يعطون لهذا أهمية على الإطلاق ، فماذا أقول لهم؟^(١٠٤) .

ويقرر « صاووما » فى مذكراته أنه استدعى لمقابلة البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢) فور اعتلائه العرش البابوى حيث سلمه خطابات أرغون وبطريق النساطرة وهداياهم ، وسمح البابا له بالعودة لبلاده فى ٦ أبريل عام ١٢٨٨ م^(١٠٥) محملا بالهدايا وتسعة خطابات بابوية لأرغون خان وجائليق النساطرة ولزوجة أرغون وأسقف اليعاقبة فى تبريز ولبعثات الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان بايلخانية فارس وللتجار الإيطاليين فى تبريز ولصاووما نفسه^(١٠٦) .

وقد ركز البابا خطابه الأول لأرغون - المؤرخ فى ٢ أبريل عام ١٢٨٨ - على دعوة الأخير لاعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي دون الإشارة للهدف الأساسى لسفارة أرغون^(١٠٧). ثم كتب البابا خطابا ثانيا قصيرا فى نفس يوم كتابة الخطاب السابق . رغم أن البابا يخاطب أرغون فى هدف سياسى فانه أعاد على مسامعه تلخيصا لما ذكره مفصلا فى الرسالة الأولى فيقول :

... علمنا (من المندوبين) أنه إذا ما تم تحرير مملكة بيت المقدس من أبادة الكفرة فانك تحب أن تولد مجددا فى هذه المدينة بغسل المعمودية . أما نحن فنأمل أن تحرير المملكة المذكورة سيكون أسهل بعونه تعالى إذا ما تنصرت أنت ... فنرجوا جلاتكم من صميم الفؤاد أن تسرع إلى المعمودية ولا تتأخر فى قبولها لتمجيد الرب ولنبيل الخلاص^(١٠٨).

ويتضح من خلال فحص سفارة رابان صاوما وردود الغرب الأوربي عليها الآتى :

أولا : أن أرغون طلب مساعدة الغربيين له ضد المماليك . وكى يشجع البابوية ورعاياها على ذلك فانه رفع شعار «تحرير مدينة بيت المقدس من الكفرة» «كورقة دبلوماسية لإلهاب حماسهم خاصة وأنهم أرسلوا العديد من الحملات الصليبية من قبل تحت هذا الشعار البراق . وكانت تعليماته - كما يقرر «صاوما» فى مذكراته - لسفرائه «أنه يريد أن يخضع أراضى فلسطين وسوريا ، ولكن لو أن ملوك الغرب المسيحيين لم يساعدوننى فان رغبتى هذه لن تتحقق»^(١٠٩)، وزيادة فى تحفيز الأوروبيين ، فان سفراه أعلنوا فى العواصم الأوربية أنه بعد استرداد هذه المدينة المقدسة ، فان أرغون سيعلم تنصره فيها .

ثانيا : أن نيقولا الرابع - باعتباره أول شخص من هيئة الفرنسيين يصل للكرسى البابوى كان جل اهتمامه تنصير الإيلخان المغولى وشعبه ، ومن ثم فان محور خطابه لأرغون يدور حول هذه النقطة . بل وقد أرسل البابا خطابات لزوجة أرغون ولرجال بلاطه ومستشاريه الأوروبيين للضغط على الإيلخان من جميع الجهات لتنصيره^(١١٠) .

ويمكن تفسير هذا السلوك من نيقولا الرابع بواحد من سببين أو كليهما معا :-

أولا : أن البابا قد علم من صاوما بردود ملكى فرنسا والمجلى السلبية على مشروع التحالف مع المغول . فأراد أن يتنصر الإيلخان المغولى حتى يكون أداة طيعة فى يده

يستخدمه ضد من يشاء . خاصة وأن عملية نشر المسيحية بين المغول . فأراد أن ينتصر الإيلخان المغولي حتى يكون أداة طيعة في يده يستخدمه ضد من يشاء . خاصة وأن عملية نشر المسيحية بين المغول لن تكلف البابوية أموالا ليست في خزنتها ، أو أسلحة ليست في متناولها . هذا في ضوء معرفتنا أن بعثات من الفرنسيسكان والدومنيكان كانت تعمل في مجال التبشير بالدين المسيحى فى إيلخانية فارس وتحت رعاية حكام المغول منذ فترة من الزمن (١١١) .

ثانيا : أن البابا كان يخشى لو أن المغول استولوا على المدينة المقدسة وهم ما زالوا بوذيين فإنه لا يمكن التفاهم معهم على قدم المساواة بعكس الحال لو اعتنقوا المسيحية خاصة على المذهب الكاثوليكي . فحينئذ سيكونون تابعين للبابوية وليس العكس . وعموما تجاهل البابا تماما الهدف الأساسى لسفارة أرغون بالتحالف العسكرى المشترك ضد المماليك ، وأرسل معها ردودا جميعها يتعلق بنشر المسيحية بين المغول وولاء الكنائس الشرقية لكنيسة روما الكاثوليكية .

أما ملك إنجلترا فإنه لم يفعل أكثر من عبارات المجاملة لأفراد البعثة وتزويدهم بالهدايا وتكاليف السفر ، وقد أرسل ملك فرنسا سفراء من لدنة بصحبة رابان صاوما ورفاقه . وتعرف من سفارة مغولية تالية أن السفراء الفرنسيين رفضوا تقديم التحية لأرغون على الطريقة المغولية باعتبار أنه غير مسيحى (١١٢) . وواضح أن هؤلاء السفراء لم يفعلوا سوى تقديم بعض الهدايا من ملكهم رداً على هدايا العاهل المغولى .

وهكذا فشلت سفارة أرغون الثانية فى تحقيق هدفها السياسى الذى أراده أرغون وهى السفارة الوحيدة التى أشارت لها إحدى الحوليات الشرقية (١١٣) .

السفارة الثالثة (١٢٨٩-١٢٩٠م)

انتهاز أرغون خان فرصة سقوط طرابلس فى أيدي المصريين سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م (١١٤) . لإرسال سفارته الثالثة للغرب الأوربى . وكان طبيعيا أن تصل هذه السفارة إلى أوروبا لتجد أمامها قادة هذه المدينة المنكوبة الفارين من سيوف المماليك يطوفون بعواصم الغرب الأوربى لطلب النجدة ، ووصل بوسكاريللو Buscarello سفير أرغون لإيطاليا فى نهاية أغسطس ١٢٨٩م .

ولعله من اللافت للنظر أن أرغون اختار هذه المرة بوسكاريللو الجنوى لينوب عنه فى هذه السفاره ، وذلك لأن الجنوين هم أكثر الذين أضيروا بضياح طرابلس ويستطيع هذا السفير إقناع الغربيين بخطورة الموقف فى الشرق ، واختياره أيضا يهدف للبعد عن مشاكل المترجمين خاصة وأن هذا السفير ذهب لمناقشة تفاصيل العمليات الحربية المقترحة بين المغول والأوربيين والتنسيق بين موعد وصول الجيوش المختلفة وهذه أمور يعد هذا السفير وحده كفئا لها باعتباره خبيرا عسكريا أيضا ^(١١٥). وربما قصد أرغون من هذا الاختيار أيضا قطع الطريق على البابا فى التغاضى عن الأهداف الحقيقية لسفاراته والحديث فى الدين واللاهوت ، فالإلخان المغولى كان حينئذ بحاجة لقوات الأوربيين أكثر من حاجته للكتب والقرايين المقدسة. ونظرا لعدم العثور على أية خطابات من أرغون للبابا من هذه السفارة ، فانه يمكن استنتاج أن خطاب أرغون لفيليب الرابع الذى حملة بوسكاريللو والذى عشرعليه فى الأرشيفات الفرنسية كان هو محور المناقشة مع البابا ومع الملك الانجليزى أيضا .

ومن المعروف أن بوسكاريللو قد غادر المقر البابوى فى أول أكتوبر عام ١٢٨٩م - حاملا رسائل تزكية من نيقولا الرابع للملكى المجلتزا وفرنسا ، وورد فى رسالة البابا المؤرخة فى سبتمبر لإدوارد الأول - التى عشر عليها فيما يعد فى الأرشيفات الانجليزية ما هو ترجمته :

... لقد وصل إلينا حديثا ابننا العزيز النبيل بوسكاريللو جيزولفو وهو مواطن من جنوا وسفير أرغون ملك التتر العظيم ، وسلمنا خطابا من هذا الملك . وضمن ما يعتريه أن أرغون سوف يخرج بنفسه - طاعة لنداء الكنيسة - بعزيمة وقوة للانضمام لحملة صليبية عامة لحماية الأراضي المقدسة .

وفى نهاية رسالته ، يطلب نيقولا الرابع من الملك الانجليزى أن يقابل سفير أرغون بنفسه بترحاب وأن يستمع إليه وإلى المقترحات التى سيقدمها فى هذا الشأن وأن يرد عليها حتى يحملها للملك المغولى عند عودته إليه ^(١١٦).

والمهم أن بوسكاريللو وصل إلى باريس أولا وقدم للملك فرنسا خطاب أرغون ، وتتضمن هذه الرسالة الهامة قرار أرغون بتحريك قواته فى يناير عام ١٢٩١م حتى يتمكن من النزول أمام دمشق فى ٢٠ فبراير ١٢٩١ وذلك بشرط وجود القوات الأوربية فى مصر والشام فى ذلك الوقت « لمباغته العدو من الخلف » وقال فى رسالته موجهها كلامه لفيليب الرابع :

ونعلمك الآن أننا بمقتضى صدق كلامك سنبعث جيوشنا - فى الموعد المتفق عليه

(الزمان والمكان) . فإذا أخضعنا بقدرة السماء تلك الشعوب ، فانتنا سنعطيكُم القدس ، أما إذا أهملتم الموعد وجعلتم جيوشنا تخوض عملية (حربية) فاشلة - وقد يكون ممكنا - فسوف تندمون ، وحتى إذا تدمتم ، فسوف لا ينفعكم الندم (١١٧).

هذا وقد عشر برفقة هذا الخطاب على مذكرة كتبها بوسكاريللو بخط يده باللغة الفرنسية يبدو أنها تعليمات أرغون الشفوية له بخصوص تفصيلات الخطط العسكرية أو على الأرجح هي ترجمة لخطاب آخر من أرغون للملك الفرنسى .

وفى هذه المذكرة يقول أرغون أنه ينوى أن يصطحب معه فى حملته على الشام - لاسترداد مدينة بيت المقدس من المسلمين - ملكى جورجيا وأرمينيا الصفرى اللذان يمكنهما حشد عشرين ألفا من الفرسان ، ولأنه من غير المناسب أو من المكلف للملك فرنسا أن يصطحب معه خيولا لأرض المعركة ، فان أرغون أبدى تعهده بامداده بعشرين أو ثلاثين ألفا من الخيول ويسعر رمزى . بل ويمكنه أيضا أن يأمر رعاياه سلاجقة الروم بأن يوفروا للقوات الفرنسية ما تحتاجه من قموين من أبقار وجمال ودقيق وعلق للخيول وغير ذلك من إمدادات تحتاجها القوات. وتعبيرا عن حسن نيته تجاه الأوربيين ، فان أرغون أعلن أن مذبحة طرابلس قد أهنزته وأنه أعدم أربعة من الأمراء المسلمين فى العراق أبدأ سرورهم لانتصار المماليك ، وأنه رفض أن تدفن جثثهم بل وأمر أن تلقى للكلاب ! وأشار أرغون أن شقيقته تزوجت من ملك جورجيا المسيحية وأنها اعتنقت الدين المسيحى مثل كثير من رجال بلاطه ، وشكى أرغون من تصرفات سفراء الملك الفرنسى الذين أرسلهم بصحبة رابان صاوما ، وطلب من الأخير أن يأمر سفراءه بتقديم التحية لأرغون طبقا للتقاليد المعمول بها فى هذا الشأن لدى المغول (١١٨).

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا رد مكتوب من الملك الفرنسى فيليب الرابع على عروض أرغون السخية ، فان أفعال الملك الفرنسى تعطينا الرد الكافى . فلاشك أن هذا الملك قد صم الأذان تماما عن نداءات البابوية له ولغيره لإرسال نجداث للصليبيين فى الشرق . وكان يرى أن بلاده لم تحن إلا المتاعب من هذه الناحية ويكفى ما خسرتة فرنسا على الحروب الصليبية من قبل. ولهذا فقد أرسل للبابا يوم ٩ ديسمبر عام ١٢٩٠ م يطلب إعفائه من الذهاب للأراضى المقدسة (١١٩).

والمهم أن بوسكاريللو وصل إلى لندن فى ٥ يناير ١٢٩٠م حاملا عروض أرغون التى سبق تقديمها للملك الفرنسى وخطاب البابا لتوصية الملك الانجليزى بحسن استقبال سفير أرغون ودراسة مقترحاته .

ويمكن اعتبار خطاب إدوارد الأول الذى عشر عليه Hudson Turner فى الأرشيفات الانجليزية عام ١٨٥١م ردا لبقا وموفقا من الملك الانجليزى بحسن استقبال سفير أرغون ودراسة مقترحاته .

فيبدأ إدوارد الأول بتهنئة أرغون باقتفاء خطوات والده أبغا فى الرغبة فى تحطيم قوة السلطان المملوكى «سلطان بابلين» ورغبته فى الحضور للأراضى المقدسة لمساعدة الصليبيين فيها ضد أعدائهم . ويشكره على عرضه بتقديم الخيول والامدادات اللازمة للقوات الأوربية فور وصولها للشرق . وأعلن الملك الانجليزى عن ترحيبه بالانضمام لقوات أرغون . ولكنه أبلغه أن مسألة تحديد موعد خروجه بقواته للشرق سيحددها البابا بنفسه على ضوء الظروف السياسية فى أوربا . وأنه بمجرد علمه بأوامر البابا فى هذا الشأن ، فانه سيرسل سفيرا للایلخان المغولى لإبلاغه بموعد قيامه من أوربا وموعد وصوله للأراضى المقدسة بالتقريب . وأن هذا السفير سيحمل معه الصقور والمجوهرات التى طلبها أرغون من ملك المجلترا (١٢٠٠) .

والمهم أن بوسكاريللو عرج على روما فى طريق عودته لإبلاغ البابا بنتائج مفاوضاته فى باريس ولندن والحصول على رد نيقولا الرابع لأرغون خان ، ورغم عدم العثور على أثر لخطاب البابا إلا أنه من الواضح أن مضمونه لم يخرج عن الخطابات السابقة وعن الوعد بموافاة أرغون بموعد تحركات الجيوش الأوربية للشرق ريثما تصله أخبارها من الأمراء العلمانيين .

والحقيقة أن نيقولا الرابع كان أعجز من أن يحرك ملوك الغرب الأوربي وأمراء الحشد الجيوش للتحالف مع الایلخان المغولى حتى لو كان هذا الأمر يعنى أيضا النجدة الخامسة للصليبيين فى الشرق بعد سقوط طرابلس . والاستثناء الوحيد كان من البنادقة - الذين كانت لهم اليد الطولى فى عكا وخافوا ضياعها - ولهذا قدموا عشرين مركبا لنقل الصليبيين الذين استطاع أعوان البابوية تجنيدهم لنجدة اللاتين فى بلاد الشام . ولم يجد الأخيرون سوى تأجير المرتزقة من الدهماء والرعاى والعاطلين من لومبارديا وتوسكانى وبقيّة شمال إيطاليا فى حوالى ٣٥٤٠ (١٢١١) شخصا لحمل الصليب للدفاع عن بقايا أخطاء البابوية والغرب الأوربي طوال قرنين من الزمان فى شرق البحر المتوسط . وإذا كان هذا هو حال الروح الصليبية فى الغرب الأوربي فلا غرو أن يرجع بوسكاريللو لأرغون بخطابات لاقيمة لها .

السفارة الرابعة (١٢٩٠-١٢٩١م)

لسنا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان «بوسكاريللو» قد عاد إلى «تبريز» لإبلاغ أرغون خان برودة ملوك الغرب الأوربي والبابوية على مشروعه بالتحرك ضد المماليك فى ديسمبر

التالى والتقاء الجيشين المغولى والأوربى فى فبراير ١٢٩١م ببلاد الشام - أم أنه ظل فى جنوة لأعماله الخاصة ، وأرسل أحد مساعديه للشرق لإبلاغ أرغون بذلك (١٢٢). ولأن سفارة مغولية رابعة ظهرت فى البلاط البابوى فى نهاية ذلك العام (١٢٩٠م) وكان «بوسكاريللو» ضمناً فرادها ، وأن الوقت المتاح بين السفارتين حوالى ثمانية شهور قد تكون قليلة لعودة الأخير إلى «تبريز» ورجوعه مرة ثانية ، فقد يكون أكثر منطقياً أن السفراء الجدد لأرغون قد التقوا مع بوسكاريللو فى إيطاليا فى ديسمبر عام ١٢٩٠ .

وليس لدينا أية وثائق لأرغون من سفارته الرابعة ، ولكن يعتقد أن هذه السفارة جاءت للغرب للتأكيد على تواجد الأوربيين بجيوشهم فى المواعيد والأماكن المحددة من قبل حتى لا تحدث كارثة للجيوش المغولية .

وفى أثناء وجود السفراء المغول فى روما ، وصلت للبابا نيقولا الرابع أنباء بكارثة جديدة سببها المرتزقة الايطاليون الذين وصلوا إلى عكا فى أغسطس من ذلك العام . فهؤلاء الدهماء اعتدوا على التجار المسلمين الذى كانوا يحملون رقيقاً للسلطان المملوكى ، وقتلوا كل من قابلوه من المسلمين ومن يرتدى زيهم فى شوارع عكا . ولهذا أقسم قلاوون على الانتقام من عكا (١٢٣). ولهذا وصلت الأنباء للبلاط البابوى لطلب النجدة العاجلة .

وفى ٥ ديسمبر ١٢٩٠م أرسل نيقولا الرابع أحد الكراولة الفرنسيسكان للملك الفرنسى لحثه على سرعة حمل الصليب وإرسال النجدة للأراضى المقدسة . وبعد ذلك مباشرة أرسل البابا للمندوب البابوى فى باريس أن يبلغ فيليب الرابع أنه إذا لم يرغب فى الذهاب للشرق فعليه أن يقوم بتسليم ضرائب العشور الصليبية - التى ما زالت تجمع فى مملكته لحسابه - إلى المندوبين البابويين كى تذهب فعلاً للأراضى المقدسة (١٢٤).

وفيما يتعلق بسفارة أرغون فلدينا خطابين مؤرخين من البابا فى ٢ ، ٣١ ديسمبر ١٢٩٠م إلى الملك الانجليزى بهذا الشأن .

ففى الخطاب الأول يبلغ البابا الملك الانجليزى بأن سفراء أرغون وهم أندرياس ودومنيك وبوسكاريللو ومارك قد وصلوا إليه بخطابات ملك التتر . وكالعادة يوصى البابا إدوارد الأول بحسن استقبال السفراء والاستماع لمقترحات أرغون بجدية والرد عليها على قدر ما يستطيع ، ويختتم البابا خطابه بقوله « ونحن قاصدون إيفاد رسول خاص إلى الملك المذكور مع المندوبين أنفسهم لدى عودتهم إلينا » (١٢٥).

أما الخطاب الثانى المؤرخ فى ٣١ ديسمبر ١٢٩٠ - أى بعد شهر واحد من الخطاب السا فيعتبر نسخة مكررة من الخطاب الأول عدا أسماء سفراء أرغون . ففى هذا الخطاب ، يق نيقولا الرابع سفيراً جديداً لأرغون وهو Saabedin Archoon للملك الانجليزى ، ويطلب ه « أن تحسنوا استقباله إكراما للكرسى الرسولى ... وتتنظر حالا بتلبية طلبه لمجد الر والمسيحية وفخرا لجلالتكم الملكية » (١٢٦).

والحقيقة أن صدور خطابين من البابا للملك الانجليزى فى شهر واحد بخصوص سفر أرغون (أربعة فى الخطاب الأول وواحد فى الخطاب الأخير) مسألة أثارت انتباه الباحث D Ryan الذى يعتقد أنها سفارة واحدة لأرغون ، وأن السفير الأخير المؤرخ بشأنه خطاب ١ ديسمبر قد تأخر فى الطريق شهرا - ربما لمرضه - عن رفاقه . ومن ثم عرج على البلا البابوى للحصول على تذكية مماثلة لتلك التى أعطاها البابا لرفاقه قبل ذلك بتسعة وعشر يوما (١٢٧).

وليس معروفا على وجه التحديد عما إذا كان سفراء أرغون قد ذهبوا لمقابلة الملك الفرنس أيضا كعادة السفارات السابقة أم لا . فرسالة البابا للایلخان المغولى ردا على هذه السفا تقول « ... وقد كتبنا رسالة تأييد لكم بناء على طلبكم إلى ملك المجلترا إدوارد لينظر ا تلبية طلباتكم ... » (١٢٨). ولم يشر لكتابته للملك الفرنسى فى هذا الشأن ، ولكن حوا Bury St Edmunds الانجليزية المعاصرة أشارت تحت أحداث ذلك العام (١٢٩١) أن « ما التثار العظيم قد أرسل سفراء لكل من البابا وملكى المجلترا وفرنسا لتجديد وتقوية صداقت وكى يناقشوا اعتناقه الديانة المسيحية وتقديم المساعدة للأراضى المقدسة » (١٢٩).

وسواء ذهبت هذه السفارة إلى باريس أم لا ، فالبابا كان يعلم أنه لا أمل يرجى من فيلي الرابع فى الذهاب للشرق . ومن ثم فقد اعتمد كلية على ادوارد الأول باعتبار أن دولته الوحيدة تقريبا التى لم تتورط بعد فى حروب ومشاكل داخلية تعوق ذهابه للشرق . خاصة و المفاوضات كانت قد قطعت شوطا طويلا بين مندوبى هذا الملك ومندوبى البابوية بشأن طلب للقيام بحملة صليبية للشرق ، وهى حصوله على مبالغ نقدية من البابوية ومن ضريبة العش الصليبية فى بلاده وبعض الأقاليم الأوربية لعدة سنوات قبيل ذهابه للشرق . ومن ثم فانه الاتفاق بين الطرفين على أن يتحرك الملك الانجليزى على رأس حملة صليبية أوروبية للش فى عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ يونية) ١٢٩٣ م (١٣٠). وقد طلب الملك الانجليزى ه

المتسع من الوقت حتى يكون قد حصل على موارد إضافية من ضريبة العشور الصليبية تكفى الإنفاق على إعداد وقوم حملته . وبطبيعة الحال فإن أحدا لم يكن يتوقع هذا الانهيار السريع للمواقع الصليبية فى بلاد الشام .

ولكن هذا الموعد المتأخر يخالف تماما المواعيد التى سبق أن اقترحها بوسكاريللو عام ١٢٨٩ وأكدها السفراء الجدد عام ١٢٩٠ نيابة عن أرغون ، وهى تحرك قوات الطرفين ضد الماليك فى فبراير عام ١٢٩١ م .

ولأن إدوارد الأول لم يكن عنده ما يقوله لسفراء أرغون فرمما أخبرهم أنه سيخطر ملكهم فيما بعد بموعد قيامه للشرق . وكذلك فعل البابا شفويا لأنه لم يرد كتابة على أرغون إلا فى أغسطس التالى (١٢٩١) كما سنرى بعد قليل .

وعلى الجانب الآخر ، فإن أرغون كان يعلق آمالا كبيرة على وصول قوات الأوربيين فى الموعد الذى حدده لهم . ولهذا بدأ فى تنفيذ فكرة جديدة فى ضرب الماليك وهى محاصرتهم اقتصاديا من البحر الأحمر وذلك بضرب سفنهم التجارية من المحيط الهندى إلى طريق البحر الأحمر .

فطبقا للحولية السريانية لابن العبرى تحت حوادث عام ١٢٩٠ ما هو ترجمته :

أن حوالى مائتين من الفرنجة جاؤا فى نهر دجلة إلى الموصل بأوامر من ملك الملوك (أرغون) كما لو كانوا ذاهبين إلى بابل (بغداد) لبناء سفن هناك لى يذهبوا إلى بحر بونت (البحر الأحمر) ليهاجموا المصريين . وبعضا آخر من الفرنجة حوالى سبعمائة رجل ذهبوا عن طريق البر ومكثوا فى بغداد طوال فصل الشتاء حتى تكتمل خطتهم . والآن توجد روايات عن الفرنجة فى بغداد تستحق الذكر ... (١٣١).

وينقل المؤرخ الفرنسى ريشارد J. Richard عن روايتين لرايين كانا حينئذ فى بغداد قول الأول أن هؤلاء «الفرنجة» كانوا جنوبية وأنهم قضوا الشتاء فعلا فى بغداد وقاموا ببناء سفينتين ، وأن أحد الجنوية استخدم واحدة منهما فى تدمير أحد المساجد فى بغداد مما سبب هياجا لعامة المسلمين بالمدينة . ويروى ريشارد عن الثانى وهو الدميكانى وليم آدم William Adam أن البحارة الجنوبية ساروا بالسفن حتى ميناء البصرة ، ولكنهم انقسموا إلى فريقين متنازعين ، وأن الفريقين اقتتلا (١٣٢) ولهذا فشل هذا المشروع فى عمل حصار تجارى على المصريين أو ضرب تجارة الماليك فى المحيط الهندى .

المهم أن هذا المشروع قد فشل سواء بسبب القائمين على تنفيذه من الجنوية أنفسهم أو لأن المشروع كان أكبر من إمكانيات مغول فارس والجنوية معا . إذ ماذا يفعل مركبين في الخليج العربي أمام الممالك الذين كانت لهم السيطرة الكاملة على موانئ البحر الأحمر ؟ خاصة وأن التجار المسلمين كانوا القوة الضاربة في المحيط الهندي من ميناء الزيتون بالصين شرقا حتى ميناء عدن غربا . ويمكن القول أنها تكرار لمحاولة أرناط أمير الكرك الصليبي عام ١١٨٢م في الاستيلاء على ميناء أيله والإغارة على الموانئ المصرية في البحر الأحمر تلك التي باءت بالفشل الذريع وقتل الأخير بيد صلاح الدين الأيوبي نفسه جزاء له على تعرضه لأخطر مسألة تهدد المصريين حينئذ وهي تجارة البحر الأحمر .

هذا وقد طرأت تطورات خطيرة على الميدان المقرر للقاء القوات المتحالفة . فبعد هجوم المرتزقة الإيطاليين في عكا على المسلمين داخل هذه المدينة وخارجها ، فإن المنصور قلاوون أمر بتعبئة عامة في مصر والشام ضد الصليبيين . ولكنه توفي قبل تنفيذ مشروعه بالاستيلاء على عكا . وبعد استقرار الأحوال لولده وخليفته الأشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣) فإنه قاد جيوشه ضد عكا . وبعد حصار مستميت من الممالك ودفاع يائس من الصليبيين سقطت هذه المدينة في ١٨ مايو عام ١٢٩١ بعد سقوط آلاف القتلى والأسرى من اللاتين دفاعا عنها . وكان من السهل على قوات الممالك السيطرة والاستيلاء على بقية مدن وقلاع الصليبيين وهي بيروت وصور وصيدا وجبيل وعثليث وطرسوس ، وسقطت معظمها دون قتال بعد فرار سكانها لقبرص ، وجميع هذه المواقع تم تدميرها في الفترة من مايو حتى أغسطس عام ١٢٩١م (١٣٣) ، وتم كل ذلك دون أدنى تدخل من أية قوة أوروبية أو مغولية .

وقبل أن تصله أخبار سقوط عكا ، فإن نيقولا الرابع كان قد قرر إرسال بعثة بابوية لحكام غرب آسيا عامة ولغول فارس خاصة للتبشير بالدين المسيحي ودعوة حكام هذه البلاد (مغول فارس - جورجيا - أرمينيا الصغرى - بيزنطة) للانضمام تحت لواء البابوية . ولهذا فإن خطابات البابا لهؤلاء الحكام - ومنهم أرغون خان حتى ٢١ أغسطس ١٢٩١م كانت تتعلق بأمور العقيدة وليس فيها ما يتعلق بالرد على مشروعات الإيلخان المغولي في تحالف مشترك ضد الممالك ، ففي هذا التاريخ كتب نيقولا الرابع لأرغون في خطابه « ... ونعود ونذكركم بأن تسرعوا وتنصروا فخراً لكم وازدهارا لمملكتم وانتشارا لاسمكم في الأمة المسيحية. » (١٣٤).

وقد يكون غريباً أن البابا كان على وشك إرسال سفيره متى الشبتي Matthew of Chieti ووليم الشيرى William of Chieri باثنى عشر خطاباً لأرغون خان وقادته فى بعثة تبشيرية ، ويتجاهل أن الصليبيين فى بلاد الشام كانوا يلتقطون أنفاسهم الأخيرة . ولكن يمكن تفسير ذلك بأن أنباء سقوط عكا لم تصل للبابا إلا فى يوم ٢٣ أغسطس أى بعد يومين فقط من كتابة خطابه لأرغون. ولم يكن البابا يتوقع سقوط هذه المدينة بهذه السرعة ، أو يتوقع بقية المدن والقلاع فى أثرها . وكان اتفاهه مع الملك الانجليزى أن الأخير سيخرج للشرق فى ٢٤ يونيه عام ١٢٩٣م . ولهذا فان البابا أراد تكريس الجهود فى هذه الفترة فى تحويل المغول أو قاداتهم للمسيحية حتي ينضج اعداد حملة ادوارد الاول .

ولكن ما أن علم البابا بسقوط عكا فى يوم ٢٣ أغسطس حتي أسرع بكتابة خطاب سياسي بالدرجة الاولى لارغون خان (الاول مرة) بل و أمر سفيره بالذهاب الي تبريز علي الفور دون المرور علي بيزنطة أو أرمنية كما كان مقرراً من قبل .
وتقول سطور هذه الرسالة :

... لاشك أنه قد بلغ مسامعكم عن طريق الرسائل والمندوبين ما جرى للأماكن المقدسة الرمانية من سقوط فى أيد غريبة . وقد سقطت أيضا مدينة عكا بالرغم من الجهود التى بذلتها كنيسة روما - كام - كى تصمد ريثما تصلها النجدة من سفن وأموال ومحاربين بناء على طلبها . إلا أن هذه المدينة الحصينة - بعد حصار طويل مرير ليل نهار ، وإحاطة الآلات الحربية بها ودكها لها بلا رحمة ، وتوالى الهجمات عليها وعلى أسوارها - قد سقطت فى يد العدو وأسلمت للنار ونكل بالنصارى الموجودين فى داخلها شرتنكيل . والباقيون اقتيدوا أسرى كما سمعنا وعندئذ أرتعشت مدينة صور خوفا واستسلمت حالا .

ولذلك نبهنا جميع الملوك والأمراء المسيحيين أن يسرعوا لإزالة هذا العار . وقد هرع إدوارد ملك إنجلترا واتخذ الصليب ، وهو مستعد الآن لركوب البحر .

ونحن واثقون كل الثقة أنكم إذا أيدتم هذه القضية بذراعكم القوية سرعان ما ستجد الحل المنشود . ولذلك فاننا نرجو جلالتم وتوسل إليكم وندعوكم بشقة أخوية أن تتنصر خاشعا راضيا وتعمل بأوامره تعالى وتسرع إلى استعادة البلاد المذكورة ، وتذل كبرياء أعدائها ومكرهم ، وتستخدموا ما اعطيتم من قوة ، وبما تحليتم به من عزم وحكمه وتتحرك مع شعبك وباقي ملوك النصارى لاستعادة تلك الأمصار . وسندعو الرب أن يكافئكم خير مكافأة .

ونشكركم على ما تبذلون من حسن معاملة للمسيحيين المقيمين في مملكتكم . كما نرجو
أن تحسنوا استقبال مندوبينا متى الشيتي Matthew of Chieti ووليم الشبري William
of Chieri (١٣٥) .

وهكذا كانت المرة الوحيدة التي ردت فيها البابوية على مقترحات أرغون (من خلال أربعة
سفارات) بعد سقوط آخر القلاع الصليبية في بلاد الشام . وحتى أرغون لم يعش ليسمع هذا
الرد إذ أنه توفي في أول مارس من ذلك العام أي قبل كتابة هذا الخطاب بستة شهور . بل أن
إدوارد الأول ملك إنجلترا خارت عزائمه عندما سمع هذه الأنباء ، وبدأ يتجه إلى مواجهة
المشكلات الداخلية في بلاده (خاصة الحرب ضد اسكتلندا) (١٣٦) . وكان على العلاقات
المغولية الأوروبية أن تتخذ مسارا جديدا بعد سنة ١٢٩١م على ضوء الظروف السياسية
الجديدة .

عهد غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤م)

تولى كياخاتو (١٢٩١-١٢٩٤) الحكم بعد أخيه أرغون . ولم تحدث أية تحرشات من جانبه
ضد الماليك أو اتصالات بالغرب الأوربي . وقصد عليه ابن عمه بايدو وانتزع منه السلطة .
ولكن غازان بن أرغون استطاع بعد فترة قتال طويلة اعتلاء عرش الايلخانية في أكتوبر عام
١٢٩٥م حتى ١١ مايو عام ١٣٠٤م .

ورغم أنه كان مسلما منذ بداية عهده ، وقطع علاقة التبعية بالخاقان المغولي البوذي في
بكين ، وانتهج عدة اصلاحات في بلاده على النمط الإسلامي (١٣٧) . إلا أن العلاقات العدائية
مع الماليك لم تتوقف في عهده مثلما توقفت في عهد تكودار أحمد (١٢٨٢-١٢٨٤) أول
ايلخان مغولي مسلم في فارس ، بل ازدادت سوءا لدرجة أن غازان قام بغزو الشام ثلاثة مرات
وهزم الماليك لأول مرة في ديسمبر عام ١٢٩٩م - واحتل الشام لعدة شهور حتى مايو عام
١٣٠٠م . ولاغرو أن استمرت اتصالاته ببقايا الصليبيين في الشرق - وهم فرسان الداوية
والاستبارية في قبرص وملك قبرص نفسه فضلا عن أتباعه الأرمن - وبالعرب الأوربي على
حد سواء .

وإذا كان غازان قد قرر انتهاج السياسة التقليدية لأسلافه بمحاولة ضم بلاد الشام
لسيطرته ، فلقد شجعه على ذلك فترة عدم الاستقرار في السلطنة المملوكية بحيث أن أربعة
سلاطين اعتلوا العرش في أقل من عشرة أعوام (١٢٩٠-١٢٩٩) وقتل اثنان منهم ، وطرد
الثالث ، ونفى الرابع مؤقتا لإمارة الكرك (١٣٨) .

ومهما يكن من أسباب غزو غازان للشام^(١٣٩)، فانه بعد دخوله إلى بلاد الشام وقبيل التحامه مع الماليك كان قد أرسل رسالة عن طريق سفيره إيسول البيزى Isol of Piza لملك قبرص ومقدمى الاستشارية والداوية هناك يطلب منهم الانضمام له فى حملته . وفى نوفمبر عام ١٢٩٩ عقد الأخيرون اجتماعا لاتخاذ قرار بهذا الشأن ، ولكنهم رفضوا التحالف مع غازان رغم أنه أرسل لهم رسالة ثانية فى نهاية ذلك الشهر^(١٤٠). ومن ثم اضطر الخان المغولى للاعتماد على قواته بالإضافة إلى الأرمن : الحليف الطبيعى للمغول . واستطاع هزيمة الماليك فى ٢٢ ديسمبر عام ١٢٩٩ م وطردهم من الشام كلية وإنابة قبجق - حليف غازان والمتمرد على أخوانه الماليك فى القاهرة وأتباعه وبعضا من قواد المغول على المدن الشامية .

ولكن غازان اضطر للتسحاب من الشام لأسباب داخلية فى بلاده ومنها هجوم مغول الجغطاي على الحدود الشرقية لإيران . واتحد الماليك الذين كانوا موالين لغازان أثر ذلك مع أقرانهم فى مصر وطردوا الحاميات المغولية من الشام فى مايو عام ١٣٠٠م بعد فترة احتلال مغولى لها قاربت ستة شهور^(١٤١).

وكان غازان قد أرسل للقبارصة رسولا بأنه سيفزو الشام فى الشتاء التالى وعليهم مقابلته فى أرمينيا لإعادة غزو بلاد الشام نظير إعطائهم المدينة المقدسة ، وقام القبارصة والداوية والإسبتارية - لعلمهم بقوة المغول وجديتهم هذه المرة - بغارات ضد عكا وطرسوسه وجزيرة أدوارد - التى كانت فى البحر أمام طرسوسه ، وأرسلوا قوة صغيرة لأرمينيا الصغرى . ولكن قوات المغول لم تلحق بهم إذ أن المغول قد أغاروا على شرق سوريا حتى حمص وتراجعوا بسرعة^(١٤٢) ولم تثمر هذه الاتصالات شيئا .

وقد كان رد فعل الغرب الأوروبى تجاه استيلاء قوات غازان على الشام فى ديسمبر عام ١٢٩٩م خليطا من الفرحة الغامرة التى اختلطت بالأساطير والنبؤات - والإشاعات التى ردها الأوربيون عام ١٣٠٠م^(١٤٣) كنوع من التعويض النفسى لدى هذه الشعوب التى رفضت أن تعترف بهزيمتهم من المسلمين .

وعلى أثر ذلك ، سارع البابا بونيقاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) بإرسال خطابات للملك وأمرأء الغرب الأوروبى - ومنهم إدوارد الأول - فى ٧ أبريل عام ١٣٠٠م يبلغهم فيها بالأخبار السارة عن استعادة الأراضى المقدسة بواسطة غازان وإعادتها للمسيحيين . وفى هذه الخطابات يطلب من هؤلاء الملوك حث رعاياهم على الرحيل للأراضى المقدسة حيث منحهم البابا

امتيازات الغفران الكامل . وفى ٢٠ سبتمبر أرسل الأخير خطابات لقادة رجال الدين الذين كانوا فى الأراضى المقدسة قبل سقوط عكا يحثهم على العودة لكنائسهم فى تلك البقاع^(١٤٤). وقد ساعد على تصديق إشاعة أن غازان هزم الماليك لصالح المسيحيين ، وصول سفارة من غازان فى ذلك الصيف (عام ١٣٠٠) لروما على رأسها الفلورنسى جويسكارد بوستارى Guiscard Bustari تعرض التحالف مع الأوربيين^(١٤٥). وفضلا عن ذلك فإن عام ١٣٠٠ كان عام الغفران Jubilee Year بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرنا على مولد المسيح «عليه السلام» . وكان البابا قد منح امتيازات الغفران للنصارى الذين سيحجون لروما فى ذلك العام . ولهذا حمل آلاف الحجاج - الذين كانوا فى روما - أخبار هذه السفارة المغولية والإشاعات التى سبقتها إلى بلادهم فى مختلف أنحاء أوروبا^(١٤٦). ولهذا فلا عجب أن العديد من الحوليات الأوربية المعاصرة قد تناقلت هذه الأنباء وأضافت عليها الكثير^(١٤٧). وهذا يعنى أن الأوربيين كانوا يعيشون فى الفترة من فبراير حتى أكتوبر عام ١٣٠٠م تحت وهم أو أمل أن الرب قد أرسل المغول نيابة عنهم للانتقام من أعدائهم ، وأنهم استعادوا الأراضى المقدسة لهم ولكن هذه المرة بلا حملات صليبية .

أما النموذج العملى لرد الفعل الأوربى تجاه استيلاء غازان خان على الشام فقد جاء على يد جيمى الثانى ملك أراجون (١٢٩١-١٣٢٦م) الذى أرسل خطبا إلى غازان فى ١٨ مايو عام ١٣٠٠ (قبيل رحيل المغول من الشام) موجه إلى «أعظم وأقوى ملوك المغول ، وملك كل الشرق» . وفيه يبلغ جيمى الثانى الخان المغولى كيفية تلقيه الأنباء السارة بانجازات المغول ضد أعداء الرب» ، وأعلن استعداداه بتقديم السفن والبحارة والفرسان وكل مواد الترميم اللازمة لجيش المغول ، وطلب من غازان أن يبلغه بما يريد منه فى هذا الشأن . ويمضى قائلاً «وقد أمرنا أن كل رعايانا الراغبين فى الذهاب لهذه البلاد لتمجيد الرب ولتقوية جيشكم أن يذهبوا فوراً بدون تأخير» . وفى مقابل ذلك طلب جيمى الثانى من غازان إعطائه خمس الأراضى المقدسة التى استولى عليها وتلك التى سيحتلها فيما بعد ، والتصريح لرعاياه بزيارة الأماكن المقدسة دون دفع أية ضرائب أو رسوم^(١٤٨).

والحقيقة أن خطاب ملك أراجون للخان المغولى خير دليل على العقلية الأوربية الجديدة فى بداية القرن الرابع عشر التى أعطى المصالح الشخصية الأهمية القصوى بعيداً عن الروح الصليبية التى بدأت فى الفتور منذ باكورة القرن الثالث عشر . ولكن أهمية إرسال هذا الخطاب من جيمى الثانى بصفة خاصة تتضح فى أمرين :-

أولا : أنه كانت هناك معاهدة بين ألفونسو الثالث ملك أراجون (١٢٨٥-١٢٩١) وشقيقه جيمى الثانى نفسه باعتباره ملكا لصقلية (١٢٨٥-١٢٩٥) من ناحية وبين المنصور قلاوون من ناحية أخرى مؤرخة فى ١٣ ربيع الآخر ٦٨٩هـ / ٢٣ أبريل ١٢٨٩ م تنص على « أنه متى طلب البابا ملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملك الريدراغون أو من إخوته أو من بلاده انجادا أو معاونه أو خيالة أو رجاله أو مال أو مراكب أو شوانى أو سلاح لا يوافقونهم على شئ من ذلك لافى سر ولا فى جهر ، ولا يعين أحدا منهم ولا يوافقوه على ذلك ... » (١٤٩) وهذا يعنى أن بنود هذه المعاهدة - التى ما زالت سارية المفعول - تشمل التتار أيضا من ضمن أعداء الممالك الذين يخطر على جيمى الثانى مساعدتهم .

ثانيا : أنه فى عام ١٣٠٠ م على وجه الخصوص أرسل جيمى الثانى سفارته الأولى إلى مصر للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . ورد عليه الأخير بخطاب مؤرخ فى ١٣ شوال سنة ٦٩٩هـ / ٦ أبريل ١٣٠٠م أجابه فيه لطلباته بتأمين تجار بلاده داخل بلاد السلطان ، وتبادل التجارة مع أراجون ، وتمكن رعايا أراجون من زيارة بيت المقدس « آمنين مطمئنين » (١٥٠) .

ويتضح من أخبار هذه السفارة أن رد الممالك على ملك أراجون كان يوم ٦ أبريل ١٣٠٠ م ، وأن سفارة وخطاب ملك أراجون لغازان خان كانا فى يوم ١٨ مايو من نفس العام . وهذا يعنى أن جيمى الثانى راسل الطرفين وأراد أن يضمن لبلاده ، مركزا تجاريا مأمونا فى شرق البحر المتوسط ، ولرعاياه حرية وسهولة دخول الأراضى المقدسة مع القوتين المتصارعتين عليها ، حتى إذا ما انتصرت قوة على أخرى يكون مع الكفة الراجحة !

وعموما لم يحدد الدكتور عزيز سوريال عطيه - باعتباره ناشرا لوثائق سفارات أراجون مع مصر - متى خرجت السفارة الأولى لجيمى الثانى متجهة إلى مصر ، ولكنه يحدد تاريخ الرد عليها بالسادس من أبريل ١٣٠٠ . ومن المؤكد أن أنباء هزيمة الممالك فى موقعة حمص الثانية (٢٣ ديسمبر ١٢٩٩) لم تصل لغرب أوروبا عامة ولملك أراجون خاصة قبل أول مارس عام ١٣٠٠ ومن الواضح أن جيمى الثانى أرسل سفارته إلى الممالك قبل هذا التاريخ : أى قبل أن يعلم بانتصار المغول على الممالك واحتلالهم بلاد الشام . ولكن عندما وصلته الأنباء اعتقد أنه الانتصار الحاسم للمغول وأنهم أصبحوا سادة الشام . ولهذا اختار أن يتقرب اليهم ، لأنه لو استمر هذا الوضع طويلا - فان الممالك لم يعد فى استطاعتهم تأمين تجارتهم ولا تأمين دخول رعاياه للأراضى المقدسة التى أصبحت فى يد المغول .

وإذا كان ملك أراجون قد اختار التعامل مع المغول بإعتبارهم السادة الجدد للأراضى المقدسة ، وأنه قد طلب منهم خمس هذه البقاع وما سيفتحونه مستقبلا نظير مساعدتهم بقوات رمزية فى حين أن مطالبه للماليك كانت متواضعة جدا وهى مجرد السماح لرعاياه بزيارة الأماكن المقدسة وتأمين تجار بلاده ، فذلك لأن الماليك لم يكونوا فى حاجة لمساعدته العسكرية ضد المغول .

وإذا كان خطاب جيمى الثانى لغازان خان قد كتب فى ١٨ مايو عام ١٣٠٠ فان القوات المغولية قد طردت من بلاد الشام فى نفس هذا الشهر ، ولهذا فلم يكن له أى أثر على مجريات الأحداث فيما بعد . ومن المؤكد أيضا أن الماليك لم يعلموا بأمر هذه الاتصالات بين جيمى الثانى والمغول ، وذلك لأن الملك الأراجونى سرعان ما أرسل سفارته الثانية للقاهرة بخطاب مؤرخ فى الأول من يونيه عام ١٣٠٣ . وقد قوبلت هذه السفارة بترحيب بالغ من الماليك وأجيب إلى طلباته (١٥١) . ولو أن الماليك قد علموا بما تقدم لكان رد فعلهم عنيفا تجاه جيمى الثانى وسفرائه وتجار بلاده فى الموانى المصرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد أرسل غازان سفارته الثانية للغرب الأوروبى بقيادة بوسكاريللو جيزولفو - السفير السابق لأرغون - عام ١٣٠٢ م . ويرى أن أعضاء هذه السفارة من المغول قد تنصروا فى روما . وأن البابا أرسل معهم تاجا من الذهب إلى غازان «لغفران الملك من ذنوبه ، ولأنه قد أعاد إقامة التراتيل المسيحية فى الأراضى المقدسة » (١٥٢) . وكان غازان قد اشار للبابا فى رسالته المؤرخة فى أبريل من ذلك العام لمراسلات أسلافه بالغرب الأوروبى ، وحث بونيفاس الثامن على إعداد قوات لمهاجمة الماليك معا . وقد ظهر السفراء المغول فى لندن فى مارس عام ١٣٠٣ .

وإذا كان خطاب الخان المغولى للملك الانجليزى لم يعثر عليه بعد ، فان رد إدوارد الأول فى ١٢ مارس يوضح محتوياته ، ويبدو أن غازان قد اشتكى من طول الفترة التى لم يحاول فيها «الفرنجية» الاتصال بالمغول للتعاون معهم لاسترداد الأراضى المقدسة ، وذلك لأن الملك الانجليزى يبلغ غازان بأن الممالك المسيحية كانت فى حالة حرب مع بعضها وأن السلام بدأ يسود فى أوروبا وأن هذه الممالك سوف تتحد مرة ثانية لاسترداد الأراضى المقدسة . وعدا ذلك فلم يحمل السفراء المغول وسفراء إدوارد الأول المرافقين لهم لغازان خان أية ردود عملية ، لأن الملك الانجليزى كان مشغولا بمشكلة اسكتلندا ، والملك الفرنسى كان فى نزاع مرير مع البابا بونيفاس الثامن (١٥٣) ذلك النزاع الذى نتج عنه نقل البابوية من روما إلى مدينة أفينون الفرنسية بعد ذلك بأقل من عامين .

ونظرا لأن الموقف في بلاد الشام لم يكن قد حسم بعد بين الطرفين المتصارعين عليها ، فان غازان قد أرسل جيشه مع حلفاء المغول الطبيعيين من الأرمن ومن جورجيا المسيحية ، حيث تقابلت قواته مع قوات المماليك في موقعة مرج الصفر (شقحب) بجوار حمص في رمضان ٣٠٧ هـ / أبريل ١٣٠٣ م . وحلت الهزيمة الفادحة بالمغول وحلفائهم وقضى علي أغلب جيشهم في هذه الموقعة قتلا وأسرا^(١٥٤) . و توفي غازان في مايو عام ١٣٠٤ . و بموته انتهت آخر جولة في الصراع بين مغول فارس و المماليك بهزيمة المغول للمرة الرابعة . ولم يحاول مغول فارس بعد ذلك خوض هذه التجربة المريرة ، اذ تأكدت السيادة المملوكية في شرق البحر المتوسط بصفة نهائية لمدة قرنين من الزمان تقريبا .

عهد أوجايتوخان (١٣٠٤-١٣١٦م)

أوفد أوجايتوخان (أوخدايندا ومعناها عبد الله باللغة الفارسية) قورا اعتلاه العرش بعد محمود غازان - سفارة للمماليك تحمل خطابا يؤكد حرصه علي توثيق روابط الصداقة بين الطرفين ، و سأل الناصر محمد بن قلاوون اخمد الفتنة و احلال الصلح بين الطرفين . وقال في نهاية رسالته « عفا الله عما سلف ، و من عاد فينتقم الله منه » . و قد قابل المماليك هذه السفارة بترحاب وردوا عليها بالمثل^(١٥٥) .

و لكن ظهرت بعض الخلافات التي عكرت صفو هذا السلام بين الطرفين ، فتوترت العلاقات بين مغول روسيا -أصدقاء المماليك الدائمين- وبين مغول فارس ، و طلب طقاي بن منكوقر ملك القفجاق (١٢٩١-١٣١٢ م) عن طريق سفارته للناصر محمد عام ١٣٠٥ التحالف معه ضد مغول فارس -قد بذر الاشواك في طريق السلام.فضلا عن أن اوجايتو كان شيعيا متطرفا ضد أنصار المذهب السني ، و هذا أساء للمماليك بأعتبارهم حماة الخلافة العباسية السنية بالقاهرة كما أن إشارة المماليك علي أرمينيا الصغرى قد أغضبت الخان المغولي في فارس . فضلا عن ايواء المماليك للهاريين من أوجيتو و المتمردين عليه^(١٥٦) . و قد دفعت هذه الاسباب الخان المغولي الي البحث عن حلفاء جدد ضد المماليك و هم الاوروبيين جريا علي سياسة أسلافه .

و يتضح من خطاب أوجايتو للملك غرب أوروبا -و الذي عشر علي نسخة منه في الارشيفات الفرنسية -أن التجار الإيطاليين في فارس قد اقنعوه أن الأحوال السياسية في أوروبا حينئذ مستقرة ، و هذا ما شجعه علي إرسال سفارته عام ١٣٠٥ .

ففي هذا الخطاب المؤرخ في صيف عام ١٣٠٥ ، يذكر أولجايتو فيليب الرابع بالعلاقات الودية بين أسلافهما ، ويخبره أن أحفاد جنكيز خان ليس بينهم حروب و لكن السلام و التفاهم و يطلب من الملك الفرنسي تبادل السفراء و تكثيف الاتصالات بين الطرفين لانه لما الي علمه «أنكم يا سلاطين الفرنجة متفاهمون جميعا مع بعضكم ،وليس هناك أفضل من التفاهم ، فسنقف -بقدره السماء - صفا واحدا في وجوههم ، والسماء شاهدة علي ما نقوله » (١٥٧).

و رغم أن هذا الخطاب لا يحمل أية إشارة لطلب التعاون المشترك ضد المماليك ، فان بعض المؤرخين يعتقدون أن الجملة المترجمة نصا بعاليه تحمل هذا المعني - دون التصريح به . فضلا عن ذلك ، فان النسخة الاصلية لهذا الخطاب - الموجودة حتي الان بالارشيفات الفرنسية - يوجد بها ترجمة إيطالية لهذا الخطاب قام بها توماس أوجي السيني-Thomas Ugy of Siena أحد سفيري أولجايتو . ولاحظ الباحثون الذين اطلعوا علي هذه النسخة عبارة باللغة الايطالية تفيد أن السفيرين توماس (أي توماس) و مالف سوف يشرحان للمرسل إليهم كثيرا من التفاصيل شفاهة (١٥٨).

و من ثم فليس معروفا - حتي الان علي وجه اليقين - هل هذه العبارة الايطالية أضافها السفير المغولي - و هو إيطالي أيضا - من عند ياته كجواز مرور للمبالغات التي نقلها لقادة الغرب الاوروبي عن استعدادات سيده للتحالف معهم ضد المماليك دون الاشارة إليها في الخطاب الرسمي للخان المغولي ؟ أم أن هذه الاقوال صرح بها أولجايتو نفسه ؟ و إذا كان الامر كذلك فلماذا لم يتضمنها الخطاب الاصيلي ؟ و هل خوف الخان المغولي من وقوع السفراء في يد المماليك - الذين كانوا يسيطرون علي السواحل الشامية و لهم علاقات ودية مع بيزنطة - وحرصه علي استمرار السلام معهم هو الذي جعله يكتب رسالته الرسمية بحرص بالغ دون الاشارة لهم أو للعداء معهم أو طلب التحالف ضدهم و طلب من سفيره ترجمة هذا الخطاب في أوروبا للايطالية و إضافة ما كان يريد أن يقوله ؟

عموما واضح أن الملك الفرنسي لم يرد علي هذا الخطاب لان الاراضي المقدسة لم تعد تعنيه في شيء .

و قد وصلت هذه السفارة لاجلجترا في أكتوبر عام ١٣٠٧ بعد وفاة إدوارد الاول - (في ٧ يولية ١٣٠٧) و إعتلاء ابنه إدوارد الثاني العرش الانجليزي (١٣٠٧-١٣٢٧) . وقد عثر علي خطابين من إدوارد الثاني للخان المغولي ردا علي هذه السفارة .وتضمن الخطاب الاول

و من الواضح أن سفيري أوجايتو قد تناقشا مع الملك الإنجليزي و مستشاريه في الاحوال الداخلية لا يلخائية فارس . ولكن من المؤكد أنهما لم يبلغا اذوارد الثاني و غيره باعتناق اوجايتو للاسلام . ويبدو أن هذا الامر كان بتعليمات من الخان نفسه ، لان عبارات رسالته لقادة غرب أوروبا تخفي إسلامه تماما حتي أن عبارات بوزية مثل «بقدره السماء - السماء وهبتنا الراي - بفضل السماء - كتب هذا الخطاب في عام الحية (أي عام ١٣٠٥) قد تضمنتها رسالته للاخفاء و التمويه عن اعتناقه الاسلام (١٦٠).

واعتقاداً من إدوارد الثاني بأن اوجايتو مسيحي ،او يميل للمسيحيين او علي الاقل ليس مسلماً ، فانه في خطابه الثاني المؤرخ في ٣٠ نوفمبر عام ١٣٠٧ يهاجم العقيدة المحمدية و يصف نبي الاسلام (ص) بصفات تدل علي جهله التام بمجريات الامور في ايلخانية فارس في ذلك الوقت . فيطالب اوجايتو بالتخلص من المسلمين و من كل أتباع محمد و كتبه ، و يبلغه أنه لولا بعد المسافة بينهما و عوائق اخري لما تأخر عن مساعدة الخان المغولي في تخليص وجهه الارض منهم ! و يبلغ الاخير أن نخبة من هيئة الفرنسيسكان ستصل لبلاده رفق سفارته كي تنتشر العقيدة المسيحية الكاثوليكية « و بدونها لن ينجي احد من الهلاك » و يطلب من الخان المغولي حسن استقبالهم و رعايتهم و حمايتهم و كتب إدوارد الثاني - فى نفس الوقت - خطابين بشأن هذه البعثة التبشيرية للبابا و للملك أرمينيا الصغرى . وليس هناك أية دلائل تفيد ذهاب هذه البعثة مع سفارة اوجايتو أو بعدها . ولكن هذا الرد يدل على إفلاس الملك الانجليزى - وهو الوحيد الذى تعتمد عليه البابوية لاسترداد الأراضي المقدسة سياسيا ، فأراد تعويض ذلك بمحاولة تحويل المغول والمسلمين معا للمسيحية، ولم يعلم أن عكس ما يريد قد حدث فى ايلخانية فارس .

وقد استدعى البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤) فى تلك الأثناء هيتون ابن أخى الملك الأرمنى هيشوم الأول- الذى كان موجودا فى فرنسا حينئذ - لكتابة تقرير مفصل عن مميزات ومخاطر التعاون مع التتار باعتبار أنه قد شارك بالفعل مع جنوده الأرمن فى بعض المعارك ضد المماليك - التى كان المغول طرفا فيها - ومن ثم فانه على دراية كاملة بالظروف والملابسات السياسية فى الشرق الأدنى، وقد سلم هيتون تقريره المعنون بـ «زهرة تواريخ الشرق

ولهذا فعندما رجعت سفارة اوجايتو من المجلتروا ووصلت إلى روما فى بداية عام ١٣٠٨، فان البابا قد كتب رسالة إلى الخان المغولى مؤرخه فى الأول من مارس من ذلك العام (١٦٢٢). ويقول البابا فى رسالته لاجايتو أنه تلقى سفارته وخطاباته بسعادة وسرور بالغين ، وعلم ما فى خطاباته ومن أقوال السفيرين نيابة عنه أن الخان سيعد مائتى ألف حصان ومائتى ألف كيس من القمح فى مملكة أرمينيا الصغرى لزوم إمداد وقومين الجيوش الأوربية حين قدومها « لتحرير » الأراضى المقدسة ، بالإضافة إلى أن الخان سيكون بنفسه على رأس مائة ألف فارس لتدعيم هذه القوة لطرد المسلمين من الأراضى المقدسة . ويقول أن هذا العرض السخى من الخان « قد قوى عضدنا مثل الغذاء الروحى تماما » ويبلغ البابا المرسل إليه بأنه حالما يأتى موسم مناسب لعبور البحر فانه سيبلغه عن طريق سفارة من لدنه بموعد وكيفية وصول قوات الأوربيين للمشرق . ويلح كليمنت الخامس على الخان المغولى أن يواصل مساعيه وجهوده من ناحيته لتخليص البقاع المقدسة « من أعداء الرب الذين دنسوها » . وفى نهاية رسالته ، يقول البابا للخان أنه والكنيسة الرسولية سوف يسعدوا بنجاحه ومجده فى الدنيا والآخرة (١٦٢٣).

والرأى عندى أن العروض الخيالية بتوفير هذا العدد غير المعقول من الخيول وأجولة القمح والفرسان لخدمة الجيوش الأوربية لاسترداد الأراضى المقدسة كانت محض مبالغات من أفواه السفير الإيطالى الأصل . لأن خطاب اوجايتو الرسمى الذى يحمل خاتم وتوقيع الخان لم يتضمن كلمة واحدة عن هذا الأمر . ثم أن أرغون نفسه - وكان بوذيا وفى قمة حاجته ولهفته للتحالف مع الأوربيين - عرض عليهم إمدادهم بعشرين ألفا من الخيول بأسعار معتدلة ، فكيف يعرض عليهم اوجايتو عشرة أضعاف هذا الرقم ومثله من أجولة القمح ومائه ألف من الفرسان (مجانا) وهو مسلم وكان فى حالة صلح مع الماليك ولا يحتاج لأية مساعدة عاجلة أو تحالف ملح مع الأوربيين ؟

ويرى الباحث أيضا أن المستشارين الأوربيين لخانات مغول فارس - وغالبيتهم من التجار الإيطاليين المخامرين - هم الذين ورطوهم فى إرسال العديد من السفارات لأوروبا وذلك باقناعهم باستجابة الأوربيين للتحالف معهم حالما تسمح ظروفهم بذلك . وكان يهم التجار الإيطاليون - الذين اختارهم المغول سفراء لهم - أن يتنقلوا بين فارس وبلادهم على نفقة وتحت حماية أسيادهم المغول وفى نفس الوقت يحملون معهم البضائع جيئة وذهابا . وفى نفس الوقت ، كانت المدن التجارية الإيطالية حريصة على أن يتم هذا التحالف فعلا لأن نقل آلاف الفرسان

والمشاه من أوروبا لميدان المعركة فى بلاد الشام سيكون على سفن تابعة لهذه المدن وكذلك تموينهم وإعدادهم بضرورات الحياه ، فضلا عن حصولهم على امتيازات تجارية واسعة فى السواحل الشاميه ، وذلك لمعرفةنا أن المدن الايطالية كانت هى الرابع الوحيد - تقريبا - فى أوروبا من الحملات الصليبيه السابقه ، بل ويرجع غنى وازدهار جنوة والبندقية ويزا لهذا الأمر بصفة أساسيه . وكان يهتم التجار الايطاليون فى فارس أيضا السيطرة على طرق التجارة المارة بفارس والخليج العربى لحرمان التجار المسلمين من دور الوسيط فى نقل سلع الشرق الأسيوى للغرب الأوربى ولتعويض خسائريهم الفادحة فى هذا المجال والناجمة عن سقوط الموانى الصليبيه فى أيدي المسلمين حتى عام ١٢٩١م .

ومهما يكن من أمر ، فحتى تلك العروض الخياليه المنسوبه للمكان المغولى لم تحرك الأوربيين لإرسال حملة صليبيه لانتشالهم بمشاكلهم الإقليميه واهتماماتهم الجديده .

ومن المعروف أن هذه الفتره قد شهدت ظهور العديد من المنظرين والفلاسفه من رجال السيف والقلم فى غرب أوروبا الذين كتبوا التقارير والمذكرات والخطط وعرضوها على البابويه وملوك وأمراء بلادهم يوضحون فيها أسباب فشل الصليبيين فى الاحتفاظ بمواقعهم فى الأراضي المقدسه ، وأنسب الطرق لاسترداد هذه البقاع . فمنهم من اقترح ضرورة القضاء على المماليك بحصارهم اقتصاديا ، واقترح فريق ثان تنصير المغول والمسلمين معا لكسبهم إلى جانب الأوربيين تحت لواء البابويه . وطالب فريق آخر بتوحيد كافة القوى السياسيه فى أوروبا وكذلك المدن التجاريه الايطاليه والهيئات الدينيه والعسكريه تحت لواء البابويه وتحت رايه الصليب (١٦٤) . وهذه التقارير النظرية لم تؤت ثمارها لأنه كان يصعب تطبيقها عمليا فى ظروف سياسيه واقتصاديه واجتماعيه فى أوروبا وفى الشرق العربى الإسلامى مختلفه تماما عما كان عليه الحال فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

عهد أبو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥م)

إذا كان الغرب الأوربى قد تجاهل عروض ملوك مغول فارس السابقه بالتعاون المشترك معهم ضد المماليك ، فان بعض قادته قد أحسوا فى عام ١٣٢٠م بالحاجه الماسه لهذا التعاون ولكن بعد فوات الأوان .

إذ أن مفاوضات الصلح كانت قد بدأت بين المماليك وبين أبو سعيد فور اعتلاء الأخير العرش المغولى (١٣١٦-١٣٣٥م) عن طريق التاجر أبو المجد السلامى . وفضلا عن اعتناق

خانات المغول للدين الإسلامى ، فان مفاوضات الصلح الجديدة مع الممالك منذ عهد اوجايتو قد جعلت مملكة أرمينيا الصغرى فى موقف لا تحسد عليه ، وقد انتهز الممالك هذه الفرصة وأرسلوا القوات للإغارة على تلك المملكة حيث عاثت فيها قواتهم فسادا وتخريبا ، فضلا عن أسر حوالى عشرين ألفا من سكانها عام ١٣٢٠م . ولهذا أرسل ملكها أوشين الأول (١٣٠٨-١٣٢٠) رسالة استغاثة للبابا حنا الثانى والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤م) فى يونيو عام ١٣٢٠ يوضح فيها مدى الخراب والدمار الذى لحق ببلاده ، ولكن الأخير رد عليه بأن ملوك أوروبا فى حالة حرب مع بعضهم البعض ، ولهذا فهو لا يستطيع أن يساعده إلا عن نفسه فقط ، ومن ثم أرسل له ثلاثين ألف قطعة ذهبية ، وأرسل خطابا لكل قادة غرب أوروبا لمديد العون للأرمن ، ولكن لم يستجب له أحدا (١٦٥).

ولهذا أرسل البابا خطابين فى ١٢ ، ١٣ يوليو عام ١٣٢٢م للخان المغولى أبوسعيد ، وفى الخطاب الأول يدعو لاعتناق المسيحية ، ويذكره بالعلاقات الودية بين البابوية وأسلافه ، ويطلب منه إعادة سفرائه لروما والاتصال بالملك الفرنسى (١٦٦).

ويركز البابا اهتمامه فى الخطاب الثانى على المسألة الأرمنية ، فيوجه نظر أبو سعيد إلى أن الأرمن كانوا حلفاء دائمين لأسلافه ضد عدوهم المشترك : المسلمين ، وأنه من العدل أن يناصرهم ضد «الأتراك» أى الممالك الذين خربوا بلادهم . ومن ثم فقد حث حنا الثانى والعشرين أبو سعيد على تقديم العون العاجل للأرمن (١٦٧).

ولكن مفاوضات الصلح بين أبو سعيد والناصر محمد بن قلاوون قد فُجِحت فى إحلال السلام والمودة محل الحروب والمنازعات فى عام ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م. واتفق الطرفان على عدم إيواء المتمردين أو الفارين من وجه أحدهما للآخر أو التحالف ضد أحدهما الآخر ، وعلى فتح طريق التجارة وتأمين التجار بين البلدين ، وذكر اسم أبو سعيد مع اسم الناصر محمد على منابر مكة . واستقرت الأمور بين الطرفين خاصة وأن أبو سعيد كان سنى المذهب أيضا (١٦٨).

ولا عجب أن أبو سعيد لم يرد على سفارة البابا ، لأنه لم يعد فى حاجة له أو لغيره . فالضرورة التى جعلت أسلافه يرسلون الغرب قد انتهت حينئذ بعقد صلح دائم مع الممالك .

ولكن إذا كانت العلاقات السياسية قد توقفت مع الغرب الأوربي منذ ذلك الحين بسبب الصلح مع الممالك ، فهذا لا يعنى انقطاع الصلات بين مغول فارس وأوربا ، بل استمرت البعثات التبشيرية الكاثوليكية تؤدى مهامها فى ايلخانية فارس وازدادت انتشارا وكثافة فى

عهد أبو سعيد لأنه كان مثل معظم أسلافه غير متعصب مع أو ضد أى عقيدة أو ملة . واستمر التجار الإيطاليون فى الإبلخانية فترة من الزمن (حتى بعد وفاة أبو سعيد وانتهاء دولة الإبلخانية بموته دون وريث) وكانت لهم امتيازاتهم ومعاهداتهم المقررة مع مغول فارس كما سئرى فى الفصلين القادمين من هذا البحث .

أسباب فشل التحالف المغولى - اللاتينى ضد المماليك

نستطيع من الدراسة السابقة الخروج بعدة ملاحظات :

أولاً : أن الاتصالات بين مغول فارس واللاتين بدأت بسفارة من بطريرك مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا عام ١٢٦٠ قبيل موقعة عين جالوت لجس نبض موقف هولاء منهم ولم يكن لها أية دوافع أخرى بذليل أن شخص السفير وهو ديفيد الأشبى كان راهباً ، ولكن كانت أول سفارة لطلب التحالف بين الطرفين ضد المماليك من جانب مغول فارس فى عام ١٢٦١م بعد هزيمتهم فى عين جالوت وتورطهم فى حرب مع مغول روسيا .

ثانياً : كان قادة الغرب الأوربي يطلبون فى جميع ردودهم على إبلخانات فارس أن يعتنقوا المسيحية على المذهب الكاثوليكي قبل تنفيذ هذا التحالف ، وكانت ردود الإبلخانات أنهم يقومون بحماية المسيحيين والبعثات التبشيرية التى أرسلها الغرب وكنائسهم واعفائهم من الضرائب .

ثالثاً : لم يفكر الغرب الأوربي - لظروف سياسية ولأسباب أخرى - جدياً فى مشروع التحالف مع المغول إلا فى أغسطس عام ١٢٩١ أى بعد سقوط عكا وما تبعها من البقية الباقية من ممتلكات الصليبيين فى بلاد الشام أى بعد فوات الأوان ، رغم أن أرغون وحده أرسل لهم أربعة سفارات وحدد معهم موعد ومكان ذهاب قواته لبلاد الشام انتظاراً لهم . وقدم حلولاً ميسورة لمشاكل الإمداد والتموين للقوات الأوربية ، ورغم أنه نسب لاولجايتو تقديم عروض لتسهيل وجود الجيوش الأوربية فى الشرق الأدنى تسيل لعاب العسكريين . ولكن ذلك كله لم يكن حافزاً للغربيين للذهاب للشرق حتى لو كان فى ذهابهم إليه إنقاذاً لبقايا الصليبيين الذين كانوا يلفظون انفسهم الأخيرة تحت سيوف المماليك .

رابعاً : كان لبعض القوى الصليبية فى الشرق الأدنى دوراً ما - وإن كان هامشياً - فى مرتين فقط من أربعة معارك حدثت فى بلاد الشام بين مغول فارس والمماليك . وكانت

ردود فعل الأخيرين ضربة قاضية لهم . فقد اشترك بوهيموند السادس حاكم انطاكية بقواته مع المغول فى عامى ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ م ، وكانت النتيجة هى استيلاء المماليك على انطاكية عام ١٢٦٨ م والانتقام من سكانها بالقتل والأسر ومن المدينة نفسها بتسويتها بالأرض ، وفى عام ١٢٨١ تحالف استبارية المرقب مع المغول فى موقعة حمص الأولى ضد المماليك وفى المرة الثالثة (١٢٩٩ م) طلب غازان من القوى الصليبية فى قبرص الاشتراك معه فى قتال المماليك ، ولكنهم رفضوا ، ورغم ذلك فانه بعد انتصار غازان واحتلاله بلاد الشام توهبوا أن المغول كانوا يحاربون معركتهم من أجل أن يستردوا لهم القدس !! وفى المرة الرابعة والأخيرة (١٣٠٣ م) لم يدعوا ولم يشتركوا . وغنى عن القول أن المغول انتصروا فى مرة واحدة فقط (عام ١٢٩٩) ولم يستفيدوا من هذا النصر لانسحابهم من بلاد الشام بعد ذلك بعدة شهور وهزيمتهم بعد ذلك بأربعة أعوام .

خامسا : المرة الوحيدة التى طلب فيها من مغول فارس تنفيذ تعاونهم المشترك مع اللاتين ضد المماليك كانت أثناء وجود حملة الأمير إدوارد الانجليزى عام ١٢٧٠ فى عكا ولانشغال قوات أبغا على حدوده الشرقية فانه أرسل نائبه فى دولة سلاجقة الروم لبلاد الشام ولكن قواته انسحبت فور علمها بتقدم قوات المماليك دون الالتحام معها أو مع قوات حملة أدوارد .

وهكذا لم يخرج مشروع التحالف المشترك لحيز التنفيذ بالصورة المرجوة لأسباب ترجع للطرفين معا وللمغول أنفسهم وللوقى اللاتينية من ناحيتها وأخيرا لأسباب ترجع للطرف الثالث المتحالف ضده وهو المماليك كما يلى : -

أولا : بالنسبة للطرفين معا : كانت هناك اختلافات فى اللغة والدين والهدف من التحالف بين المغول والأوروبيين . فضلا عن صعوبة الاتصال بين طرفين يفصلهما الآلاف من الأميال وليس بينهما حدود مشتركة فى وقت كانت الدواب براً والشوانى بحراً هى وسيلة المواصلات . إذ أن السفارة من فارس لانهلثرا أو العكس كانت تستغرق عامين فى المتوسط جيئة وذهابا ، أى أن صعوبة وبطء الاتصال بين الطرفين مكانيا وزمنا قد أثر على سرعة التفاهم والاستجابة بين الطرفين . المعنيين بالتحالف . يضاف إلى ذلك أن وجود المماليك بين المغول وبين الصليبيين - خاصة بعد الاستيلاء على أنطاكية - قد منع الاتصال البرى المباشر بين الطرفين كما أن السيطرة التامة للمماليك على بلاد الشام منذ عام ١٢٩١ م جعلت الاتصال بين المغول واللاتين عملية معقدة تماما .

ثانيا : بالنسبة لمغول فارس : فلاشك أن انشغالهم بالحروب سنوات طويلة مع مغول روسيا من ناحية ، ومع مغول التركستان من ناحية أخرى ، فضلا عن كثرة الخلافات والمنازعات حول السلطة بين ورثة هولاكو ، وقصد كثير من المدن العراقية على حكم الايلخانات وقرار كثير من القادة المغول والمسلمين معا لمعسكر المالك وعدم استقرار كرسى الوزارة لدرجة أن جميع وزراء الإيلخانية قد ماتوا قتلا عدا واحد فقط ، كل ذلك حال دون تفرغ ايلخانات فارس للاستيلاء على الشام فترة طويلة وتثبيت حكمهم فيه أو تنفيذ خطط التحالف مع الأوربيين ضد المالك. وكان أيضا غزو المغول لأوروبا في الفترة من ١٢٣٧ حتى ١٢٤٢ وغزو مغول روسيا لشرق أوروبا عدة مرات بعد ذلك جعل الأوربيين يكرهون المغول عامة ويترددون في التعاون معهم لأنهم ظلوا براهرة في نظرهم .

ثالثا : بالنسبة للغرب الأوربي عامة فيقع عليهم المسئولية الأولى لعدم الاستجابة لمغول فارس في التعاون المشترك معهم ضد المالك . وإذا كان هذا التعاون من جانب الغرب الأوربي يعنى قبل عام ١٢٩١م مساندة القوى الصليبية في بلاد الشام ضد المالك أو مساعدتهم على البقاء بجوار عدو يملك كل مقومات القوة ، فانه يعنى بعد هذا التاريخ استرداد الأراضي المقدسة من المالك وعدم الاستجابة لهذا التعاون يعنى فتور الحماسة الصليبية لللاتين وفشل البابوية في قيادة الغرب الأوربي لعدة أسباب منها :-

أ- تداعى هيبة البابوية وسلطتها في تلك الفترة الزمنية . وذلك لأنها أساءت للمثال الصليبي بانفاق ضريبة العشور الصليبية وغيرها من الموارد البابوية على مؤيديها وضد أعدائها من الأمراء العلمانيين . كما حدث ضد أسرة الهوهنشتاوفن وكما حدث في مشكلة صقلية (١٢٨٢-١٣٠٢م) وتوجيه الحملات الصليبية ضد أراجون وضد البندقية (١٣٠٩م) وغيرها ، وكذلك ضعف بابوات أفينون (١٣٠٥-١٣٧٨م) وارتقائهم في أحضان الملكية الفرنسية التي وجهتهم لمصالحهم . وهذا كله جعل البابوية في نظر العامة والخاصة غير جدية بقيادة جموعهم خاصة مع وجود الظروف الأتى ذكرها فيما بعد .

ب- الظروف الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا بدءا من النصف الثاني للقرن الثالث عشر كانت مختلفة عن تلك الظروف التي حركت عشرات الآلاف من الدهماء والعامة

والفرسان والنبلاء لحمل الصليب إلى الشرق فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد أدى فشل العديد من الحملات الصليبية على مصر والشام وتونس قد أحبط الأوروبيين عن الذهاب للشرق. فضلا عما تقدم ، فان ظهور الانتماءات القومية والاهتمامات الفردية للأوروبيين بتأثير نشأة الجامعات ونهضة القرن الثانى عشر وظهور مقدمات عصر النهضة الإيطالية جعل اللاتين يبحثون عن مصالحهم الشخصية فى أوطانهم ، وأهم من هذا وذاك ظهور الأوبئة والمجاعات وأمراض الطاعون أثرت على الموارد البشرية للغرب الأوربي مما أدى لارتفاع تكلفة الفرسان والإنفاق عليهم وقلة عددهم ... كل هذه العوامل جعلت الاستجابة لنداءات البابوية فاترة .

ج- الأوضاع السياسية فى غرب أوروبا كانت غير مهيأة لتنفيذ مشروع التحالف مع المغول، فملوك إنجلترا شغلوا بالحرب مع ويلز واسكتلندا ، وملك فرنسا -بعد لويس التاسع- شغلوا بالحروب ضد قشتالة وأراجون وفى المشكلة الصقلية . أما عن الامبراطورية الرومانية المقدسة فقد حطمتها البابوية وأعوانها بالقضاء على آخر أباطرة الهاهنشتاوفن عام ١٢٦٦م ، وأنشغل ملوكها الضعاف من أسرة الهابسبورج بحروب اقليمية فى المجر وبوهيميا وتدعيم سلطاتهم وفقدوا اهتمامهم بالشرق . أما قشتالة وأراجون فكانت لهما مشاكلهما مع فرنسا والبابوية وأنشغالهما فى تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس . أما المدن التجارية الإيطالية فكانوا يهتمون بمصالحهم أينما كانت . فالجنوية هم الذين كانوا ينقلون الرقيق - وهم عصب الجندية المملوكية - من موانئ البحر الأسود للماليك ، وكان البنادقة ينقلون التوابل وبلغ جنوب آسيا وشرقها من الاسكندرية وبذلك ساهما فى تقوية الاقتصاد والجيش المملوكى ، ورغم نداءات البابوية والمجامع المسكونية بتحريم التجارة مع الماليك فان استجابة هذه المدن التجارية لمصالحها التجارية كانت أقوى .

د- ضعف الكيان الصليبي فى الأراضى المقدسة على الأقل منذ رحيل لويس التاسع من الشام عام ١٢٥٤م وانتهياره نهائيا عام ١٢٩١م كان من العوامل الهامة لإحجام القوى الأوربية عن محاولة المساعدة أو النجدة أو مساعدة المغول ضد الماليك ومن أسباب هذا التداعى : الخلافات التى وصلت إلى الصدام المسلح بين تجار المدن الإيطالية فى الأراضى المقدسة ، وكذلك الصدام بين الهيئات العسكرية ، وأيضا الخلافات المذهبية

بين المسيحيين الشرقيين وبين الكاثوليك ، وعدم وجود قيادة مركزية يخضع لها كل الصليبيين فى الشام لدرجة أنه وجدت سبعة عشر قيادة فى مدينة عكا إبان سقوطها فى يد المماليك عام ١٢٩١م . ولأن الوجود الصليبي كان يعتمد على الظهير الأوربي فى الإمدادات العسكرية والاقتصادية فإن انقطاع هذه الامدادات للظروف الموضحة بعاليه جعل بقايا الصليبيين فى الشرق - خاصة بعد توحيد مصر والشام تحت حكم المماليك بعد نصر عين جالوت - فى موقف لا يحسد عليه ومن ثم سقطت المدن والقلاع الصليبية واحدة تلو الأخرى دون تدخل أو مساعدة حاسمة من المركز الأم فى أوروبا . وكان لسيطرة المماليك على كل سوريا منذ عام ١٢٩١م أكبر الأثر فى إحباط القوى الأوربية عن مساعدة المغول ضد المماليك حتى لو كان ذلك معناه استرداد الأراضى المقدسة أو جزء منها مرة ثانية .

وأبعا : كان المماليك من أهم عوامل فشل التحالف المغولى الصليبي . فقد استطاعوا هزيمة مغول فارس أربعة مرات (فى عين جالوت عام ١٢٦٠ ، ابلستين فى الأناضول ١٢٧٦ ، موقعة حمص الأولى عام ١٢٨٢ ، وفى مرج الصفر عام ١٣٠٣) واستطاعوا توجيه الضربات المتلاحقة لمملكة أرمينيا الصغرى ، وأهم من أنهم ذلك تمكنوا من إنهاء الوجود الصليبي فى بلاد كما أنهم صمدوا للحصار الاقتصادي الذى فرضته عليهم البابوية فى النصف الأول للقرن الرابع عشر ، بل ونجحوا فى تكوين علاقات سياسية واقتصادية مع كثير من القوى الأوربية . وهكذا كان التخويف المستمر لبقايا الصليبيين زمن بيبرس وقتلاون ثم إنهاء الوجود الصليبي نفسه زمن الأشرف خليل ، خصما من قوة أحد طرفى التحالف لحساب عدو التحالف. كما أن محاولات التحالف جرت فى وقت كانت فيه دولة سلاطين المماليك فى طور صعودها ، عسكريا واقتصاديا وسياسيا ، فهى تقود العالم الإسلامى ، وتشهد رواجاً اقتصاديا ونمو سكانيا وصحة ثقافية وتوجه أمور السياسة فى المنطقة . وهكذا لم يكن الأمر وقفا على قدرات الغرب والمغول وإرادتهم فقط ، وإنما كان مرهونا أيضا بالسبب التاريخى لوجود دولة سلاطين المماليك نفسها وهو التصدى للمغول وتصفية الوجود الصليبي .

ولهذه الأسباب مجتمعة لم يخرج مشروع التحالف المغولى - اللاتينى ضد المماليك لحيز التنفيذ بالصورة التى أرادها له المغول والأرمن واللاتين على حد سواء .

الهوامش

- 1- Sirarpie der Nersessian , " The Kingdom of Cilician Armenia" in A History of the Crusades , vol . II , ed . by R. Wolff Harry Hazard and K.M. Setton. Philadelphia 1962 , p. 652 .
- ٢- فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ١٢٥٠-١٣٧٥م ٦٤٨ - ٧٧٦ هـ (رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، أبريل ١٩٨٠) ص ٨٢ ، ٨٤ .
- 3- Grigor Akanc : History of the Nation of the Archers (The Mongols) . Eng . trans by. P.R.P. Blake & R.N. Frye . Cambridge , 1954 , pp. 46 , 47 .
- 4- Ibid , pp. 55 , 57 .
- 5- Boyle , John Andrew (trans . & ed.), "The Journey of Hettum , King of Little Armenia , to the Court of the Great Khan : "Mongke" , Central Asiatic Journal , IX 1964 , pp. 177-181. , فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ٨٦ ، ٨٧ ،
- ٦- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ٧٤ .
- ٧- المرجع السابق ، ص ٩١ - ٩٤ .
- ٨- المرجع السابق ص ٩٥ .
- ٩- للتفاصيل أنظر : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، الجزء الأخير ؛ رشيد الدين فضل الله الهمداني؛ جامع التواريخ : تاريخ المغول ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ؛ الايلخانيون . ونقله إلى العربية محمد صادق نشأت ، ومحمد موسى هنداوى ، وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . القاهرة ، ١٩٤٩ ، محمد صالح داود القزاز : الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ، بغداد ١٩٧٠ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى ، القاهرة د.ت .
- ١٠- محمد صالح داود القزاز : الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ص ٧٠ ، ٧١ .
- ١١- رشيد الدين الهمداني : المصدر السابق م ٢ ج ١ ، ص ٢٦٧-٢٩١ ، انظر أيضا : القزاز : المرجع السابق ص ٩٧-١٠٧ .

- ١٢- المقرئى: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القسم الثانى صفحات ٤١٠، ٤١١، ٤٢٢ .
- 13- Runciman , S., " The Crusader States , 1243 - 1291 " in Setton (ed) A History of the Crusades , II , p. 572 .
- ١٤- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ ص ٣٢٤ .
Runciman , op . cit . , p. 572
- ١٥- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ١٠٥ ؛
Runciman , op . cit . , p. 572 .
- 16- Runciman , p. 572 ; Peter Jackson , " The Crisis in the Holy Land in 1260 " , English Historical Review , 1980 , pp. 490-492 .
- 17- Runciman , op . cit . , p. 572 ; Jackson , op . cit . , p. 492 .
- 18- Runciman , op . cit . , p. 573 ; Jackson , op . cit . , pp. 499 , 500 .
- 19- Jackson , op . cit . , p. 507 .
- 20- I bid , pp . 495 , 6 .
- 21- Jackson , Peter , " The Dissolution of the Mongol Empire " Central Asiatic Journal , XXII , Vols . 3-4 , 1978 . p. 236 .
- 22- Rachewiltz : Papal Envoys to the Great Khans , p. 150 . Connell : Western Views of the Tartars , p. 161 .
- ٢٣- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٨٨ .
- ٢٤- المصدر السابق ، ص ٤٨٦ .
- ٢٥- جامع التواريخ ج ٢ ص ٣١٥ .
- ٢٦- المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٢٨ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٤، ٦٣ .
- ٢٧- رشيد الدين الهمذانى : المصدر السابق ص ٣١٠-٣١٦ ، المقرئى : المصدر السابق ، ص ٤١٩-٤٣٤ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٤٩-٥٩ .
- ٢٨- من نتائج هذه الموقعة أنها ثبتت دعائم دولة المماليك الناشئة فى مصر أولا ثم فى الشام ثانيا نظرا لتداعى الأمراء الأيوبيين فى الشام أمام المغول سواء بالدخول فى طاعتهم أو بالفرار أمامهم ،

ومن ثم فإن الممالك استطاعوا - فور طرد المغول من بلاد الشام بعد انتصار عين جالوت - توحيد هذه البلاد ولأول مرة منذ وفاة صلاح الدين الأيوبي مع مصر تحت حكمهم . وكان لهذا الأمر أكبر الأثر في التعجيل بانتهاء بقية الإمارات الصليبية في الشام لتطويق الممالك لهم من ثلاثة جوانب وكان انتصار المسلمين على المغول ضربة قوية لبعض قوى المسيحيين الشرقيين الذين انتهزوا فرصة اكتساح المغول للعراق والشام باحداث أضرار بالغة ضد المسلمين إبان هذه الفترة وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الانتصار أنقذ بلاد الشام ومصر وربما بقية العالم الإسلامي من الاحتلال المغولي أنتج هذا النصر الحاسم أيضاً وتحول القوة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم وقضى على الاعتقاد بأن المغول قوم لا يغلبون . كما أن انتصار عين جالوت قد مكن الممالك من توجيه الضربات المتتالية للكيان الصليبي في الشام لتتخلص منه خشبة تحالف بعض أمراءه (مثل أمير انطاكية) أو جميعهم مع المغول ضد المسلمين

J. J. Saunders : Muslims and Mongols . University of Canterbury , 1977 , pp. 67-68 ;

فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين الممالك والمغول ص ٥٥ ، ٥٦ .

29- Jackson , " The Crisis in the Holy Land " , op . cit . , p. 506 .

30- Loc . cit . ; Runciman , op . cit . , p. 573 .

31- Cf . "The Crisis in the Holy Land in 1260 " , op . cit . , p. 507 .

ولكن المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه يعتقد أن حملة هولاكو على سوريا كانت Une croisade nes-torienne ، وأن الصليبيين في عكا كانوا قصار النظر في عدم التحالف مع المغول ضد المسلمين وأنهم ضيعوا على أنفسهم هذه الفرصة وأنهم بتعاونهم مع المصريين أو بحيادهم في هذا الصراع قد مكثوا الآخرين من تحقيق نصر على المغول كان نقمة عليهم بعد ذلك ، ولكن هذا الرأي ينهار أمام الأدلة السابقة وأمام حقيقة أن الصليبيين في عكا كانوا أضعف من أن يتخذوا هذا القرار .

Cf . R . Gerousset : Histoire des Creisades , III , pp . 580-600 .

٣٢- رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣١٧ ، Peter Jackson , " The Dis-solution" of the Mongol Empire" pp . 186-244 .

٣٣- رشيد الدين الهمذاني المصدر السابق ص ٣٣٦ .

- ٣٤- فايد حماد عاشور : المرجع السابق ص ٧٦ ، . Jackson , op , cit , pp . 224 , 229 .
- ٣٥- رشيد الدين الهمذاني : المصدر السابق ص ٣٣٦ .
- ٣٦- ماركو بولو : رحلاته، ترجمها للعربية عبد العزيز جاويد، القاهرة، د. ت - ص ٣٦١-٣٦٤، فايد عاشور : المرجع السابق ص ٧٦ .
- ٣٧- جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٣٢ ، ؛ Saunders , op . cit , p. 69 .
- Jackson , op . cit , pp. 226 , 227 .
- ٣٨- رشيد الدين الهمذاني : المصدر السابق ، ص ٣٣٢-٣٣٥ .
- ٣٩- فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين الممالك والمغول ، صفحات ٧٧ ، ٢٠٨ ، ٢٧٨ .
- 40- Jackson , " The Dissolution of the Mongol Empire " , op . cit , p. 236 ; Connell , op . cit , pp . 132 - 140 .
- ٤١- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٣٠ - ١٤٠ ، فايد عاشور : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
- ٤٢- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ٩٢-٩٥ . ، Saunders , op . cit ., p. 73 .
- ٤٣- الرواض الزاهر ، ص ١٣٧-١٣٩ ، أيضا Cf . Jackson , op . cit ., p. 237 .
- ٤٤- شرح الظاهر بيبزس منذ توليه سلطنة المماليك فى تنفيذ سياسة داخلية وخارجية لتدعيم نفوذ المماليك فى الحكم ولحشد كل الجهود السياسية والعسكرية لمواجهة مغول فارس والصليبيين معا منها أولا : فى إطار صيغ الشرعية على حكمه فى نظر الرعية عامة ورجال الدين خاصة فانه أعاد إحياء الخلافة العباسية وجعل مقرها بالقاهرة (١٣ رجب ٦٥٩هـ / يونية ١٢٦١م) كى يوحد العالم الإسلامى تحت لواء الخليفة العباسى سوريا ويكون بيده عمليا مقاليد الأمور السياسية والعسكرية ، ثانيا : فى إطار تعويق تقدم مغول فارس لسوريا فانه أمر نوابه فى المنطقة من نهر الفرات لحدود حلب بحرق الأعشاب والمروج لأن فى ذلك إضرار مباشر بالغزاة الذين يعتمدون على الخيل فى جميع تنقلاتهم وحروبهم وأمر أيضا بتقوية القلاع والحصون والمغاور فى شمال بلاد الشام وشرقها ، وتجنيد البدو والعربان والإكثار من استيراد الرقيق لاستخدامهم فى الجيش ، وتوزيع الإقطاعات على مقدمى العساكر ، واستيراد العدة والعتاد اللازمين للأسلحة والإمداد والتموين لجيوشه ، ثالثا : قام بعقد العديد من معاهدات التحالف مع مغول القفجاق وسلاجقة الروم للتحالف معهما ضد مغول فارس والأرمن ، وعقد معاهدات صداقة مع أباطرة

بينظنة منذ عام ١٢٦١ لضمان مرور السفارات والتجارة عبر أراضيهم ، ومع حكام مملكة صقلية ليعرف منهم تحركات الأوربيين ضد المسلمين كما كان يفعل الأيوبيين معهم . رابعا : قام بيبرس بتأمين طريق التجارة في البحر الأحمر لضمان وصول موارد أساسية للاقتصاد المصري . والحقيقة أن نجاح بيبرس في تحقيق هذه السياسة جعل الممالك القوة الأولى في المنطقة ، واستطاع توجيه الجيوش - في فترة انشغال المغول عنه - لضرب المدن والقلاع الصليبية في الشام ومملكة أرمينيا الصغرى ، كذلك تمكن من هزيمة المغول بالتحالف مع سلاجقة الروم . للمزيد من التفاصيل أنظر أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٧٩ - ١٩٣ ، ٢٠٢ - ٢٢١ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر . القاهرة - ١٩٦٠ ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

45- Jean Richard , "The Mongols and the Franks " , Journal of Asian History , III , 1969, pp. 52 , 3 ; Boyle , J . A . , The IL - Khans of Persia and the Christian West., " History Today , XXIII , 8 , 1973 , pp. 556 , 7 .

46- G . Borghezio , "Un Episodio delle relazioni tra la Santa Sende ei Mongoli(1274)" in Rome , vol 14 . 1936, p. 370 .

نشر هذا الباحث ذلك التقرير بلغته اللاتينية ولم يترجم حتى الآن حسب علمي - لأية لغة معاصرة، وقد تفضل على البروفيسور الألماني فرنزكو دلباور بترجمته لى إلى اللغة الألمانية ، وقمت بترجمته إلى اللغة العربية ، وأهميته البالغة نشرته ضمن ملاحق هذا الكتاب . .

47- Ibid , pp . 370 , 371 ; Richard , op . cit . III . p. 53 .

48- Paul Meyvaert , " An Unknown Letter of Hulagu , IL - Khan of Persia to King Loius IX of France , " Viator , xi , 1980 , pp. 245-249 .

49- Borghezio , op . cit . , p . 372 .

50- Boyle op . cit . , p. 556 ; Richard , op . cit . , p . 53 .

51- Paul Meyvaert , " An Unkown Letter , " , op . cit . , pp . 240 , 249 .

٥٢- أورد هنري هوارث الترجمة الانجليزية لهذه الرسالة ولكنه أخطأ في تاريخها واسم الراسل وذكر أنه عام ١٢٦١ وأن الراسل هو الباسا الكسنر الرابع (١٢٥٤-١٢٦٣) وهذه المعلومات تم تصحيحها بعد اكتشاف Meyvaert لخطاب هولاكور .

Cf. H. Howorth : History of the Mongols . Vol , III , London, 1888, p. 210 .

53- Howorth , op . cit . III , 210 .

٥٤- رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ ، م ٢ ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٤٠ .

٥٥- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٣٠-٢٣٣ ، المقرئى : السلوك ص ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٤٦ .

Stevenson , W.B. The Crusaders in the East , Beirut , 1968 , pp . 339 , 340 .

٥٦- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص ٢٦٩

٢٧١ ، فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ١١٣ - ١٢٠ .

57- Howorth ; History of the Mongols , III , p. 278 ; Boyle , " The Il - Khans of Persia and the Christian West , " op . cit . , p. 556 .

58- Howorth (trans.) op . cit . , pp . 278 , 9 ;

Boyle , op . cit . pp . 556 , 7 ; Connell , op . cit . , pp. 164 , 5 .

59- Connell , op . cit . , p . 165 .

٦٠- الروض الزاهر ، ص ٣٠٨ ، وكذلك المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٦٧ .

٦١- الروض الزاهر ، ص ٣٢٤ .

٦٢- المصدر السابق ص ٣٢٧ - ٣٢٩ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ ؛

Grigor of Akanc , op . cit , pp . 359 , 60 , 371 , 372 .

63- Tisserant , E . , " Une Lettre de L'Ilkhan de Perse, Abgha adressee en 1268 au Pape Clement IV " , in Le Museon , 59 , 1946 , pp . 547- 556 ; also cf Richard , op . cit p. 53 no 33 ; Meyvaert , op . cit . , pp . 250 , 251 .

64- Boyle , op . cit . , p. 557 ; Connell , op . cit . , p . 166 .

٦٥- تشير أصابع الاتهام لانقياد الملك الفرنسى لرأى أخيه شارل الأنجوى - ملك صقلية حينئذ - الذى أراد تأديب الخفصيين حتى لا يؤذوا المتمردين عليه وحتى يدفعوا له الجزية التى كانوا يدفعونها لأسلافه من قبل. وليس متصورا أن الملك الفرنسى - الذى كان له تجربة سيئة فى مصر من قبل - كان من السذاجة التى جعلته يعتقد أن غزو مصر سيكون سهلا من تونس التى يفصلها عن مصر صحراء طويلة قاحلة .

للمزيد من التفاصيل انظر Powecke , F . M . : King Henry

III and the Lord Eduward . vol . II . Oxford , 1976 , pp. 597 - 599 , Strayer , J . ,

"The Crusades of Louis IX , " in Setton (ed .) A History of the Crusades , II , pp . 513-516 .

66-Powicke , op . cit . , pp. 599 , 600 .

67- Lockhart L . , " The Relations Between Edward I and Edward II of England and the Mongol IL - Khans of Persia " in Iran Journal of Persian Studics , VII , 1968 , p . 24 .

68- Powicke , op . cit . , p. 602 ; Denis Sinor , " The Mongols and Western Europe " , in Setton , A History of the Crusades , III , p . 531 ; Boyle , op . cit . , p. 558 .

69- Cf . King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p. 602 .

70- Loc . cit . , Runciman , " The Crusader States 1243 - 91 " in Setton (ed) A History of the Crusades , II , pp . 582 , 583 .

٧١- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ؛ ص٣٣٩ - ٣٤٢ ، ٤٠٥ - ٤٠٨ ، المقرئى : السلوك ، ج١ ق٢ ص٥٩١ ، ٥٩٤ .

72- Borghezio , op . cit . pp . 361 - 372 . انظر الترجمة العربية لهذه الرسالة فى الملحق الثانى

73- Ibid , pp. 365 , 366 ; Howorth , op . cit . , p . 280 .

74- Borghezio , op . cit . , p. 366 .

75- Howorth (trans.) History of the Mongols , III , p . 280 .

76- Borghezio , op . cit . , p . 366 .

77- Setton : The Papacy and the Levant , vol . I , pp . 126 - 128 ; Throop , Balmer ; A Criticism of the Crusade . Philadelphia 2 nd . ed 1975 , pp . 273 -276.

٧٨- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص٤٣٢ .

٧٩- رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج٢ م٢ ص٦٢ ، ٦٣ ، ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ص٤٥٣ ، ٤٧١ .

80- Howorth , op . cit . , p . 281 ; Connell , op . cit . , 170 .

81- Riley - Smith , J . : what were the Crusades ? London , 1977 , p. 45 .

82- The Chronicle of Bury St Edmunds 1212 - 1301 . Ed & trans .

Antonia Gransden , London , 1964 , p. 63 .

83- Howorth , op . cit . , p. 281 .

84- Cf . A Criticism of the Crusade , p. 280 .

85- Connell : Western Views of the Tartars , p. 171 .

٨٦- الكرج : إشارة إلى سكان مملكة جورجيا المسيحية وفي إقليم القوقاز الآن ، وخضعت لحكم المغول منذ عام ١٢٢٦ م . وكان ملكها هو ديميتري الثاني (١٢٦٩-١٢٨٨) . فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص١٣٧ حاشية ٢ .

٨٧- المقرئى : كتاب السلوك ج١ ، ق٣ ص٦٩٢ .

٨٨- جامع التواريخ ، م٢ ج٢ ص٨٣ ، ٨٤ .

٨٩- تاريخ مختصر الدول ص٥٠٤ .

90- Joseph De Cancy , " A Crusader Letter from the Holy Land " in Palestine ' Text Society . vol . v , part III , p. 12 .

91- The Chronicle of Bury st Edmunds , p. 77 .

٩٢- للتفاصيل أنظر ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ص٧٥ - ٨٠ .

٩٣- أهر الفداء : المختصر فى تاريخ البشر ج٤ ص١٥ ، ١٦ ، المقرئى : السلوك ص٦٩٠-٦٩٩ .

94- Joseph De Cancy , op . cit , p. 11 .

٩٥- نشر الباحث الفرنسى شابو Chabot الأصل اللاتينى لهذا الخطاب مع بقية الخطابات المتبادلة

Cf . Chabot , J.B.

بين أرغون خان والغرب الأوروبى

"Notes sur les relations du roi Argun avec L'Occident , " Revue de L'orient Lat-

in , II , 1894 , pp. 569 - 71 ;

A.C. Moule

وقد نشر الترجمة الانجليزية الكاملة لهذا الخطاب

Cf. Christians in China Before the Year 1550 . London , 1930 , pp. 105-107 .

96- For details cf . Runciman , Steven ; The Sicilian Vespers. Cambridge , 1958 ; Setton
The Papacy and the Levant , I , pp . 134 - 143 , 146 .

٩٧- ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور فی سيرة الملك المنصور ، ص ٣٠ ، ٣١ .

٩٨- المصدر السابق ، ص ٩٢-١٠٣ .

٩٩- رابا صاوما معناها الحبر الصائم (حوالي ١٢٢٥-١٢٩٤) ولد فی مدينة بكين بالصين وكان
نسطوريا . وقد تعلم ودرس كثيرا من الكتب الكنسية . وعندما بلغ العشرين من العمر ، وزع
كل ممتلكاته على الفقراء وأرتدى لباس الرهبان وعاش حياة متقشفة ، وقد حضر هو وصديقه
مارك (مارجبلها فيما بعد أسقف النساطرة فی بغداد) من الصين إلى بغداد فی رحلة طويلة
شاقة بوسائل بدائية فی الترحال وذلك للحج للمدينة المقدسة . ولكنهما استقرا فی فارس منذ عام
١٢٧٩ . واختير مارك لمنصب بطریق النساطرة فی بغداد تحت اسم Jabballah III وعين صاوما
فی عام ١٢٨٠ زائرا متجولا لكل الكنائس النسطورية فی أسيا . واختاره أرغون بناء على
توصية بطریق النساطرة ليكون سفيره لأوربا عام ١٢٨٧ م .

100- Ryan , J . D . : The Interrelation of the Oriental Mission and Crusade Activities
of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 . Unpublished Ph . D . Dissertation .
New York University , 1972 , pp. 16 , 18 .

101- The Monks of Kublai Khan ... or the History of the Life and Travels of Rabban
Sawma . Eng . trans . by wallis Budge . London , 1928 , pp. 172 - 181 .

102- Ibid , pp. 182 , 183 .

103- Ibid , pp. 183 , 185 .

104- Rabban Sawma , Cf . The Monks of KubLai khan , p. 188 .

105- Ibid , pp. 189 , 190 ; Ryan , op . cit . pp . 18-39 .

١٠٦- وقد نشر J. B. Chabot جميع هذه الخطابات (التسعة) نقلا عن السجلات البابوية فی مقاله

الوثائقي المشار إلى عنوانه سابقا Cf . R.O.L. II , 1894 , pp. 575-592 .

وقد ترجم A.C.Moule ثلاثة من هذه الخطابات للغة الانجليزية .

Cf. Christians in China Before the Year 1550 , pp. . 112-115 .

١٠٧- انظر الفصل الثالث من هذا البحث .

108- Chabbot , op . cit .p. 584 ; Moule (Trans.) op . cit ., p. 114 .

109- Cf . The Monks of Kublai Khan , p. 165 .

110- Ryan : The Interrelation of the Oriental Mission and Crusade Activities of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 ; pp . 22-24 .

١١١- انظر ما يلي صفحات ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٣ - ١٨٨ ، ١٩٣ - ١٩٨ .

112- Howorth : History of the Mongols , III , p. 352 .

١١٣- لم تشر المصادر الفارسية من قريب أو بعيد للسفارات المتبادلة بين إيلخانات المغول والغرب الأوربي . والإشارة الوحيدة للاتصالات بين أرغون والغرب جاءت - باستثناء مذكرات صاوما نفسه - في حولية ابن العبري في النسخة السريانية التي أكملها مؤلف مجهول والتي روت « بينما كان أرغون على قيد الحياة فإن سفراء الفرنجة اعتادوا على الحضور له من بابا روما والملوك الآخرين ، ونقلوا له أنه ينبغي أن يقف المغول والفرنجة يدا واحدة ضد المصريين .. وأن أرغون نفسه أرسل الخبر بار صاوما وهو راهب يخوري كسفير عنه للبابا ... وأن الأخير أرسل معه موثائق وتأكيدات أنهم سيهاجمون العرب معا ويدمروا دينهم . وما حدث بعد ذلك هو عكس حساباتهم تماما » .

Cf . The Chronography of Gregory Abu`L - Faraj , Ed & trans . by W . Budge . London ; 1979 , p. 492 .

١١٤- انتهز المنصور تلاوون فرصة اندلاع الحرب بين تجار جنوه وبيزا عام ١٢٨٧ في الموانئ الصليبية ودعوة البنادقة له للاستيلاء على طرابلس - نكاية في منافسيهم الجنوبية في الاستيلاء على طرابلس ، حيث حاصرها بقوات مكونة من عشرة آلاف فارس وثلاثين ألفا من المشاة وتسعة عشر منجنيقا وألف وخمسمائة من الحجارين . وسقطت هذه المدينة بعد أربعة وثلاثين يوما فقط من الحصار في ربيع الآخر ٦٨٨هـ / أبريل ١٢٨٩ ، بعد أن قتل المماليك كثيرا من سكانها وأسروا من لم يستطع الفرار لقبرص للتفاصيل انظر : أبو الفداء : المختصر ج٤ ص ٢٣-٢٤ ، المقريزي السلوك ج١ ص ٧٤٦-٧٤٨ ، Runciman , "The Crusader States , " op . cit . III , pp. 590 .

١١٥- كان بوسكاريللو فارسا في البقاع الصليبية في الشام فضلا عن أنه تاجر جنوى ولكنه سافر

للعمل في خدمة المغول واستخدم أرغون مواهبه العسكرية لحراسة قصره .. Cf . Ryan , op , cit .

116- Chabbot , op . cit . , 614 ; Ryan , op . cit . , 85 .

117-Haenisch , Erich , " Zu den Briefen der Mongolischen IL- Khane Argun und OI-
jectu an den Philipp den Schonen von Frankreich 1289 u .1305" , Oriens , II ,
1949 , p. 220;

Mostaert , A. & F . W. Cleaves, "Les Lettres de 1289 et 1305 " dans Harvard Yench-
ing Institute Scripta - Mongolica : Series I Cambridge , Mass, 1962 , pp . 17 ,18 ;

انظر الترجمة العربية لهذا الخطاب في الملحق رقم ٣ .

118- Chabbot , op . cit . , pp . 612 , 613 ; Howorth , op cit., pp. 551 , 552 ; Ryan , op .
cit., pp . 87 - 89 .

119- Sylvia Schein , " Philip IV and the Crusade : A Reconsideration" in Edbury , Peter
W. (ed.) Crusade and Settlement . Univ . College Cardiff press, 1985 , pp . 121 , 122 .

120- H . Turner " Unpublished Notices of the Times of Edward I , Especially of his Re-
lations with the Moghul Sovereigns of Persia , " in the Ar chaeological Journal .
London, 1851 , vol. . VIII, pp. 48, 49; also cf. Chabbot , op . cit., pp . , 615, 6 ; How-
orth, op . cit . , p. 353; Ryan , op . cit . , pp. 90, 91Sinor, op .cit . , p. 534 .

121- Runciman , op . cit , pp. 594; Ryan , op . cit . , p. 80,81 .

122- Sinor " The Mongols and Western Europe " , op . cit . , III p. 534 .

١٢٣- المقرئى كتاب السلوك ، ج١ ص ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، وأيضاً

Runciman , The Crusader States , " op . cit , II , p. 594 .

124- Ryan, op. cit., pp. 120 , 121 .

125- Chabbot , op . cit . , p. 617 ; Turner , op . cit . , p. 48 ; Howorth , op . cit . , III , p.352;
Ryan , op . cit . , pp. 117 , 118 .

126- Chabbot , op . cit . , p. 618 .

127- The Interrelation of the Oriental Mission , p. 118 .

- 128- Chabbot , op . cit . p. 619 .
- 129- The Chronicle of Bury St Edmunds , p. 97 .
- 130- Powicke : King Henry III and the Lord Edward , II , pp . 727 , 728 .
- 131- Bar Hebraeus : The Chronography , p . 486 .
- 132- Richard , Jean , “ European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12 th - 15 th Centuries) , “ Iran Journal of Persian Studies , vol . VI , p. 49 .
- ١٣٣- للتفاصيل انظر: أهر الفدا : المختصر جزء ص ٢٢، ٢٥، المقريزي : السلوك جزء ص ٧٥٤ ، ٧٦٤ .
- Runciman : A History of the Crusades , III , pp . 410 - 23 .
- 134- Howorth, op. cit., III, p. 353; Chabbot, op. cit., p. 619 ; Boyle , op . cit . p. 561 , Ryan , op . cit ., pp . 135 , 6 .
- 135- Chabbot , op . cit , pp . 619 , 20 ; Howorth , op . cit ., III, pp . 353 , 4 , Boyle , op . cit , p. 561 ; Ryan , op . cit ., pp 136 , 137 .
- 136- For details cf . Turner , “ Unpublished Notices of the Times of Edward I , “ op. cit., p .49 ; Powicke : King Henry III and the Lord Edward , vol ` II , pp . 733 , 35 .
- ١٣٧- انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب صفحات ١٨٩-١٩٣ .
- ١٣٨- تولى الأشرف خليل السلطنة من نوفمبر ١٢٩٠ حتى قتله بيدرا ولاجين في ديسمبر عام ١٢٩٣ م . ثم تولى شقيقه الناصر محمد بن قلاوون - وكان طفلا صغيرا - السلطنة بالاسم فقط من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ م ثم نفاه قادة المماليك لإمارة الكرك . وتولى كتيبغا من ديسمبر ١٢٩٤ حتى نوفمبر ١٢٩٦ م ، ثم دبر بعض قادة المماليك مؤامرة لإقصائه إلى الشام ، وتولى حسام الدين لاجين من نوفمبر ١٢٩٦ حتى قتله بعض المماليك في يناير ١٢٩٩ ، واستدعوا الناصر محمد من منفاه الاختياري لتسلم السلطنة في فبراير عام ١٢٩٩ م .
- ١٣٩- للتفاصيل انظر : فايد حماد عاشور العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ١٤٥-١٤٦ .
- 140- Riley - Smith , J. The Knights of St . John in Jerusalem and Cyprus (1050 - 1310) , pp . 198 , 199 ; Sinor , op . cit , III pp. 533 , 36 .

١٤١- فايد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٩ ، ١٥٨ .

142- Riley - Smith , op . cit . , p. 199 .

١٤٣- كتب دوج البنادقة فى ١٩ مارس عام ١٣٠٠ رسالة للبابا بونيفاس الثامن يبلغه فيها الأنباء التى حملها له التجار البنادقة من قبرص أن المغول قد استولوا على كل الأراضى المقدسة ، وأن هيشوم الثانى ملك الأرمن كان قائدهم ، واعتبرا بجميله ، فان المغول قد أرجعوا تلك البقاع لحوزة المسيحيين ، وينهى الدوج خطابه بتهنئة البابا بأن فترة باهرته قد عاصرت استعادة الأراضى المقدسة ، ويقدم الدوج خدماته للبابا بقوله أنه مستعد كأسلافه لتقديم العون لتلك البقاع ، وأنه منتظر تعليماته فى هذا الشأن .

وفى ١٤ فبراير عام ١٣٠٠ أيضا كتب أحد الرهبان الفرنسيسكان بقبرص خطابا لزملائه فى إنجلترا ويروى لهم تفاصيل استعادة الأرض المقدسة . وفى روايته أن دوافع غازان لذلك كانت للانتقام من دماء المسيحيين فى عكا عام ١٢٩١ م وأن العديد من أفراد الجماعات والهيئات الدينية والعسكرية فى قبرص سبرجعون لمراكزهم الأصلية فى سوريا . Cf . Sylvia Schein , " Gsta . Dei per Mongols 1300 , the genesis of a non - event , " in the English Historical Journal , Oct , 1979 , pp. 814 . 16

144- Ibid , p. 815 .

145- Loc . cit . , Sinor , op . cit . , p . 536 .

146- Sylvia Schein , op . cit . , p. 813 .

١٤٧- من ذلك حولية (p. 155) Bury st Edmunds التى نقلت تحت حوادث عام ١٣٠٠ أن الملك غازان قد جعل ملك أرمينيا رئيسا وقائدا لجيشه ، وتصف هزيمة المالك بصورة مبالغ فيها وتقول " وعجبا فعندما تم تدمير أعداء المسيحيين وشردوا فان الخان العظيم قد أرجع للمسيحيين كل الأراضى التى كانت بحوزتهم من قبل ، وقد تتبعت الباحثة سيلفيا شاين Sylvia Schein هذه الإشاعة فى العديد من الحوليات اللاتينية المعاصرة ، وتنقل عن حولية قولها وأنه قد غزا الأراضى المقدسة ، وأن غازان قد حرر كل الأسرى المسيحيين الذين أسره المالك من قبل . وتقرر حولية ثانية أن غازان قد كتب للبابا من القدس يطلب منه إرسال أساقفه وفلاحين ليستقروا فى الأرض المقدسة ، وتروى حولية ثالثة بأن الخان المغولى طلب جنودا للدفاع عن الأراضى المقدسة ، وقد أشارت بعض الحوليات الألمانية والايطالية إلى أنه قد حدث بالفعل هجرات سلمية

- من أوروبا للاستقرار فى الأراضى المقدسة تحت الحكم المغولى . CF.Ibid, pp . 805 - 808.
- 148- Howorth (trans) . History of the Mongols , III , p. 488 ; Connell : Western Views of the Tartars 1240 - 1340 , pp . 180 , 181 ; Sylvia Schein , op . cit., pp . 818 , 19 .
- ١٤٩- ابن عبد الظاهر : تشرىف الأيام والعصور ، ص١٦٠ وقد أورد بقية نصوص هذه المعاهدة ونسخة اليمين التى حلف عليها الطرفان ص١٥٦ ، ١٦٤ .
- 150- Atiya , Aziz Suryal : Egypt and Aragon ; Embassies and Diplomatic Correspondence Between 1300 and 1330 A. D . Leipzig , 1938 , pp . 17 , 18 .
- 151- Atiya ; Egypt and Aragon , pp. 20 - 25 .
- ولم ىشر الدكتور عزيز سوريال لأمر الاتصالات بين جيمى الثانى وغازان خان .
- 152- Turner , op . cit , pp . 50 , 51 Howorth , op . cit . p. 489 .
- 153- Howorth , op . cit ., p. 489 ; Lockhart , op cit ., p. 29 .
- ١٥٤- للتفاصيل انظر فايد عاشور : المرجع السابق ص١٦٥ ، ١٧٣ ، فايز اسكندر : المرجع السابق: ص١٨٧ ، ١٩٠ .
- ١٥٥- فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص١٧٤ ، ١٧٥ .
- ١٥٦- المرجع السابق ، ص١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٢ .
- 157- Haenisch , op . cit ., pp . 229 , 230 ; Mostaert & Cleaves , op . cit ., pp. 56 , 57 ; Howorth , op . cit ., III , pp . 574 , 575 .
- 158- Sinor , op . cit ., p. 537 ; Boyle , op cit . , p . 563 .
- 159- Howorth (trans) History of the Mongols , III , p . 575 ; also cf . Lockart , op . cit ., p. 30 , Connell , op . cit ., p. 182 .
- ١٦٠- كذلك فعل غازان خان فى مراسلاته مع قادة الغرب الأوربى ومن ثم لم يعرف أحدًا منهم خبر اعتناقه الإسلام إلا بعد وفاته بوقت طويل .
- 161- Howorth , op . cit ., III , pp . 579 , 80 ; Sinor , op . cit ., pp. 528 , 9 ;

فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينيا الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ، ص ٥ ، ٦ .

162- Howorth (trans) History of the Mongols , III , pp . 576 , 577 .

163- Loc . cit . , also cf . Boyle , op cit . , p. 563 ; Sinor , op . cit . , p. 538 , Connell , -op . cit . , p. 181 .

164- Atiya , A.S., " The Crusade in the Fourteenth Century , " in Setton (ed) A History of the Crusades , III , pp. 3-26 .

165- Howorth , op . cit . , III , pp. 602 , 603 ; Connell , op cit . , p. 184 ;

فايز نجيب اسكندر ، المرجع السابق ص ١٩٧ حاشية ٣ ،

166- Howorth , op . cit . , III , p. 603 .

167- Loc . cit . , Sinor , " The Mongols and Western Europe " op . cit . , III , p. 543

١٦٨ - فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١٨٧ ، ١٩٠ .

الفصل الثالث

السياسة الدينية للمغول و جهود البابوية لتنصيرهم

العناصر :

- ١- معتقدات المغول و سياستهم مع الأديان المختلفة .
- ٢- جهود البابوية لتنصير قادة المغول (١٢٤٥ - ١٢٥٤) .
- ٣- سياسة هولاكو مع المسلمين و المسيحيين
- ٤- علاقات الإيلخانيين البوذيين برعاياهم المسلمين .
- ٥- محاولات الغرب الكاثوليكي تنصير مغول فارس البوذيين .
- سفارة صارما للغرب و تبعية كنيسة النساطرة لكنيسة روما .
- بعثة جون مونت كورفينو للمغول .
- جهود الراهب ريكولد مونت كروسي التبشيرية .
- اعتناق غازان الإسلام و أثره على أهل الذمة .
- البعثات التبشيرية في عهد الإيلخانيين المسلمين .
- تقييم إنجازات الرهبان الفرنسيين و الدومنيكان .
- ٦- أسباب فشل البعثات التبشيرية في تنصير المغول .

معتقدات المغول و سياستهم مع الاديان المختلفة : -

كانت الشامانية Shamanism هي الديانة القديمة للمغول الذين كانوا - علي الرغم من أعتراهم بإله عظيم قادر لا يؤدون له الصلوات يعبدون طائفة من الآلهة الدنيا و بخاصة تلك الالهة الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة علي إيدائهم . كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامي التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم علي حياة أعقابهم . و لكي يوفق المغول بين هذه القوي السماوية والعالم السلفي ، فانهم كانوا يلجئون الي الكهنة وهم الشامان Shamans و السحرة أو إلي رجال الطب الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي و سلطان علي عناصر الموتى وأرواحهم وعندما خرج المغول لغزو الشعوب المجاورة في عهد جنكيز خان (ت ١٢٢٧) فإنهم تأثروا بمذنيات هذه الشعوب ، و خرجوا عن بداوتهم الأولى حين وجدوا انفسهم جنباً إلي جنب مع أصحاب الديانات السماوية^(١).

وقد اتفق أن كانت الشعوب التي اختلط بها المغول على أثر غزواتهم تضم بين أفرادها عددا كبيرا من المسلمين والبوذيين والمسيحيين^(٢). وتنافس أتباع هذه الديانات الثلاث الكهري في تحويل أولئك الغزاه إلى دينهم . ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية وتركوا التخريب والتدمير ، ظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى ، فأعفوا رجال الدين منهم من الضرائب ، كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، بل واعتاد الخانات العظام للمغول حضور الاحتفالات الدينية الخاصة بالمسلمين والمسيحيين والبوذيين ضمنا لالتفاف الجميع حولهم وتأييدهم لهم^(٣).

ولقد قامت منافسة حامية بين المبشرين والدعاة من أتباع هذه الديانات لاكتساب المغول إلى دينهم . وكان رجال الدين المسلمون والمسيحيون والبوذيون يقومون بمنظرات دينية مع بعضهم البعض في حضرة هؤلاء الخانات وقادتهم ، لدرجة أن أتباع كل ديانة كانوا يعتقدون أن هذا الخان أو ذاك قد اعتنق عقيدتهم أو أنه على وشك التحول إليها^(٤).

ويذكر ماركو بولو - تأييدا لما سبق - أن قوبيلاي خان (١٢٥٩-١٢٩٤م) كان يحتفل مع المسيحيين بعيدى الميلاد والقيامة في عاصمتهم بكين ، وأنه كان يفعل نفس الشيء في أعياد المسلمين واليهود والوثنيين^(٥). وأن هؤلاء جميعا كانوا يحتفلون بعيد ميلاد الخان الذي كان بوذياً وفي ذلك اليوم - على حد قوله : « يرفع جميع النصارى والوثنيين والمسلمين ومعهم

بقية الناس وجميع الأصناف والأوصاف الصلوات الحارة الصامدة كل إلى ربه أو وثنه أن يبارك المليك ويهبه طول العمر والعافية والرفاهية» (٦).

ومن ثم لم يكن المغول مع ديانه معينة ضد أخرى ، فقد دمروا المساجد ودور العلم الإسلامية في أسيا مثلما خربوا الكنائس والأديرة في شمال أوروبا وشرقها . ولكن لأن الخوارزميين هم أول قوة كبيرة يصطدم بها المغول ، فإن المسلمين قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذى صاحب غزوات المغول . ولهذا فإن معظم المدن الإسلامية في وسط أسيا قد أضحت أطلالا ، حتى أن الفقهاء والأئمة المسلمين كان نصيبهم إما القتل أو الأسر . حقيقة كان هناك من بين حكام المغول - الذين عرفوا بتسامحهم نحو كافة الأديان - جماعة كانت تظهر الكراهية للمسلمين على درجات متفاوتة لأن طريقة الأخيرين فى ذبح الحيوانات والوضوء من المياه الجارية مخالفة لتعاليم جنكيز خان . وفى أحيان أخرى خضع بعض الخانات لتوجهات بعض وزرائهم أو زوجاتهم من القبائل المسيحية . ولكن هذا كله لا يعدو أن يكون أمرا استثنائيا لأنهم استوزروا المسلم والبوذي والمسيحي دون تفرقة بين أحد منهم . وعلى سبيل المثال كان مانجو خان (١٢٥٤-١٢٥٩) يحكم كل منطقة حسب لغتها ودينها ، وكانت أوامره تكتب لكل إقليم باللغة السائدة فيه (٧) .

جهود البابوية لتنصير قادة المغول (١٢٤٥-١٢٥٤):

ولما كانت سياسة البابوية منذ جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١) قائمة على إرسال البعثات التبشيرية من الرهبان الفرنسيين والدومنيكان لكل من المسلمين والإغريق والبلغار والجورجانيين والأرمن والنساطرة لتحويلهم للمسيحية على المذهب الكاثوليكي ، فإن خليفته انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) قد ارسل - كما سبق الإشارة - حنا الكاريني ولورانس البرتغالى من جماعة الفرنسيين وآسيلين اللوباردى وأندريه لونجيجيموه من الدومنيكان فى بعثات للشرق الأسيوى من أهدافها دعوة حكام المغول ورعاياهم لاعتناق المسيحية ، وكذلك حث رجال الدين النساطرة والإغريق والأرمن والجورجانيين لتوحيد كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم فى روما (٨) . وقد اتضح من دراسة الرسائل المتبادلة بين قادة المغول والبابوية وكذلك تقارير هؤلاء الرهبان مدى الفجوة بين الطرفين ، لأن كلا منهما كان يدعى السمو على الجانب الآخر والسيادة العالمية وكلاهما يدعى أنه يمثل السماء على الأرض وأن قرارته لها صفة القداسة .

وقد حاول لويس التاسع فترة وجوده بالشرق العربى أن ينجح فيما فشلت فيه البابويه .
ففى نهاية عام ١٢٤٨ م أرسل سفيره الراهب أندريه لوجيجيمو لقادة المغول رداً على سفارتهم
له . ويقول جوفانفيل مؤرخ لويس أن الأخير " حملته رغبته اجتذاب التتار إلى ملتنا على
إصدار أمره بتصوير جميع تعاليم ديننا على كنيسة صغيرة أمر بأن تكون قمرزية ، وأعنى
بذلك بشارة الملائكة بالولادة ، والميلاد ، والتعميد ، وجميع الأحزان ، ونزول الروح القدس .
وأرسل كذلك مع المحارب مجموعة من الأكواب والكتب وجميع الأشياء اللازمة لتربتيل
القداس ، واثنين من الإخوة المبشرين لتلاوة القداس أمام التتار ^(٩) . ولكن المغول سخروا من
هذه السفارة ولم يستجيبوا لدعوة الملك الفرنسى باعتراف المسيحية ، بل أرسلوا له خطاباً
للحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة لهم . ومن ثم فإن لويس التاسع « ندم أشد الندم على
إرساله رسلاً إليهم » على حد قول جوفانفيل نفسه ^(١٠) .

وقد استطاع الراهب الفرنسيسكانى وليم روبروك (١٢٥٣-١٢٥٥) التوغل بين ظهرانى
المغول فى روسيا حتى وصل للعاصمة قراقورم فى منغوليا لبحث قادة المغول على التنصر .
وكان يحدوه الأمل فى أن يسمحوا له بالبقاء بين ظهرانيهم للتبشير بالإنجيل . وقد شرح هذا
الراهب لماجوخان بأن من واجباته « تعميم الناس بأن يعيشوا وفقاً لشريعة الرب .. » وقال له
أيضاً . وأنت رجل قد أعطاك الرب ممالك شاسعة على الأرض ، ولهذا فنحن نرجو أن تعطف
علينا بالسماح لنا بالبقاء هنا فى بلادك كى نقوم بخدمة شئون الرب نيابة عنك وعن زوجاتك
وأولادك . ونحن لاثمك ذهباً ولافضة ولامعادن نفيسه لنقدمها هدية لك ، ولكننا نملك فقط
أنفسنا التى نقدمها لخدمة الرب والدعاء له من أجلك ^(١١) . ومع ذلك فإن الخاقان المغولى
رفض السماح للراهب الفرنسيسكانى بالبقاء فى مملكته ، وطلب منه الرجوع من حيث أتى بعد
أن زوده بخطاب للملك الفرنسى لايختلف فى لهجته المتعالية الأمرة عن خطابات سابقيه
للأخير وللبابوية ^(١٢) .

سياسة هولاكو مع المسيحيين والمسلمين إبان غزوه لغرب آسيا :

ولكن نتيجة الدور الذى لعبه ملك أرمينيا الصفرى لصالح المسيحيين الشرقيين وحصوله
على امتيازات لهم من السادة الجدد لآسيا ، فإن هولاكو فى الفترة الأولى لوجوده بغرب
آسيا - لإخضاع الخلافة العباسية والشام لحكم المغول - كان يعطف على المسيحيين . وتمثل
ذلك فى حمايتهم والابقاء على كنائسهم ، أى أنه لأول مرة فى الحملات المغولية يبدو العامل
الدينى مؤثراً فى سير الأحداث وذلك لعدة أسباب منها :

أولاً : أن زوجة هولاكو « دوقوز خاتون » كانت طبقاً لرواية رشيد الدين الهمذاني « تتمتع عنده بمنزله كبيرة ، كما كانت قرية الشخصية وكانت من أقوام كريت المسيحيين ، وكانت تعمل دائماً على مؤازرة المسيحيين ، وفى عهدها قوى حال تلك الطائفة ، وكان هولاكو خان يرعاهم ويعززهم إرضاءً لها . وقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يقيمون الكنائس فى جميع الممالك . كما كانت هناك كنيسة داخل خيمة هذه الزوجة فى جميع رحلاتها » (١٣).

ثانياً : أنه بمقتضى الامتيازات المكتوبة التى حصل عليها هيثوم الأول من الخاقان الأعظم عام ١٢٥٤م بحماية المسيحيين وكنائسهم وإعفاء رجال الدين منهم من الضرائب (١٤)، كان طبيعياً أن يضع هولاكو هذه الأمور بعين الاعتبار عند تعامله مع هذه الطائفة ومتعلقاتهم .

ثالثاً : وجود قوات من الأرمن والجورجانيين وكذلك من المسيحيين النساطرة من الصين ومنهم كثير من قواد جيش هولاكو - ومنهم كتبغا قائد الأخير فى عين جالوت - يقاتلون جنباً إلى جنب مع المغول ضد المسلمين . ولكل هذه العوامل فان هولاكو وقواده مالأوا المسيحيين على حساب المسلمين .

ويرى أن هولاكو قبل وصوله إلى بغداد قد أرسل إلى رجال الدين المسيحيين فى غرب آسيا رسالة جاء فيها : لدينا أعداد كبيرة من المسيحيين بين عشائرننا . وقد جئنا بقوتنا وسلطاننا معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبودية ، ومن الضرائب التى فرضها عليهم المسلمون . ومعلنين ضرورة معاملة المسيحيين معاملة تليق بهم ، فلا يعتدى عليهم ولاعلى تجارتهم . ونحن نصرح باننا سنعيد بناء جميع الكنائس التى خربها المسلمون » (١٥).

وإذا صحت نسبة هذه الرسالة لهولاكو ، فيبدو أنها بإيعاز من ملك أرمينيا الصغرى لاستمالة النساطرة واليعاقبة المتواجدين بأقليات لها وزنها فى إيران والعراق وسوريا لصفوف الغزاة ضد المسلمين .

ويقرر ابن العبرى فى النسخة السريانية لحوليته ، أن جاثليق النساطرة فى بغداد قد جمع مسيحي المدينة - أثناء عبث جنود هولاكو بها وقتلهم لأهلها - فى الكنيسة ولم يتعرض لهم أحد بسوء (١٦). ويؤكد ذلك أيضاً ابن الغوطى البغدادى المعاصر لهذه الأحداث ، ويضيف أن جاثليق النساطرة كان أحد الذين تفاوضوا مع هولاكو نيابة عن الخليفة للجللاء عن المدينة

ولكن الغزاة «قتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال فلم يبق من أهل البلد - (بغداد) - إلا القليل ماعدا النصارى فانهم عين لهم شعان (أى حراسة) وحرسوا بيوتهم» (١٧). ونكاية فى المسلمين فان هولاء أعطى بطريق النساطرة دار وزير الخليفة العباسى على شاطئ نهر دجلة فسكنها «ودق الناقوس فى أعلاها وأمر بهدم الكتابة على دار الفلك وكتب عوضا عنها بالسريانى» (١٨).

ولقد استشرت سياسة تأليب المسيحيين على المسلمين فى حملة المغول على الشام عامى ١٢٥٩ / ١٢٦٠ م . فبعد سقوط مدينة حلب فى يد الأخيرين فانهم لم يتعرضوا لكنيسة اليعاقبة بها فى حين حرص هيثوم الأول على إحراق جامع حلب بيديه . وبعد تسليم دمشق طواعية للغزاة فان هيثوم الأول ويوهيموند السادس طلبا من كتبغا - القائد المغولى النسطورى - إغلاق مساجد دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس (١٩). ويروى المقرئى فى هذا الشأن : «واستطال النصارى بدمشق على المسلمين وأحضروا فرمانا من هولاء بالاعتناء بأمرهم ، وإقامة دينهم فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات وصبروه على أبواب المساجد . وألزموا أرباب الخوانيت بالقيام (لهم) إذا مروا بالصليب عليهم . وأهانوا من أمتنع عن القيام للصليب ، وصاروا يرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم ويخطبون فى الثناء على دينهم ... فقلق المسلمون من ذلك وشكوا أمرهم لثائب هولاء (كتبغا) فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم» (٢٠).

ومن المؤكد أنه من أسوأ الآثار التى أحدثها المغول فى غرب آسيا - بعد القتل والدمار الذى أحدثوه فى كل مكان نزلوا به - هو إشعال الفتنة بين المسلمين والمسيحيين بتحريضهم للأخيرين ضد المسلمين . لأن المسلمين لم ينسوا ما فعله المسيحيون بهم فترة الغزو المغولى ولهذا فبمجرد علم أهل دمشق بهزيمة المغول فى عين جالوت فانهم «بادروا إلى دور النصارى فتهبوا ، وخبروا ما قدروا على تخريبه ، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وأحرقوها وقتلوا عدة من النصارى» (٢١). وسنرى فيما بعد أن الأغلبية المسلمة قد كالت الضربات للمسيحيين كلما لاحت لهم الفرصة سواء فى فترات ضعف حكام المغول أو تراخى قبضتهم المركزية أو بعد اعتناقهم الإسلام .

ومع ذلك فإنه ينبغي عدم المبالغة فى تصوير تحيز هولاكو للمسيحيين على حساب المسلمين فبالإضافة إلى أنهم كانوا أقلية - بدليل أن كل مسيحي بغداد تم جمعهم فى كنيسة واحدة فقط فترة عبث جنود هولاكو بالمدينة فى حين أن المغول قد قتلوا قرابة مليون مسلم - فإن هولاكو لم يكن بحاجة عسكرية لهم . وأيضاً لم يكونوا وحدهم هم الذين مالأوا هولاكو ضد الخليفة فى ضوء معرفتنا أن زعماء الشيعة وغيرهم من قادة الإمارات الإسلامية فى إيران والعراق وبلاد الشام قد ساعدوا هولاكو - لسبب أو لآخر - ضد الخلافة . وفضلاً عما تقدم فإن هولاكو قام بتعيين شخصيات إسلامية مثل ابن العلقمى وفخر الدين الدامغانى وعلاء الدين عطا ملك الجوينى ونصير الدين الطوسى ، وغيرهم فى المناصب الرئيسية فى الديوان والوزارة والخراج والأوقاف^(٢٢) . وكان بإمكانه تعيين شخصيات مسيحية لو كان متحيزاً ضد الإسلام لأسباب دينية ، وفوق هذا وذاك، فإن هولاكو - المعروف عنه أنه كان بوذياً - لم يكن موجوداً ببلاد الشام إبان اعتداءات المسيحيين على المسلمين . ويروى أبو شامة أنه ما إن علم بحرق الأرمن لجامع حلب حتى قتل كثيراً منهم جراً ما اقترفت أيديهم^(٢٣) .

علاقة الإيلخانيين البوذيين برعاياهم المسلمين :

وقبل دراسة علاقة إيلخانات فارس البوذيين بالمسيحيين عامة والبعثات التبشيرية الكاثوليكية خاصة يجدر الإشارة فى إيجاز شديد لأبرز ملامح علاقاتهم بالمسلمين الذين كانوا يشكلون الأغلبية الكاسحة من الرعية، وذلك لفهم الصورة الكاملة للموقف ودوافعهم من ذلك.

فلأول مرة فى التاريخ الإسلامى يتعرض جزء كبير من العالم الإسلامى (مثلاً فى العراق وإيران وآسيا الصغرى وبلاد ما وراء النهر) للخضوع لحكام غير مسلمين . وهؤلاء كانوا يشكلون مع قوادهم وجيوشهم طائفة قليلة من السكان . ولأن المغول لم يكن لهم ديانة سماوية فإنهم لم يتدخلوا فى معتقدات الرعايا . بل تركوا لكل طائفة حريتها الدينية ، ونظراً للتفاوت الحضارى الكبير بين بداوة الحاكمين ومدنية المحكومين ، فقد نشأ عن ذلك أنبقى المغول يمثلون طبقة عسكرية حاكمية منعزلة - فى كل بيئة تعيش فيها - عن المحكومين الذين لا يهتمهم منهم سوى الطاعة ودفع الضريبة .

ولقد سعى هولاكو لكسب رضا المسلمين بعد استقراره فى الحكم ، فأمر بإعادة الوظائف الدينية إلى سابق عهدها كالقضاء وتعيين الأئمة والخطباء فى المساجد ، وتطبيق أحكام

الشريعة الإسلامية في المعاملات كما كان متبعاً في عهد الخلافة ، وفوض شئون الأوقاف إلى الناصر الطوسي الذي استعان به للعمل على تأكيد شرعية الحكم المغولي في نظر الرعية ، وأبقى على الشهادتين على أحد وجهي العملة ، ووضع اسم الایلخان والخاصان على الوجه الآخر (٢٤).

واستمر ابنه وخليفته أيلغا (١٢٦٥-١٢٨٢م) على سياسة المهادنة والاعتدال التي اتبعها أبوه في سنواته الأخيرة ، فقد منح ثقته لوزير أبيه الجويني شمس الدين ، وفوض أخاه عطا ملك حكم العراق ، وأطلق يده في إعمارهِ ، واندفع الأخير بدوره لتنفيذ ذلك مستغلاً تفويض الایلخان . فخفف عن الرعية ، واهتم بكل ما يؤدي إلى تقوية الإسلام من إعمار بيوت الله وتأمين طريق الحجاج ودعوة الناس إلى الحج ، ومحاربة الزندقة ودعاة الإلحاد ، والإلفاق على العلماء ، الأمر الذي أدى إلى عبز ميزانية العراق من جراء هذه الأعمال (٢٥).

وقد استعاد المسلمون مكانتهم في عهد تكودار أحمد (١٢٨٢-١٢٨٤) الذي كان أول ایلخان مغولي من ورثة هولاكو يعتنق الإسلام ، والذي وقف المسلمون إلى جانبه في صراعه على العرش مع ابن أخيه : أرغون . وبالرغم أن الایلخان الجديد لم يكن قادراً على جعل الإسلام ديناً رسمياً للدولة ، إلا أنه سعى لتطبيق تعاليمه وتثبيت قواعده . وكان أول عمل قام به بعد توليه السلطة أن بشر أهل بغداد في رسالة وجهها إليهم « بأنه مسلم مثلهم ، وأنه سيعمل على تطبيق قواعد الإسلام وأن عليهم أن يفرحوا وينشروا ذلك بين الناس » (٢٦).

وقد أظهر السلطان تكودار أحمد نتيجة إسلامه رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ونبد الخصام والشقاق مع المماليك وتبذلت السفارات بين الطرفين (٢٧). وربما ترجع الخطوة الأخيرة لأهداف سياسية تأميناً لحدوده الغربية ليتفرغ لخصومه في الداخل ولكن مقتله على يد ابن شقيقه أرغون أوقف مشروع الصلح مع المماليك وأجل مؤقتاً انتشار المد الإسلامي بين صفوف القوات المغولية .

ولقد تعرض المسلمون للاضطهاد في عهد أرغون (١٢٨٤-١٢٩١) بسبب تحزبهم والتفافهم حول منافسه تكودار أحمد ، وبسبب انتصارات قوات المماليك المسلمين على جيوش والده عدة مرات وكذلك لتأثير الحاشية المسيحية واليهودية المسيطرة على بلاطه ودفعها إياه للانتقام من رعاياه المسلمين ، خاصة وقد أرسل هذا الایلخان أربعة سفارات للغرب الأوربي لطلب عون قاداته ضد المسلمين .

وقد بدأ أرغون بآل الجورنى ، فقتلهم وجميع أبنائهم وأحفادهم وكل من كان متصلا بهم ، وذلك لأن شمس الدين الجورنى كان يشغل وظيفة صاحب الديوان فى عهد سلفه ومنافسه تكودار أحمد (٢٨). وبدأ أرغون يصفى المسلمين ، فلم يبق أحدا منهم فى البلاط ثم لاحقهم فى دوائر الدولة الأخرى واستبدلهم بآخرين من المسيحيين واليهود ، حتى أنه استوزر يهودا من تفلينس- باقليم جورجيا الصغرى - للإشراف على تركات المسلمين ، وهى وظيفة اسلامية. وكانت خطوته الثانية التشكيك فى الإسلام ، فبينما كان نوابه فى العراق يقومون بتعطيل المدارس والمساجد وهدمها لاستخدام أحجارها فى بناء قصورهم تشجع بعض أهل الذمة المستترين فى الإسلام على التآليف للطعن فى الإسلام حيث قام ابن كمنه اليهودى بتأليف كتابه فى العلل الثلاثة (٢٩). ثم جاءت الخطوة الأخيرة لمحاولة تحويل المسلمين إلى عبادة الفرد عندما أقنعه وزيره اليهودى سعد الدولة بنبوة جنكيز خان ووراثه أرغون لهذه النبوة وبوجوب الطاعة لأوامره وعبادة الناس له وتوجيههم نحو الإخلاص للإلخانية (٣٠). وقد تعرض أرغون ووزيره اليهودى لكراهية مطلقة من الرعية المسلمين وتناقلوا ذلك فى أشعارهم (٣١).

وعندما مرض أرغون مرضا لا شفاء منه فان سعد الدولة حاول التقرب من المسلمين بعمل إصلاحات عاجلة لرأب ما تصدع فى علاقتهم به ، ولكن خصوصه نجحوا فى قتله فى ٩ مارس عام ١٢٩١م قبيل وفاة أرغون نفسه بعدة أيام ، وتبع ذلك قيام المسلمين بالتنكيل باليهود فى أنحاء الإلخانية حتى أن مائة من زعمائهم قد قتلوا فى بغداد وحدها وأنشد أحد الشعراء المسلمين قصيدة للتشفى منهم بهذه المناسبة (٣٢).

وانتفش المسلمون بوفاة أرغون واستعادوا قوتهم وتأثيرهم على الحاكمين الذين أعقباه بالرغم من بقائهما على وثنيتهم . فقد اقتفى كيخاتو (١٢٩١ - ١٢٩٤م) سياسة والده ابغا فى الاعتدال بين طوائف الرعية ، وأعاد المسلمين إلى الوظائف ، وجعل الوزارة فى أيديهم . وأعفى العلماء ورجال الدين وآل البيت من الضرائب ، ووزع الأموال والصدقات على المحتاجين ، حتى أن فقهاء من المسلمين اجتمعوا مع بقية رجال الدين من الطوائف الأخرى وصلوا من أجله ودعوا له بالشفاء عندما سقط مريضا (٣٣).

ولم يكن هوى بايدو (١٢٩٥م) مع المسلمين . ولكن قوتهم وانتشار الإسلام بين المغول فرض عليه التزام جانب الحذر فى علاقته بهم ، فأبقى الوزارة فى أيديهم واضطر للتظاهر بحبه للمسلمين ولكن بيته كان مسيحيا متعصبا ، واضطر فى بعض الأحيان إلى منع الرعايا

المسلمين من ممارسة عملهم بين المغول الأمر الذى أوقعه فى نزاع مع أمراء المغول المسلمين^(٣٤) الذين انتهى بهم الأمر إلى الالتفاف حول غازان بن ارغون وقيامهم على بايدو ، فكان مقتله عام (١٢٩٥م) نهاية لوثنية الحكم المغولى .

محاولات الغرب الكاثوليكي لتنصير مغول فارس البوذيين:-

أنقذ البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) أول بعثته تبشيرية من الرهبان الفرنسيسكان إلى بغداد عام ١٢٣٣م . وفى نفس العام أصدر عدة قرارات بشأن التبشير بالعقيدة المسيحية فى العراق وآسيا الصغرى والشام ومصر وجورجيا المسيحية والمغرب^(٣٥) .

وبروى الراهب «وليم روبرك» فى مذكراته التى كتبها عن رحلته فى المملكة المغولية (١٢٥٣-١٢٥٥) : أنه تقابل فى إقليم جورجيا الصغرى مع عدة رهبان منهم راهب دومنيكانى يدعى برنارد القطلاتى Bernard The Catalan وفهم من الأخير أنه يعمل مع رفيق له من المجر فى مدينة تبريز الفارسية وأنه يعرف قليلا من لغة التتار^(٣٦) . ولم يوضح وليم روبروك ما إذا كان الأخيران حضرا إلى تبريز من غرب أوروبا للتبشير بالعقيدة المسيحية أم أنهما من الأسرى الأوربيين الذين أسرهم المغول من أوروبا فى الفترة من ١٢٣٧-١٢٤١م وقام قادة المغول بتوزيعهم على قادة المغول فى آسيا .

ومهما يكن من أمر فانه أثناء وجود هولاكو ببلاد الشام عام ١٢٦٠م أرسل بطريرك بيت المقدس فى عكا الراهب الانجليزى الدومنيكانى ديفيد الأشبى David of Ashby لمعرفة نواياه تجاه الصليبيين ودعوته لاعتناق المسيحية . وتوضح الوثيقة التى قرأها سفير ابغا خان فى مجمع ليون المسكوتى عام ١٢٧٤م أن هولاكو قد احتجز هذا الراهب ورفاقه فى بلاطه حتى وفاته ، وأنهم ظلوا فى حضرة أبغا عام ١٢٧٤م ، وأن هولاكو كان «يبوح بأسراره إلي هذا الراهب ديفيد صديقه الحميم . ولم يكن يبوح بمثل ذلك لأى إنسان آخر مثل اعتناقه للدين المسيحى وحصوله على التعميد»^(٣٧) .

وقد سبق الإشارة إلى أن إدعاء تعميد هولاكو على يد ديفيد الأشبى كان مبالغة مقصودة من هذا الراهب لجذب تأييد الغرب الأوروبى إلى خليفته . وسواء كانت هذه الإدعاءات من جانب هذا الراهب أو بأوامر من ابغا نفسه ، فان هذا الأمر كان سياسة ثابتة لخلفاء هولاكو بايهام الغربيين باعتناقهم المسيحية أو على وشك ذلك نظرا لإلحاح قادة الغرب الكاثوليكي

بضرورة تعميم حكام المغول كشرط للتعاون العسكرى معهم حتى أن الإيلخانيين المسلمين (١٢٩٥-١٣٣٥م) قد بذلوا جهدهم لإخفاء حقيقة معتقداتهم الدينية عن الغرب. ومن ثم ظل الأخيرون يلحون فى تنصر هؤلاء الإيلخانيين حتى بعد ربع قرن من اعتناق غازان الإسلام وإعلانه الإسلام الدين الرسمى لدولته .

وتؤكد الوثيقة السابقة أن هولاكو وخليفته قد ضمنا للمسيحيين فى ايلخانية فارس العيش فى سلام ، وأنهما أمرا باعفاء كل رجال الكنائس من الضرائب والأتاوات وضمنا كذلك لجميع الكنائس حريتهم (٢٨). وهذه أمور يؤكد بها ابن العبرى ورشيد الدين أيضا .

ولا مرأ أن المسيحيين قد تمتعوا تحت حكم الإيلخانيين البوذيين بحرية لم يعهدوها من قبل. وقد عاملهم المغول على قدم المساواة مع المسلمين ، بل وفضلوهم على الأخيرين فى بعض الوظائف فى بعض الفترات مثل الفترة الأولى لحكم هولاكو وطوال عهد أرغون خان وأصبحت المحاشية الإيلخانية تضم عددا كبيرا من أهل الذمة ، وكان الإيلخانيون كثيرا ما يستدعون رؤساءهم ويشركونهم فى مجالسهم الخاصة ، ويناقشونهم فى شئونهم الدينية مظهرين لهم الاحترام . وقد ساهم بعض الإيلخانيون أو محلوهم فى تنصيب رئيسهم الأعلى (الجاثليق) فى احتفالات رسمية تقم تحت رعايتهم ، وهذا يزيد كثيرا عما كان عليه الحال فى عهد الخلافة العباسية حيث كان البطريق يتسلم مرسوم توليه من الوزير نيابة عن الخليفة وكان يتضمن رأى الإسلام فى ديانتهم ومكانتهم من المسلمين (٣٩).

ويعلل البعض هذه الرعاية إلى تأثير نساء الإيلخانيين المسيحيات اللواتى كن يفرضن هذه الحماية لمصلحة المسيحيين ، فقد كان هولاكو يستمع إلى نصائح وتوجيهات زوجته النسطورية «دوقوز خاتون» والتى استمر نفوذها فى عهد أبغا الذى يعترف بفضلها عليه فى وصوله إلى العرش ، وخضع الأخير بالإضافة إلى ذلك لتأثير زوجته ماريا ابنة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس التى كانت قد خطبت لهولاكو قبيل وفاته وتزوجها أبغا عند وصولها (٤٠). ولكن من الواضح أن المصلحة السياسية - وليست العاطفة - هى التى كانت تقمى هذا السلوك المغولى وتخطط له ، وذلك لأن مجاملة الإيلخانيين للمسيحيين كانت تنتهى عندما تتعارض مع مصالحهم .

وقد فهم البابا من جون الهنغارى - سفير هولاكو للغرب الأوروبى عام ١٢٦٢م - أن الإيلخان يرغب فى اعتناق الدين المسيحى ، ومن ثم فهو بحاجة لشخص ذى حيثية لتعميده.

ويبادر أوربان الرابع بمباركة هذه الخطوة مؤكدا لهولاكو أنه وكل رعاياه «الذين سيتبعونه سوف ينالوا المثوبة فى الآخرة إذا ما نالوا المعمودية» ^(٤١)، ولكن هولاكو لم يتقدم خطوة واحدة نحو طلب المعمودية كما هو معروف .

وفى خطوة جديدة فى العلاقات بين الشرق المغولى والغرب الأوربي ، يطلب قوبيلاي خان عام ١٢٦٩م من البابوية إرسال مجموعة من رجال الدين لبلادها ، ويصف ماركو بولو تفاصيل سفارة الخان الأعظم للمغول ومفادها أن نيقولا بولو وما فيو بولو - والد ماركو بولو وعمه كانا فى يكين فى خدمة قوبيلاي خان (١٢٥٩-١٢٩٤م) منذ فترة طويلة حين طلب الأخير منهما أن يصحبا أحد رجاله المدعو خوجلتال فى بعثته للكرسى البابوى بروما لتقديم «التماس للبابا بارسال مائة من رجال العلم الذين أوتوا المعرفة التامة بمبادئ الديانة المسيحية» ^(٤٢).

وعندما وصل نيقولا وما فيو بولو لعكا فى أبريل عام ١٢٦٩ علما بوفاة البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨) . وعند ارتقاء جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) للكرسى البابوى فانه أعاد إرسالهما برسائل من لدنه مع راهبين من الفرنسيسكان على درجة عالية من التعمق فى اللاهوت هما نيقولودا نيكينزا Niccolo de vigenza ووليم الطرابلسى - William of Tripoli وأعطى البابا للأخيرين الرخصة والسلطة لرسم القسس والتبشير بالعتيدة بين المغول، وزودهما بهدايا ثمينة للخاقان المغولى فى يكين . ولكن عند وصول هؤلاء الراهبان بصحبة آل بولو لأرمينيا الصغرى فانهم وجدوا أن قوات المالك قد ألحقت بها الدمار والخراب ، ومن ثم خشى الراهبان على حياتهما وفضلا البقاء فى أرمينيا ^(٤٣). فرحل آل بولو إلى يكين لمقابلة قوبيلاي حيث استقروا هناك سبعة عشر عاما أخرى (١٢٧٥-١٢٩٢م) . وهكذا ضاعت على البابوية فرصة كبيرة للتبشير بالمسيحية بين المغول فى شرق اسيا تحت حماية الخاقان الأعظم وإشرافه ، ويلقى ماركو بولو اللوم على البابا بقوله «لو أن البابا أرسل أشخاصا ذوى قدرة وافية على التبشير بالانجيل ، لاعتنق الخان الأعظم المسيحية» ^(٤٤) .

ولكن هذا الطلب من قوبيلاي خان لم يكن مرجعه الرغبة فى اعتناق المسيحية أو انتشارها بين رعاياه . ولكنه يرجع لدوافع سياسية بحتة . فقوبيلاي خان الذى كان بوذيا ومات كذلك ، أوضح لآل بولو أنه يقدم الاحترام والتكريم لإله كل المسلمين والمسيحيين واليهود والوثنيين دون تفرقة بين أحد منهم « وادعو لتجدنى أيهم كان فى السماء هو الأعلى حقا » ^(٤٥). بالإضافة إلى ذلك فان ماركو بولو يكشف عن سبب تعلق الخاقان المغولى باستقدام الأجانب

لقصره بقوله : « وينبغي أن يفهم أن الخان الأعظم - نظرا لأنه لم يحصل على السيادة فى كائاي (الصين) بأى حق قانونى ولكن بحد السيف وحده - كان عديم الثقة بالسكان ، ومن ثم أسلم جميع وظائف الحكم فى الولايات وجميع الرياسات للتتار والمسلمين والمسيحيين وغيرهم من الأجانب ممن يدبنون بالولاء والانتماء لأسرته وقصره وهم من يمكنه أن يشق فيهم ، ونتيجة لذلك امتلأت قلوب السكان كافة بالكراهية لحكومته .. » (٤٦). ولهذا كان قوبيلاي - الذى جرب مهارة آل بولو فى العمل لديه - أراد استقدام مائة موظف جديد من أوروبا لتدبير شئون ملكه وكونهم من الرهبان ليجمعوا قلوب رعيته حوله .

وينطبق هذا إلى حد ما على مغول فارس الذين لم يشقوا فى رعاياهم المسلمين ، ولكن لأنهم لا يستطيعون تسيير الجهاز الإدارى للإيلخانية المترامية الأطراف كانوا مضطرين للاستعانة بخاصة المسلمين فى تولى أعمال الوزارة والدواوين ، ولعدم ثقتهم فيهم فإن جميع الوزراء - عدا واحدا فقط هو على باد شاه فى عهد أبى سعيد - قد ماتوا مقتولين (٤٧).

وفى أحيان كثيرة كانوا يقتلون أبناءهم وأحفادهم وجميع من ينتمى إليهم، وكان منهم وزيرهم رشيد الدين الهمذانى الذى تولى الوزارة لثلاثة إيلخانيين ، وهذا يفسر استعانة كثير من الإيلخانيين البوذيين بالمسيحيين واليهود فى الوظائف الهامة ، وفتحوا بلادهم أيضا للرهبان الكاثوليك وللتجار الإيطاليين للاستعانة بهم فى إحداث التوازن مع الأغلبية المسلمة. وقد مر بنا أن أرغون خان كان يستخدم أحد الجنوبيين لحراسة قصره وكان يسثيره فى المسائل العسكرية نظرا لعدم ثقته فى رعاياه .

وبهمنا من أمر سفارة أبغا خان لمجمع ليون عام ١٢٧٤ م أنها كانت مكونة من ستة عشر عضوا على رأسهم الراهب ديفيد الأشبى . وأنه فى يوم ٧ يولية وفى نهاية الجلسة الرابعة لأعمال هذا المجمع فإن البابا قدم سفراء الخان المغولى للحاضرين حيث تليت رسالة الأخير أمام الحاضرين باللغة اللاتينية ، وأن ثلاثة من سفراء المغول قد طلبوا من البابا تعميدهم ، وقد قول هذا التصرف « الاعلامى » المقصود بترحيب عام من ممثلى كنائس أوروبا بل وتشير إحدى الحوليات الايطالية إلى أنه قد سرت إشاعة - حينئذ - مفادها أن أبغا خان سيحضر لروما للتعديد على يد البابا وتلقى التاج من الأخير شخصيا (٤٨).

وقد أرسل البابا نيقولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨١) فى عام ١٢٧٨ خمسة من الرهبان الفرنسيسكان فى بعثة تبشيرية للمغول ومعهم خطابات للإيلخان المغولى فى فارس وعمه

قوبيلاي خان فى بكين لتعميدهما بناء على معلومات وصلت البابوية من سفارة لأبغا عام ١٢٧٦م بأنهما يرغبان فى اعتناق المسيحية . ويكرر البابا العبارات المتداولة فى خطابات أسلافه وخلفائه لقادة المغول بأنه أرسل لهما هؤلاء الرهبان لضمان خلاصهما ومثوبتهما فى الآخرة ، ويطلب منهما السماح للأخيرين بالتبشير بين الرعية ^(٤٩) . وفى خطاب لهؤلاء الرهبان فان يقولوا الثالث يخولهم كل الصلاحيات فى التعميد وحل جميع المقطوعين من رحمة الكنيسة والراغبين فى العودة لحظيرة الطاعة - ويقصد النساطرة واليعاقبة - وقبول اعتراف المذنبين والتائبين وحلهم من ذنوبهم فى حالة تقديم الترضية للكنيسة أو للأديرة الكاثوليكية أو للأشخاص الذين أضيروا منهم . ويعطيهم البابا أيضا سلطات إنشاء الكنائس فى كل مكان داخل المملكة المغولية وإقامة القداس وسائر التراتيل والخدمات الدينية « والقيام بكل عمل من شأنه تمجيد اسم الرب ونشر العقيدة » ^(٥٠) .

وليس معروفًا على وجه التحديد ما إذا كانت هذه البعثة التبشيرية قد وصلت إلى ايلخانية فارس من الأصل أم لا ولكنه تؤكد على وجه اليقين أنها لم تصل للصين فضلًا عن أن أبغا وعمه لم يعتنقا المسيحية أبدًا .

سفارة صاوما للغرب وولاء بطريق النساطرة لروما :-

لقد كانت سفارة رابان صاوما للغرب الأوربي (١٢٨٧-١٢٨٨م) نائبا عن أرغون خان إحدى الفرص الفريدة من نوعها فى تاريخ العصور الوسطى للتقارب الدينى بين المسيحيين الشرقيين وبين البابوية باعتبارها ممثلة للعالم الكاثوليكي . ورغم أن ايلخان المغولى قد أرسل هذا الراهب النسطورى لأهداف سياسية بحتة إلا أن البابوية حاولت أن تستفيد من هذه السفارة فى ضمان ولاء الكنيسة النسطورية لها وهو هدف طالما سعت البابوية لتحقيقه ^(٥١) .

فقد كان السفير المغولى الرجل الثانى فى الكنيسة النسطورية ببغداد التى يدين لها النساطرة فى كثير من ربوع آسيا بالولاء الدينى . ومن ثم كان على دراية كاملة بمذهبه الدينى . وكان وجوده فى روما فرصة كبيرة لمناقشات لاهوتية طويلة مع الكرادلة حول الفروق الجوهرية بين النحلتين : النسطورية ^(٥٢) والكاثوليكية . وكان صاوما قد حمل معه خطابات من بطريك النساطرة للبابا ، مما جعل البابوية تتعامل معه على أنه حضر لتقديم فروض الولاء والطاعة لها من الكنيسة النسطورية نيابة عن بطريقتها جبلاها الثالث Jabalaha III (١٢٨١-١٣١٧) وقد فعل صاوما ذلك فعلاً . فكما كتب هو نفسه فى مذكراته ، فإنه

قد أدى فروض الولاء للبابا وركع أمامه كأنه أحد الكاثوليك وقبل منه العشاء المقدس واعترف له بذنوبه وطلب منه البركات الرسولية له ولأسلافه وطلب منه بعض الرفات الكاثوليكية لوضعها في بطريركية النساطرة في بغداد . وأهم ما في الأمر أن البابا قد أعطى صاوما خطابات له ولبطريرك النساطرة وتاجا من الذهب وملابس كهنوتية للأخير (٥٣) ، لتأكيد أنهما قد خضعا لكنيسة روما وأن بطريق النساطرة قد تلقى منصبه من البابا .

ومن الواضح أن صاوما كان لا يمانع في الاعتراف بسمو كنيسة روما وعالميتها - طالما أن ذلك يحقق الهدف السياسي لسفارته ، ولكنه لم يتخل عن نحلته النسطورية . ويشهد على ذلك محاوراته العنيفة مع الكرادلة حول طبيعة المسيح . وفضلا عن ذلك فإنه طلب من البابا أن يسمح له بآداء شعيرة القربان المقدس أمامه . ويحكي لنا أنه في اليوم المحدد لذلك توافد الآلاف من روما لمشاهدة كيفية احتفال السفير المغولي بهذه المناسبة . وبعد الانتهاء من ذلك فإن البابا نيقولا الرابع أبلغه « أن الاختلاف في اللغة ولكن الممارسة واحدة » (٥٤) .

ولكن هذا لا ينفي أن البابوية قد ظلت على رأيها في أن المذهب الكاثوليكي هو الصحيح وما عداه من مذاهب هرطقية ، ويؤكد ذلك خطابات نيقولا الرابع لصاوما ولبطريق النساطرة وللأسقف ديونيسيوس أسقف اليعاقبة في تبريز والتي حملها صاوما معه حين عاد لبلاده . ففي هذه الخطابات يطلب البابا من الأسقفين أن يعلموا شعوبهم العقيدة المسيحية « الصحيحة » طبقا لممارسات الكنيسة الأم في روما . بل ويذيل البابا خطابه لأساقفة الشرق بصيغة الإيمان المسيحي من وجهة النظر الكاثوليكي (٥٥) .

ومن اليسير الحكم على دوافع البطريق النسطوري في قبول تبعية كنيسة لروما بعد تسعة قرون تقريبا من القطيعة والشقاق . فالبطريق جبلاها الثالث كان مقربا من أرغون خان . وهو الذي رشع له صاوما ليكون سفيره للغرب الأوربي في مهمته واضحة المعالم وهي طلب التعاون العسكري ضد المماليك . ولما كان أرغون على غير دراية بالمذاهب المسيحية وأوجه الخلاف بينهما ، فإنه لم يكن يهمه من قريب أو بعيد أن يكون رعاياه المسيحيون يعتنقون المذهب النسطوري أو الكاثوليكي أو غيرهما ، فكل ما يشغله هو نجاح سفيره في مهمته السياسية ، ولذلك فمن المحتمل أن ترتيبات إعلان خضوع الكنيسة النسطورية لروما جاء بالاتفاق بين صاوما وبين البطريق فقط حتى دون أخذ رأي بقية رجال الدين النساطرة ، وذلك لجذب ثقة وتأييد البابوية ورعاياها الأوروبيين لمشروع أرغون السياسي ، لأن في نجاحه تدعيما وتوطيدا للمسيحية والمسيحيين بين المغول أيضا .

ويروى الراهب الدومنيكاني ريكولد مونت كروس Ricold of Monte Croce الذي زار بغداد عام ١٢٩٠م أن البطريق أخبره أنه تبرأ من نحلة نسطور . ولكن ريكولد يؤكد على أنه غير صادق فيما يقول ، ويضيف أيضاً أن بقية الأساقفة النساطرة قد قعدوا عليه^(٥٦) . وهذا يدل على أن الوحدة مع كنيسة روما كانت بمبادرة شخصية من البطريق .

ومهما يكن من أمر فإن البابوية - التي كانت قد حصلت على ولاء كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية في مجمع ليون الرابع عشر عام ١٢٧٤م . بصرف النظر عن دوافعه السياسية وقصر مدته^(٥٧) كانت حريصة على ضمان ولاء الكنائس الآسيوية لسيادتها لتأكيد ادعاءاتها بالسمو والعالمية ، ومن ثم فانه بعد رحيل صاوفا من روما عام ١٢٨٨م تلقى بطريق النساطرة لعديد من الخطابات من البابوية وبعض القادة العلمانيين في غرب أوروبا ، وكلها تؤكد على أن جبالها الثالث مثل البابوية في آسيا وأنه أحد الأساقفة الكاثوليك . ولقد استمر هذا التصور من جانب الغرب الكاثوليكي حتى وفاة البطريق عام ١٣١٧م ، وحينئذ قام البابا بانشاء أسقفية في السلطانية - عاصمة ايلخانية فارس منذ عهد اوجاتيو - ورسم لها أسقفًا دومنيكانيا ، كما سيأتي ذكره فيما بعد .

والمهم أنه في ١٨ مايو عام ١٣٠٤م كتب هذا البطريق خطابا للبابا من مدينة مراغة . وتدل عباراته الواضحة أن الأول قد أذعن للأخير بالولاء والطاعة بلا قيود . فيخاطب البابا بقوله «نائب المسيح على الأرض ..» ، «ونحن نؤمن بحبر روما المقدس والأب العالمي لجميع المؤمنين بالمسيح ، ونؤمن أنه خليفة بطرس المبارك النائب العالمي للمسيح عيسى فوق كل أبناء الكنيسة من الشرق إلى الغرب .. ونحن ندين له بالولاء ، ونطلب منه البركات ومستعدون لتلبية جميع أوامره ...»^(٥٨) .

ومن الواضح أن تأكيد الإذعان للبابوية والوحدة الدينية مع روما جاء لدوافع سياسية هذه المرة أيضا ولكنها لم تكن بهدف تعضيد التحالف مع المغول ولكن بقصد تدخل البابوية وملوك الغرب الأوربي لدى حكام المغول لرفع الظلم والاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون في إيران والعراق والذي ذاق مرارته البطريق شخصيا منذ اعتلاء غازان العرش واعتناقه الإسلام والذي ترتب عليه إعلان الإسلام ديانة رسمية لدولته . ومن ثم يلتمس البطريق من البابا المساعدة في المحنة التي يتعرض لها «إخوته وأبنائه في المسيح الذين يعتقدون المذهب الكاثوليكي» . وفي العبارة الأخيرة تأكيد من البطريق للبابا أن رعايا الكنيسة النسطورية قد تحولوا للمذهب الكاثوليكي ، ولكن هذا لم يحدث ألته لأن البطريق لم يستشر أحدا حتى من رجال الدين

النساطرة (٥٩). ومن الواضح أن هذا الإذعان كان رهن الحاجة لمساعدة الغرب الأوروبي وعندما لم تصل هذه المساعدة فإن الوحدة الدينية مع اللاتين قد انتهت لانتهاء الظروف المسببة لها هذا على افتراض أنها خرجت إلى حيز التنفيذ فعلا خارج إطار البطريق شخصيا .

والمهم أن «نيقولا الرابع» - الذى كان مقدما لجماعة الرهبان الفرنسيسكان قبل أن يعتلى الكرسي البابوى - كان يهيم نشر العقيدة المسيحية بين المغول ، ولهذا فقد أرسل مع صاوما- خطابين لارغون خان بهذا الشأن .

ويكرس البابا - خطابه الأول للإيلخان المغولى : أرغون خان لاقناعه باعتراف العقيدة المسيحية وجاء فيه :

... وقد فرحنا كثيرا وابتهجنا للرب الذى يملك قلوب ملوك الأرض بين يديه لأنه سبق وأنعم عليك راحما بانعاماته ، وأضرم فؤادك بحبته حتى نشأت فى قلبك رغبة ملحة فى توسيع تخوم البلاد المسيحية كما اتضح من نص الرسالة وأقوال المندوبين أنفسهم ،حتى أخذت تعامل باللطف والحسنى جميع النصارى المقيمين فى البلاد الخاضعة لك ... ونحن نقدم بجلالتكم أجمل آيات الشكر ... (وبعد ذلك شرح لرسالة المسيح الذى تنازل وعاش بين البشر وبعد قيامته ترك لبطرس وخلفائه سلطان الحل والعقد على الأرض فى السماء) .

ونحن نحسب أن يعيش المسيحيون حسب مذهبهم السامى (أى الكاثوليكي) ويتخلى غير المسيحيين عن الضلال ويتنصروا لأن هذا هو الدين الحق الذى به النجاح والخلاص . وأنت أيها الملك حسنا تفعل لو قررت أن تنصركم تكون فرحة الكنيسة والشعب عظيمة لو تم ذلك !

فهيا فكر فى الأمر مليا ولا تنس الموت الذى يأتى كاللص فى كل مكان وزمان واعتنق الدين المسيحى وتنصر واعمل على انتشار هذا الدين فى بلادك فتعال عند وفاتك أعظم ثواب (٦٠) .

وفى رسالته الثانية للإيلخان المغولى المؤرخة فى ٤ أبريل (١٢٨٨م) يكرر البابا المعانى السابقوتليح عليه أن «يسرع لنيل المعمودية ... لتمجيد الرب ولنيل الخلاص» (٦١) .

وفى محاولة من البابا للتأثير على أرغون لاعتناق المسيحية فانه أرسل خطابات مماثلة لعدد من الشخصيات المؤثرة فى بلاطه . وفى خطاب لوالدته ، فان نيقولا الرابع يبعث لها بالتهنئة لاعتناقها المسيحية ويحثها على نشرها بين أتباعها ويطلب منها أن تكون قدوة فى كل تصرفاتها حتى تتسع تخوم المسيحية (٦٢) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فان نيقولا الرابع أرسل خطابا قصيرا موجها إلى تسعة من العلمانيين الأوربيين - وأغليبيتهم من الإيطاليين الذين يعملون فى خدمة أرغون بمتدحهم فيه على تمسكهم بدينهم «السامى» ويطلب منهم أن «يكونوا قدوة لغيرهم وأن يساعدوا الآخرين على النجاة بأرواحهم باعتناق المسيحية» (٦٣).

ويؤكد البابا فى خطابه لرجال الدين الشرقيين - فضلا عما سبق ذكره - على أهمية حمايتهم ورعايتهم للرهبان الكاثوليك فى بلادهم ، والتعاون معهم وتسهيل جميع الصعاب لهم وإزالة العوائق من أمامهم «كى يزرعوا بذور الخلاص من الخطايا وكى يقودوا جميع السكان للعقيدة الكاثوليكية» (٦٤).

وهكذا أعطت البابوية جل اهتمامها لمسألة اعتناق أرغون ورعيته للمسيحية ولم تول الهدف السياسى لسفارة صاوما الاهتمام المطلوب .

وبعد وصول صاوما لعاصمة أرغون محملا بهدايا وخطابات الغرب الأوربى له فان الایلخان أقام حفلا كبيرا حضره جميع المسيحيين - ومنهم الأوربيين - فى عاصمته . ولما كان أرغون يعد لإرسال سفارة أخرى لأوروبا بخطط محددة لمشروع التعاون العسكرى المشترك ضد المماليك ، فانه أحضر طفله خذ ابنده (الخان أوجايتو فيما بعد) فى هذا الاحتفال وطلب من كبير الرهبان الكاثوليك تعميده بحضور جميع الأوربيين بعاصمته فضلا أنه طلب كنيسة على هيئة خيمة تلحق بقصره ويقوم على أمرها صاوما نفسه . ووزع الأعطيات على المسيحيين بسخاء ، وأقنع عددا من رجال بلاط المغول باعتناق المسيحية (٦٥). وهذا كله بغرض إفهام الأوربيين فى قصره - ومنهم سفراؤه لأوربا - بحبه للمسيحية ورعاياها وأنه فى الطريق لاعتناق المسيحية لو استجاب الغربيون للتعاون معه ضد المماليك ، وقد تحدث سفراؤه الايطاليون فى العواصم الأوربية فيما بعد (١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩٦م) عما وصلت إليه علاقة الایلخان بالمسيحية والمسيحيين . أى أن أرغون لم يفعل ذلك لدوافع دينية كما ورد فى مذكرات صاوما ولكنه كان يخاطب - من خلال التقرب من المسيحيين- مشاعر البابوية ورعاياها لجذب تأييدهم السياسى (٦٦).

بعثة جون مونت كورفينو للمغول John of Monte Corvino

يعد هذا الراهب الفرنسيسكانى من أهم المبشرين بالعقيدة المسيحية بين المغول بل وأكثرهم شهرة فى هذا المجال .

فبعد عام واحد من رحيل صاوما من روما ، أعاد البابا نيقولا الرابع إرسال جون مونت كورفينو على رأس بعثة تبشيرية تضم خمسة من الرهبان الفرنسيسكان للشرق (٦٧). وزوده بعشرة خطابات لارغون خان وللخاقان المغولى : قوبيلاي خان فى بكين ولأمرائهما وكبار رجال الامبراطورية المغولية والملك أرمنيا الصغرى ، وجميعها مؤرخة فى يولية عام ١٢٨٩م (٦٨).

ففى خطابه لهيشوم الثانى (١٢٨٩-١٣٠١م) نقرأ عبارات البابا التى يحث بها الملك على الانضواء تحت لواء كنيسة روما ، وحماية المبشرين الكاثوليك فى مملكته . وكانت خطابات نيقولا الرابع لحكام المغول أيضا ذات طابع دينى يحث لحشهم على سرعة التنصر وحماية الرهبان الفرنسيسكان والدمنيكان فى بلادهم ورعايتهم ، ونشر الدين المسيحى بين رعاياهم ، وتوسيع تخوم المسيحية فى آسيا (٦٩). ويتضح أن البابا قصد تحقيق أهداف دينية بحثة من هذه السفارة . وقد يكون من دوافعها أيضا ما هو سياسى وهو توسيع نفوذ البابوية فى العالم والتضييق على المسلمين أينما كانوا ، ووضح تماما أن نيقولا الرابع كان حتى ذلك الحين يتقاضى عما يحدث للكيان الصليبي فى الشام من تصفية الممالك له بصورة خطيرة .

ومن المهم أن نشير بايجاز لأهم ملامح جهود جون مونت كورفينو فى التبشير بين المغول . فقد استقر جون لعدة شهور فى تبريز فى دير يضم الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان معا لممارسة دوره التبشيرى بعد أن قام بتسليم رسائل البابا للرسول إليهم فى ايلخانية فارس . وفى عام ١٢٩١م ترك تبريز متجها إلى الشرق لتسليم رسالة البابا لقوبيلاي خان . وكان يصحبه فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة راهب دومنيكانى يدعى نيقولا أوف بستويا Nicolas

of Pistoia وتاجر إيطالى يدعى بيتر لوكالونجو Peter of Lucalongo وتوفى الراهب الدومنيكانى بالطريق ، ووصل جون ورفيقه إلى خان بالق (أو بكين الحالية) عام ١٢٩٤م بعد وفاة قوبيلاي خان بشهور قليلة وبعد عامين من رحيل ماركو بولو من الصين . وقام بتسليم رسالة البابا لحفيد قوبيلاي وخليفته فى الحكم تيمور اولجايتور (١٢٩٤-١٣٠٧) فى مايو من ذلك العام حيث قيل بحفاوة بالغة وسمح له بالتبشير بالمسيحية (٧٠). تحت حماية الخاقان الجديد الذى اقتفى أثر سياسة سلفه فى حسن معاملة الأجانب .

ولما كان جون مونت كورفينو هو أول راهب كاثوليكي يدخل الصين حيث الأغلبية الساحقة من الوثنيين والبوذيين وحيث الأقلية من المسلمين والمسيحيين (النساطرة والإغريق والأرمن) (٧١)، فإنه أراد الاستعانة بأمير مقاطعة تندوك - فى إقليم منغوليا الحالى وهو

الكاثوليكي، فان المئات من رعيته اقتفوا أثره ومن ثم بنيت أول كنيسة كاثوليكية هناك تحت إشراف الراهب الفرنسيسكاني . ولكن هذه التجربة لم تدم طويلا لوفاة الأمير جورج عام ١٢٩٨م وبوفاته ارتد الكاثوليك لنسطوريتهم (٧٢).

ومن ثم رجع جون للعاصمة بكين حيث قام بالتبشير بين الأرمن والجورجانيين الذين كانوا أو أبائهم - يعملون في جيش الخاقان منذ احتلال المغول للصين أو أنهم من أسرى الحرب وكانوا من نصيب قوبيلاي في الغنائم ، وساعده على أداء مهمته إجادته للغتين الفارسية والأرمينية التي تعلمهما فترة وجوده بالشرق الآسيوي منذ عام ١٢٨٠م . وتعلم جون أيضًا اللغتين التركية والمغولية فترة وجوده بالصين ، بل واستطاع أن يترجم الإنجيل وبعض الكتب المقدسة إلى اللغة التركية (البغورية) .

وفى أول تجربة من نوعها للتغلب على مشكلة عدم وجود رهبان كاثوليك لمساعدته في مهمته فان الراهب جون اشترى مائة وخمسين طفلا من الأرقاء الصينيين بين عمر السابعة والحادية عشر بمساعدة صديقه التاجر الايطالي ، وقام بتعميدهم وتنشئتهم وفقا للتربية المسيحية وذلك في الكنيستين اللتين قام ببنائهما في بكين . وهؤلاء كانوا خير عون له في التبشير لحوالي ستة آلاف من السكان (٧٣) - ومعظمهم من المسيحيين الشرقيين القاطنين في الصين .

ولما كان جون مونت كورفينو لا يستطيع ترسيم القسس لممارسة شئون العقيدة لأنه لم يخول الصلاحيات الكنسية بذلك من البابا ، فانه بعد أحد عشر عاما من وجوده بالصين أرسل رسالتين إلى مقدم الفرنسيسكان في أوروبا وللبابوية طالبا منهما إرسال العديد من الرهبان والكتب الدينية وترسيم رجال دين لشئون الكنائس في الصين . وقد وصلت هاتان الرسالتان للغرب عام ١٣٠٧ ، وعلى أثر ذلك قام البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤) باصدار مراسيم بابوية بتقليد جون منصب رئيس أساقفة خان بالق (بكين) ومنحه صلاحيات البطريرك في كل الامبراطورية المغولية (٧٣) وأرسل له سبعة من الرهبان الفرنسيسكان لمعاointه . وقد وصل ثلاثة منهم إلى بكين عام ١٣١٣م . وعلى الفور قام جون مونت كورفينو بانشاء أسقفية في مدينة الزيتون - وهي أشهر ميناء تجارى في جنوب الصين حينئذ في مواجهة جزيرة تايوان (فرموزا) الحالية ، كما أسس أديرة وكنائس في مناطق شيكيانج Chekiang وهانجشو Hangchow وبانجشو Yangchow وعندما توفي جون مونت كورفينو عام ١٣٢٨م كان قد

ترك عدة آلاف من الكاثوليك في الصين والعديد من الأساقفة والرهبان الفرنسيين يعملون في جد ودأب في مجال التبشير بالمسيحية في الشرق الأقصى على مدى عقود من الزمان^(٧٥).

جهود الراهب الدومنيكاني ريكولد مونت كروسى فى ايلخانية فارس :

على الرغم أن كتابات ريكولد مونت كروسى Ricold of Monte Croce^(٧٦) لا تشرح لنا الكيفية التى ألهم بها مهامه التبشيرية ، أو تقدم لنا المعلومات عن نتائجها فى ايلخانية فارس فى الفترة من ١٢٨٨م حتى ١٣٠١م ، فانها توضح أنه وصل إلى مدينة تبريز حيث استقر بها عدة شهور ثم انتقل منها لكثير من المدن العراقية وأهمها الموصل وبغداد وتكريت^(٧٧) . وأنه استقر بالمدينة الأخيرة عدة سنوات منقطعاً عن العالم الكاثوليكي . وقد قام بالتبشير بالكاثوليكية بين اليعاقبة والمارونيين - وهم أغلبية فى هذه المنطقة - وأتقن اللغة العربية التى ساعدته على دراسة القرآن الكريم والأحداث النبوية وكثيراً من كتب الفقه وذلك ليتمكن من مجادلة رجال الدين المسلمين والرد عليهم . وقد سمح له حاكم الموصل - وكان نسطوريا - بالتبشير علانية بين النساطرة شريطة ألا يجلب على نفسه المتاعب بالتعرض لغيرهم^(٧٨) . وشجعه على ذلك أن أرغون فى سنواته الأخيرة قد أطلق العنان للرهبان الكاثوليك للتحرك بين رعاياه بحرية تامة وتحت حمايته ، وفضلاً عن ذلك فإن بطريق النساطرة نفسه كان يدين بالولاء - نظرياً على الأقل - لكنيسة روما ، ولهذا قدم لريكولد ولغيره من الدومنيكان كثيراً من المساعدات رغم أن الأخير يقرر أن نسطرة بغداد قاموا بطرد الرهبان الكاثوليك منها وكادوا يفتكون بهم^(٧٩).

ولما كانت الفترة من ١٢٨٩ حتى ١٢٩١ هى مرحلة سقوط المدن والقلاع الصليبية الباقية فى الشام ، فإن تجار الرقيق كانوا يبيعون مئات الأسرى الصليبيين فى أسواق بغداد وغيرها من المدن العراقية ، وكان من بينهم العديد من الرهبان الدومنيكان ، ومن ثم استطاع ريكولد تقديم الخدمات الدينية لهؤلاء الواقدين الكاثوليك الجدد بل وتمكن بمساعدة من التجار الايطاليين من شراء بعضهم ، واستعان بالدومنيكان منهم فى إنشاء أديرة ومراكز كاثوليكية بالایلخانية ، وقد كانت هذه الظروف مناسبة له للاستماع من شهود العيان اللاتين للعديد من الروايات عن سقوط آخر المعاقل الصليبية بسواحل فلسطين مما ساعده على كتابة مذكراته التى قدمها فى هذا الشأن إلى البابا عام ١٣٠١ م^(٨٠).

ويصف ريكولد مدينة بغداد بأن سكانها حوالى مائتى ألف نسمة ، وأن أهلها يجاهدون لإعادتها لما كانت عليه حالها - قبل مذبحة هولوكو- كمركز دينى كبير ، ويشنى ريكولد على

المسلمين بقوله «استولت علينا الدهشة ، كيف أن أعمالا تتصف بمثل هذا الكمال أن تحيا في ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة ... لهذا نستعيد الآن في إيجاز أعمال العرب تلك المتصفة بالكمال ... من ذا الذي لا يعجب إذا تأمل جيدا أية عناية فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب ، أى اخلاص فى الصلاة ، وأية رحمة بالفقير ، وأى تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ، وأى وقار فى أخلاقهم ، وفى معاملتهم للغرباء ، وأية مودة تربط بين جنسهم^(٨١) ؟ » . ومع ذلك فإن ريكولد يهاجم العقيدة الإسلامية فى القضايا الهامشية التى دأب المستشرقون الأوروبيون فيما بعد على طعن الإسلام بها^(٨٢).

ولأن ريكولد قد عاصر جانبا هاما من عهد غازان خان وما حدث للمسيحيين فى دولته من اضطهاد فإن تقريره عن مستقبل البعثات التبشيرية بين المسلمين جاء متشائما ، وأوضح أنه من العسير إقناع المسلمين بالتحول للمسيحية^(٨٣).

والجملة الأخيرة تقودنا لتوضيح الطوائف التى كان يعمل الرهبان الكاثوليك بينهم فى ايلخانية فارس .

حقيقه أن البابوية كانت دائمة الحلم بتحويل كل العالم - بما فيه المسلمون - للمسيحية على المذهب الكاثوليكى ، وظهر للوجود فى بداية القرن الثالث عشر جماعة الرهبان الفرنسيسكان وتبعهم الدومنيكان للتبشير بالانجيل بين غير الكاثوليك . حتى أن الراهب فرنسيس الأسيسى (ت ١٢٢٦م) مؤسس جماعة الفرنسيسكان قد حضر مع الحملة الخامسة على مصر لاعتقاده أنه من السهل أن يقنع السلطان الأيوبي بالتصير وفى ذلك حقنا لدماء الصليبيين كما صور له خياله وقد ذهب بنفسه للقاء الكامل الأيوبي وعرض عليه أفكاره ولكن الأخير أعاده بسلام لمعسكر الفرنجة فى دمياط قبل أن تتلفه سيوف المسلمين^(٨٤) وأرسلت البابوية أندريه لوتجيجيموه عام ١٢٤٥م للأمرء المسلمين فى سوريا والعراق لتحويلهم للمسيحية^(٨٥) . وهذا يوضح جهل الغرب الأوربي بحقائق الحياة فى هذه المناطق من ناحية والغرور والعنصرية الاستعلائية التى تتسم بها الحضارة الغربية من ناحية أخرى .

ويبدو أن الرهبان الكاثوليك لم يتوراتوا عن هذه المحاولة فى إيران والعراق اللتين كانتا تقودان العالم الإسلامى سياسيا ومنهما خرج كثير من أئمة الفقه وعلوم الدين والفلسفة الإسلامية ، أى أن البيئة كانت إسلامية قلبا وقالبا . ولهذا يتعامل المسلمون بحساسية شديدة مع الذين حاولوا إثنائهم عن عقيدتهم أو إقناعهم بقبول ديانة أخرى . ولهذا تعرض اثنان من

الرهبان الفرنسيسكان للقتل فى تبريز عام ١٢٨٤م ، وتبعهما عدد آخر من نفس المدينة فى أوائل القرن الرابع عشر لأنهم أثاروا المسلمين بالتبشير بينهم ^(٨٦). وفى عام ١٣٢٣ قتل ثلاثة رهبان فرنسيسكان فى مدينة تانا Tana الهندية بأمر من القاضى المسلم بعد أن قاموا بسب الرسول ﷺ علانية ^(٨٧) وفى عام ١٣٣٩ م قتل سبعة رهبان فى إقليم التركستان لإثارتهم عامة المسلمين ^(٨٨). بل أن الإشارة الوحيدة لوجود بعثات تبشيرية فى الوثائق الشرقية كانت فى الحولية السريانية لابن العبرى إذ يقرر هذا الكاتب أنه فى شهر يولية من عام ١٢٩٠ م قدم أحد الرهبان لإحدى المدن العراقية للتبشير بين سكانها ، ولما ذاع أمره فان جموعا من المصلين قد تعقبوه والمسيحيين الشرقيين بذات المدينة حتى قتلوه ومن قام بحمايته ودمروا الكثير من ممتلكات المسيحيين بالمدينة حتى لم يستطيع أى من الأخيرين الخروج إلى أسواق المدينة لمدة شهر كامل ^(٨٩). وقد حدث ذلك فى نهاية عهد ارغون رغم كل أساليب القهر والضغط التى تعرض لها المسلمون هناك ورغم الحماية التى أعطاها اليلخان وقواده ونوابه (المسيحيون واليهود) للمسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة .

والحقيقة أن حساسية المسلمين من البعثات التبشيرية لم تكن وقفًا على ايلخانية فارس بل كانت ظاهرة عامة صادفها جميع الرهبان الكاثوليك فى المجتمع الإسلامى ؛ وفيهم الفرنسيسكانى الشهير رامون لول Ramon Lull الذى قتله جموع المسلمين الغاضبين فى الجزائر عام ١٣١٦ م ^(٩٠) .

وفضلا عن ذلك ، فان شهادة الأسقف الفرنسيسكانى لمدينة الزيتون الصينية عام ١٣٢٣ يؤكد فيها أنه وزملاءه لم يستطيعوا تحويل أى مسلم أو يهودى للمسيحية ^(٩١) هذا بالرغم أن الأخيرين كانوا أقليات ضئيلة فى الصين بعكس الأغلبية الساحقة للمسلمين فى إيران والعراق. وفوق هذا وذاك فان تقرير الراهب الدومنيكانى جوردان القطلانى Jordan of Cat- alan عام ١٣٢٨ يوضح أن كل الذين نجح المبشرون الكاثوليك فى تحويلهم لمذهبهم كانوا من المسيحيين «المنشقين» ^(٩٢) ، أى النساطرة واليعاقبة . وهذا يوضح أن الرهبان الكاثوليك كانوا يحاولون جاهدين اكتساب المغول - وهم بلا دين سماوى - لعقيدتهم ، وكانوا أيضا يعملون بين المسيحيين الشرقيين - وأغليبيتهم الساحقة من النساطرة - الذين كانوا يؤمنون بعقيدة نسطور الذى اعتبره مجمع افسوس عام ٤٣١ هراطقيا منشقا ، ومن نافلة القول أن نذكر أنه كان من اليسير على الرهبان الكاثوليك التبشير بين هؤلاء المسيحيين لأن تحويلهم لمذهب آخر

كان أمرا يسيرا ، ومع ذلك فان الانجازات كانت محبطة للغاية - كما سنوضح فيما بعد -
ويبدو أن النساطرة كانوا مثل الأرثوذكس من الصعب اقناعهم بصيغة الإيمان الكاثوليكي
والولاء لكنيسة روما .

ومهما يكن من أمر ، ففي عام ١٢٩٥م طرأت أحداث سياسية هامة في العاصمة المغولية
الفارسية لم تكن في حسابان الغرب الأوربي وكان لها أثرها المباشر سواء على حركة التبشير
بالكاثوليكية في ايلخانية فارس أو على وضع المسيحيين الشرقيين في الدولة . ومنها وصول
غازان خان إلى كرسي الحكم في ذلك العام .

اعتناق غازان الإسلام وأثره على أهل الذمة :

لقد كان تكودار أحمد أول ايلخان مغولي في فارس يعتنق الإسلام . وقد سبقه في ذلك
بركه خان حاكم القبيلة الذهبية في روسيا (١٢٥٦-١٢٦٧) (٩٣) ولم يمنع مقتل تكودار عام
١٢٨٤م انتشار الإسلام بخطى حثيثة بين المغول في عهد خلفائه . وإذا كان كيخاتو قد حاول
إرضاء رعاياه المسلمين باعفاء علمائهم وذرية النبي ﷺ من دفع جميع الضرائب على اختلافها
واصدار عمله ورقية « الجاو » (٩٤) تحمل الشهاداتتين ، فان خليفته بايدو كان يرسل ابنه على
للصلاة مع المسلمين مداراة لاتحيازه الواضح مع المسيحيين . وقد اعتنق كثير من المغول
الإسلام في عهد بايدو وأصبحوا يؤدون فرائضه .

ويتفق المؤرخون على أن غازان كان بوذيا في أول حياته « وأن والده ارغون أرسله أميراً
على خراسان حيث التقى بالأمير نوروز المغولي الأصل والمسلم الديانة » (٩٥) . ويتفق الذين
تناولوا مسألة اعتناقه الإسلام ، أن الأمير نوروز قد شجعه على الثورة على بايدو وعلى
اعتناقه الإسلام ، وما ورد عنه « فاذا اعتنقت الإسلام صرت سيد إيران وأصبح المسلمون وقد
رفعتهم من حالة الذل التي يثنون فيها تحت نير التتار الوثنيين - يكرسون - حياتهم لمصلحتك
وبارك الله في أسلحتك ... » ويروى أيضا أن نوروز أخذ وعداً من غازان باعتناقه الإسلام
فور وصوله للعرش المغولي . وقد نفذ ما وعد به في اليوم الرابع من شعبان عام ٦٩٤هـ /
يونية ١٢٩٥م (٩٦) . وسواء اعتنق غازان الإسلام لمصلحة سياسية أم عن قناعة دينية (٩٧) فانه
لم يرتد عنه بل وأصدر قراراته ومراسيمه فيما بعد وفقا للشرعية الإسلامية . وكان دوره في
انتشار الإسلام بين المغول - فيما أرى - لا يقل عن دور قسطنطين الكبير في انتشار المسيحية
في أرجاء الامبراطورية الرومانية .

فلقد كان أول مرسوم أصدره غازان بنص على أن الإسلام هو الدين الرسمي لدولة المغول في فارس ، وأن الآداب والرسوم يجب أن تجري طبقا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية ، وأنه على الأمراء وكبار المسؤولين في الدولة أن يتوخوا العدالة التامة ويمتنعوا عن إلحاق الأذى والضرر بالرعوية . وعلى أثر ذلك غير المغول زيهم ولبسوا العمامة كإشارة على التحول للدين الإسلامي^(٩٨) الذي اعتنقه على الفور مائة ألف من أمراء المغول وجنودهم اقتداءً بغازان^(٩٧).

وليس معروفا على وجه الدقة من هو الذي أصدر أوامره بتدمير بعض الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية هل هو غازان شخصيا أم نائبه نوروز الذي كان مسلما متعصبا ؟ فضلا عن ذلك فإنه تم تحطيم الهياكل والأصنام البوذية ، وحولت كثير من الكنائس إلى مساجد ، وأغرى البوذيون على الدخول في الإسلام . وأيضا لم يعد المسيحيون ولا اليهود بقادرين على أن يظهروا للناس إلا في ثياب متميزة ، فكانت علامة التنصاري شد الزنار في أوساطهم ، واليهود خرقه صفراء في عمامتهم . وبدأت فترة من الاضطهادات لأهل الذمة حتى أن نساءهم في بعض المناطق كن وحدهن يستطعن الخروج من منازلهن للأسواق لأنهن لا يميزن عن نسوة المسلمين^(١٠٠) . وفوق هذا وذاك أجمدت ضريبة الجزية على المسيحيين واليهود يوم اعتلاء غازان العرش^(١٠١).

وفي خطوة جديدة على الوضع السياسي لايلخانية فارس ، قيام غازان بالغاء مظاهر تبعيته للخاقان المغولي في بكين مشيرا إلى أن الشخص الذي يعتبر كافرا يجب ألا ينقش اسمه في المستقبل على عملة بلاده . وأعلن استقلاله الكامل ولقب نفسه بلقب خاقان وكان هذا اللقب مقصورا على الخاقان المغولي الأعظم في بكين^(١٠٢).

وقد كان لاعتناق غازان وخلفائه للدين الإسلامي آثاره الكثيرة يهنا منها أولا : القضاء على الفجوة الكبيرة التي كانت تفصل بين المغول ورعاياهم المسلمين ، مما ساعد على اندماج المغول في المجتمع الإسلامي واشتد تأثيرهم بالحضارة الإسلامية . ثانيا : وضع هذا التحول حدا لسياسة تفضيل الأقليات المسيحية واليهودية في مقابل تجاهل الأغلبية المسلمة وبهذا تحددت مكانتهم وصاروا يعاملون كأهل ذمة . ثالثا : بدخول المغول في الإسلام فانهم كفوا أيديهم عن القتل والغارات وجدوا في إصلاح ما أحدثه الايلخانيون البوذيون من تخريب وتدمير ، ورفع المظالم عن الرعية ، واتباع الشريعة الإسلامية بدلا من قوانين المغول التي سنّها لهم جنكيز خان^(١٠٣) . رابعا : ساهم إسلام غازان وخلفائه في دخول هذا الدين في مناطق جديدة كانت

تسيطر عليها البوذية فى شرق آسيا وجنوبها . وانقلب المغول من كونهم معول هدم للإسلام . إلى سواعد فتية لنشر هذا الدين سواء لمناطق لم يدخلها من قبل أو فى مناطق لم يكن منتشرا فيها على نطاق واسع (١٠٤).

ومن الواضح أن حالة من الاضطهاد العام قد لحقت بالمسيحيين وممتلكاتهم من قبل المسلمين الذين شعروا بالتخلص من الضغط الذى دام عليهم عشرات السنوات منذ دخول جحافل المغول للبلاد الإسلامية .

فالدار التى كان قد حصل عليها بطريق النساطرة من هولاء قد أعيدت للمسلمين ، وتعرض البطريق نفسه للتعذيب الجسدى من جانب بعض العامة لدرجة أنه علق من رجلية ورأسه يتدلى إلى أسفل لإجباره على التخلّى عن دينه . وعندما قاوم ذلك وثبت على إيمانه طلب منه دفع مبلغ عشرين ألف دينار ، ولكنه استطاع الفرار والاختفاء بواسطة أميرة مغولية مسيحية . ويذكر أن سكان مراغة ألزموا بعد فراره بدفع غرامة قدرها ستة وثلاثين ألف دينار (١٠٥).

وقد بلغت الاعتداءات على غير المسلمين درجة اضطر فيها غازان إلى وضع حد لها . وفى هذه الأثناء استطاع البطريق جبلاها الثالث مقابلة غازان فى بولبة عام ١٢٩٦ م . وكذلك مقابلة هيشوم الثانى ملك أرمينيا الذى حضر لتقديم الولاء للإيلخان المغولى . وفى تلك المقابلة طلب الملك الأرمنى من غازان التدخل لوقف هدم الكنائس المسيحية . أما المعابد البوذية فقد سمح بالاستمرار فى حرقها (١٠٦). وقد أمكن فى مدينة إربل - وفى اللحظات الأخيرة - منع صدام كاد أن يقع بين المسلمين والمسيحيين . أما التعويضات التى دفعها غازان إلى البطريق فكانت قليلة جداً ومقدارها خمسة آلاف دينار ، ولم تكن تكفى لإعادة بناء الكنائس ومنازل الأساقفة فى بغداد ومراغة وتبريز وهمدان . أما الأموال التى نهبت ، فقد أعيد جزءاً يسيراً منها ولكن أكثرها - كما هو المتوقع لم يعثر عليه (١٠٧).

وهناك فريقان من المؤرخين يتزعمان رأيين مختلفين حول الاضطهادات التى تعرض لها أهل الذمة فى عهد غازان خان . فالرأى الأول من أنصاره المؤرخ الألمانى بارتولد شبولر والمؤرخ المصرى مصطفى طه بدر وملخصه أن غازان نفسه كان وراء هذه الاضطهاد وأنه أصدر أمراً باجبار المسيحيين على ترك دينهم ، وأن رفع هذا الاضطهاد عنهم تم لأسباب سياسية (١٠٨) . والرأى الثانى - ومن أنصاره المستشرق الإنجليزى توماس أرنولد والمؤرخ الإنجليزى أيضا ج ج

ساوندرز - مفاده أن غازان كان مسلما مثاليا وأن هذه الاضطهادات كانت من نوروز أو بأوامر منه وأن العامة قد فعلوا ذلك تلقائيا وكان يصعب السيطرة عليهم لما عانوه من عسف وجور طوال فترة الايلخانيين البوذيين^(١٠٩). ويدلل توماس أرنولد على تسامح غازان « بأنه عندما اكتشف أن عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام في مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) ولم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظاهرا ونفاقا ، سمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين في العودة إلى التبت، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين»^(١١٠).

ولكن حولية جبلاها الثالث- التي أكملها شخص ، وثيق الصلة به بعد وفاة صاوما عام ١٢٩٢م - تؤكد أن نوروز هو الذي أصدر قرارات هدم كنائس المسيحيين ، وأن غازان أعطى الترتيبات الكافية للبطريق وأنه منحه تقليدا باعفاء رجال الدين المسيحيين من الضرائب وحرية ممارستهم شئون عقيدتهم ، وأنه أرسل منشورات لقواده بالكف عن نهب ممتلكات المسيحيين وتقديم الحماية الكافية لهم والضرب بشدة على من يجرؤ على التعرض لهم^(١١١). وتؤكد هذه الحولية السريانية أيضا عن لسان بطريق النساطرة أنه بالرغم أن غازان قد تحول عن دين آباءه فانه كان يعطى الاحترام والتقدير الكاملين للبطريق والمسيحيين ، وأن البطريق زاره عدة مرات وأن غازان قد قضى ليلة كاملة في دير الأخير بمراغة قبيل رحيله للشام للمرة الثانية . فضلا عن أن غازان سمح له ومدد بالأموال اللازمة لبناء كنيسة ضخمة في مدينة مراغة حيث حضر عدد كبير من رجال الدين من كل الطوائف والأديان حفل افتتاحها^(١١٢).

وفضلا عن ذلك فإنه عندما ظن بعض العامة في عام ١٢٩٧ أنهم يستطيعون نهب الكنائس في تبريز أصدر غازان أوامره بانزال العقوبات بهم . وعندما احتلت قوات المغول دمشق عام ١٢٩٩ / ١٣٠٠ م فان السلطان أصدر أوامره القائلة بأن المسيحيين واليهود الذين يدفعون الجزية لايجوز مضايقتهم^(١١٣). وفوق هذا وذاك فانه بعد قتل نوروز أصبح المسيحيون واليهود يتمتعون بنصيب كبير من الحرية الدينية ، وأوقفت الاضطهادات التي كانت تنزل بهم وإن لم يعودوا إلى المركز الذي كانوا يتمتعون به في عهد الإيلخانيين البوذيين.

أما أوجايتو (١٣٠٤-١٣١٦) فقد فرض الجزية كاملة على أهل الذمة سنة ١٣٠٦ ولكنه في سنة ١٣٠٨ استثنى القساوسة منها وأعفى الأديرة في بعض الأحيان من الضريبة بل واعتبر الضريبة مخصصة لها . وقد بعث بإيرادات مدينة إربل إلى البطريق ، ووقف السلطان ضد محاولات المسلمين تحويل كنيسة مسيحية في مدينة تبريز إلى مسجد ، ولكنه تغاضى في عامي ١٣٠٧ ، ٨ ، ١٣ م عن إحداث الضغط التي وقعت على الأهالي في أرمينيا

وجورجيا الصغرى للدخول فى الدين الإسلامى ^(١١٤). وبوفاة البطريق جبلاها الثالث فى ١٣ نوفمبر عام ١٣١٧ فقد المسيحيون فى الابلخانية آخر مدافع عنهم فى القرن الرابع عشر خاصة وأنه كانت تربطه صداقة وطيدة مع جميع الابلخانيين الذين عاصروه . وفى عهد أبو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥) لم تكن الإدارة المركزية بالقوة الكافية لمنع تحرشات المسلمين بالمسيحيين فى مناطق كثيرة .

البعثات التبشيرية فى عهد الابلخانيين المسلمين :

لم يكن اعتناق حكام مغول فارس للإسلام حائلا دون وصول العديد من البعثات التبشيرية الكاثوليكية للابلخانية . فالغرب الأوروبى لم يلاحظ ذلك إلا بعد ربع قرن من حدوثه . ومن ثم استمرت البابوية ومقدموا الأديرة الفرنسيسكان والدومنيكان يرسلون هذه البعثات إلى إيلخانية فارس حتى منتصف القرن الرابع عشر تقريبا . وكانت البابوية والملكية الانجليزية دائمتى الإلحاح على حكام المغول بحماية الرهبان وتقديم العون لهم . فضلا عن ذلك فان فترة النصف الأول من القرن الرابع عشر شهدت - لأسباب كثيرة سندرسها فى الفصل التالى - انسياس العشرات من تجار المدن الإيطالية ليس فقط فى ايلخانية فارس بل أيضا فى الهند والصين . وأن هؤلاء اصطحبوا معهم الرهبان أينما حلوا كى يقدموا لهم الخدمات الدينية . بل أن مثل التجار البنادقة فى تبريز أصر على أن تتضمن المعاهدة بين بلاده وبين أبو سعيد عام ١٣٢٠ نصا عن حرية وحق التجار البنادقة فى اصطحاب الرهبان معهم وفى إقامة الكنائس فى كل مكان يحلون فيه ^(١١٥). ولأن حكام المغول كان يهتمهم اجتذاب التجار الإيطاليين واستقرارهم فى بلادهم - لما يعود عليهم بالنفع - فانهم قدموا الحماية الكافية لهم وللرهبان الكاثوليك معا . ولهذا لا غروا أن فترة الإبلخانيين المسلمين فى فارس كانت من أزهى الفترات للرهبان الكاثوليك والدليل على ذلك ورود العديد من البعثات من الغرب واستقرارها فى المدن التابعة لنفوذ مغول فارس أو عبورها للهند والصين .

ولقد تركزت أديرة الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان وكنائسهم بصفة أساسية فى تبريز والسلطانية - العاصمة الجديدة منذ عهد أوجايو - ومراغة ، وذلك لأن هذه المدن كانت على الطريق التجارى الذى يربط بين تجارة الشرق الآسيوى والغرب الأوروبى . فضلا عن كون أديرة الرهبان بمثابة محطات تجارية للتجار الإيطاليين فى الابلخانية أو الذين ينتقلون فى جنوب وجنوب شرق آسيا فان السلطة المركزية لابلخانية فارس قد تركزت فى هذه المدن وذلك حتى

يكون الرهبان تحت سمع وبصر الخان وقواده وفى ذلك حماية مباشرة لهم من غضب العامة باعتبارهم كانوا عزلا من كل قوة توفر لهم الحماية الشخصية . ولكن هذا فى حد ذاته كان عائقا من احتكاك الرهبان بعامة الرعية داخل البلاد .

ولقد كانت أديرة الرهبان الكاثوليك تعتمد على امدادات البابوية ومقدمى الأديرة بأوروبا ، ولكن هذه الاعانات كانت غير ثابتة أو كافية بل أحيانا تعطى للرهبان فقط عند مغادرتهم أوروبا فى طريقهم إلى اشرق لمواجهة نفقات الطريق . فضلا عن ذلك تلقى الرهبان بعض المنح والأعطيات من حكام المغول أو زوجاتهم أو من أساقفة المسيحيين الشرقيين . ولكن كانت تبرعات التجار الإيطاليين لأديرة الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان أهم مورد مالى ، فقد حملت تقارير الأخيرين أن هؤلاء التجار اشتروا لهم - فى بعض الأحيان أراض أو أبنية لاستخدامها كأديرة أو كنائس لهم - فضلا عن أن الرهبان كانوا ينتقلون من منطقة لأخرى مع قوافل التجار الإيطاليين . أى أن الأخيرين زودوهم بوسائل الانتقال اللازمة . ومن المؤكد أن حمايتهم من كثير من الاضطرابات التى عمت اليلخانية قد تم بفضل تدخل هؤلاء التجار لدى حكام المغول . وفى حالة عدم توفر الموارد المالية السابقة أو انقطاعها فان الرهبان كانوا يضطرون لتسول قوتهم اليومي^(١١٦) . وهو مبدأ كان معمولاً به فى أنظمة الرهبنة فى الجماعتين .

وفى تطور جديد على وضع البعثات التبشيرية فى وسط آسيا ، فان البابا كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥-١٣١٦) قد حصل على موافقة أوجايتوخان (١٣٠٤-١٣١٦) بإنشاء مطرانية فى عاصمته السلطانية ، ولكن هذه الخطوة لم تخرج إلى حيز التنفيذ إلا فى عهد البابا حنا الثانى والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤م) ، عندما أصدر مرسوما فى أول مايو عام ١٣١٨م بإنشاء هذه المطرانية ، ورسم لها الأسقف الدومنيكانى فرنسيس أوف بيروجيا Francis of Perugia للإشراف على الكاثوليك فى ايلخانية فارس وإقليم مغول القبيلة الذهبية فى روسيا وكذلك فى الهند وأثيوبيا . وبعد شهر واحد من هذا المرسوم قام فرنسيس أوف بيروجيا بترسيم ستة من الأساقفة وتعيينهم فى أسقفيات أنشئت فى أرمينيا وجورجيا الصغرى وفارس^(١١٧) . ونظرا لقلّة كتابات الرهبان الدومنيكان فى فارس عن المحازاتهم أو كيفية مواجهة الصعوبات فى مجال عملهم ، فان من تصدوا لدراسة هذا الموضوع لا يعرفون سوى أسماء من تولوا منهم مناصب كنسية فى هذه الأسقفيات ووقت تعيينهم أو وفاتهم أو إغلاق هذه المراكز الدينية أو نقلها أو بعضها لمناطق أخرى^(١١٨) .

ولكن إنشاء مطرانية كاثوليكية فى عاصمة ايلخانات فارس لايدل على أن الأمور كانت تسير على ما يرام بالنسبة للرهبان، أو أنهم أحرزوا تقدما كبيرا فى مجال التبشير بالمسيحية، فهذا المرسوم كانت وراءه ضغوط قوية من جماعة الدومنيكان فى أوروبا على البابوية ، وذلك لمساواتهم بجماعة الفرنسيسكان الذين كانت لهم مطرانية فى بكين منذ عام ١٣٠٧م وحتى لا يخضع الدومنيكان فى كل مكان فى آسيا لسلطة المطران الفرنسيسكانى فى بكين والذي كانت المسافات الطويلة تمنعه من ممارسة الصلاحيات المخولة له من البابا على كل الكاثوليك فى القارة شرقها وغربها وجنوبها وشمالها .

وعموما كانت البابوية تهدف من وراء ذلك أيضا تشجيع الدومنيكان على كسب أرضية جديدة فى آسيا بمنافسة الفرنسيسكان الذين حققوا نجاحا ملموسا فى الصين عبرت عنه خطاباتهم وتقاريرهم التى أرسلوها لمقدميهم وللبابوية تباعا .

وكانت هذه «المطرانية» مقامة فى مبنى صغير اشتراه أحد التجار الإيطاليين فى السلطانية . أما الأبرشيات التى كانت تابعة لها فلم تجد من يشغل أمر الخدمة الدينية بها بعد سنوات قليلة من انشائها، وذلك بسبب الوفاة وعدم وصول رهبان دومنيكان جدد من الغرب . ويكفى أن نذكر أن الرهبان الفرنسيسكان الذين كانوا يشتركون مع نظرائهم الدومنيكان فى مبنى واحد بتبريز - بعد تحويل مبنى الدومنيكان لمدرسة إسلامية عام ١٢٨٥م - لم يعترفوا بسلطة أسقف الدومنيكان فى نفس المدينة ، ومارسوا شعائر عبادتهم منفردين على طريقتهم عام ١٣٣٢م (١١٩).

ويقرر الراهب الدومنيكانى جوردان القطلانى Jordan Catolani عام ١٣٢٨ ، أن شعب أسقفية السلطانية يبلغ خمسمائة شخص ، وأن ألفا من المسيحيين «المنفين» قد اعتنقوا المذهب الكاثوليكي على يد الرهبان فى تبريز ومراغة (١٢٠). ومع افتراض عدم مبالغة الراهب عن انجازاته وزملائه وسابقيهم فان هذا الرقم متواضع جدا ، وذلك لمعرفة أن الرهبان الدومنيكان متواجدون فى تبريز منذ عام ١٢٦٠م على الأقل ، وهو العام الذى استقر فيه ديفيد الأشمى فى تبريز حيث سمح له هولانكو بالتبشير هناك . وأن حصاد ثلثى قرن من الزمان هو تحويل ألف وخمسمائة مسيحي شرقي فقط للمذهب الكاثوليكي هو دليل على وجود كثير من الصعوبات التى كانت تعوق عمل هؤلاء الرهبان فى تلك المنطقة خاصة بعد اعتناق غازان للإسلام .

أما عن الرهبان الفرنسيسكان فكانت لهم أديرة فى تبريز والسلطانية ولا توجد مصادر تنفيذ المجازاتهم . ولكنه معروف أن معظم الفرنسيسكان تركزوا فى منطقة أرمينيا حيث برز عدد منهم فى إتقان اللغة الأرمنية وترجمة الأناجيل لهذه اللغة ، وتمثل نجاحهم فى اعتناق الأسقف الأرمنى زخارى Zacharias للمذهب الكاثوليكي (١٢١).

وكان اعتناق بعض الرهبان الفرنسيسكان بفكرة روحانية المسيح وحواريه ، سببا فى ظهور انشقاق فى صفوفهم مما أصابهم بكثير من الأضرار فى فارس . ولما كان البابا حنا الثانى والعشرين قد أذن الروحانيين Spirituals عام ١٣٢٣ م فانه أرسل لأسقف الدومنيكان فى تبريز للتحرى عن الفرنسيسكان المنشقين وطردهم من منطقته . وكان على أثر ذلك أن طرد اثنى عشر راهبا فرنسيسكانيا عام ١٣٣٤م من ايلخانية فارس للشك فى انتماهم للمنشقين . وفى عام ١٣٤٤ م أرسل البابا كليمنت السادس (١٣٤٢-١٣٥٢) مرسوما لمطران السلطانية الدومنيكاني باعادة البحث والتحرى عن الفرنسيسكان المنشقين فى منطقته . وقد نتج عن هذا كله - وعوامل أخرى - انتهاء وجود الفرنسيسكان فى ايلخانية فارس منذ ذلك الحين (١٢٢).

أما عن الرهبان الدومنيكان فقد لجأوا فى الاستمرار بإيلخانية فارس حتى العقد السابع من القرن الرابع عشر . وقد انشأوا أبرشية فى البصرة وأخرى فى بغداد (١٢٣) ولكن لظروف وباء الطاعون الأسود (١٣٤٨-١٣٤٩) ولأسباب أخرى - لم يتبق باقليم فارس منهم سوى ثلاثة من الرهبان ليس من بينهم أسقف واحد بدءا من منتصف القرن الرابع عشر . وبوفاة آخر ايلخان مغولى دون الحجاب وريث للعرش عام ١٣٣٥م ، وانقسام الايلخانية بين مجموعة من الأمراء المتصارعين جعل السلطانية وتبريز - حيث المراكز الدينية للدومنيكان - مركزين للصراع والمطاردة بين المتصارعين على السلطة . ولعدم ورود رهبان جدد من أوروبا ليحلوا محل سابقهم ، فإن المراكز الدينية للرهبان أصبحت شاغرة ، وانتقل الإشراف الدينى عليهم لمركز الدومنيكان فى القسطنطينية عام ١٣٦٣م (١٢٤) وهكذا لم يعد للرهبان الكاثوليك وجود فى ايلخانية فارس .

أما عن المسيحيين الشرقيين فقد كانت الضربات المتلاحقة التى وجهت لهم ولكنائسهم منذ اعتناق غازان للإسلام وحتى وفاة أبو سعيد أثرها الخطير على تناقص أعدادهم بدرجة كبيرة . وقد ساهمت فترة القلاقل التى أعقبت انتهاء دولة الايلخانيين فى إزالة كثير من مراكز المسيحيين وتحويلها إلى مساجد . ومن ثم تركزت البقية الباقية من النساطرة واليعاقبة فى

بغداد وتكريت وأمد وماردين وأربل والموصل . وكان لتدمير قوات تيمورلنك لهذه المدن فى العقد الأخير للقرن الرابع عشر وقتل سكانها - دون تفرقة بين مسلم أو مسيحي - قضاء مبرما على البقية الباقية من المسيحيين الشرقيين وكنائسهم فى وسط آسيا ، ولم يُسمع عنهم بعد ذلك لعدة قرون^(١٢٥) . وكان المسيحيون فى اقليم الصين - شربيون أو كاثوليك - قد لقوا حتفهم عام ١٣٦٨م عندما طردت أسرة منج Ming الصينية أسرة يوان المغولية ، إذ تخلصوا من جميع المسيحيين والمسلمين والبوذيين باعتبارهم من رموز الاحتلال المغولى وركائزه فى البلاد ، وعندما وصلت بعثات الجزويت إلى الصين بعد عام ١٥٥٠م لم نجد مسيحيا واحدا فى هذه البلاد^(١٢٦) .

تقييم إنجازات الرهبان :

عند تقييم إنجازات الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان بين المغول عامة ومغول فارس منهم خاصة لا ينبغي أن نتوقف عند الأرقام الهزيلة التى حققوها فى مجال التبشير بالمسيحية الكاثوليكية لمدة قرن كامل من الزمان ، وكذلك فشلهم فى إقناع حاكم مغولى واحد فى كل أنحاء آسيا لاعتناق المسيحية . ومن غير المنطقى أيضا مقارنة المئات القليلة من الذين تحولوا على أيديهم من بوذيتهم أو نسطوريتهم إلى المذهب الكاثوليكي بمئات الآلاف الذين تحولوا فى تلك الفترة أيضا من وثنياتهم للإسلام ، رغم أن الإسلام لا يقر الرهبنة ولم يعرف المسلمون - فى ذلك العصر - نظام جماعات دينية منظمة لنشر الإسلام بين من لا يدينون به .

«فمشروع» تحويل المغول للمسيحية الكاثوليكية كان أكبر من الإمكانيات البشرية والمادية للرهبان الذين قاموا بتنفيذه . فالبابوية كانت لها أهداف سياسية من دفع حركة التبشير للأمم وذلك لتوسيع نفوذها خارج أوروبا ، وكانت تحلم أيضا باستخدام المغول - بعد تنصيرهم وولائهم لها - كأداة ضد المسلمين . وكان نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢) أكثر البابوات الذين شجعوا الرهبان لارتداد جنوب وجنوب شرق آسيا وذلك للتعويض عن الإحباط الذى كان يصيب الأوروبيين من تساقط ممتلكات الصليبيين فى فلسطين دون المقدرة على استردادها . وكانت البابوية فى أفينون تتباهى بأن نفوذها قد وصل إلى الصين أى على الشط الغربى للمحيط الاطلنطى لتحسين صورتها - فى أذهان رجال الدين والعلمانيين على حد سواء فى أوروبا - التى وصلت للحضيض فى فترة «الأسر البابلى» فى أفينون . ولهذا أرى - أنه لو كانت هناك إنجازات من وراء هذه البعثات التبشيرية فى آسيا فترجع إلى الرهبان أنفسهم.

فهؤلاء الرهبان - مثل بلاتو الكارينى وآسيلين اللومباردى ووليم روبروك وجون مونت كورفينو وريكولد مونت كروس وجون دى كورا^(١٢٧) John de Gora ووليسم آدم^(١٢٨) ، وأودريك البوردنوني^(١٢٩) وجون المارجنولى وغيرهم - قد تركوا لنا مذكراتهم وخطاباتهم التى تناولوا فيها بشئ من التفصيل أحوال اسيا واقتصادها وسكانها وعادات أهلها ودياناتهم ، وهى معلومات وافرة ولا تقل أمانة وموضوعية عن تلك التى استقاها كل من ماركوپولو وابن بطوطة من رحلاتهما فى آسيا فى تلك الفترة . ولاشك أن هذه التقارير قد أمدت الأوربيين بمعلومات من الدرجة الأولى عن قارة آسيا أفادتهم كثيرا فى المراحل الأولى للكشوفات الجغرافية لتلك القارة ، بل كانت من أكبر العوامل التى دفعت الأوربيين لمحاولة اكتشافها .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن نجاح العديد من الرهبان الكاثوليك فى إجادة لغات السكان المحليين - مثل السريانية والأرمينية والعربية والفارسية فضلا عن اللغة المغولية جعلهم على درجة عالية فى فهم ثقافات وأديان وأحوال الشعوب التى تعاملوا معها ، وبعضهم ترجم الكتب المقدسة إلى بعض هذه اللغات المحلية وهم بذلك وضعوا أسس الاستشراق الحديث ، فضلا عن أنهم كانوا وسيلة انتقال بين ثقافات الشرق لأوروبا ، والعكس صحيح أيضاً . وأهم من هذا وذاك ، فإن هؤلاء الرهبان كانوا وسيلة احتكاك وتقارب بين العالم الكاثوليكى وبين المسيحيين الشرقيين فى آسيا . وكانت تجاربهم فى الشرق - بما فيها من نجاح أو فشل - قد ألهمت بعثات الجزويت فى القرن السادس عشر لمحاولة تكملة ما بدأه أسلافهم .

أسباب فشل البعثات التبشيرية الكاثوليكية فى تنصير المغول :

من المنطقي أن نرصد أسباب فشل البعثات الكاثوليكية فى تنصير المغول عامة ومغول فارس خاصة ومنها :

أولا : عدم اعتناق حكام المغول للمسيحية كان من أسباب إحباط الغرب الأوروبى عامة والرهبان الكاثوليك الذين ذهبوا لآسيا المغولية خاصة . فالبابوية وملكا فرنسا والمجترات وجهوا جل اهتمامهم لتنصير حكام المغول ، لأن فى اعتناق الآخرين للمسيحية تحفيزا لرعاياهم على الاقتداء بهم . ولكن ايلخانات فارس البوذيين دخلوا فى عملية مساومة مع قادة الغرب الأوروبى بالتلويح لهم بحسن معاملتهم للمسيحيين وأنهم فى طريقهم للتنصر ، لو أرسل الأخيرون المساعدة العسكرية المطلوبة ضد المالك . وتعلق الغرب بهذا الأمل الخادع كثيرا حتى أن البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢) أرسل مع عدة

سفارات من قبله ومع سفراء المغول العديد من الخطابات لأرغون ووالدته وزوجته وأمرأه دولته والقادة المحيطين به للضغط على الأخير للتنصير ولكنه مات بوذا . فالمغول - وهم قوم بدائيون- احتلوا مناطق متحضرة، وأهلها كانوا يدينون بالبوذية (فى الصين) أو بالإسلام (فى التركستان وفارس وجنوب روسيا) . وبعد استقرار المغول فى هذه المناطق - وهم أقلية ضئيلة بالمقارنة بأغلبية المحتلين - فإنهم لم يريدوا اعتناق ديانة أو مذهب دينى أجنبى عن رعاياهم لأن فى ذلك إثارة لعداء المحكومين . فعندما طلب الأخوان بولو من قوبيلاي خان اعتناق المسيحية ، فإنه رد عليهما بقوله إن رعاياه البوذيين يستطيعون بغير صعوبة الإجهاز على حياته (١٣٠).

والمغول اعتنقوا ديانات ومعتقدات رعاياهم لضمان ولائهم لهم واستقرار عروشهم فى الحكم، فاعتنق قوبيلاي خان وخلفاؤه بوذية رعاياه الصينيين ، واعتنق حكام مغول روسيا وفارس والتركستان الإسلام الذى كان دين الأغلبية الساحقة لهذه المناطق قبل احتلال المغول لها (١٣١).

ثانيا : عدم وجود دولة قوية فى آسيا تدين بالمذهب الكاثوليكي لرعاية الرهبان الكاثوليك ودفع حركة التبشير للأمام . فأرمينيا الصغرى لم يعتنق عامة سكانها المذهب الكاثوليكي ولم تستطع حماية المسيحيين الشرقيين من الإضطهادات التى تعرضوا لها من عامة المسلمين سواء قبل اعتناق غازان الإسلام أو بعده ، وذلك لأنها كانت تابعة للمغول وقد ازداد وضعها سوءا بتأثير الضربات المتلاحقة التى وجهها لها المالكى واعتناق حكام المغول للإسلام .

ثالثا : كان بعد المسافة وصعوبة الاتصال بين مراكز الرهبان فى الشرق (فى بكين أو فى الهند أو تبريز) عن مقدمى أديرتهم (فى أوروبا) أو البابوية (فى روما أو أفينون) ، فضلا عن عدم وجود وسائل آمنة للإمداد أو التموين أو الحماية لهؤلاء الرهبان من العوائق الجوهريّة لانتشار الرهبان فى آسيا ، أو استمرارهم فيها . فالزاهب كان يقطع المسافة من أفينون لإيلخانية فارس أو للصين فى سنوات طويلة ، فكم من بعثة مات أفرادها أو غالبيتهم فى الطريق ، وأدت الجبال المرحشة والصحارى المقفرة والحوانات المفترسة وبعد المسافة وقلة الزاد والعتاد إلى وفاة العديد من الرهبان العزل من كل حماية طبيعية أو بشرية وخطابات وتقارير الرهبان التى بعثوها للبابوية مليئة بتصوير

هذه العوائق^(١٣٢) . فضلا عن قلة عدد الرهبان وسط أغلبية ساحقة من المسلمين (فى وسط آسيا وغربها) والبوذيين (شرقها) .

رابعا : عدم إتقان الرهبان الكاثوليك للغة المحلية للسكان وعدم ترجمة الكتب المقدسة للفارسية أو اللغات الصينية أو الهندية كان حائلا دون استجابة السكان غير الكتابيين للمسيحية الكاثوليكية . فالرهبان كانوا يمارسون طقوس العقيدة باللاتينية (فى أرمينيا) أو السريانية (فى فارس) أو المغولية (فى الصين) وهى لغات غريبة على السكان المحليين . حقيقة أن مجمع فيينا المسكونى فى المرسوم الثانى فى ٦ مايو عام ١٣١٢ م قرر ضرورة تدريس اليونانية والعربية والعبرية والسريانية فى جامعات روما وباريس وأكسفورد وبولونيا وسالا مكننا ، ولكن جامعة باريس هى التى نفذت هذا المرسوم ولعدة سنوات فقط^(١٣٣) . ولهذا لم تجد البابوية الرهبان المؤهلين لغويا للتبشير بين السكان الآسيويين ، لدرجة أن البابا يوحنا الثانى والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤) طلب من ملك أرمينيا الصغرى أن يأمر رعاياه بتعلم اللغة اللاتينية حتى يسهل على الرهبان الكاثوليك التبشير بينهم^(١٣٤) (١١١) وفى هذا المجال يبعث أسقف مدينة الزيتون بالصين رسالة مؤرخة فى ٣ يناير ١٣١٨ للبابا وللقدم دير الفرنسيسكان بأوروبا . يقول فيها « حقيقة أن المحصول وافر (فى إشارة لكثرة الراغبين فى التنصر) ولكن العمال (فى إشارة للرهبان) قليلون ولا يمتلكون آلات الحصاد اللازمة (أى لغة السكان) وذلك لأن إخوتنا (الرهبان) قلائل وفى أرذل العمر وغير مهرة فى تعلم اللغات» (الخاصة بالسكان)^(١٣٤) ، وبالتأكيد كان لعدم فهم السكان المحليين فى فارس وفى الهند أو الصين للغة الرهبان أو العكس أثره على استجابتهم للتنصر أو استمرارية من تنصر منهم فى الاستمسك بنصرايته وقد أكد هذه الحقيقة الرهبان أنفسهم^(١٣٦) فى خطاباتهم التى بعثوها للغرب . وعلى النقيض من ذلك ، نجد أن العرب قد حثوا سكان المناطق التى فتحوها - بطريقة أو بأخرى - على تعلم اللغة العربية وعدم ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات المحلية وبذلك ضمنوا فهم الأخيرين للإسلام نصا وروحا وهذا أحد عوامل استمرارية الدين الإسلامى فى المناطق التى دخلها .

خامسا : الخلافات المذهبية بين الرهبان الكاثوليك والمسيحيين الشرقيين حالت دون تعاونهم المشترك وأدت فى أحيان كثيرة لفشل جهود المبشرين الأوروبيين ، فالكاثوليك كانوا يعتبرون نسطور وأتباعه هراطقة ملحدون لأن مذهبهم ينكر أن السيدة العذراء «والدة

الرب» وظلوا يتعاملون معهم على هذا الأساس . فالراهب وليم روبروك يتهم رهبانهم وكهنتهم بأنهم مرابون وفاسقون وسكيرون . ويقول عنهم أيضا أنهم كانوا شديدي الجهل وأنهم لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم التي كانت مدونة بالسريانية . وأنهم يتاجرون بالمناصب الدينية ولا يبالون إلا بجمع الثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الكنيسة (١٣٧) . وبأتى بعد ذلك ماركو بولو بأربعين عاما ليقول عن مسيحي الصين أنهم قوم جهلاء وعديمي الكفاءة (١٣٨) ويؤكد جون المونت كورفينو - مطران بكين الفرنسي - أنه لولا مضايقات النساطرة له وشكاويهم ضده للخاقان وتحريضهم العامة ضده لاستطاع اجتذاب ثلاثين ألفا من السكان (بدلا من ستة آلاف فقط) للكاتوليكية (١٣٩) . وقد رأينا أن نسطرة بغداد طردوا الرهبان الكاثوليك منها متحدين رغبة أسقفهم فى سيادة كنيسة روما عليهم ، وبطبيعة الحال فان انشاء مطرانية كاثوليكية فى السلطانية عام ١٣١٨ قد تقرر اليعاقبة والنسطرة من الرهبان الكاثوليك وجعلهم فى موضع المنافسة معهم (١٤٠) .

وفضلا عن ذلك كانت المنافسة بين كل من الرهبان الفرنسيين والدومنيكان التي وصلت لدرجة أن الرهبان الفرنسيين فى بعض الأحيان لم يعترفوا بسلطة الأسقف الدومنيكاني لتبريز عليهم . كما أن ظهور الانشقاقات بين الفرنسيين أنفسهم متمثلة فى مذهب الروحين الذى أدانته البابوية وترتب على ذلك طرد البقية الباقية من رهبانهم من ايلخانية فارس عام ١٣٤٤ ، وحتى الرهبان الدومنيكان انقسموا بين عدة نحل ومذاهب (١٤١) وهذا كله كان له أثاره الهدامة ليس فقط على أسلوب تعاملهم مع غيرهم من فئات وطوائف وديانات مختلفة بل على وجودهم فى بيئة غريبة عنهم بكل المقاييس .

سادسا : ويتعلق بالأوضاع الأمنية بوسط آسيا وشرقها . فلاشك أن فترة «السلام التتري» الناجمة عن تأمين المغول للطرق والبريد وحماية المسافرين منذ عام ١٢٤٠ حتى ١٣٤٠ تقريبا قد شجعت حركة التجارة الداخلية فضلا عن تشجيع كلا من التجار الإيطاليين ومعهم الرهبان الكاثوليك فى ارتياد مناطق جديدة ، كانت مجهولة لهم . ولكن فى أحيان كثيرة لم تتوقف الحروب بين ايلخانية فارس ومغول التركستان أو بين مغول فارس ومغول روسيا أو بين الماليك وأرمينيا الصغرى أو مغول فارس والماليك وهذا من شأنه سد الطرق وجعلها غير آمنة تماما . فضلا عن القلاقل الداخلية من المسلمين

سواء ضد الحكام أو ضد المسيحيين عموما كما حدث عدة مرات وفى عدة مناسبات وفى مناطق عديدة بصفة عامة وفى ايلخانية فارس بصفة خاصة وهذا أحدث أشد الأضرار بالرهبان الكاثوليك وأديرتهم وكنائسهم. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإن ولاء الطاعون الأسود الذى اجتاح العالم فى عامى ١٣٤٨-١٣٤٩ قد أفنى عددا كبيرا من السكان ومنهم الرهبان الكاثوليك. ومن ثم ظلت مراكز الأخيرين فى آسيا شاغرة بعد هذا التاريخ. وأيضاً تزامن طرد أسرة منج Ming لأسرة يوان المغولية عام ١٣٦٨ التنكيل بكل الأجانب بها وسد الطريق البرى مع غرب آسيا، وسبق ذلك سقوط دولة الايلخانات فى فارس وتفككها لعدة أجزاء متناحرة فأضاف هذا صعوبات كبيرة ليس فقط لوجود الرهبان الكاثوليك أو مراكزهم ولكن أيضاً لوجود المسيحيين الشرقيين أنفسهم. كما أن غزو تيمورلنك لغرب آسيا (١٣٦٩-١٤٠٥) وتدميره لعشرات المدن وقتل كثير من سكانها مسلمين ومسيحيين قد قضى على البقية الباقية من المسيحيين الشرقيين ومراكزهم الدينية، وفصل آسيا عن أوروبا (١٤٢) وهو الدور الذى أكمله الاتراك العثمانيون بعد ذلك بقليل، ومن ثم أضحت الاتصالات بين غرب أوروبا ووسط آسيا وشرقها صعبة جداً لقرنين من الزمان تقريبا.

سابعاً: كما أن هناك أسباباً كامنة فى الديانة الإسلامية نفسها هى التى جذبت الآلاف من المغول - ومن قبلهم ومن بعدهم الملايين من الوثنيين وغيرهم من جميع بقاع العالم لاعتناقها، ومنها بساطة العقيدة الإسلامية وعقلايتها وتسامحها مع أهل الذمة، والتأثير البطيئ الدائم الذى يحدثه الاتصال اليومي بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامى، وتأثير حياة الورع والتقوى التى كان يحياها عامة المسلمين على المغول، ولأن الإسلام دين الفطرة فانه لم يجعل هناك واسطة بين المسلم وربه. فضلاً عن إقرار الإسلام لتعدد الزوجات (مع العدل بينهن والميسرة) جعله أكثر اقتراباً لحياة المغول الاجتماعية بعكس المسيحية التى قيدت الزواج بواحدة وحرمت زواج الأقارب (١١٤٣). وهذا يفسر سر اعتناق ثلاثة أرباع المغول فى عالم العصور الوسطى للإسلام دون غيره من الديانات السماوية.

الهوامش

١- أرنولد ، توماس : الدعوة إلى الإسلام ، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، ترجمة إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى . القاهرة . د . ت ص ١٩١ ، حسن ابراهيم حسن : «انتشار الإسلام بين المغول والتتار» . صحيفة الجامعة المصرية ، ١٩٣٣ ، ص ٢٦ .

٢- لقد كانت النحلة البوذية منتشرة بين القبائل التركية فى شرق آسيا حيث جاء أصحابها من الهند وأشاعوها فى الصين والبلاد المجاورة . وبالنسبة للمسيحية فيبدو أن المبشرين بها قد وصلوا لمنطقة ما وراء النهر قبل عهد قسطنطين العظيم ، واعتنقت بعض القبائل التركية النصرانية على يد الأساقفة النساطرة فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، وتوجد دلائل أثرية مكتوبة بالصينية والسريانية عام ٧٨١م توضح ورود النساطرة للصين منذ عام ٦٣٥م ، ولكن الصينيين طردوا النساطرة وغيرهم من الأجانب عام ٨٤٥م . والمهم أن قبيلة الياغور - التى كانت تسكن من جبال قراقورم حتى جنوبى سمرقند- قد تنصرت واقتدى بها قبيلة الجغتاي وتدعى الخطاي . وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى تنصرت أيضا قبيلة الكرايت ، وكان ملوكها نصارى يسمى كل منهم «اونك خان» ومعناه الملك يوحنا . وقيل أن الأساقفة النساطرة كانوا يرسمونهم ملوكا وكنهه معا . ولذلك عرفهم الأوروبيون باسم الكاهن يوحنا Prester John والرابع منهم هو الذى غلبه على ملكه سنة ١٢٠٣ أحد عماله المسمى تيموجين وهو المشهور باسم جنكيز خان . وقد تزوج الأخير ابنة أخى اونك خان وهى نصرانية وأنجب منها ولده منكوخان . لويس شيخو اليسوعى «النصرانية بين قدماء الاتراك والمغول» . مجلة الشرق ، السنة السادسة عشرة ، ١٩١٣ ، ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .

٣- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٩١ ، جوزيف نسيم يوسف ، لويس التاسع فى الشرق الأوسط . ص ٢٦١ .

4- William Rubruck , in Dawson : The Mongol Mission , p. 160 .

٥- رحلات ماركو بولو ، ترجمتها إلى الانجليزية وليام مارسدن ، ونقلها إلى اللغة العربية عبد العزيز جاويد . القاهرة . د . ت . ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

٦- المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

٧- المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٤٧ - ١٥٠ .

Barthold , W : Turkestan Down to the Mongol Invasion . 3 rd . ed . Eng . Trans . by Mrs. T . Minorsky . London , 1968 , pp . 468 - 481 .

- ٨- انظر ما سبق دراسته عن السفارات المتبادلة بين البابوية والمغول في عهد البابا انوسنت الرابع وللمزيد من التفاصيل :
- Cf . Paul Pelliot " Les Mongol et la Papaute " , R . O . C . Vols . XX 111 XX V 111 , Paris , 1922-32 .
- ٩- القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة حسن حبش ص ٢١١ .
- ١٠- المصدر السابق ، ص ٢١٩ .
- 11- Wiliam Rubruck , in Dawson , op . cit . , p. 155 .
- 12- Ibid , pp. 202 - 4 .
- ١٣- جامع التواريخ م ٢ ج ١ ، ص ٢٢٠ ، ويؤيد هذه الرواية المؤرخ الأرميني المعاصر Grigor of Akano Cf . History of the Nation of the Archers , p. 241 .
- ١٤- فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ، صفحات ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ .
- ١٥- حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٣٨ .
- 16- The Chronography of Gregory Abul Faraj , 1225-1286 , p. 431 .
- ١٧- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . طبعة بغداد عام ١٣٥١ هـ ، ص ٣٢٩ .
- ١٨- المصدر السابق ، ص ٣٣٣ ، ص ٣٣٤ .
- ١٩- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ١٠٥ .
- ٢٠- كتاب السلوك ، ج ١ ، القسم الثاني ص ٤٢٥ .
- ٢١- المصدر السابق ونفس الصفحة .
- ٢٢- محمد صالح داود القزاق : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٢١٦ - ٢٢٦ .
- 23- Cf . Jackson ; " The Crisis in The Holy Land " op . cit . , p. 495 .0
- ٢٤- محمد صالح القزاق : المرجع السابق ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .
- ٢٥- المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .
- ٢٦- المرجع السابق ص ٢٨٥ ، عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ١٦٦ - ١٦٩ .
- ٢٧- للمزيد من التفاصيل ونص الرسائل المتبادلة بين تكودار أحمد والمتصور قلاوون انظر :

ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور فی سيرة الملك المنصور ، ص ٥ - ١٦ ، ٦٢ ، المقریزی :
كتاب السلوك ج ١ ، ق ٣ ملحق رقم ٧ ص ٩٧٧ - ٩٨٤ .

٢٨- القزاق : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ ، عبد السلام فهمی : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

٢٩- ابن الفوطی البغدادی : الحوادث الجامعة ، ص ٤٥٤ ، القزاق : المرجع السابق ، ص ٢٨٨-٢٩٠ .

30- Bausani , A . , "Religion Under the Mongols " , in Cambridge History of Iran , vol .

القزاق : المرجع السابق ص ٢٩٠ . 5 . Cambridge , 1968 , p. 541 ;

٣١- ينقل المؤرخ الفارسی وصاف الحضرة نماذج من الشعر الذى تناقله العامة أثناء فترة وزارة سعد
الدولة اليهودی التى تصور مدى كراهية الرعية له ومنها :

يهود هذا الزمان قد بلغوا	مرتبة لا ينالها فلك
الملك فيهم والمال عندهم	ومنهم المستشار والملك
يا معشر الناس قد نصحت لكم	تهودوا قد تهرد الفلك
فانتظروا صيحة العذاب لهم	لنعلن قليل تراهم هلكوا

Cf . Browne , Edward : A Literary History of Persia . Cambridge , 1951 , vol ,
11 , p. 32 .

٣٢- نور مصرع سعد الدولة والتكيل باليهود ، نظم الشاعر العراقى زين الدين على بن سعيد
قصيدة طويلة فى هذا الشأن منها :

نحمد من دار باسمه الفلك	هذى القروء اليهود قد هلكوا
وقارن النحر سعد دولتهم	واقترضوا فى البلاد وانتهكوا
وشتت الله شمل ملكهم	وبالحسام الصقيل قد سيكوا
كم حكموا فى البلاد ولا حكموا	وارتكبوا الموبقات وانتكروا
ابكاهم الله عاجلا أسفا	من بعد ما فى زمانهم ضحكوا
فانتم شر أمة سلفست	وانتم شر أمة تركوا
عبدتم العجل دون خالقكم	فضل ذاك الإياب والنسك

(نقلا عن تاريخ وصاف) . Cf . Browne , op . cit . 11 , pp. 34 , 35 .

Spuler , Bartold

٣٣- القزاق : المرجع السابق ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

Die Mongolen in Iran . Leipzig , 1939 , p. 718 .

- ٣٤- القزاز : المرجع السابق ص ٢٩١ ، عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٨٩ .
- 35- Atiya , A.S. ' The Crusade in the Later Middle Ages , p. 238 fn . 2 .
- 36- William Rubruck , in Dawson : The Mongol Mission , p. 215 .
- 37- Cf . Borghozio , " Un Episodio delle relezioni tra la sede e i Mongoli (1274) " in Rome , vol . 14 , pp . 370 , 71 .
- 38- Ibid , pp . 371 , 72 .
- ٣٩- القزاز : المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٣ .
- ٤٠- القزاز : المرجع السابق ص ٣١٤ .
- 41- Howorth , History of the Mongols , 111 , p. 210 .
- ٤٢- رحلات ماركو بولو ، ص ١٥ .
- ٤٣- المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ ؛ Rachewiltz , Papal Envoys to the Great Khans , pp.155,156 .
- ٤٤- رحلات ماركو بولو ، ص ١٣٤ .
- ٤٥- نفس المصدر والصفحة .
- ٤٦- المصدر السابق ، ص ١٤٩ .
- 47- Howorth , op . cit . , 111 , p. 280 ; Borghozio , op . cit . , pp. 365 , 366 .
- 48- Howorth , op . cit . , 111 , p. 280 ; Borghozio , op . cit . , pp. 365 , 366 .
- 49- Howorth , op . cit . 111 , p. 281 .
- 50- Loc . cit . , Connell , Western Views of the Tartars , p. 206 .
- ٥١- سبق أن أرسل البابا انوسنت الرابع بعثة على رأسها الراهب الفرنسيسكاني لورانس البرتغالي عام ١٢٤٥م لكبار رجال الدين النساطرة والبعاقية والأرمن والإغريق لحثهم على خضوع كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم في روما . لمزيد من التفاصيل عن مدى نجاح هذه البعثة انظر :
- Phaire , Barbare , Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245 - 1254 : An Analysis , pp . 28-39 .
- ٥٢- ولد نسطور في شمال الشام في بداية القرن الخامس الميلادي ، ودرس اللاهوت في مدرسة انطاكية . وفي عام ٤٢٨م أختير لمنصب بطريرك القسطنطينية ، وليس معروفا أنه قام بزيارة

للمشرق على الإطلاق، ولكنه نفى إلى صحراء مصر عندما حكم عليه بالهرطقة في مجمع أفسوس عام ٤٣١م. وكانت أهم معتقداته تدور حول طبيعة المسيح عليه السلام. ومنها أن السيدة مريم ليست أما للرب ولكنها والدة للمسيح وقال « إننى لا أستطيع أن أحدث عن إله عمره شهرين أو ثلاثة شهور ». ومن آرائه كذلك أن الشخص الثانى فى الثالوث لم يولد من العذراء، وأن المسيح مات على الصليب باعتباره بشراً. وقال « كيف تستطيع (السيدة) مريم أن تلد إلهاً ويكون خالقها ؟ » وأيضاً « لو مات الرب فمن يستطيع أن يبعثه من موته ؟ » وهذا يعنى أن نسطور كان يؤمن بأن المسيح عليه السلام له طبيعتين : إلهية وبشرية. ولكنه فشل فى إقناع أعضاء مجمع أفسوس بآرائه التى أصر عليها فحكم عليه بالهرطقة ونفى إلى مصر عام ٤٣٦م. ولكن أساقفة الشرق الذين لم يحضروا هذا المجمع رفضوا قراراً بالهرطقة نسطور وعقدوا عدة مجامع محلية لتبرئته، وانتشرت معتقداته فى أماكن كثيرة فى آسيا منذ ذلك الحين وأنشئت فيما بعد أسقفيات نسطورية فى سوريا وأرمينيا وفارس. وفى مدن هراء ومرو وطشقند وكشغر والمعبر وكذلك فى بلاد الصين وكان مقر بطريق النساطرة فى بغداد أنظر :

Hauston , G. W. , " An Overview of Nestorians in Inner Asia" Central Asiatic Journal . Vol . XX IV , 1980 , pp. 60-68 .

53- Rabban Sawma , The Monks of Kublai Khan , pp . 172 - 195 also CF. Mann, H. K. Lives of the Popes in the Middle Ages, vol . X V II, 1289 - 94 . London , 1931 , , pp. 45-47 , Ryan : The Tnterrelation of the Oriental Mission and Crusade Activ- ities of the papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 , pp. . 26-36 .

54- Rabban Sawma , op . cit . , p. 190 .

55- Moule : Christians in China Before the Year 1550 , pp. 112-115 . also cf . Ryan , وقد أورد مول (Moule) الترجمة الانجليزية لهذه الرسائل . op. cit . , pp . 26-31 .

56- Mann , Lives of the Popes , X VII , p . 48 .

٥٧- دأبت بعض القوى اللاتينية على التحرش ببيزنطة فور استعادة ميخائيل الثامن باليولوجس للقسطنطينية عام ١٢٦١ م. وأرسل الأخير الوفود للبابوية يعدها بخضوع كنيسة الإغريقية لها بل والمشاركة فى حملة صليبية لو اعترفت البابوية بملكته للقسطنطينية وتوقفت عن الدعوة لحملة صليبية ضد بيزنطة. ولكن شارل الانجوى والبنادقة هاجموا السراجل البيزنطة عدة مرات ، ولوعدوا البابوية لميخائيل بتحريم المعتدين على أملاكه من رحمة الكنيسة لو خضع لنفوذا ، فان الامبراطور البيزنطى أرسل مبعوثيه فى مجمع ليون عام ١٢٧٤ م لإعلان خضوع كنيسته للبابوية

، ولكن البيزنطيين قاموا هذا الأمر بشدة . ولاعتداءات شارل الانجوى والبنادقة على بيزنطة
واصدار البابا قرارات الحرمان ضد الامبراطور البيزنطى فان الوحدة بين الكنيستين الأرثوذكسية
والكاثوليكية لم تعمر طويلا وكانت حبرا على ورق .

Cf . Setton , K . M : The Papacy and the Levant . Vol. I , pp . 128 , 134 -137,
140-3,483.

58- Moule : Christians in China , pp . 123 ,24 .

59- Loc . cit .

60- Chabbot , " Notes sur les relations du Roi Argun avec l' Occident" Revue de
l'Orient Latien , II , 1844 , pp . 581 - 3 ; also cf . Ryan , op . cit , pp. 19 - 21 .

61- Chabbot , op . cit . , p . 584 ; Moule , op . cit . , p. 114 ; Ryan , op . cit p. 22 .

62- Chabbot , op . cit . , p. 589 ; Ryan , op . cit . , p. 24 .

63- Loc . cit .

64- Moule , op .cit . , pp . 116-117 ; Ryan , op . cit , p. 28 .

65- Sawma , op . cit . , p . 199 ; Moule , op . cit . , pp . 116-117 .

66- Spuler , Bartold , Die Mongolen in Iran , Leipzig , 1939 , p. 218 .

٦٧- ولد جون فى مونت كورفينو بـسياليرنو عام ١٢٤٦م أو ١٢٤٧م . وكان جنديا ثم قاضيا ومعلما
فى بلاط فردريك الثانى . ثم انضم لجماعة الفرنسيسكان . وقد أرسله مقدم هذه الجماعة إلى
الشرق عام ١٢٨٠م حيث قضى عدة أعوام فى فارس وفى أرمينيا للتبشير بالعقيدة المسيحية .
وفى عام ١٢٨٩ أرسله ملك أرمينيا الصغرى على رأس سفارة للبابا ليصف له ما تعرضت له
بلاده من خراب وتدمير على يد المماليك ويطلب منه نجدة الأرمن . ولظروف سياسية فان البابا
تجاهل هدف بعثة جون وأعاد إرساله إلى الشرق للتبشير بالعقيدة المسيحية .. CF.Moule , p
167 ; Ryan , op . cit . , pp . 38-41 .

68- Ryan , op . cit . , pp . 42-57 .

69- Ibid , pp . 56 - 69 ; Moule : Christians in China , pp . 168-171 .

70- Hisang , Paul Stanislaus : The Catholic Missions in China During The Middle Ages
(1294-1368) . Ph . D . Diss . Washington , D. C . , 1949 , pp . 2 , 3 ; Rachewiltz ,
Papal Envoys , pp . 160-164 .

٧١- ماركو بولو : المصدر السابق ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، Rachelwitz, op. cit., p. 164

72- Cf . The Letters of John of Monte Corvino , in Yule , H . (ed . trans .) Cathay and the Way Thither . Vol . III , London , n. d pp. 45-58 ; Dawson : The Mongol Mission , pp . 224-232 , Moule , Christians in China , pp . 171-183 .

73- Loc . cit ; Rachelwitz , Papal Envoys , p. 169 .

٧٤- نشر Moule الترجمة الكاملة لهذه المراسيم .

Cf . Christians in China Befor the Year 1550 , pp. 183-191 , also cf . Atiya : The Crasade in the Loter Middle Ages , pp . 250 , 251 .

٧٥- ظل منصب رئيس أسقفية بكين شاغرا لفترة من الوقت بعد وفاة جون مونت كورفينو عام ١٣٢٨م وفى عام ١٣٣٣م رسم البابا راهبا يدعى نيقولا Nicholas فى هذا المنصب ولكن الأخير توفى قبل وصوله إلى الصين . وفى عام ١٣٣٨م أرسل الخان المغولى فى بكين سفارة للبابا بندكت الثانى عشر (١٣٣٤-١٣٤٢) على رأسها أحد الرهبان الفرنسيسكان وتضم خمسة عشر نسطوريا من قبيلة اللان لطلب المزيد من الرهبان الكاثوليك وسرعة تعيين رئيس أساقفة لبكين فضلا عن طلبات أخرى . ومن ثم أرسل هذا البابا أربعة رهبان فرنسيسكان وصل منهم جون المارجونولى John of Marignoli عام ١٣٤٢م الذى استقر فى بكين عدة أعوام فى رعاية الحاكم المغولى وحمايته ، حتى رجع لافينون التى وصلها عام ١٣٥٢م وترك مذكراته عن تجارته فى جنوب آسيا وشرقها . أما عن أسقف الزيتون فان آخر مرة ورد له ذكر كان فى خطاب من الصين عام ١٣٢٦م وأن هذه الأسقفية قد حولت إلى مطرانية ولكن جيمى الفلورنسى James of Flor-ens أول من عين لها لم يصل إلى الصين لأنه قتل فى آسيا الصغرى عام ١٣٦٢ . وقد رسم البابا أوربان الخامس عام ١٣٧٠ ولیم أوف براتو William of Prato رئيسا لأساقفة بكين ولكن الأخير لم يصل إلى الصين أبدا . وقبل ذلك بعامين طردت أسرة يوان المغولية من الصين وقضى على كل الأجانب الباقين على قيد الحياة بما فيهم أصحاب الديانات السماوية .

لتفاصيل البعثات الكاثوليكية فى الصين فى القرن الرابع عشر الميلادى انظر :

Yule , Cathay , III , pp . 3-76 ; Moule , Christians in China , pp. 168-215 ; Beazley : The Down of Modern Geogrophy , III , pp . 161-187 ; Rachewiltz , op . cit . , pp . 160-213 ; Hisiang : The Catholic Missions in China During the Middle Ages (1294-1368); Baldwin , W . Marshall , Missions to the East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries “ , in Setton (ed) A History of the Crusades , V , pp. 498 ff .

٧٦- ولد ريكولد في منطقة كروس بجوار فلورنسا عام ١٢٦٧م ودخل في حياة الرهبنة في دير الدومنيكان في منطقة توسكاني وكان لاهوتيا بارعا ، وقد تجول في آسيا الصغرى والعراق وفارس فضلا عن الأراضي المقدسة حيث قام بجهود كبيرة في مجال التبشير بالعقيدة في هذه البقاع ، وترك مؤلفات متميزة تصف أحوال هذه البلاد وسكانها وكيفية ممارستهم لشئون العقيدة، خاصة وأنه كان يتقن اللغة العربية. ويعتبر ريكولد كروسي رائدا للمستشرقين الأوروبيين في دراساته عن الشرق الإسلامي. وقضى الفترة من عام ١٢٨٨ حتى عام ١٣٠١ بايلخانية فارس كراهب دومنيكاني ورجع لاطاليا عام ١٣٠١ . وتوفي في ٣١ أكتوبر عام ١٣٢٠ عن عمر يناهز الثمانين عاما .. 1 , pp . 190 , III , Cf . Beazley : The Down of Modern Georaphy ,

77- Ibid, pp. 192, 6, 98 .

78- Ibid , p. 198 .

79- Ibid , p. 200 .

80- Beazley , op . cit . , p. 199 .

٨١- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

82- Beazley , op . cit., pp. 201 , 202 .

83- Ibid , pp . 202,203 .

٨٤- للتفاصيل أنظر ' Moorman , John : A History of the Franciscan Order from its Origins to the Year 1517 . Oxfard , 1968 ; Daniel E : The Franciscan Concept of Mission in the High Middle Ages . Kentucky , 1975 .

85- Phaire : Papal Mouivations for an Asian Apostolate , pp . 60-69 ; Rachelwits , op . cit , pp. 112 , 113 .

86- Baldwin , " Missions to the East," op . cit . V , p. 482 .

87- Moule : Christians in China, pp. 210-13 .

88- Ibid , p. 255 ; Saunders . J . J . Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Canterbury , 1977 , pp . 82 , 3 , 92 , 3 .

89- Cf . The Chronography of Gregory Abu L . Faraj , pp. 487 , 488 .

٩٠- كان رامون لول Ramon Lull (١٢٣٢-١٣١٦) من رواد الفرنسيسكان في العصور الوسطى الذين تركوا بصمات واضحة ليس فقط على جماعة الرهبان الفرنسيسكان ولكن أيضا على دراسة

الأوربيين للعلوم واللغات الشرقية فقد كان لول يجيد أربعة لغات أجنبية منها اللغة العربية التي تعلمها في شمال أفريقيا وترجم إليها بعضا من مؤلفاته بغرض شرح العقيدة المسيحية للسكان العرب بلفتهم . وقام بتأليف العديد من الكتب في اللاهوت والفلسفة ومقارنة الأديان وغيرها . وكان صاحب فكرة أن تحويل المسلمين والمغول للمسيحية الكاثوليكية أكثر إفادة للغرب الأوربي من قتالهم ، وقدم في عامي ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ عدة مذكرات للبابوية يشرح فيها كيفية وأهمية جذب المغول للمسيحية خشية اعتناقهم للإسلام أو اليهودية فيكونوا خطرا على المسيحيين . وكان صاحب فكرة تدريس اللغات للرهبان وذلك للتبشير بلغة السكان المحليين ، وهذا الاقتراح أخذ به مجمع فيسينا المسكوني عام ١٣١٢ ، وفضلا عن ذلك كان له العديد من الخطوط والمشروعات لإحياء الحملات الصليبية ودونها في مذكرات قام بتسليمها بنفسه للبابوية والملوك وأمراء الغرب الأوربي في باكورة القرن الرابع عشر .

وباعتباره راهبا فرنسيسكانيا فإنه أخذ على عاتقه محاولة تحويل المسلمين في شمال أفريقيا للمسيحية . ومن ثم سافر ثلاثة مرات لهذه المنطقة لهذا الغرض ، فوصل إلى تونس في المرة الأولى عام ١٢٩٢م لكن العامة قبضوا عليه وقذفوه بالحجارة وانتشله قارب جنوى في الميناء من موت محقق . وقد وصل إلى مدينة باجة الجزائرية في المرة الثانية عام ١٣٠٧م ودخل في محاولات مع رجال الدين المسلمين ، ولكن قاضى المدينة أمر بحبسه ستة شهور لظفنه في الإسلام قارة ولحمائمه من بطش العامة تارة أخرى . ورجع رامون لول لتونس عام ١٣١٥م حاملا خطابات توصية من ملك أراجون للخليفة الحفصى ، وبناء على ذلك سمح له بالبقاء هناك شريطة عدم إثارة المسلمين ، ولكنه لم يلتزم بذلك ، وأمر مفتى البلاد باقصائه خارجها . فرحل رامون إلى مدينة باجة الجزائرية وما أن رآه العامة وتعرفوا عليه حتى رموه بالحجارة حتىلقى حتفه على الشاطئ في بداية عام ١٣١٦م ونقل جثمانه تاجر من البندقية إلى جزيرة مالما حيث دفن هناك .

Cf . Atiya , A.S. : The Crusade in the Later Middle Ages , pp . 74-94 .

91- Rachewiltz , Papal . Envoys , p. 174 .

92- Baldwin , " Missions to the East " , p. 507 , 8 .

٩٣- كان بركة خان (١٢٥٦-١٢٦٧م) هو أول من أسلم من أمراء المغول ، وقبل في سبب إسلامه أنه التقى يوما مع غير للتجارة آتية من بخارى ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن الإسلام فشرحا له شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والاخلاص له . وقيل أن بركة اعتنق الإسلام من طفولته ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند ، ومهما يكن من أمر ، فإن كل جيشه تقريبا قد اعتنق الإسلام وأنه جرت العادة بأن كل فارس يحمل

سجادة للصلاة ، وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية فى بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقه وعلماء الكلام وكانت المناظرات الدينية تشغل أكثر مجالسه مع العلماء ، وكان سنبا شديد التمسك بدينه . توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٩٧ .

٩٤- «الجاو» عمله ورقية كانت مستخدمة فى الصين فى عهد المغول ، وقد تحدث ماركوبولو عنها تفصيلا (الرحلات ص ١٦٨-١٧٠) فقال أن هذا الورق كان يصنع من لحاء ورق التوت ، وكان يوجد عدد من الموظفين المخصصين الذين يهرونها بأختامهم ثم تختتم بالخاتم الملكى . ولم يتجرأ إنسان على رفض قبولها كعملة للدفع وإلا كان مصيره الإعدام . وكانت الرعية والتجار الأجانب يستبدلون ما معهم من ذهب وفضة بما يعادله من هذه العملة الورقية . وعندما تبلى هذه النقود فإن صاحبها كان يحملها إلى دار الضرب حيث يستطيع الحصول على أوراق جديدة بدلا منها مقابل دفع ثلاثة فى المائة فقط . ولهذا كان الذهب والفضة المقابلين لهذه العملة بحوزة الخاقان المغولى وحده . ومن ثم اعتبر ماركوبولو أن الأخير أغنى ملوك العالم ، وقد حاول كيبخاتوخان أن يستبدل العملات المتداولة فى ايلخانية فارس من ذهب وفضة باصدار عملة الجاو الورقية . وفى يوم السبت ١٩ من شوال عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٤ ظهر الجاو فى مدينة تبريز . وكانت الأوامر تقضى بقتل كل من لا يتعامل به فى الحال نظير أن يقوم السكان والتجار بتسليم ما معهم من ذهب وفضة لمدبوى الخان لقاء ما يعادلها من هذه العملة الورقية . وصار الناس يتعاملون بها أسبوعا واحدا خشية السيف ولكنهم فروا من المدينة وهجروها وترتب على ذلك أضرار اقتصادية بالغة تناولها رشيد الدين الهمذانى فى فصل كامل بعنوان «وضع الجاو المششوم والاضطرابات التى ظهرت فى البلاد بسببه» . انظر : جامع التواريخ، المجلد الثانى، الجزء الثالث ص ١٨١ - ١٨٤ لهذا فان وضع الشهادتين على هذه العملة الورقية كان لترغيب السكان - وأعلبيتهم الساحقة من المسلمين للتعامل بها .

٩٥- نوروز هو ابن عم أرغون آقا الذى كان يحكم إيران من قبل المغول قبل مجئ هولاكو وقد ظل (أرغون) يحكم هذه البلاد مدة ٣٩ عاما . وقد وقع اختيار الايلخان ارغون على الأمير نوروز ليصبح ابنه غازان فيكون مساعدا له ونائبا عنه فى حكم خراسان . فؤاد عبد المعطى الصياد : السلطان محمود غازان خان المغولى واعتناقه الإسلام . القاهرة ١٩٧٩ ص ٤ ، ٥ .

٩٦- مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٦ ، الصياد : المرجع السابق ص ٧ .

٩٧- للتفاصيل انظر : مصطفى بدر : المرجع السابق ص ١٧ - ٣٢ ، الصياد : المرجع السابق ، ص ١١-١٦ .

- ٩٨- مصطفى بدر : المرجع السابق ، ص٤٦ ، ٤٧ ، الصباد : المرجع السابق ، ص١٧ .
- ٩٩- الصباد : المرجع السابق ص١٧ .
- 100- Bar Hebraeus : The Chronography , pp. 506 , 7 . Spuler , op . cit , pp. 219 , 20 ;
- الصباد : المرجع السابق ، ص١٣ .
- 101- Spuler , Die Monglen in Iran , p. 219 .
- ١٠٢- الصباد : المرجع السابق ص١٤ ، ١٩ .
- ١٠٣- مصطفى بدر : مغول ايران بين الاسلام والمسيحية ص٣٥ - ٥٠ ، الصباد : السلطان غازان محمود خان المغولي واعتناقه الإسلام ص٢٦ - ٢٨ .
- ١٠٤- للتفاصيل انظر توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص٢٠٩ ، ٢١٥ ؛ حسن ابراهيم حسن وانتشار الإسلام بين المغول والتتار ص٤٩ - ٥٧ .
- 105- Vine , Aubrey R : The Nestorian Churches , London , 1937 , pp. 152 , 3 ; Spuler , op . cit , p. 220 ; Moule , Christians in China , pp. 120 - 22 .
- 106- Bar Hebraeus : The Chronography , pp. 506 , 7 ; Spuler , op . cit . , pp. 220 , 21 .
- 107- Spuler , op . cit . , p. 220 .
- 108- Loc . cit . , مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص٥٢ - ٥٨
- 109- Saunders : Muslims and Mongols , pp . 82 , 85 .
- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٢٠١ .
- ١١٠- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٣٥١ ، ٣٥٢ .
- 111- Cf . The Monks of Kublai Khan , pp . 210 , 211 , 221 , 22 .
- 112- Ibid , pp . 234 , 35 , 247 , 251 , 252 .
- 113- Spuler , op . cit . , p. 220 ; Howorth , op . cit . , p. 442 .
- 114- Spuler , op . cit . , p. 220 .
- ١١٥- انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .
- 116- Baldwin , " Missions to the East " , op . cit . V , p. 515 .
- 117- Howorth , History of the Mongols , III ; p. 603 ; Beazley : The Dawn of Modern

.-Geography , III , p. 206 ; Baldwin , " Missions to the East " op . cit . , V , p. 505 .

١١٨- عن هذه التفاصيل انظر :

Baldwin , " Missions to the East " op . cit . , V . , pp . 505 - 508 .

119- Ibid , p. 508 .

120- Baldwin , " Missions to the East , " pp . 507 , 8 .

121- Loc . cit .

122- Ibid , pp . 508 . 9 .

123- Beazley , op . cit . , III . pp . 213 , 214 .

124- Baldwin , " Missions to the East " , op . cit . , V , p. 510 .

125- Browne : The Eclipse of Christianity in Asia , pp . 170-172 .

Vine : The Nestorian Churches , pp . 158 - 160 .

126- Atiye : The Crusade in the Later Middle Ages , p. 255 ;

Browne : The Eclipse of Christianity , p. 173 .

١٢٧- كان الراهب الدومنيكاني جون دي كورا John de Cora رئيسا لأساقفة السلطانية بفارس والذي رسمه البابا حنا الثاني والعشرين عام ١٣٣٠م . وفى تلك الفترة كتب دي كورا تقريرا للبابا عن أحوال امبراطورية الخان الأعظم فى بكين متضمنا معلومات اقتصادية واجتماعية وافرة عن إقليم الصين وسكانه ، وعن الرهبان الكاثوليك به ومستقبل البعثات التبشيرية هناك . وقد ترجم هذا التقرير للإنجليزية .

Cf . Yule (ed . & trans) Cathay and the Way Thither , vol . III . pp . 89-103 .

١٢٨- وليام آدم William Adam (١٢٧٥-١٣٤١) راهب إنجليزى درس اللاهوت قبل أن ينتمى لجماعة الرهبان الدومنيكان . واختاره البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤) فى بعثة تبشيرية للشرق حيث ذهب للقسطنطينية وآسيا الصغرى وسوريا ثم رجع للغرب عام ١٣١٣ ثم رحل ثانية حيث تجول فى ايلخانية فارس والهند ثم رحل إلى عدن ومنها إلى شرق إفريقيا فى أثيوبيا للتبشير بالمذهب الكاثوليكي ، ورجع لأفينون فى عامى ١٣١٦ ، ١٣١٧ . ثم أوفده البابا حنا الثانى والعشرين للشرق ليتولى منصب وكيل مطرانية السلطانية والتي عاد منها إلى الغرب عام ١٣٢٢ ثم رسمه البابا ثانية مطرنا للسلطانية خلفا لفرنسيس دي بروجيا . ثم انتقل بعد ذلك

للعمل في أرمينيا الصغرى ، وكان لتواجده في منطقة المحيط الهندي وخليج عدن وأثيوبيا دافعا لأن يعرض على البابا فكرة ضرب تجارة مصر عن طريق وجرد قنات للأوروبيين في هذه المناطق وعمل حصار اقتصادي على الممالك بالسيطرة على الخليج العربي من ناحية فارس والبحر الأحمر.

Atiya , op . cit ., pp. 65 - 67 .

١٢٩- أودريك البوردونوني Odoric of Pordenone (١٢٤٧-١٣٣١) راهب فرنسيسكاني بدأ رحلاته للشرق في عام ١٣١٦ إلى الصين عبر القسطنطينية وتبريز وبغداد وهرمز والمعبر وسيلان ومدراس وسو مطرة وجاوه حتى وصل إلى الزيتون ويكين في الصين حيث استمر بها ثلاثة أعوام . وشاهد جون المونت كورفيني وبعد ذلك رجع مرة ثانية إلى أفينون عام ١٣٣٠م بالطريق البري عبر التبت وأفغانستان ثم إلى الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين ، وقد ترك مذكراته عن هذه الرحلات التي يرى ريموند بيزالي - أستاذ الجغرافية التاريخية في أكسفورد في أوائل هذا القرن- أنها تبرز مذكرات ماركوپولو نفسها في كثير من أجزائها وشموليتها .

للمزيد من التفاصيل Cf . Beazley , op . cit . III , pp. 250 - 287

وعن الترجمة الإنجليزية الكاملة لهذه المذكرات :

Cf . Yule , Henry : Cathay and the Way Thither , vol . II . London, 1913 .

١٣٠- ماركوپولو، ص ١٣٤ .

131- Suanders , J . J : Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Canterbury , 1977 , pp . 85 , 6 ; also cf . A . C . Moule , " The Failure of Farly Christian Missions to China " in East and the West , 1914 , p. 410 .

١٣٢- انظر بصفة خاصة الخطاب الثاني الذي أرسله الراهب جوردان الفرنسي من مدينة نانا الهندية في يناير ١٣٢٣ لزملائه الرهبان الكاثوليك في فارس

Cf . Yule (ed . Trans) Cathay and the Way Thither , III , pp . 78-80 ; also Baldwin , " Missions to the East " , op . cit . V p. 516 .

133- Braun , Matthias , " Missionary Problems in the Thirteenth Century " , in Catholic Historical Review , vol . 25 , 1939 - 40 , pp . 145-159 , Baldwin , " Missions to the East " pp . 488 , 89 , 516 .

134- Baldwin , op . cit ., p . 516 .

135- Cf . " The Letter of Brother Peregrine : Bishop of Zaytun . " in Dawson (ed.) : The

Mongol Mission , p . 233 .

136- Moule , A. C ., "The Primitive Failure of Christianity in China " , in the International Review of Missions . Vol . 20 , 1931 , p. 458 .

١٣٧- جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٢٦٤ .

١٣٨- ماركو بولو : المصدر السابق ص ١٣٤ .

139- Cf ., " First Letter of John of Monte Corvino" , in Yule (ed) Cathay and the Way Thither, vol III , pp . 45 , 46 .

140- Saunders : Muslims and Mongols ; pp . 88 , 89 .

141- Baldwin , " Missions to the East" : pp. 492 , 507 - 510 .

142- Browne : The Eclipse of Christianity in Asia , pp . 172 , 39 . Atiya , op . cit ., p. 255 ; Saunders , Muslims and Mongols , pp 89 , 90 , Baldwin , " "Missions to the East", pp . 517 , 518 .

١٤٣- للمزيد من التفاصيل انظر : توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٣٤ وما بعدها ، حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام بين المغول والتتار،

Muldoon , James :

"Missionaries and the Marriages of Infidels : The case of the Mongd Mission"; , in the Jurist , vol . 35 , 1975 , pp . 125 - 141 .

الفصل الرابع

تجار المدن الإيطالية فى آسيا المغولية

عناصر الفصل :

- عصر «السلام المغولى» وفتح الطرق التجارية وتأمينها .
- المزايا التى حصل عليها التجار الإيطاليون فى أسواق الإيلخانية
- السلع التى تاجر فيها الإيطاليون فى أسواق المغول .
- أوضاع التجار الإيطاليين فى الإيلخانية :
 - أولا : تجار جنوة
 - ثانيا : البنادقة
 - ثالثا : الجاليات الإيطالية الأخرى .
- التجار الإيطاليون فى الهند والصين
- نتائج الحصار الاقتصادى على مصر على تجار اللاتين فى إيلخانية فارس .
- بداية النهاية للوجود اللاتينى فى أسواق المغول .
- أسباب توقف التجار الإيطاليين عن ارتياد أسواق المغول منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تقريباً .

عصر «السلام المغولي» وفتح الطرق التجارية وتأمينها :

لعبت سياسة المغول دورا هاما فى تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . فهذه السياسة بنيت على أساس فتح أبواب التجارة والطرق التجارية للجميع ، وتأمين التجار وضمان سلامتهم وممتلكاتهم إبان وجودهم بين ظهرانيتهم فترة سيطرتهم على معظم قارة آسيا فى الفترة التى سميت بالسلام المغولى Pax Mongolica منذ منتصف القرن الثالث عشر حتى منتصف الرابع عشر الميلادى^(١) .

فمنذ أن قتل الحاكم الخوارزمى لمدينة أوترار تجار جنكيز خان عام ١٢١٨م والنتائج التى ترتبت عليها ، ومنها استئصال شأفة الخوارزميين ، وكل رعايا المغول يعملون ألف حساب لضمان سلامة التجار وممتلكاتهم فى أراضيهم . وضاعف من أهمية فتح الطرق التجارية وتأمينها هو سيطرة المغول على القسم الأكبر من قارة آسيا ووجود طريقين (من ثلاثة فى العالم الوسيط) لنقل منتجات الشرق الآسيوى للغرب الأوروبى فى حوزة حكام المغول وهما :

الطريق الشمالى أو طريق الحرير العظيم الذى يربط البحر الأسود غربا بالصين شرقا عبر العديد من المدن والمحطات التجارية البرية فى وسط آسيا .

١ الطريق الثانى وهو الطريق الجنوبي (البحرى والبرى على حد سواء) حتى الخليج العربى ومنه إلى مدن العراق وإيران ومنها شمالا إلى موانئ البحر الأسود أو غربا إلى ميناء إياس الأرمنى أو أسواق الشام .

وكان تأمين الطرق التجارية أمرا هاما بالنسبة للمغول الذين كانت عاصمتهم فى قراقورم وجيوشهم قد وصلت إلى يولندا فى وقت ما ، وذلك لحاجتهم فى الانتقال الدائم للجند والمعدات العسكرية (سواء بين عاصمتهم قراقورم وبين مراكز توسعاتهم فى آسيا وأوربا ، أو فى مرحلة الصراع الداخلى بين ممالك المغول فى آسيا بعد منتصف القرن الثالث عشر) فضلا عن تبادل - غنائم الحرب والسفارات بين قواد المغول وبعضهم البعض .

ومن ثم فمنذ الأربعينات من القرن الثالث عشر استخدم المغول طريق تجارة الحرير العظيم الذى كان مستخدما فى الأزمنة القديمة للتجارة بين الصين والامبراطورية الرومانية ويمتد من البحر الأسود وبحر أزوف Azov إلى الشرق مارا بسراى Sarai عاصمة القبيلة الذهبية على مصب نهر الفولجا - ومن هناك يعبر التجار بحر قزوين إلى نهر أورال Ural ثم يتخذون

الطريق البرى مرة أخرى إلى بحر آرال Aral ثم إلى جنوب بحيرة بلخاش Balkhash على امتداد جبال تيان شان Tain - Shan داخل بلاد الصين . وأحيانا من بحيرة بلخاش إلى بخارى ثم سمرقند ثم غزنة إلى الهند أو حول هضبة بامير الى داخل الصين . وكان هذا الطريق الذى يمتد إلى شمال آسيا بمثابة البديل الوحيد الموصل إلى الطريق البحرى على المحيط الهندى الذى لم يكن آمنا فى بعض الأحيان ^(٢).

ولم يكن طريق الحرير العظيم ذا فائدة بالنسبة لغزوات جيوش المغول فحسب بل أفاد أيضا فى الاتجاه العكسى - رحلات المبعوثين الدينيين والتجار الأوربيين إلى قلب امبراطورية المغول ولقد ترك ماركو بولو وصفا رائعا لعناية المغول بالطرق العامة والبريد فقد أنشأوا محطات كل خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلا وبها دور لراحة المسافرين فى الطريق . وزودها بالحراس والسعاة ووضعوا علامات لهداية المسافرين وأمروا بغرس الأشجار على جانبيها ^(٣).

وقد اثنى ابن بطوطة على حفظ المغول للمسافرين فى الطريق أثناء زيارته للصين فى الثلث الأول للقرن الرابع عشر ، فقال « إن بلاد الصين أأمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين ، وأن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها » ^(٤).

وقد سيطر ايلخانات مغول فارس على واحد من أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وهو طريق المحيط الهندى - الخليج العربى - هرمز - البصرة - بغداد ومنها إلى أسواق دمشق وحلب أو اياس حيث تباع سلع الشرق الآسيوى للتجار الايطاليين الذين كانت لهم أحياء خاصة بهم فى الموانئ الصليبية أو فى الأسواق المحلية للمسلمين أو الصليبيين فى الشام على حد سواء .

ونتيجة عن المذابح التى أحدثها المغول بسكان أمهات المدن الإسلامية فى وسط آسيا فى النصف الأول للقرن الثالث عشر هجرة التجار من بغداد والبصرة فرارا من مذابح الغزاة . وقد هاجر هؤلاء التجار - ومعظمهم من المسلمين - إلى ميناء قاليقوت على ساحل الملبار (أو المعبر طبقا لابن بطوطة) بالهند . حيث منحهم حكام هذه المدينة من الهنود امتيازات عديدة . ويفضل هؤلاء التجار أصبح هذا الميناء المتواضع خلال فترة قصيرة أهم ميناء لتجار الشرق فى مياه المحيط الهندى ^(٥) وهذا يعنى أيضا أن مدينة بغداد - بعد تدمير المغول لها - قد فقدت مكانتها التجارية التى كانت عليها قبل ذلك .

ولهذا قام مغول فارس فور استقرارهم فى البلاد بالاهتمام بمدينة تبريز وجعلها ابغا خان (١٢٦٥-١٢٨٤) عاصمة له لوقوعها على الطريق التجارى البرى بين الشمال والجنوب وربطوها بميناء ايباس الأرمنى على البحر المتوسط بعدة محطات تجارية وشجعوا التجار الأرمن والسريان والمسلمين أيضا على مزاوله أنشطتهم التجارية .

ولما كان ملك أرمينيا الصغرى تابعا للخان المغولى فانه رحب بهذه الخطوة الهامة ومنح البنادقة امتيازات تجارية عديدة فى هذا الميناء ، ومنحهم إعفاءات ضريبية كثيرة ، بل وضايق التجار المسلمين فى بلاده نكاية فى الممالك الذين انتصروا على المغول وتوابعهم من الأرمن والجورجانيين فى موقعة عين جالوت . وكانت هذه التصرفات من قبل الأرمن سببا فى انتقام الظاهر بيبرس منهم بعد ذلك بقليل .

والمهم أن الإجراءات الأمنية لحماية الطرق وتأمينها ظلت سياسة ثابتة الأركان طوال عهد دولة الايلخانات فكانت حراسة الطرق فى عهد أرغون خان مسئولية أمير نشييط وحازم . ولكن تحول حراس الطرق فى عهد كيخا توويدو (١٢٩١-١٢٩٥) إلى شركاء للصوص وقطاع الطرق فى نهب المسافرين . ولكن غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤) واجه هذه الحالة السيئة بحزم وصرامة . إذ كانت عقوبة الإعدام توقع على اللصوص ومن يتآمر معهم . وكان هناك ما لا يقل عن عشرة آلاف من الحراس المسلحين فى حركة دائمة ووظيفتهم فقط الحفاظ على أمن الطريق^(٦).

وقد امتدح ماركو بولو هذه الإجراءات بقوله إنه «نشأ نظام خاص يقضى فى جميع الطرق التى يخشى فيها الخطر بالزام السكان بناء على طلب التجار أن يزودوهم بادلاء نشطين أمناء يقومون على إرشادهم وأمنهم بين كل ناحية وأخرى ويتقاضون أجرا مقداره جروتان (عملة فضية إيطالية صغيرة) أو ثلاث عن كل دابة محملة تبعا للمسافة^(٧) .

وقد تزامن استقرار المغول فى إيران والعراق مع سقوط مدينة القسطنطينية فى يد آل باليولوجس البيزنطيين فى يولية عام ١٢٦١م^(٨) . وسقوط القسطنطينية فى يد البيزنطيين وجهت ضربة شديدة للبنادقة . وقام آل باليولوجس بالقبض على تجارهم فى هذه المدينة وفى موانئ البيرة Pera وتانا Tana وكافا Kaffa على البحر الأسود وقتلهم باعتبارهم من القرصنة^(٩) .

وأدى انتشار الجنوية فى حوض البحر الأسود - الذى يسيطر عليه حينئذ مغول القفجاق أن تقربوا من بركة خان الذى منحهم امتيازات واسعة وأحياء كاملة فى هذه الموانى . وقد أدى ذلك الأمر إلى انفراد الجنوية تقريبا - ولفترة طويلة - بنقل الرقيق من جنوب روسيا ومنطقة القوقاز إلى أسواق البحر المتوسط عامة وإلى موانى الممالك خاصة مما أدى إلى تقوية العسكرية المملوكية التى قامت على استيراد الرقيق وتنشئتهم نشأة عسكرية ليكونوا عماد الجنوية فى مصر (١٠).

وكذلك انتعشت التجارة مع موانى البحر الأسود - التى كانت قد تأثرت بغزو السلاجقة الأتراك لآسيا الصغرى - مرة أخرى بسبب إحياء طريق التجارة عبر إيران وأذربيجان خاصة وأن بلاد سلاجقة الروم وجورجيا الصغرى وأرمينيا الصغرى قد خضعوا لسلطة المغول أيضا . ومنذ عام ١٢٦١م استخدم التجار الإيطاليون مدينة طرابيزون الواقعة على الحافة الجنوبية الشرقية للبحر الأسود وأصبح طريق تبريز - طرابيزون هو الأكثر استخداما لنقل تجارة العبور الواردة من المحيط الهندى إلى تبريز إلى البحر الأسود وذلك لأن الطريق البديل وهو تبريز - اياس لم يكن مأمونا لعدة أسباب منها :-

أولا : الغارات والحروب شبه المستمرة بين مغول فارس والممالك . تلك الحروب التى اتخذت من منطقة شرق العراق وشمال الشام مسرحا لها حتى نهاية عهد غازان خان .

ثانيا : أن الممالك حاولوا مرارا ضرب ميناء اياس الأرمنى حتى لا يكون منافسا للموانى المصرية ونظرا لعنف الضربات المملوكية لمملكة أرمينيا الصغرى وللخراب الذى واجهه هذا الميناء فى مناسبات متقاربة ، فان التجار عجزوا عن الانتقال من تبريز إلى سواحل البحر المتوسط فى سنوات كثيرة . ولهذا فضلوا الطريق الشمالى (تبريز - طرابيزون) .

ولكن هذا لاينفى أن ميناء اياس قد عاش فترات رواج اقتصادى خاصة فى الفترة من ١٣٢٠ حتى ١٣٤٥م وهى فترة الحصار الاقتصادى الأوربى على موانى الممالك ، إذ سمح الآخرون لتجارهم بالذهاب إلى ميناء اياس بالحرير والقطن والتوابل لبيعها للتجار الإيطاليين هناك طيلة امتناع الآخرون عن دخول الموانى المصرية ، فى حين أن سلاطين الممالك كانوا يستفيدون من الرسوم على هذه السلع بطريقة أو بأخرى (١١) خاصة وأن حكام أرمينيا الصغرى كانوا يدفعون الجزية للممالك وهم صاغرين نظير سكوتهم عنهم .

المزايا التي حصل عليها التجار الإيطاليون فى أسواق ايلخانية :-

ولقد كانت فترة حكم المغول لإيران والعراق فريدة من نوعها فى العصور الوسطى بالنسبة للتجار الأوروبيين - وأغلبيتهم الساحقة إن لم يكن جميعهم من الإيطاليين - وذلك لأن ايلخانات المغول سمحوا لهم - ليس فقط بحرية الدخول والخروج لبلادهم ، بل أيضا فى الانسياح فى أنحائها وفى كل مكان من قارة آسيا دون تشريب عليهم . وهذا لم يكن معصولا به فى الموانئ المصرية والشامية ^(١٢) ، إذا كان مسموحا فقط للتجار الإيطاليين بالتعامل مع التجار المسلمين أو فى أسواقهم فى دمياط والأسكندرية فقط وسمح لهم بالذهاب للقاهرة فى بعض الأحوال ، ولكن مُنعوا من ارتياد البحر الأحمر ومن المتاجرة فى هذا الطريق الهام للتجارة بين الشرق والغرب أو أن يتصلوا بملك الحبشة وذلك للخوف من اتحاد الصليبيين والأحباش فى أى مشروع لضرب الإسلام من ناحية . ومن ناحية أخرى من أجل إحكام سيطرة المماليك واحتكار أسرار الطرق التجارية حتى لاتخرج من أيديهم ^(١٣) . أما فى الشام فقد سمح للتجار الأوروبيين بالذهاب إلى أسواق دمشق وحلب وغيرها من المدن الشامية فى حدود وظروف معينة ولكن حرم عليهم الانسياح أبعد من ذلك شرقا أى إلى بغداد أو الخليج العربى . ولهذا جاءت فترة السيطرة المغولية على طرق التجارة فى آسيا فرصة سانحة للتجار الإيطاليين لاخترق الحاجز الإسلامى الذى سد الطريق أمامهم للحصول على سلع ومنتجات الشرق الآسيوى مباشرة وبدون وساطة التاجر المسلم أو غيره .

وكان هذا يعنى المزيد من الأرباح للتجار الإيطاليين الذين أمكنهم من خلال ايلخانية فارس - السفر للهند وجزر الهند الشرقية والصين للحصول على منتجاتها من المنتج الأصلي وبأسعار رخيصة جدا إذا ما قورنت بالأسعار التى يدفعونها لتلك السلع فى الموانئ المصرية للتاجر المسلم .

فقد كان طبيعيا أن يرتفع ثمن السلع الشرقية عند وصولها إلى مصر نتيجة لتكاليف إنتاجها ومصاريف الوصول إليها وحملها إلى مصر والرسوم المفروضة عليها فى اليمن وتعدد الوسطاء الذين تمر عليهم . كما تأثر ثمنها بالضرائب التى تفرض عليها أثناء مرورها بمصر باعتبارها من أهم مصادر الإيراد الحكومى . وليس غريبا إذا قيل كذلك أن الحكومة المصرية كانت تجنى ما يعادل شحنة سفينة عن كل أربع سفن ^(١٤) أى رسوما جمركية قدرها خمسة وعشرين فى المائة من ثمن السلعة . وفى المقابل فإن حكام مغول فارس كانوا يحصلون على

مكوس منخفضة جدا على الواردات المارة ببلادهم وعلى نسبة من أربعة إلى خمسة فى المائة فقط على السلع التى يحضرها التجار الإيطاليون لأسواقهم ، فى حين أن زملاءهم الإيطاليين كانوا يدفعون رسوما قدرها عشرين فى المائة^(١٥) (تم تخفيضها فقط بموجب معاهدة عام ١٣٥٥م بين الممالك والبنادقة إلى عشرة فى المائة بالإضافة إلى اثنين فى المائة مصاريف نقل)^(١٦) فى الموانئ المصرية . وهذا معناه باختصار أن التاجر الإيطالى كان يدفع بالأسكندرية أربعة أضعاف ما يدفعه زميله فى تبريز على نفس السلعة والحمولة .

وفضلا عن ذلك فإن التجار الإيطاليين قد وجدوا فى أسواق تبريز الحرير الخام المنتج فى منطقة القوقاز بشهرته المدوية فى الأسواق الأوروبية لاستخدامه فى صناعة الحرير بالمدن الإيطالية^(١٧) فضلا عن توافر سلع أخرى امتلأت بها أسواق إيران والعراق لم تكن متداولة فى أسواق الأسكندرية .

فضلا عن أن التجار الإيطاليين قد وجدوا فى قادة المغول (البوذيين بصفة خاصة) رعاية كريمة أفضل كثيرا مما كانوا يلقونه فى مصر ، لأن الايلخانات كانوا يعتبرون الأوروبيين حلفاء المستقبل بالنسبة لهم ، ولذا عينوا بعضا من التجار الإيطاليين سفراء لهم لدى قادة أوروبا وجعلوا بعضا منهم مستشارين لهم وأعطوهم من الامتيازات والمنح والأعطيات ما فاق تصوراتهم . ولكن فى مصر كانوا يعاملون على أنهم «تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة ضرهم ، وتارة يكونون سفارا (تجارا) على حد قول صلاح الدين الأيوبي للخليفة العباسى فى بغداد عام ١١٨٢م / ٥٨٨هـ^(١٨) . وذلك للدور الخطير الذى لعبه التجار الإيطاليون فى الحروب الصليبية ولأنهم كانوا يأتون موانئ المسلمين أو يهجرونها تبعا لمصالحهم الشخصية وجريا وراء امتيازاتهم التجارية . ولهذا فإن بعض الجاليات التجارية الأوروبية قد تعرضت فى بعض المناسبات للطرده أو الاعتقال من قبل الأيوبيين والمماليك حينما كانت تتعرض موانئهم لعدوان صليبي بايعاز أو تحريض أو مساعدة من هذه الجاليات أو انتقاما من اللاتين بصفة عامة . وهذا لم يحدث فى ايلخانية فارس حتى عام ١٣٣٥م لاختلاف الظروف السياسية ولأنهم هناك عوملوا على أنهم حلفاء بينما عوملوا فى مصر على أنهم أعداء وقت الحرب وأصحاب مصالح وقت السلم .

ومن الواضح أن تجار جنوة والبندقية قد سارعوا لاستغلال هذه الظروف الجاذبة لهم فى الانسياح داخل المدن الإيرانية والعراقية والتوغل شرقا إلى الهند والصين .

كما شجع إيلخانان فارس أولئك التجار على ارتياد بلادهم والاستقرار فيها لما يعود عليهم من منافع متمثلة فى الضرائب والمكوس وجلب سلع أوروبية لقصورهم . فضلا عن استخدام هؤلاء كسفراء لهم إلى العواصم الأوروبية أو فى قصورهم . وفى نفس الوقت وجد مغول فارس فى التجار الأجانب الفرصة لتعويض الخلل الذى أصاب أسواقهم لهجرة التجار المسلمين لموانئ اليمن والهند والصين . وقد حاول أرغون الاستفادة من الكثرة العددية للتجار الإيطاليين فى بلاده وخبرتهم الحربية والبحرية فى إنشاء أسطول لتسييره فى الخليج العربى والمحيط الهندى عام ١٢٩٠م لضرب تجارة المالكى الواردة إليهم من جنوب آسيا وشرقها فى محاولة للنيل من اقتصادهم وذلك لتعويض الفشل العسكرى المتكرر ضدهم .

وليس معروفا مقدار ما تغله المكوس والضرائب من التجار الإيطاليين على خزينة حكام المغول فى فارس وذلك لأن هؤلاء التجار مهما كثر عددهم - حتى لو افترضنا صحة رواية مكمل حولية ابن العبرى بوجود تسعمائة منهم عام ١٢٩٠م - كانوا قلة ضئيلة بجوار الآلاف من التجار المسلمين^(١٩) والسريران والأرمن والجورجانيين وغيرهم الذين امتلأت بهم أسواق الإيلخانية من هرمز جنوبا حتى تبريز شمالا .

ولكن الضرائب والمكوس التى كان يحصل عليها حكام المغول من التجارة عامة^(٢٠) قد استترعت انتباه كثير من الرهبان والتجار اللاتين الذين مروا بإيلخانية فارس .

حتى أن الراهب الفرنسيسكانى أودريك البوردنوى Odereic of Pordenone الذى زار تبريز فى عهد أبو سعيد خان (١٣١٦-١٣٣٥م) قد دهش من كثرة التجار بأسواقها ومن كثرة المعروضات من سلع الشرق والغرب ، وقرر أن ملك البلاد يحصل على دخل من هذه المدينة فقط أكثر مما يحصله ملك فرنسا من كل بقاع مملكته^(٢١).

وقد وصف ماركوبولو هذه المدينة فى زيارته لها بعد وفاة أرغون خان بقوله أنها «فى موقع بالغ المواءمة للتجارة بحيث يفد إليها التجار من الهند وبلدات (بغداد) والموصل وكركيور (هرمز) فضلا عن أصقاع مختلفة من أوروبا ليشتروا ويبيعوا فيها طائفة من السلع ، وفى الامكان الحصول فى هذا المكان على الأحجار النفيسة واللآلى بكميات وفيرة وبحوز التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية ثروات ضخمة»^(٢٢) ويبدو أن الانبهار بأسواق مدينة تبريز لم يتوقف على الأوربيين وحدهم . إذ يقرر الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زار هذه المدينة فى نهاية عهد أبو سعيد أنه رأى «سوقا عظيمة تعرف بسوق قازان (أى غازان) من أحسن سوق

رايتها فى بلاد الدنيا ، كل صناعة فيها على حدة لاتخالطها أخرى ، واجتزت بسوق الجواهريين فحار بصرى بما رأته من أنواع الجواهر ... » (٢٣).

ولكن الامتيازات التى منحها ايلخانات فارس للتجار الإيطاليين فى بلادهم والخطابات العديدة التى أرسلها خلفاؤهم فى حكم تبريز (بعد عام ١٣٣٥م) للإلحاح على هؤلاء التجار فى العودة لبلادهم لممارسة أنشطتهم التجارية ، والعودة التى قطعوها على أنفسهم بتخفيض المكوس لهم وشملهم برعايتهم وحمايتهم (٢٤) دليل آخر على أهمية الدور الذى قام به هؤلاء التجار فى ايلخانية فارس .

السلع التى تاجر فيها الايطاليون فى أسواق المغول :

أما عن السلع التى أحضرها التجار الإيطاليون لأسواق المغول عامة وللمراكز التجارية فى ايلخانية فارس خاصة فكانت متعددة ، فمنها الجواهر والأحجار الكريمة وهى التى كانا يتاجر فيها مافيو ونيقولو بولو سواء بين مغول روسيا أو فى حضرة الخان الأعظم قوبلاى خان (٢٥) . ومنها المنسوجات والأقمشة التى حملها بيترو فيجليونى Pietro Viglioni - أول تاجر بندقى يصل إلى تبريز ويموت فيها عام ١٢٦٤م . ولما كانت البندقية لاتنتج هذه الأقمشة فانها كانت مستوردة من أسواق المانيا ولومبارديا وستانفورد بالجلتيرا . وقد حمل تجار جنوه كميات كبيرة من الأقمشة لأسواق تبريز عبر طرابيزون (٢٦) . ويبدو أن حاجة أسواق المغول لهذه المنتجات كانت كبيرة الأمر الذى حدا بالتاجر الفلورنسى بيجلوتى Peglotti أن يوصى التجار الإيطاليين عام ١٣٣٠- فى كتابه عن طريق التجارة إلى الصين - الذهبين لأسواق المغول بأخذ كميات كبيرة من الأقمشة لارتفاع الطلب عليها وارتفاع ثمنها (٢٧) ولقلة المعروض منها . وتوجد وثيقة جنوبية عبارة عن عقد مشاركة بين الأخوة انسالدو ، جيوفانى ، وجيكومودى اوليفيرا Ansaldo , Giovanni & Giacomo de Olivera لتأسيس شركة بينهم عام ١٣٣٠ أو ١٣٣١ لتصدير الملابس الفرنسية إلى سوريا وتبريز (٢٨).

وفضلا عن ذلك فان التجار الإيطاليين حملوا معهم الفراء والملابس المصنوعة من الجلد والخزف والزجاج فضلا عن بعض المواد الغذائية (٢٩) . كما أنهم نقلوا لأسواق ايلخانية فارس آلاف الرقيق من أسواق البحر الأسود وبحر إيجه .

وينقل المؤرخ الفرنسى ج . ريشارد J. Richard عن مصدر أرمنى كتب فى الفترة من عام ١٣١٥ حتى ١٣٢٠ قوله : أن ألفين من الرقيق بيعوا دفعة واحدة فى أسواق تبريز وأن مائة

وعشرين ألفا من الرقيق أيضا تم بيعهم في تبريز والمدن الإيرانية والعراقية الأخرى في تلك الفترة (٣٠). والشك في ضخامة الرقم الأخير لا يجعلنا نتردد في قبول فكرة أن أسواق الإيلخانية كانت عامرة بتجارة الرقيق الذين كان يجلبهم التجار الإيطاليون من الشمال وذلك لتعريض الخلل الخطير في السكان الناتج عن إخلاء مدن بأكملها بسبب المذابح التي اقترفها المغول في تلك المنطقة سواء في مرحلة الصدام مع الخوارزميين (١٢١٨-١٢٣١) أو في المذابح التي ارتكبتها قوات هولاكو في بغداد وبعض المدن الإسلامية الأخرى. وكانت الحاجة ماسة لهؤلاء الرقيق في الزراعة والحرف المختلفة فضلا عن استخدام الإيلخانات لهم في الجيش لسد النقص في جيوشهم ولزيادة عددها لمواجهة الحروب التي كانت شبه مستمرة مع المماليك غربا أو مع مغول القفجاق شمالا أو مع مغول التركستان شرقا.

أما عن المنتجات التي نقلها التجار الإيطاليون من أسواق إيران والعراق أو عبرها إلى أسواق أوروبا - (عبر مراكزهم التجارية على البحر الأسود أو في ميناء إياس الأرمني) - فكثيرة ومتنوعة. ومنها ما هو منتج في الصين أو الهند أو جزر الملايو وينقله التجار المسلمون لأسواق إيلخانية فارس، ومنها ما هو من إنتاج إيران والعراق.

وكان ميناء هرمز مقصدا للتجار من كل أرجاء الهند طبقا لرواية ماركو بولو الذي زار هذا الميناء أيضا إذ يقرر أن هؤلاء التجار «يجلبون التوابل والعقاقير والأحجار الكريمة واللؤلؤ ومنسوجات الذهب، كما يجلبون أنياب الفيلة (العاج) وأنواعا أخرى مختلفة من البضائع، وهنا يبيعون هذه البضائع لمجموعة مختلفة من التجار يتولون توزيعها بكل أرجاء العالم» (٣١) ومن نافله القول أن نكرر أن هذه المنتجات حملها التجار الإيطاليون (سواء من هرمز نفسها أو اشتروها من تبريز) لأسواق أوروبا، ويقرر كلافيجو Glavijo - سفير ملك قشتالة إلى تيمورلنك عام ١٤٠٣م - أن معظم اللاكئ، الموجودة في بحر الصين ترسل إلى هرمز حيث تقطع وتثبت، ويقول أنه سمع من التجار المغاربة والمسيحيين (في بلاده) أن هرمز هي المكان الوحيد في العالم للعثور على اللاكئ (٣٢).

ونتعرف على المنتجات الأصلية لإيران والعراق التي كان التجار الإيطاليون يحملونها لبلادهم من خلال مذكرات ماركو بولو الذي زار المراكز التجارية الهامة لإيلخانية فارس ووصف لنا منتجاتها ومعرضاتها بعين التاجر البندقي. فيقول عن مدينة يزدي الفارسية - في إمارة أصفهان - أنه كان «يدور بها تجارة عظيمة وبها نوع من قماش الحرير والقصب (الذهب) يصنع بها ويعرف باليزدي ويحمله التجار منها إلى جميع أرجاء العالم» (٣٣).

يصف إمارة كرمان التى تقع على الحدود الشرقية لإيوان بأنه يوجد بجبالها الأحجار النفيسة المسماة بالفيروز وكذلك عروق من الصلب . «وهم يصنعون هنا بدرجة عظيمة من الإتقان جميع الأدوات اللازمة لعتاد الحرب ... وكل أنواع الأسلحة المستخدمة عند تلك الشعوب » . ويمتدح الرحالة البندقى المصنوعات اليدوية للسكان من المنسوجات الحريرية والستائر وأغطية الفراش بقوله « أنهم ينفذون العمل بمهارة وذوق بالغين يثيران كل الإعجاب » (٣٤).

ويقرر ماركو بولو أن « جميع الأنسجة الذهبية والحريرية التى نسميها بالموسلين هى من صنع الموصل ، كما أن جميع التجار الذين ينعنون موسولينى والذين يحملون الأناوية والعقاقير بمقادير ضخمة من إقليم إلى إقليم ينتمون إلى تلك الولاية » ويؤكد أيضا أن القطن ينتج بمدينتى ماردين وكوش بوفرة عظيمة ومنه يجهزون القماش المسمى البوكاسينى « وأن السكان قوم من الصنائع والتجار » (٣٥).

ويصف ماركو بولو البصرة بأنها « تنتج أجود بلح (تمر) فى العالم » . ويقرر أنه تقوم فى بغداد صناعة الحرير المغزول بخيوط الذهب (القصب) وكذلك صناعة الدمقس فضلا عن القטיפه (المقصود بها البسط والسجاجيد) المحلاة بأشكال الطير والحيوانات ... « وليس هذا فقط بل يشير أيضا أنه « تكاد جميع اللآئى » المنقولة إلى أوروبا من الهند أن تجرى فيها عملية الثقب فى هذا البلد (أى فى بغداد) » (٣٦).

وعندما يصل إلى تبريز يصفها بأنها أرفع مدن الإيلخانية شأنا وأكثرها سكانا ، وأن سكانها يعتمدون فى معاشهم بصفة رئيسية على التجارة والصناعات. ويقرر ماركو بولو أن « الأخيرة تشمل صنع أنواع مختلفة من الحرير بعضها مخلوط بخيوط من الذهب ، وله أثمان عالية فى الأسواق » . وأن مدينة تبريز نفسها فى موقع بالغ المواءمة للتجارة بحيث ينفذ إليها التجار من الهند وبغداد والموصل وهرمز « فضلا عن أصقاع مختلفة من أوروبا ليشتروا وبيعوا فيها طائفة من السلع » . وكانت الأحجار النفيسة واللآئى من المنتجات التى يقبل عليها التجار فى أسواق تبريز وكانت رخيصة الثمن . ولهذا يقرر ماركو بولو أن التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية يحرزون ثروات ضخمة (٣٧).

ويقرر كلافيخو أنه شاهد فى مدينة السلطانية الإيرانية العديد من القوافل التجارية الآتية من الهند ، محملة بالتوابل مثل القرنفل والقرفة وجوزة الطيب والمن وقشر جوز الهند . ويؤكد أن هذه السلع تنفرد بها أسواق السلطانية دون ميناء الأسكندرية ، ويروى السفير القشتالى

أيضا أن كل الحرير المصنوع في جيلان (قرب بحر قزوين) يحمل لأسواق هذه المدينة حيث ينقله التجار إلى دمشق وبقية أسواق بلاد الشام وآسيا الصغرى (٣٨). وكان ماركو بولو قد أكد أن تجار جنوة يذهبون إلى بحر قزوين للحصول على هذا الحرير الجيلاتى الذى كانت له شهرة مدوية في أسواق أوروبا (٣٩).

ومن الطبيعى أن أسواق إيلخانية فارس والبحر الأسود كانت المصادر البديلة عن الموانئ المصرية والشامية في فترة الحصار الاقتصادي الأوربي عليها لمنتجات الشرق الآسيوى التى كانت ضرورية للأسواق الأوروبية. ومن هذه السلع الفلفل ، والخلنجان (٤٠)، والزنجبيل (٤١)، والعصفة الجوزية (٤٢)، والزعفران (٤٣)، والقرفة الصينية ، والسنامكى (٤٤)، وبهار الهند والراوند الصيفى والخبهان وصيغ الفوة والكافور والند . وكانت هذا السلع تنتج في الهند والصين وجزر الهند الشرقية .

أما عن العطور والبخور التى حملها التجار البنادقة والجنوية من أسواق إيران والعراق إلى الغرب فمن أنواعها : عود الند والمسك وخشب الصندل ، والعنبر والبخور واللادن والمصطكى واللبان الجاوى ، أما عن مواد الصباغة الشرقية التى استخدمت في الصناعة في أوروبا فمنها الفوة والنيلة ودودة القز والشب والنظرون وغيرها (٤٥).

ومن المعروف أن هذه السلع سواء تلك المنتجة في إيران والعراق أو المستوردة لأسواقهما من جنوب آسيا وشرقها كانت موجودة أيضا قبل عصر المغول ، وذلك لأن إقليمى إيران والعراق كانا من أكثر البلاد الإسلامية ازدهارا في الصناعة والتجارة (فضلا عن العلوم والثقافة) ، وأن شبكة من الطرق الممهدة الآمنة للتجار المسلمين كانت تربط الأندلس وطنجة غربا باوترار وسمرقند شرقا وأن التاجر المسلم كان لا يشعر أنه يعبر من إقليم لآخر طالما أنه في دار الإسلام، ، ولكن الجديد في عصر السيطرة المغولية أنه أتيح للتجار الأوروبيين أن يجوبوا أسواق آسيا بأنفسهم ويحملوا منتجاتها لبلادهم دون وسيط ، فضلا عن أن الطرق من إيران إلى البحر المتوسط (ميناء ايباس الأرمنى) أو من إيران إلى البحر الأسود (تبريز - سيواس Siwas - أرزيجان Arzendjan - طرابيزون) أصبحت أكثر استعمالا وأمنا لسيطرة مغول فارس على كل دول هذه المنطقة (إيران - العراق - أرمينيا الصغرى - جورجيا الصغرى - سلاجقة الروم).

أوضاع التجار الإيطاليين فى ايلخانية فارس :

أولا : تجار جنوة

بعد سقوط القسطنطينية فى يد آل باليولوجس عام ١٢٦١م أتيح لحلفائهم الجنوية أن ينتشروا فى هذه المدينة وضواحيها وموانئ البحر الأسود وأهمها تانا وكافا ومنهما انساح هؤلاء التجار داخل آسيا شرقا وجنوبا ووجدوا الترحيب الكامل من جانب هولاءكو وأبغاخان وخلفائهما للأسباب السابقة ولأن الجنوية هم حلفاء ميخائيل باليولوجس - الذى تزوج أبغا ابنته . ولم يترك الجنوية وثائق تشير لطبيعة أنشطتهم فى الايلخانية فى السنوات الأولى لاستقرار ايلخانات المغول فى حكم إيران والعراق . ولكن نعرف أنهم بدأوا يتاجرون فى تبريز ويتنقلون منها إلى إياس أو طريبيزون . وفى بداية عهد أبغا خان (١٢٦٥-١٢٨٢م) نقل بعض تجار جنوة أموالهم من طرابيزون إلى تبريز عبر مدينة سيواس Siwas - (باقليم جورجيا الصغرى) الواقعة على الطريق بين هاتين المدينتين . وفى عام ١٢٧٤م حرر كاتب العقود الجنوى فيدرى بيزالونا Federico di Pizzaluna عدة عقود للمشاركة بين تجار جنوين فى هذه المنطقة . وأسس بعض الجنوية مراكز تجارية لهم بمدينة أرزنجان Erzindjan - على الطريق أيضا إلى تبريز وتقع باقليم جورجيا الصغرى ، وفى عام ١٢٨٠م وما بعدها أسس الجنوية قنصلية لهم فى مدينة سيواس حيث صدروا الأقمشة والمنسوجات إلى تبريز . وهناك عقود لتجار جنوة تفيد قيامهم بتصدير منسوجات رئيس عام ١٢٩٢م إلى تبريز ، وعقود مؤرخه فى أعوام ١٣١٣ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣٦م تشهد بتصدير هذه السلع إلى تبريز بواسطة تجار جنوة (٤٦).

ولقد ازدادت أهمية الجنوين فى الايلخانية فى عهد أرغون الذى كان يتطلع لتنفيذ مشروع التحالف العسكرى مع الغرب الأوروبى ضرب الممالك ، ولهذا أختار العديد منهم للسفر على رأس سفاراته لأوروبا . وكان منهم بوسكاريللو جيزولفو - Buscarello Ghisolfi الذى شارك فى سفارات أرغون وغازان فى الفترة من عام ١٢٨٩ حتى ١٣٠٣م . وكان يمارس التجارة فى نفس الوقت سواء بصفته الشخصية أو عن طريق وكيل له فى تبريز وكان له عدة شركات تجارية فى طرابيزون أيضا (٤٧). وكذلك كان التاجر الجنوى توماس أنفوس - الذى لمع اسمه فى سفارات المغول - له عدة شركات مالية فى المراكز التجارية التابعة لسيطرة مغول فارس (٤٨).

وفى عام ١٢٩٠م قام تسعمائة من «الفرنجية» ببناء أسطول خاص بهم تحت رعاية وموافقة أرغون خان لتسييره فى الخليج العربى لضرب تجارة الماليك وذلك بالسيطرة على منابعها فى جنوب آسيا وشرقها ومحاصرة عدن ومدخل البحر الأحمر^(٤٩). ويبدو أن هذا المشروع كان انتقاما من الضربة التى وجهها المنصور قلاوون للتجار الجنوبية باستيلائه على ميناء طرابلس عام ١٢٨٩م والذى كان أكبر مركز تجارى للجنوب فى شرق البحر المتوسط ، بل واعتقال الجالية الجنوبية بالموانى المصرية فى ذلك العام أيضا ردا على هجوم الأسطول الجنوبى على قرية مصرية فى شمال الدلتا .

وليس غريبا أن التجار الجنوبيين هم الذين كانوا يشجعون أيلخانات فارس على التحالف مع الأوروبيين وقادوا سفاراتهم للأخيرين وذلك لأن هؤلاء التجار كان يهمهم فى المقام الأول مصالحهم التجارية ، ولأنهم أدركوا أن الغرب الأوربى عاجز عن الاحتفاظ بالمواقع الصليبية على سواحل الشام وعلى استعادتها لحوزته ثانية، فان الجنوبية كانوا يأملون أن يقوم المغول بهذه المهمة سواء بمفردهم أو بالتحالف مع اللاتين لأن ذلك لو حدث فمن شأنه إعطاء الجنوبية امتيازات واسعة فى موانى الشام .

والمهم أنه فى عام ١٢٩١م أصطحب التاجر الجنوبى بيترو لوكالونجور Peter of Lucalonge الراهب الفرنسيسكانى جون مونت كورفينو فى طريقه إلى الصين حيث قبول بحفاوة من خليفة قوبلاي خان - الذى جرب سلفه التعامل مع آل بولو الذين غادروا بكين عائدتين لبلادهم عام ١٢٩٢م- ونعرف أن هذا التاجر أسس فندقا وحماما فى مدينة الزيتون -^(٥٠) أشهر ميناء تجارى صينى فى شرق آسيا حينئذ وتقع فى مواجهة جزيرة فرموزا (تايوان) وكان رائدا للتجار الجنوبية الذين كونوا ثروات طائلة من التجارة فى الشرق الأقصى^(٥١).

وفى عامى ١٢٩٣-١٢٩٤ مرآل بولو فى طريق عودتهم لبلادهم ، بآسيا ، الصغرى حيث قرروا أن التجار الجنوبية يبحرون فى بحر قزوين (أو بحر الخزر عند العرب أو بحر باكو عند الفرس) وأنهم يجلبون منه نوع الحرير المسمى بالفلى Ghellie^(٥٢) (أو الجيلاى) . ويرى المؤرخ الاقتصادى هايد Heyd أنه نظرا لأن - بحر قزوين بحر مغلق فانه لم يكن ممكنا للجنوبى الوصول إليه من البحر الأسود إلا إذا أبحروا من ميناء كافا إلى مصب نهر الدون ثم إلى مصب نهر الفولجا وأن يحملوا سفنهم برا حتى بحر قزوين . وأن هدفهم من ذلك كان الوصول لمنطقة الحرير والأحجار الكريمة على الساحل الجنوبى لهذا البحر والتى لم يكن الوصول لها ممكنا برا عبر تبريز وذلك للموانع الطبيعية التى تفصل هذا البحر عن بقية بلاد فارس^(٥٣).

ومن المؤكد أن أنشطة تجار الجنوة فى ايلخانية فارس تضاعفت بعد عام ١٢٩١م بل وربما تضاعفت أعدادهم أيضا وذلك يرجع لأمرين هما :

أولا : أنه فى أغسطس من ذلك العام سيطر الماليك سيطرة كاملة على كل سواحل الشام بل ودمروا الموانى التى كانت بحوزة الصليبيين خشية أن تكون شوكة فى ظهر المسلمين إذا ما استولى عليها اللاتين ثانية . وكان للتجار الإيطاليين أحياء كاملة فى معظم - إن لم يكن فى جميع - هذه الموانى ، ومنها يحصلون على سلع الشرق الآسيوى التى كانت تأتي إلى هذه الموانى عن طريق التجار المسلمين فى أسواق دمشق أو حلب (من خلال بغداد والبصرة وسيراف) أو عن طريق البحر الأحمر (من خلال ميناء جده أو العقبة) . ولهذا كان على تجار جنوة (والبنادقة أيضا) البحث عن منافذ وميادين تجارية جديدة يحصلون منها على سلع الشرق الآسيوى ، ولم تكن هذه المراكز متاحة إلا بين ظهرائى المغول .

ثانيا : أن البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) أصدر بعد سقوط عكا - قرارا حرم فيه على العالم المسيحي كل تجارة مع البلاد الخاضعة للسلطان المملوكى مع توقيع قرار الحرمان الكنسى على كل من يخالف هذا القرار فضلا عن مصادرة أملاكه ومنعه من ممارسة حقوقه المدنية ومن حق الشهادة والميراث وغيرها من العقوبات . كما أمر البابا بمنع إمداد المسلمين بالرقيق والأسلحة والأخشاب والحديد وهى بضائع ضرورية للعسكرية المملوكية^(٥٤) .

حقيقة أن قرارات مماثلة قد صدرت من قبل^(٥٥) . ولم ينفذها التجار الإيطاليون لأن مصالحهم التجارية كانت أقوى من الاعتبارات الدينية^(٥٦) . ويرمز لهذا الأمر المثل البندقى الشهير « نحن بنادقة أولا ومسيحيون ثانيا Siams Veneziani, Poi Christioni »^(٥٧) ونتج عن الخسائر الفادحة للتجار الإيطاليين من جراء سقوط المستعمرات الصليبية على السواحل الشامية ، أن اضطروا لهجرة الموانى المصرية لفترة - وإن كانت قصيرة - من الزمن وهذا جعلهم يبحثون عن البديل الطبيعى لأسواق الماليك وهو أسواق المغول للحصول على المنتجات الآسيوية التى لا تستغنى عنها الأسواق الأوربية . وهذا يفسر شدة إقبال التجار الإيطاليين بصفة عامة على تبريز منذ عام ١٢٩١م فصاعدا .

ومن أسف أن التجار الجنوة الذين تواجدوا داخل آسيا لم يتركوا - مثل التاجر البندقى ماركو بولو أو نظيره الفلورنسى بيجلوتى - أية مذكرات أو مدونات عن أنشطتهم التجارية

فى أسواق المغول . ويعزى المؤرخ الاقتصادى (الجنوى الأصل) روبرت لوبز Robert Lopez هذا الأمر إلى أنه كان من عادة الجنوين الاحتفاظ بأسرارهم التجارية خشية إطلاع منافسيهم عليها لدرجة أنهم عندما كانوا يسجلون عقود التجارة والشركات^(٥٨) المساهمة لرحلاتهم التجارية فانهم كانوا يحجمون حتى عن ذكر جهة المقصد حرصا على هذه السرية^(٥٩).

وعلى هذه الشاكلة كانت رحلة الأخوين أوغلينو وفادينو فيفالدى Ugolino & Vadino Vivaldi من جنوة عام ١٢٩١م . فرغم أنهما حرا عقود التجارة مع شركائهما القائمين على تمويل رحلتهم على أن وجهتهما مناطق مختلفة من العالم « إلا أن هدفهما الحقيقى كان البحث عن طريق بحرى إلى الهند »^(٦٠). ولكنهما أبحرا فى المحيط الاطلنطى ويرجع أنهما ضللا الطريق هناك^(٦١) أو أن ظروفًا طبيعية أو بشرية فى شمال أفريقيا أو غربها قد حالت بينهما وبين تحقيق هذا الحلم بإمكانياتهما البشرية والمادية المتواضعة والذى تحقق بعد ذلك بقرنين من الزمان على يد فاسكو داجاما.

ورغبة من أبنائهم فى البحث عنهما فى الهند - وهى جهة المقصد الحقيقية فإن شركة مساهمة تكونت بين الأخوة فيليبو Filippo وسيمون Simone وجنفيرا فيفالدى - Ginevra Vivaldi عام ١٣١٥م وسلموا أحد أقاربهم ويدعى بنديتو فيفالدى Benedetto Vivaldi مبلغ ثلاثمائة وثلاثة دینارات جنوبية ورغم أن عقد المشاركة نص صراحة على أن جهة المقصد هى بيزنطة فان وجهة بنديتو فيفالدى كانت إلى الهند للبحث عن الأخوين فيفالدى هناك . وسافر الأخير إلى الهند فى رحلة تجارية (عبر كافا - طرابيزون - تبريز - هرمز) . وتقابل هناك (وربما فى تبريز) مع أحد التجار الجنوبية وهو بيروسيقالى ستنكونى Percivale Stancone وتوفى بنديتو فى الهند وأرسل رفيق الرحلة خطابا لأسرته وللقائمين على الشركة التى قامت بتمويل رحلته وذلك لإبلاغهم أنه مستعد لإرسال بضائع المتوفى إليهم على مسئوليتهم الخاصة . ولكن الورثة والشركاء فى جنوة أبلغوا ستنكونى بتحويل الأموال إليه لاستثمارها لهم بنفس الشروط المعروفة حين عودته إلى جنوة^(٦٢). وهكذا لولا وفاة بنديتو فيفالدى بالهند والرسالة التى وصلت جنوه تنعيه لدائنيه ما كان الباحثون علموا بوجود الجنوبية فى الهند ، وهذا ينطبق على جميع أنشطة الأخيرين فى آسيا التى أحيطت بسرية تامة .

وليس معروفا على وجه الدقة سبب تأخر الجنوين فى إنشاء قنصلية لهم فى تبريز حتى بداية القرن الرابع عشر الميلادى رغم تواجدهم بها منذ بداية حكم المغول لإيران والعراق خاصة وأن الفندق والقنصلية كانا من ضرورات أى جالية تجارية وأجنبية . ويمكن تفسير ذلك بأنهم

فى عهد الإيلخانات البوذيين كانوا يتمتعون بحماية ورعاية الخان شخصيا ، وأن قادتهم كانوا يتحدثون باسم حكام المفل فى العواصم الأوربية ، بل وعهد ارغون لأحدهم بحراسة قصره شخصا ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، يبدو أنهم لم يكونوا فى موضع مناقسه مع أحد من الجاليات الأوربية حتى نهاية القرن الثالث عشر ، بل وكان يسمح لهم بالتجول والإقامة فى كل أنحاء إيلخانية فارس . وكانت أديرة الرهبان الكاثوليك بمثابة فنادق لهؤلاء التجار للمبيت فيها . وهذا لا يتعارض مع كونهم يستخدمون الفنادق العديدة التى بناها الإيلخانات وقادتهم فى معظم المدن الهامة حتى أن رشيد الدين الهمداني قام ببناء أربعة وعشرين فندقا للتجار فى ضاحية واحدة من تبريز عرفت باسم الربيع الرشيدى (٦٣) . وهذا الوضع كان يختلف عن نظام الفندق بالاسكندرية الذى كان بمثابة مكان لمبيت الجالية التجارية الواحدة ليلا ومكان لبيع بضاعتهم نهارا وكان مقرا للقنصل أيضا . وللفندق وضع قانونى نصت عليه المعاهدات مع حكام مصر لأنه لم يكون مسموحا للتجار الأجانب بالتجول خارج الميناء (٦٤) . ولكن فى إيلخانية فارس كان الوضع مختلفا .

والمهم أنه مع بداية القرن الرابع عشر - وتغير وضع الأجانب باعتراف غازان الإسلام - أنشأ الجنويون قنصلية لهم فى تبريز . وكان يتم تغيير العاملين بها كل نصف سنة . ويساعد القنصل مجلس يتكون من أربعة وعشرين شخصا والقرارات سارية المفعول بحضور ستة عشر شخصا وموافقة اثنى عشر حاضرا ، وكان للقنصل والمجلس المعاون له السيادة على جميع الجنويين المتواجدين فى ولايات إيلخانية فارس سواء قصرت مدة إقامتهم بها أو طالت . وبعد انتقال الخان أوجايتو إلى مدينة السلطانية واتخاذها عاصمة له كان للجالية مقرا بها أيضا .

ونظرا لتضرر التجار الجنوبية من استغلال رعاة حيوانات النقل اللازمة لقوافلهم من طرابيزون حتى تبريز . فان القنصلية أخذت على عاتقها استئجار وشراء الحيوانات بمعرفتها وتوزيعها على القوافل . وصدرت تعليمات من جنوه بمنع رعاياهم فى فارس من إشراك الأجانب فى قوافلهم (عدا البنادقة والإغريق) أو إسكانهم فى فنادقهم أو عمل عقود شراء أو سداد مستحقات مالية مع الآخرين تزيد مدتها عن أربعة شهور ولو زادت عن ذلك يؤخذ رأى القنصل فى تبريز وكذلك دائرة التجارة فى مجلس القنصلية (٦٥) .

ونظرا لحاجة الجنوبية لمعرفة لغات السكان المحليين الذين كانوا يتعاملون معهم فى الأسواق ، فان أحد التجار الجنوبيين قد ألف قاموسا عام ١٣٠٣ للألفاظ الشائعة والمتداولة فى الأسواق

لثلاثة لغات : اللاتينية ولغة الكومان (التي كانت منتشرة بين مغول القفجاق) واللغة الفارسية . ويستبدل من ذلك إتقان مؤلفه للغتين الفارسية والكومانية فضلا عن لغته اللاتينية^(٦٦).

ثانيا : البنادقة

كان من نتائج الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية عام ١٢٠٤م أن أصبح التجار البنادقة هم سادة منطقة البحر الأسود بلا منافس . وانتشروا فى بحر إيجه وعلى شواطئ البحر الأسود وبصفة خاصة فى ميناء سولديا Soldia . وفى عام ١٢٢٠م عقدوا معاهدة مع سلطان سلاجقة الروم تمتعوا بمقتضاها بحماية السلطان ورعايته ، وحق المرور عبر أرضية ودفع جمارك قدرها ٢٪ فقط من قيمة بضائعهم . وحصل رعايا البندقية على حقوق قانونية متميزة^(٦٧) على غرار الامتيازات التى حصلوا عليها فى موانئ مصر والشام . ومع ذلك لم ينجح البنادقة فى التوغل فى آسيا الصغرى أو فى منطقة القوقاز لسيطرة قبائل الكومان والقفجاق والأتراك على هذه المناطق ، وانتهمز ميخائيل باليولوجس حاكم نيقية الإغريق فرصة انشغال البنادقة بحربهم مع جنوة فى عكا منذ عام ١٢٥٨م ودبر مع الجنوة أمر طردهم من القسطنطينية وتم له ما أراد عام ١٢٦١م^(٦٨).

وفى تلك الفترة كان مافيو ونيقولو بولو فى ميناء سولديا على البحر الأسود يتاجران فى المجوهرات والأحجار الكريمة وذهبا بتجارتهما لبركة خان حاكم مغول روسيا فى عاصمته سراى على مصب نهر الفولجا حيث باعا له ما معهما من بضائع . ولكنهما علما أن الجنوة قد أسروا البنادقة فى سولديا وذبحوهم وأنهما لا يستطيعا العودة للبندقية عن طريق القسطنطينية اضطرا للرحيل شرقا إلى بخارى - حيث كان طريق الحرير إلى الصين آمنا بفضل سيطرة المغول عليه - بغية الالتفاف حول بحر قزوين والوصول إلى تبريز ومنها إلى إياس للعودة لبلدهما .

ولكن سفارة من الخاقان الأعظم فى بكين كانت فى تبريز قد نجحت فى إقناعهما بالذهاب لحضرة قوبيلاي خان للتجارة فى بلاده حيث أنه متوق لرؤية الأوربيين . ورحب مافيو ونيقولو بذلك واصطحبا سفارة قوبيلاي خان عبر هضبة بامير فى رحلة برية شاقة قوامها ثلاثة آلاف ميل حتى وصلا بكين واستقرا هناك تحت رعاية الخاقان وحمايته . وفى عام ١٢٦٩م أعادهما الأخير ممثلين له فى سفارة للبابوية . وفى عام ١٢٧٥م رجعا ثانية إلى بكين ويرفقتهما ماركو (١٢٥٤م - ١٣٢٤) الذى ذاعت شهرته نتيجة المذكرات التى دونها بعد رجوعه لبلاده عام ١٢٩٥م بعد استقراره فى الصين مدة ١٧ عاما (١٢٧٥-١٢٩٢م) عمل فيها فى خدمة

الخفاقات مستشارا له وحاكما لبعض الولايات الصينية وسفير القويلاى إلى أقاليم مجاوره للصين ومنديا عنه فى مهمات خاصة . وأبرز فى ذلك براعة وتفوق مدهشين خاصة وأنه أتقن لغات المغول والصينيين على حد سواء (٦٩).

وفى عام ١٢٩٢م رجع آل بولو بالطريق البحرى - الزيتون - الهند - هرمز - تبريز وذلك لمصاحبة عروس أرغون خان الصينية . وبعد رجوعهم للبندقية انفجر صراع دام بين جنوه والبندقية (الحرب الثانية) اشترك فيها خمسة وثلاثون ألف جنوى ومائة وخمسة وستون مركبة حربية - دام ثلاثة أعوام ، وهزمت فيها البندقية ووقع ماركو بولو فى أسر الجنوية باعتباره كان محاربا فى صفوف قوات بلاده . وكانت فترة الأسر بالنسبة للأخير فرصة سانحة ليحكى لزميله فى الزنزانة ستجيبلو (وهو مواطن بيزى) رحلاته ومشاهداته ومغامراته فى الشرق . وقام الأخير بتدوينها بأسلوب جذاب حيث استنسخ مخطوطاتها من هذه النسخة (٧٠). ولهذا فان للجنوية فضل غير مباشر على ماركو بولو من ناحيتين ، الأولى : إجبار والده وعمه على التوغل فى آسيا خوفا من القبض عليهما فى البحر الأسود وما ترتب على دخولهما الصين من نتائج على اصطحابهما لماركو هناك . والثانية : أن فترة وقوع ماركو بولو فى الأسر أتاحت له الصفاء الذهني والوقت اللازمين لاملأ مذكراته عن رحلاته ومشاهداته فى آسيا .

ورغم أن معظم مدونات ماركو بولو تدور مشاهداته فى إقليم الصين ، إلا أنه سجل أيضا ما شاهده وعرفه عن إقليم الهند وجزر الملايو وإيلخانية فارس ، وأرمينيا الصغرى التى مر بها أثناء رجوعه لبلاده فضلا عن تسجيله لما عرفه من معلومات عن عدن والبحر الأحمر وأثيوبيا والملاحة فى المحيط الهندى (باعتباره كان ربانا للسفينة التى أقلته مع رفاق الرحلة من الصين إلى الهند إلى هرمز فى طريق العودة) . وقد سجل بعقلية التاجر البندقى كل ما يهم التجار معرفته عن الطرق التجارية وصناعة السفن وحركة الموانئ والأسواق ، وأنواع المتاجر . وتحدث طويلا عن التوابل والجواهر واللاكى ، والخير فى جنوب آسيا وشرقها . ولهذا فانه عندما رجع لبلاده وروى مشاهداته لزملاته البنادقة الذين كانوا يشترون هذه المنتجات من الاسكندرية بأضعاف أثمانها فى مناطق انتاجها فانه أثار فيهم شهوة التاجر للريح الوفير وارتياح الصعاب فضلا عن أن الثروة التى رجع بها ماركو بولو لبلاده (٧١) قد أغرت العشرات من البنادقة لمحاولة محاكاة تجربته . ولهذا الأمر شهدت السنوات الأولى من القرن الرابع عشر وفود التجار البنادقة لأسواق ايلخانية فارس (مع عدم إغفال أن تضيق البابوية لفرص التجارة مع الممالك بعد عام ١٢٩١م كان دافعا أيضا للبنادقة لارتياح أسواق المغول) . كما كان لانتشار

مذكرات ماركوپولو فى المدن التجارية بغرب أوروبا عامة والمدن الساحلية فى شبه الجزيرة الإيبيرية خاصة تأثيره المباشر على حركة الكشوف الجغرافية للمغامرين الذين أسالت لعابهم أوصاف ماركوپولو للهند والصين على أنها أرض التوابل والجواهر (٧٢).

ومن الواضح أن الظروف التى أجبرت الآخرين بولو على التوغل فى داخل آسيا عام ١٢٦١م بدلا من الرجوع للبندقية هى نفسها التى أجبرت التاجر البندقى بيتروفيجليونو - Pie tro Viglioni على الاتجاه إلى تبريز حيث مات بها عام ١٢٦٤م . وقبيل وفاته كتب بيترو وصيته لثائب البنادقة فى عكا وذلك لعدم وجود أحد من زملائه البنادقة فى ذات المدينة فى ذلك الوقت . وقد كان بيترو وكيلًا عن شركة تجارية تضم والده وعدة أعضاء للتجارة فى الأقمشة الأوروبية فى آسيا (٧٣) .

وبعد وفاته حضر إلى تبريز مجموعة من التجار البنادقة واستقروا بها . وكان من بينهم جياكوموفا سيللو Giacomo Vassallo الذى كان عضواً فى إحدى سفارات أبغا خان للغرب الأوربي . والخطاب الذى وجهه البابا نيقولا الرابع برفقة رابان صاوما إلى تسعة من اللاتين فى تبريز - لتوصيتهم بنشر المسيحية وأن يكونوا قدوة للمتعاملين معهم - كان يتضمن ثلاثة أسماء لتجارة بنادقة . وفى بداية القرن الرابع عشر انتشر البنادقة فى مدينة السلطانية وفى ميناء هرمز أيضا ، وفى فترة الحصار الاقتصادى على مصر ركز البنادقة وجودهم التجارى فى ايلخانية فارس عامة وفى مدينة تبريز خاصة .

وكان لتطور حركة التجارة للبنادقة فى أسواق ايلخانية فارس دوره الفعال فى إرسال البندقية للعديد من السفارات لحكام ايلخانية فى أعوام ١٣٠٥ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ وأيضاً فى عام ١٣٤٢ م . وكان إرسال هذه السفارات المتتالية يرجع لسوء النظام بين أفراد الجالية البندقية هناك ، ولبعض المثالب التى أرتكبها بعضهم سواء بالاستدانة من التجار المحليين أو بعدم سداد ما عليهم من ديون أو ارتكاب أخطاء يستحقون عليها العقوبة ، وأيضاً للاحتجاج على حكام ايلخانية لتعرض التجار البنادقة أو ممتلكاتهم للعنف أو السرقة أو المصادرة من جانب رعايا الخان أو قواده أو من جانب بعض حكام المغول أنفسهم (٧٤) . كما سنرى فيما بعد .

ومن الواضح أن ايلخانات فارس منذ باكورة القرن الرابع عشر قد بدأوا يمنحون البنادقة امتيازات واسعة فى بلادهم على غرار الامتيازات الممنوحة للجنويين . وكان البنادقة قد حصلوا على امتيازات تجارية أيضاً من آل باليولوجس فى منطقة البحر الأسود وذلك فى

محاولة من الآخرين لكبح جماح الجنوية حتي لا يتكرر منهم ما فعله البنادقة مع القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م وقد منحهم حكام مغول روسيا أيضا بعض المناطق التجارية فى ميناءى كافا وتانا ومنهما وصل البنادقة إلى طرابيزون التى كانت المدخل الطبيعى إلى تبريز (٧٥).

والمهم أن أولجايتو خان (١٣٠٤-١٣١٦) الذى أرسل سفارة للغرب الأوربى عام ١٣٠٦م برئاسة توماس اوجى السينى Tomazo Ugi of Sienna قد كلف نفس السفارة بالمرور على البندقية وتسليمها رسالة منه مكتوبة إلى الدوج بشأن منح امتيازات للتجار البنادقة فى بلاده وقد حمل السفير أيضا رسالة من تاجر مسلم يدعى خواجه عبدالله إلى أحد تجار البنادقة ويدعى بيترو رودولفو Pietro Rudolfo يبرئه فيها من الديون التى كانت عليه له ويعدده ألا ينتقم منه إذا ما رجع لتبريز . وقد وثق خواجه عبدالله هذه البراءة بتوقيع اثنين من الشهود : أحد البنادقة فى تبريز وشخص السفير (٧٦).

وفى عام ١٣١٩م أسس البنادقة قنصلية لهم فى طرابيزون . ووصل سفير البندقية إلى تبريز عام ١٣٢٠م ويدعى ميشيل دولفين Michel Dolphin فى محاولة لاسترجاع ثروة أحد البنادقة ويدعى فرانشيسكو كنانالى Franceso de Canale الذى مات فى منطقة أرزنجان بجورجيا الصغرى واستولى عليها تاجراً اسمه بدر الدين لولو من رعايا الخان المغولى : أبو سعيد .

وقد نتج عن مفاوضات سفير البندقية مع أبو سعيد منح البنادقة امتيازات واسعة بموجب معاهدة وقع عليها دولفين وأبو سعيد فى ٢٢ ديسمبر عام ١٣٢٠م (٧٧).

واتفق الطرفان بموجب هذه الامتيازات على « ألا يقع أى أذى أو عنف على أي بندقى أو أى من حاشيته أو خدمه ، ويجب ألا يفرض عليهم أية ضرائب أو يجبى منهم أية رسوم أو جمارك أو خلافه عدا تلك المعمول بها قديما » . وكذلك تمتع التجار البنادقة بالحماية والرعاية الكاملة من قبل الخان وقواده ورعاياه فى جميع أنحاء الايلخانية . وأيضا حررتهم الكاملة فى البيع والشراء واختيار معاونيهم وعرض تجارتهم واختيار أسواقهم والمنتجات التى تروق لهم دون ضغط من أحد . فضلا عن ذلك كفالة حق البنادقة فى أن ترعى دواب قوافلهم ثلاثة أيام فى المحطات التجارية لأى مكان فى الايلخانية . وأكدت الامتيازات الممنوحة من أبى سعيد على عدم التدخل فى شئون البنادقة أو فى الخلافات التى تحدث بينهم وبين بقية « الفرنجة » فى الايلخانية ، وعلى أن القنصل البندقى فى تبريز من مسؤولياته إقرار العدل بين

البنادقة أو بينهم وبين اللاتين طبقا لقوانينهم الخاصة . وأكدت المادة العاشرة فى هذه الاتفاقية . على أن محاكمة البنادقة قد تكون أمام القاضى الأعلى (أى قاضى القضاة) فى الايلخانية دون أجد سواه .

ونصت هذه الامتيازات كذلك على عدم مصادرة تركة الميت (من البنادقة) بل يفوض القنصل فى التصرف فيها طبقا لوصية المتوفى . وأيضا حرية البنادقة فى جلب الخمر لأماكن إقامتهم ، وكذلك على المسؤولية الفردية لكل تاجر عن الديون أو الأخطاء الشخصية ، وعلى تعويض البنادقة عن أية خسائر أو أضرار تلحق بتجارهم .

وإن النظرة الفاحصة لنصوص الامتيازات التى منحها الايلخان المغولى للبنادقة عام ١٣٢٠م - ومقارنتها بمشيلاتها التى منحها السلطان الناصر محمد بن قلاوون للبنادقة أيضا فى بلاده عام ١٣٠٢م^(٧٨) . تجعلنا نخرج بعدة ملاحظات جديرة بالتسجيل منها :-

أولا : أن نصوص معاهدة البندقية مع المصريين جاءت أكثر شمولاً ووضوحاً من مشيلاتها مع مغول فارس وهذا يرجع لأنها لم تكن الأولى من نوعها (ولم تكن الأخيرة أيضا) وكانت ناتجة عن احتكاك ومعاملات بين الطرفين ترجع لعدة قرون من الزمان وكان لهذا أثره فى تطور بنود وصيغة هذه المعاهدة . أما مطالب البنادقة من ايلخانات المغول - كما تشهد بذلك نصوص هذه الامتيازات - فكان محورها تأمينهم وممتلكاتهم من اعتمادات الخان وقواده ورعاياه .

ثانيا : أن معاهدة البنادقة مع المغول تحدثت عرضا عن أشخاص لازمين لخدمة التجار وهم المترجمون والخدم ورعاة دواب النقل والمرشدون والسماسرة دون أى تحديد لالتزاماتهم وحقوقهم . ولكن المعاهدات المصرية معهم توضح هذه المسائل بدقة وتبين كذلك أجورهم ومسئوليتهم قبل الحكومة المصرية بل واشترطت مصر على البنادقة تعيين كاتب مسيحي (حتى يكون محل ثقة اللاتين) ليسجل أعمالهم وحساباتهم .

ثالثا : إن معاهدة البنادقة مع مغول فارس نصت على حريتهم فى التواجد فى جميع أنحاء «امبراطوريتهم» ولكن نصوص معاهدات المصريين معهم قصرت هذا الحق على الموانئ فقط بل وقيدت إقامتهم ومكان بيعهم وتواجدهم فى بعض المناطق من الموانئ فى بعض المعاهدات «مثل الجمر - الديوان - الفندق» وهذا يرجع لعدم سماح المصريين للتجار الأجانب فى ارتياد البحر الأحمر لأسباب اقتصادية وأمنية كما سبق الإشارة آنفا .

رابعا : أن معاهدات المصريين مع البنادقة (أعوام ١٢٥٤ ، ١٣٠٢ ، ١٣٥٥م على سبيل المثال) منحت التجار البنادقة - فضلا عن نفس الحقوق التى منحها لهم الخان المغولى فى بلاده الحق فى ملكية فنادق ومخازن وحمامات وأفران خاصة بهم ، وأيضا إعفاء شخصيا لقنصل البنادقة بالاسكندرية من رسوم وجمارك فى حدود الف بيزانت سنويا ، وذلك لتشجيعه على البقاء فى الأسكندرية . وكذلك إعفاء التجار البنادقة من الرسوم والضرائب على ما يحملونه من الذهب والفضة^(٧٩) واللاآت والأحجار الكريمة والفراء . وحددت هذه المعاهدة رسوم الجمارك ورسم النقل بصورة واضحة لا لبس فيها ولاغموض . ولكن نصوص معاهدة أبو سعيد معهم لم تشر من قريب أو بعيد لهذه الأمور ولم تتعرض كلية لرسم الجمارك ويبدو أن هذه المسائل تركت للعلاقات الشخصية بين البنادقة وحكام المغول وهى مسائل كانت تختلف من حاكم لآخر حسب الظروف السياسية والاقتصادية والأمنية المحيطة به وفى هذه الحالة تكون قابلة دوما للمد أو الإلغاء أو الانتقاص . وهذا يفسر حرص البنادقة الدائم على العلاقات الوطيدة مع المصريين ومحاولاتهم الدائبة فى كسر أوامر البابوية فى تحريم التجارة معهم بل والتعامل مع الموانئ المصرية بطرق غير مباشرة فى فترة الحصار الاقتصادى عليها لأنهم كانوا يحصلون بموجب معاهداتهم مع المصريين على امتيازات تفوق تلك التى حصلوا عليها من ايلخانات فارس .

ثالثا : الجاليات الإيطالية الأخرى

لم يكن التجار الجنوبيين أو البنادقة وحدهم الذين تواجدوا فى أسواق ايلخانية فارس ، بل وجد أيضا عدد من تجار المدن الإيطالية الأخرى ولكن بأعداد قليلة . وبعضهم ذهب إلى تبريز بفرض التجارة والبعض الآخر اشتغل فى خدمة حكام المغول فى المجالات الحربية أو السياسية . وفى نهاية القرن الثالث عشر كان ايسول البيزى Isol of Piza وزميله جيوفانى دى - بوناسترو Giovanni de Bonastro من الشخصيات التى قامت بأدوار هامة فى بلاط الخان المغولى ، كما أن ايسول بصفة خاصة كان سفيراً لغازان خان للقوى الصليبية فى البحر المتوسط وأرمينيا الصغرى . وقد ورد اسمه فى خطابات البابا نيقلولا الرابع التى أرسلها للشخصيات اللاتينية التى كان لها دور قيادى فى العاصمة المغولية^(٨٠) .

وفضلا عن البيازنة كان هناك تجار من فلورنسا وميسينا قد حظوا بثقة حكام المغول ومنهم توماس أوجى السينى Tomas Ugi of Siena سفير اوجايتو لغرب أوربا عام ١٣٠٦م .

ويدل «الدليل» الذى كتبه التاجر الفلورنس بيجلوتى Pegolotti عن طريق التجارة إلى الصين^(٨١) رغم أنه لم يسافر داخل آسيا - على أنه استقى معلوماته الدقيقة جدا من تجار من أبناء وطنه قد رجعوا لتوهم من وسط آسيا وشرقها فى عام ١٣٣٠م تقريبا وهو يسجل أسماء كل المحطات التجارية بين إياس وتبريز بدقة متناهية ويصف مقدار الرسوم التى يدفعها التاجر عن كل حمولة ، ورسوم النقل والحراسة والترجمة ويصل لتحديداتها بـ ٢٠٣ أسبيرو Aspers (عملة بندقية صغيرة) عن كل حمولة من إياس إلى تبريز ، بل ويعدد السلع الشرقية التى يجدها التجار الإيطاليون فى موانئ البحر الأسود ورسوم كل سلعة وأسعارها والمكايل والموازين ، والأشياء الضرورية التى يجب على كل تاجر أن يأخذها معه وغير ذلك من معلومات دقيقة جدا^(٨٢) تدل على أنه أخذها من العديد من تجار بنى وطنه لأنه من غير المتصور أن التجار الجنوبية أو منافسيهم البنادقة يبيعون بأسرارهم لتاجر فلورنسى .

وقد عثر - حديثا - على وثيقتين عبارة عن تفويضين كتبوا فى مدينة تبريز فى ١٣٢٨م ، ١٣٣٢م يحملان توقيعات تاجر جنوبى وثان بيزى وأربعة من الشهود من تجار مدينة بياكنزا الإيطالية Piacenza . ومع ذلك فإن عدد التجار الأجانب - عدا الجنوبية والبنادقة لم يكن كبيرا ، وتحمل وثيقة للرهبان الفرنسيسكان عام ١٣٣٣ - حول الرهبان المنشقين (أو الهرطقة) - أسماء تاجر بياكنزى ، وثان بيزى ، وثالث من ميلان ، ورابع من مدينة استى Asti واثنين من البنادقة وخمسة من الجنوبية ، ولكن بيجلوتى يقارن فقط فى كتابه - بين مكاييل الجنوبية والبنادقة وأوزانهم فى تبريز^(٨٣) ، وهذا دليل آخر على أن تجار المدن الإيطالية الأخرى كانوا أقليات معدودة ومحدودة الأثر . أما مواطنى قطلونيا ومرسيليا والمجترات فاقترض وجودهم المؤقت فى الابلخانية على توصيل رسائل من حكام بلادهم إلى قادة المغول ولم يقوموا بأى دور تجارى يستحق الذكر^(٨٤) . اللهم إلا شراء بعض البضائع الشرقية من تبريز أو السلطانية فى طريق عودتهم لبلادهم أو حصولهم عليها من قادة المغول كنوع من الهدايا الشخصية لهم .

التجار الإيطاليون فى الهند والصين :-

كانت مدينة تبريز نقطة انطلاق لكثير من التجار الإيطاليين - ومعظمهم من الجنوبية - إلى الهند . وكان منهم بنديتو فيفالدى Benedetto Vivaldi وستانكونى Stancone المشار إليهما سابقا . وهناك وثائق بندقية تكشف اللثام عن أن شركة تجارية تأسست عام ١٣٣٨م للتجارة فى الهند ، وأن ستة من التجار البنادقة سافروا إلى دلهى وباعوا منتجاتهم للسلطان

محمد ابن طفلق^(٨٥). وفى عام ١٣٤٣م حضر تاجر جنوى ويدعى توماس جنتلى Tomaso Gentile إلى هرمز بغرض الإبحار إلى الصين ولكنه قرر الرجوع ثانية لبلاده . وكان يوجد أيضا بعض التجار البيازنة الذين ذهبوا للهند فى النصف الأول من القرن الرابع عشر . واستقر بعض التجار الإيطاليين فى الهند فترة طويلة^(٨٦). ولكن لأن هؤلاء التجار لم يتركوا مدوناتهم ولم توضح عقود التجارة معهم جهة مقصدهم - خشية المنافسة - فلا توجد معلومات تفصيلية عن طبيعة أنشطتهم فى الهند أو جنوب آسيا عموما .

ولابد أن التجار الجنوية الذين أرادوا بناء أسطولهم فى الخليج العربى عام ١٢٩٠م قد انتشر رهط منهم على السواحل الهندية بعد فشل هذه المحاولة . وينقل عن الأسقف الفرنسى الدومنيك كاني فى وليم آدم قوله عام ١٣١٧م : « أن الجنوية لهم سفنهم فى المحيط الهندى » . ويحاول الياهو اشتور Eliyahu Ashtor تأييد هذا القول بالاستناد لعبارة للبحار العربى ابن ماجد الذى كتب عام ١٤٦٢ وردت عرضا فى كتاباته عن « الفرنجة »^(٨٧).

ولكن لم يثبت بأى دليل وثائقى أو أثرى أن الجنوية أو غيرهم من الأوروبيين قد نجحوا فى إنزال أو صنع سفن لهم فى المحيط الهندى قبل حضور فاسكو داجاما للمنطقة . وهناك عدة أدلة تدعم هذا الرأى :

أولا : أن مكمل حولية ابن العبرى الذى أورد رواية بناء « الفرنجة » لسفينتين فى نهر دجلة عند بغداد وحاولوا الوصول بها إلى البصرة أوضح أنهم لم يصلوا لهدفهم لاختلافهم فيما بينهم^(٨٨).

ثانيا : إن ابن بطوطة الذى زار منطقة المحيط الهندى جيئة وذهابا أكثر من مرة فى الثلث الأول للقرن الرابع عشر وصف سفنها وموانئها واستقر بها عدة سنوات (بعد رواية وليم آدم) ، لم يشر من قريب أو بعيد أن للجنوية أساطيل فى المحيط الهندى .

ثالثا : أن عبارة ابن ماجد التى اقتبسها اشتور للدلالة على النتائج التى وصل إليها لاتدل على ذلك.

رابعا : أن الراهب الفرنسيسكانى جوردان السيفيرى Jordanus of Severac الذى تواجد فى منطقة تانا الهندية عدة سنوات قد أرسل خطابين من هناك لزملائه الرهبان فى ايلخانية فارس ، وفى خطابه الثانى المؤرخ فى يناير عام ١٣٢٣م قال لزملائه ما ترجمته « لو أن السيد البابا Lord Pope ينشئ مركبين فى هذا البحر (يقصد المحيط الهندى) ماذا يكون المكسب لنا وماذا ستكون الخسارة لسلطان الاسكندرية من جراء

ذلك ؟ ومن سيبلغ هذا الأمر لقداسة البابا ؟ ^(٨٩) ، وهذا يعنى باختصار أن هذا الراهب قد تنبه للأهمية الاستراتيجية لتجارة المحيط الهندي بالنسبة للمماليك ، وأرسل لزملائه الرهبان يأمل منهم إبلاغ البابا بالتفكير فى بناء مركبتين فى هذا المحيط لإلحاق « الخسارة والدمار بسلطان الاسكندرية » وهذا الخطاب كتب عام ١٣٢٣م أى بعد ستة أعوام فقط من رواية وليم آدم التى استند إليها آشور . ونؤكد أنه كان يوجد العديد من التجار الإيطاليين الذين قابلهم الراهب جوردان بالهند ، فإذا كانت هناك سفن جنوبية بالمحيط الهندي بالفعل فلماذا لم يشر إليها الراهب ، ولماذا يبعث بهذه الأمانى للبابا فى روما ؟ ^(٩٠) .

وقد سافرت مجموعة من التجار الإيطاليين إلى الصين أيضا من تبريز عبر الهند (مثل التاجر الجنوى بيتو لوكالونجو الذى اصطحب الراهب الفرنسيسكانى جون مونت كورفينو فى رحلته للصين عام ١٢٩١) . أو عن طريق تانا (سراى - استراخان - بخارى - كاشغر - هضبة بامير - غزنة ثم إلى الهند ومنها إلى الصين أو من هضبة بامير إلى الطريق الشرقى الذى استخدمه الأخوين بولو فى أول مرة يدخلان فيها الصين) .

وقد أوضح بيجلوتى فى كتابه « الطريق من تانا Tana (على البحر الأسود) إلى كاشى (أبى الصين) آمن تماما سواء بالنهار أو بالليل طبقا لما قال به التجار الذين استخدموه » . وأشار إلى أن التاجر الذى يموت بالطريق تؤول تركته لحاكم المنطقة التى يموت فيها وهذا يحدث أيضا فى الصين طبقا لرواية ماركوبولو . ولكن بيجلوتى أكد أنه فى حالة وجود ابن أو شقيق للمتوفى فإن الحاكم يسلمه ثروة والده أو شقيقه . ويشير إلى أن فترة من الفوضى على الطريق البرى من البحر الأسود للصين تعقب وفاة الحاكم ولكنها تنتهى بمجرد تعيين حاكم آخر بامكانه نشر الأمن والاستقرار على ربوع الطرق . ويوصى زملاء «الفرنجية» بأن يكونوا جماعات فى حدود ستين تاجرا فى قافلة واحدة حتى يهربوا قطاع الطرق وبالأخص فى المنطقة من ميناء تانا حتى مدينة سراى . وينصح بيجلوتى التجار بأن يصطحبوا معهم تراجمة أكفاء - مهما غلا ثمنهم - يجيدون اللغات المحلية للمنطقة ، وأن يأخذوا معهم الخدم والدواب اللازمة وكذلك الخبز الجاف والسلك الملح . وبلغهم أنه بامكانهم قطع المسافة من تانا حتى بكين فى حوالى ستة شهور ^(٩١) .

ومهما يكن من أمر فإن جالية إيطالية قد وجدت فى الصين وتركزت فى مدينة الزيتون حيث أكبر ميناء تجارى فى آسيا قاطبة بشهادة ماركوبولو وابن بطوطة . وكانوا من الجنوبية

والفلورنسيين والبنادقة أيضا . وقد حملوا معهم الملابس الفرنسية والمنسوجات . واشتروا الحرير الصينى المشهور . وكان معظم الحرير الصينى الذى بيع فى أسواق فرنسا وإيطاليا فى النصف الثانى للقرن الثالث عشر من أسواق أرمينيا الصغرى وتبريز وموانئ البحر الأسود . ولكن فى بداية القرن الرابع عشر فان جزءاً من الحرير الصينى قد تم شراؤه مباشرة من أسواق الصين بواسطة التجار الأوربيين حيث توجد أدلة أثرية على أن شركة فرسكوبالدى -Frescobaldi الفلورنسية قد باعت الحرير الصينى فى أسواق لندن عام ١٣٠٤م^(٩٢) . وبطبيعة الحال لم يكن الحرير وحده هو ما نقله الإيطاليون من الصين بل نقلوا أيضا ما غلا ثمنه فى أوروبا وخف حمله من الصين من لآلى وأحجار كريمة وغير ذلك من منتجات شرقية .

ومن الواضح أن الجالية التجارية الإيطالية التى كان لها فنادقها هناك قد استمرت بعد منتصف القرن الرابع عشر . ونعرف أن التاجر الجنوى أندالدو سافينون -Andalodo Sa-vignone قد أصطحب سفارة الخان المغولى فى بكين عام ١٣٣٨ إلى أوروبا . وقد أشار الراهب الفرنسيسكانى جون مارجنولى John Marignolli الذى كان متواجداً فى الصين عام ١٣٤٧ - لوجود فندق وحمام بمدينة الزيتون لخدمة كل التجار اللاتين هناك^(٩٣) .

ولكن من المؤكد أن مخاطر الطرق الطويلة بين مراكز التجار الإيطاليين على البحر الأسود أو فى ميناء ايباس الأرمنى على البحر المتوسط وبين أسواق الهند أو الصين (سواء اتخذوا الطريق البرى فى وسط آسيا أو الطريق البحرى فى المحيط الهندى عبر ايلخانية فارس) قد جعلت أسعار المنتجات التى يحملونها منها عالية جدا ، فضلا عن وفاة الكثير من التجار الذين ارتادوا هذه المناطق لأن كثيرا من أخبارهم عرفت من خلال المراسلات التى كتبها زملاؤهم الباقون على قيد الحياة بعدهم لتعبيهم لذويهم أو لدائنيهم ، فضلا عن أنه كان من الصعب نقل كميات كبيرة من التوابل والعقاقير الطبية على ظهور الدواب آلاف الأميال داخل آسيا والوصول بها صالحة للاستهلاك الأدمى ، بل أن الحرير الصينى كان أقل ثمنا وجودة من الحرير المنتج فى آسيا الصغرى والمتداول فى تبريز وموانئ البحر الأسود^(٩٤) . ولهذا كان عدد المغامرين الذين انساحوا فى الهند أو الصين محدودا ولم يؤثر كثيرا فى نقل سلع الشرق الآسيوى للغرب الأوروبى . ومن ثم تركز أغلب التجار الإيطاليين فى تبريز والسلطانية وبغداد وإيباس وطرابزون للتعامل فى السلع الشرقية التى يحملها لهم التجار المسلمون الذين امتلكوا السفن والأموال اللازمة ، وخبرة عدة قرون مضت فى نقل منتجات الصين والهند وجزر الملايو لأسواق الخليج العربى ومنطقة البحر الأحمر أيضا^(٩٥) .

نتائج الحصار الاقتصادي على مصر على تطور تجارة اللاتين مع ايلخانية فارس

سبقت الإشارة إلى أن البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢م) أصدر قرارا بتحريم التجارة مع المماليك عام ١٢٩١ بهدف إضعاف الاقتصاد المصرى ولتيسير إعادة غزو الأراضى المقدسة. وكان من أثر ذلك ازدياد انتشار التجار الإيطاليين فى الأسواق الآسيوية لتعويض خسائرهم الناجمة عن وقف التعامل مع الموانئ المصرية .

ولكن نجحت المدن التجارية الأوربية فى الحصول على موافقة البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٥-١٣٠٣م) بإعادة المتاجرة مع المماليك فى غير البضائع التى من شأنها تقوية العسكرية المملوكية مثل الخشب والقار والحديد والرقيق . ومن ثم عقد البنادقة معاهدة مع الناصر محمد بن قلاوون عام ١٣٠٢م استعادوا بموجبها الامتيازات التى كانت ممنوحة لتجارهم من قبل . ولكن حدث أن سفينة جنوبية جاءت للاسكندرية محملة بالرقيق ، وثار قنصل البنادقة بالاسكندرية على هذا الأمر وكان جزاؤه الطرد من الاسكندرية (٩٦) . وثار الاستتارية- فى قبرص ورودس - الذين عهد لهم البابا بمراقبة الأساطيل التجارية التى تتعامل مع الموانئ المصرية ، وطالبوا البابوية بتحريم التجارة كلية مع المصريين .

والحقيقة أن البابوية واجهت ضغوطا واسعة من قبل رجال الدين والعلمانيين على حد سواء لإصدار قرارات كنسية لمنع التعامل مع المصريين . خاصة وأن البابوية منذ عام ١٣٠٥ انتقلت لمدينة أفينون الفرنسية ووافقت - مرغمة - للملك الفرنسى فيليب الرابع على مصادرة أملاك الداوية واعتقالهم . ولهذا كانت الكنيسة الكاثوليكية مضطرة - لإنقاذ ماء الوجه والهيبة أمام اللاتين - لاتخاذ موقف أكثر تشددا مع الموانئ المصرية ، كما أن العديد من مشروعات دعاة إحياء الحملات الصليبية التى بدأت تنتشر فى أوروبا قد طلبت البابوية بهذا الأمر . ويكفى هنا الإشارة بايجاز لأشهر هؤلاء الدعاة وهو مارينو سانودو Marino Sanudo (١٢٧٠-١٣٤٣م) (٩٧) .

وكان مشروع سانودو لاستعادة الأراضى المقدسة لحوزة اللاتين يقوم على فرض حصار اقتصادى كامل على موانئ المماليك . وقطع التجار الأوروبيين المتعاملين معها من رحمة الكنيسة ، وإنشاء أسطول بحرى تابع للبابوية لمراقبة الخارجين على أوامرها فى هذا الشأن ، واقترح ضرورة احتلال مصر أولا لالتقاطها منها على فلسطين . وشرح سانودو فى مذكراته كيف أن الغرب الأوربى يستطيع أن يحصل على احتياجاته من القطن والسكر والمنتجات

الحريرية والتوابل والبضائع الهندية دون الاعتماد على سلطان القاهرة كوسيط بين الشرق والغرب وذلك بالاعتماد على الطريق المار بابلخانية فارس ، حيث أن المغول حلفاء طبيعيون للغرب المسيحي ضد المسلمين . وقرر سانودو أن مرور هذه البضائع عبر أراضي سلطان القاهرة من شأنه تقوية اقتصاده فضلا عن قيام بعض «الشعوب المسيحية الحمقاء» بامداده باحتياجاته من العبيد والخشب والحديد . بل وذهب في تصوراته أبعد من ذلك باقتراحه زراعة المنتجات المصرية التي تحتاجها الأسواق الأوروبية في بيئات أوروبية (أو أسيوية صديقة) مماثلة في الظروف الجغرافية مثل قبرص ورودس وكريت وصقلية ومالطة وأرمينيا الصغرى . وأكد سانودو في نهاية مشروعه على أهمية تحويل طريق التجارة من يد المسلمين إلى طريق المغول المار بهرمز وبغداد وتبريز لتكون هذه البضائع في يد البنادقة وحدهم (موطنه الأصلي) . وأكد أيضا على ضرورة إنشاء أسطول مسيحي في المحيط الهندي للسيطرة على هذا البحر وإخضاع سواحله وجزره للسيطرة الأوروبية (٩٨).

والمهم أن البابا فور تلقيه مشروع سانودو هذا في سبتمبر عام ١٣٢١م قد شكل لجنة لدراسته وتقديم تقرير عنه (٩٩). ويبدو أن المجتمعين قرروا الأخذ بالاقتراح العملي القابل للتنفيذ - والذي لا يحتاج لامكانيات مادية أو بشرية في غير متناول البابوية حينئذ وهو اصدار قرارات كنسية لتحريم التجارة كلية مع الممالك . وبالفعل أرسل البابا حنا الثاني والعشرين في سنة ١٣٢٢م إلى دوج البندقية قرارا بذلك تم إعلانه ونشره في جميع الموانئ الأوروبية . واضطرت البندقية في ١٨ يناير سنة ١٣٢٣م إلى اصدار مرسوم حرمت فيه على رعاياها المتاجرة في جميع السلع مع مصر والبلاد التي تخضع لسلطانها (١٠٠) وحذت حذوها بقية المدن التجارية الأوروبية .

ويتزعم ريموند لويز Raymand Lopez والياهو أشتور E. Ashtor وفردريك لان Fre-deric Lane الرأي القائل بأن التجارة بين الأوروبيين والموانئ المصرية في الفترة من عام ١٣٢٣م حتى عام ١٣٤٥م كانت مقطوعة تماما . ويستندون في ذلك لعدة مبررات من أهمها رسالة من السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٤٥م إلى دوج البندقية يخبره فيها بأنه منذ سنة ١٣٢٢م لم ير سفينة بندقية واحدة تدخل بلاده (١٠١) ولكن صبحي ليبب يؤكد استمرارية تعامل التجار الأوروبيين مع ميناء الاسكندرية في تلك الفترة أيضا وإن كان ذلك بدرجة أقل مما سبقها وبطرق غير مباشرة أحيانا وملتوية أحيانا أخرى (١٠٢).

ومن المؤكد أن امتناع التجار الأوروبيين عن ارتياد موانئ الممالك كليا أو جزئيا في الربع الثاني للقرن الرابع عشر جعلهم يركزون نشاطهم في ميناء إيباس الأرمنى وفي موانئ البحر الأسود وفي المراكز التجارية لایلخانية فارس . ويدل « دليل التجار » الذي ألفه التاجر الفلورنسى بيجلوتى عام ١٣٣٠م على الحاجة الماسة للحصول على منتجات الشرق الآسيوى من طرق أخرى بعيدة عن متناول الممالك .

ولكن التجار المسلمين في منطقة الخليج العربى والبحر الأحمر لم يتركوا التجار الأوروبيين يهناؤون بهذه الفرصة الفريدة فنجد أن تاجرا مسلما كبيرا وهو « أبو المجد السلاوى » يتردد بين إيران ومصر لتحقيق السلام بين البلدين ومنحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون - بعد أن توصل إلى عقد معاهدة السلام الدائمة بين البلدين عام ١٣٢٠م - بعض المستلكات والامتيازات وأهمها إعفاء تجارته من الضرائب أو من أكثرها (١٠٣) . وأتاح هذا للتجار المسلمين نقل البضائع الواردة من الخليج العربى إلى أسواق دمشق وإيباس بحرية كاملة (بعيدة عن الخوف من غارات متبادلة بين المغول والممالك في الشام) وكذلك نقل جزء من تجارة التوابل من جدة إلى الشام وأرمينيا الصغرى حيث يتسلمها من هناك التجار الإيطاليون ، لدرجة أنه في عام ١٣٣٥م وجد ألفان من التجار المسلمين في ميناء إيباس الأرمنى . وبهذه الطريقة كان الممالك يحصلون على الرسوم عن التجارة المارة في الشام أو المباعية في أسواقه أو في ميناء اللاذقية . فضلا عن أن حاكم أرمينيا الصغرى نفسه كان يدفع الجزية السنوية للممالك . وعندما وجد الأخيرون أن ميناء إيباس منافس قوى لميناء الاسكندرية ، أرسلوا تجريدة عسكرية دمرته على من فيه من التجار الأوروبيين عام ١٣٣٥م ، واستولت عليه عام ١٣٤٧م .

بداية النهاية للوجود اللاتينى في أسواق المغول :

وفضلا عن ذلك فإن أحوال التجار الإيطاليين في إيلخانية فارس لم تكن على ما يرام ففي ٦ يونية عام ١٣٢٤م أرسل ماركو مولين Marco Molin قنصل البنادقة في تبريز رسالة مطولة إلى دوج البندقية يشرح فيها كيف أن معارك نشبت بين أربعة من البنادقة في تبريز ، وأن واحدا منهم شكوا مظلته لوالدة الخان أبو سعيد والتي أرسلت بدورها العسس للقبض على البنادقة المعتدين وأسعوهم ضربا ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد دفع فدية كبيرة (وهذا مخالف لنصوص معاهدتهم مع أبو سعيد التي لم يمر عليها سوى ثلاثة أعوام ونصف العام) . ويشكو

القنصل البندقى من أن بعضا من رعاياه عليهم ديونا للتجار المحليين وأن «مدينة تبريز خطرة جدا لنا نحن البنادقة وأننا نواجه قلاقل كثيرة جدا هنا» (١٠٤).

وفى عامى ١٣٣٢ ، ١٣٣٥ وصلت وفود من ايلخانية فارس إلى البندقية للمطالبة بديون لهم عند بعض تجارها فى تبريز (١٠٥). ونعرف أن أحد التجار المسلمين ويدعى حاجى سليمان الطابى كان له أربعة آلاف بيزانت عند أحد التجار البنادقة الذى ترك تبريز دون سدادهم ، فسمحت له السلطات المغولية بأن يحصل عن كل حمولة برفقة أى تاجر بندقى يدخل تبريز أو يخرج منها على مبلغ معين حتى يستوفى دينه (١٠٦). ولهذا امتنع كثير من البنادقة عن ارتياد تبريز بعض الوقت لهذا السبب .

وبوفاة الخان أبو سعيد عام ١٣٣٥م دون وريث شرعى وانقسام الايلخانية إلى عدة مقاطعات بين عدة من الأمراء المتنازعين ، كل منهم لا يتوقف عن محاربة الآخر ، ولا يملكون السيطرة على مناطقهم ، أثرت الفوضى الناجمة عن ذلك فى إحداث الاضطرابات والقلاقل للتجار الأجانب ، ونظرا للاعتداءات على التجار فى تبريز فان جنوه أصدرت قرارا بتحريم ذهاب رعاياها إليها على الأقل منذ عام ١٣٤٣م .

وتشير وثيقة محاكمة التاجر الجنوى توماس جنتلى T. Gentile بواسطة «مكتب الحكماء الثمانية لشئون البحرية والبحر الأسود» أن هذا المجلس الجنوى قد أصدر حكما بالبراءة على هذا التاجر لأنه أثبت بالأدلة القاطعة أنه كان فى مدينة هرمز حين مرض وقام بتسليم بضاعته لأحد زملائه الجنويين الذى كان فى طريقه إلى الصين ، وأنه (أى جنتلى) لم يجد بدا عام ١٣٤٣ من المرور على مدينة تبريز (التي منع الجنوية من دخولها) بدون إرادته وليس بقصد التجارة (١٠٧).

وفى عام ١٣٤٤م أرسل السلطان أشرف حاكم تبريز سفارة إلى كل من جنوة والبندقية برسائل تلح على رؤسائهما فى حضور التجار لبلاده والوعد بتعويض التجار الذين أضرروا وأخبرهم كذلك أن الطريق من طرابيزون إلى تبريز قد أصبح أكثر أمانا عن ذى قبل ، وأنهم سوف يلقون معاملة حسنة ويدفعون ضرائب أقل مما كانوا يدفعونها فى عهد أبى سعيد . وبدل الرد الذى تسلمه السلطان أشرف من نائب البنادقة فى طرابيزون على التحفظ وعدم الثقة . فقد طلب من حاكم تبريز إرسال قافلة تجارية من لدنه إلى طرابيزون لمصاحبة قافلة البنادقة . ولم يفعل الأخير ذلك . وعندما غامر بعض التجار البنادقة فى السير بمفردهم فانهم تعرضوا

لقطاع الطرق الذين سلبوهم ما معهم . وبالتأكيد عاقب الخان اللصوص ووعد بأن يعرض البنادقة عن الأضرار ، ولكن هذا الحدث يدل على أن الإدعاء الصادر منه أن الطريق آمن تماما غير صحيح ولا يؤخذ فى الاعتبار (١٠٨).

أما عن التجار الجنوية فانهم صدقوا إدعاءات طاغية تبريز وساروا إلى هناك حيث نهبوا وذبحوا وقدرت التجارة التى كانت معهم بمائتى ألف ليرة . ولهذا توقف الجنوية عن التجارة مع تبريز مثلما فعل البنادقة فى ذلك الوقف أيضا (١٠٩).

وكان طرد التجار الإيطاليين من موانئ البحر الأسود عام ١٣٤٣م بسبب المعارك التى نشبت بين التجار البنادقة ورعايا المغول (وقتل البنادقة لأحد رعايا المغول وما نتج عن ذلك) عاملا حاسما فى منع الإيطاليين من التوغل داخل آسيا من ناحية الشمال (١١٠). ويتبقى لهم منفذ وحيد وهو ميناء ايباس الأرمنى الذى استولى عليه المصريون عام ١٣٤٧م وبذلك يفقدون آخر ميناء أو معبر أو مدخل لهم للوصول إلى داخل قارة آسيا . ولهذا الأسباب فانهم كانوا قد واصلوا ضغوطهم على البابوية للسماح لهم بالتجارة مع المماليك . وأذعنت البابوية لذلك ومنحتهم تراخيص بذلك بدءا من عام ١٣٤٥م (١١١). ولهذا لم يعد التجار الإيطاليون بحاجة ملحة للمغامرة داخل آسيا التى لم تعد آمنة منذ ذلك الحين .

ولكن السلطان أويس خان (١٣٥٦-١٣٧٤م) حاكم العراق وتبريز أرسل خطابات للجنوية والبنادقة لاستدعائهم للحضور لبلاده . وقد حفظت أرشيفات البندقية رسالته المؤرخة فى مارس عام ١٣٧٠م لنائب البنادقة فى طرابيزون ، التى يبلغه فيها أنه يسره السماح للتجار البنادقة بالعودة لبلاده حيث أن الطرق أصبحت آمنة تماما بعد انتهاء فترة القلاقل التى تعرضت لها البلاد من قبل . وبلغه أيضا أن التجار سوف يسعدهم الاستقرار فى تبريز وسوف يلاقون كل ترحيب ومودة فضلا عن تخفيضات من الرسوم والمكوس (١١٢). ولكن ما حدث فى عهد السلطان أشرف عام ١٣٤٤م تكرر أيضا مع التجار البنادقة الذين صدقوا إدعاءات الأخير بأمن الطريق (١١٣).

ويخبرنا السفير القشتالى كلافيخو - الذى زار تبريز عام ١٤٠٣م أن التجار الجنوية وصلوا فعلا تبريز فى عهد اويس خان . وخشية تعرضهم للاضطرابات وأحداث السلب والنهب التى كانت سمة العصر فى ذلك الوقت فى إيران والعراق ، فانهم اشتروا تلا فى شمال تبريز من السلطان أويس ولكن الأخير - بعد أن قبض الشمن - رفض السماح للجنوية أن يقوموا ببناء قلعة على هذا التل قائلا لهم « إنه ليس من عادة التجار أن يبنوا قلاعاً فى هذا البلد ».

وأنة يمكنهم أن يأخذوا تجارتهم ويرحلوا عن بلاده ، وعندما طالبوه باسترجاع ما دفعوه أخبرهم أنه يسمح لهم بأن ينقلوا هذا التل الذى اشتروه خارج بلاده (١١) وعندما جادلوه فى ذلك أمر بقطع رقابهم (١١٤). وهذا هو آخر ذكر للتجار الأوربيين فى إيران أو العراق لأنه فى عام ١٣٨١م طلب البنادقة من حاكم طرابيزون البيزنطى أن يستدعى لهم تجار تبريز لبلاده حتى يقابلوهم هناك (١١٥)، ليشتروا منهم ما يحملونه من سلع هندية وصينية فضلا عن منتجات بلادهم .

وقد دمرت قوات تيمور لك عام ١٣٩٥م المستعمرة البندقية فى مدينة تانا على بحر ازوف وذلك ضمن خطته لتدمير المراكز التجارية لمغول القبيلة الذهبية فى منطقة البحر الأسود . ولهذا السبب (وغيره) فان كلا من الجنوبية والبنادقة لم يصدقوا الامتيازات التجارية التى منحها تيمور لك لشارل السادس الفرنسى - وحاكم جنوه فى ذلك الوقت فى منطقة البحر الأسود بل ووقعا معاهدة تحالف مع الأتراك والبيزنطيين - بعد هزيمة الأتراك الثقيلة فى موقعة أنقرة فى ٢٨ يولية عام ١٤٠٢م - ضد تيمور لك . وكان هذا الأمر عملا عدائيا ضد تيمور لك وقضاء مبرما على أية فرص جديدة لتجارتهمما للتوغل داخل آسيا مرة ثانية (١١٦). وعموما أدى انتشار الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى وتوسعاتهم الجغرافية على حساب جيرانهم لإغلاق قارة آسيا أمام التجار الأوربيين لفترة طويلة من الزمن (١١٧).

أسباب توقف التجار الإيطاليين عن ارتياد أسواق المغول منذ النصف الثانى للقرن الرابع عشر :

كما سبق يتضح أن التجار الإيطاليين توغلوا فى آسيا منذ بداية النصف الثانى للقرن الثالث عشر حينما كانت طرق التجارة ومراكزها آمنة فى عهد السيطرة المغولية . وازدادوا توافدا على منابع ومراكز التجارة بها من طرابيزون وتبريز والسلطانية وهرمز وقاليقوط والزيتون ويكين لتعويض مراكزهم التى فقدوها فى الشام بسقوط الموانئ الصليبية فى أيدي المماليك فى الفترة من عام ١٢٦١ حتى ١٢٩١م . وللمضغوط التى تعرض لها هؤلاء التجار للامتناع عن التعامل مع موانئ المماليك فانهم انساحوا شرقا فى أسواق ايلخانية فارس حيث منحهم ايلخانات المغول امتيازات تجارية واسعة وأعطوهم الحرية الكاملة فى ارتياد كل بلادهم والأقاليم التى تخضع لنفوذهم . ولكن هذه الفرصة لم تستمر طويلا وسرعان ما انتهى الوجود الفعلى لهؤلاء التجار داخل آسيا فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى . وذلك لعدة أسباب من أبرزها :-

أولا : مقتل أحد رعايا المغول في مدينة تانا على بحر أزوف مما حدا بالخان المغولي الروسي بالقبض على التجار البنادقة والجنوية وقتل من لم يستطع الهروب منهم ومصادرة وحرق متاجرهم في هذه المدينة . وانتشرت الاعتداءات على مراكزهم في مدينة كافا أيضا . وينقل الياهو أشتور عن حولية فلورنسبة معاصرة أن خسائر البنادقة قدرت بثلاثمائة ألف فلورين (جنيه ذهبي) وثلاثمائة وخمسين ألف للجنوية . وأن ترك التجار الإيطاليين لموانئ البحر الأسود - ولو مؤقتا - في ذلك العام ترتب عليه زيادة في أسعار التوابل من ٥٠-١٠٠٪ عن ذي قبل (١١٨). وهذا الحادث أجبر التجار الإيطاليين على تقديم التماسات عاجلة للبابوية للسماح لهم بالتجارة مع الممالك وكان لهم ما أرادوا .

ثانيا : انتهاء دولة الايلخانات في فارس بوفاة أبو سعيد عام ١٣٣٥ دون وريث ، وانقسام الايلخانية بين عدد من الأمراء المتصارعين الذين نهبوا التجار وصادروا ثرواتهم أو لم يستطيعوا السيطرة على الطرق العامة كما حدث عامي ١٣٤٣ مع طاغية تبريز السلطان الأشرف و ١٣٧٠م مع اويس خان . ثم جاء تيمور لئلك للمنطقة في نهاية القرن الرابع عشر ودمر المراكز التجارية للإيطاليين على البحر الأسود ، فضلا عن تدميره العديد من المدن التجارية الهامة داخل آسيا ، ومنذ منتصف القرن الرابع عشر فصاعدا انتشر الأتراك العثمانيون في آسيا الصغرى وأغلقوا طرق التجارة على الأجانب خاصة مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي .

ثالثا : انتشار الطاعون (الوباء الأسود) في بغداد وتبريز في عام ١٣٤٧ والذي وصل من منطقة القوقاز مع التجار . وعند عودة التجار الإيطاليين إلى ميناء كافا عام ١٣٤٨م فانهم حملوا معهم هذا الوباء لبلادهم ومناطق أخرى في حوض البحر المتوسط . وكان لهذا الوباء آثار اقتصادية واجتماعية مدمرة على كل دول العالم تقريبا . وعلى سبيل المثال كان عدد سكان فلورنسا ١١٠ ألف نسمة عام ١٣٣٨ م انخفض إلى ٤٥ ألف نسمة عام ١٣٥١م (١١٩). ومن المؤكد أن انتشار هذا الوباء أدى إلى قلة عدد التجار وخوفهم - هم والمستهلكين الأوروبيين أيضا - من معارضة انتشار هذا المرض ، ومن ثم أحجموا عن ارتياد أسواق آسيا أو موانئها الشمالية ثلاثة عقود من الزمان على الأقل.

رابعا : أن ميناء الاسكندرية كان أكبر منافس لجميع المراكز التجارية الآسيوية الأخرى سواء على البحر الأسود أو في داخل آسيا ، خاصة وأن الممالك كانوا من وقت لآخر

يدمرون ميناء إيباس الأرمنى حتى وجهوا له ضربة قاصمة عام ١٣٤٧م حتى يجبروا التجار الأوروبيين على ارتياد موانئهم . فضلا عن بعد أسواق آسيا الداخلية عن مراكز الاستهلاك الأوربية ومخاطر الطرق وصعوبة النقل ، فان الأمن والأمان الذى تمتع به التجار الأوربيون فى الاسكندرية القريبة من أوطانهم جعلهم يتحايلون على قرارات البابوية فى حظر التجارة مع المماليك - بطرق عديدة . فضلا عن أن المماليك فى بداية النصف الثانى للقرن الرابع عشر قاموا بمنح التجار الأجانب امتيازات جديدة أهمها تخفيض الجمارك من ٢٠٪ إلى ١٠٪ . ولهذه الأسباب مجتمعة ، فان المدن التجارية الأوربية بدأت ضغوطها على المؤسسات الكنسية لرفع الحظر عن التجارة مع المماليك . وكان البابا حنا الثانى والعشرين (ت ١٣٣٤) قد أعطى البنادقة وغيرهم تراخيص مدفوعة الأجر - بالتجارة مع المماليك - « شفقة على البندقية التى تعتمد على التجارة وحدها للحصول على قوتها اليومى » لمدة معينة فى غير السلع الحربية وبعد مقتل الجالية البندقية فى تانا عام ١٣٤٣م بعثت البندقية بسفيرين للبابا كليمنت السادس ليوضحا له مدى الخراب الذى ينتظر جمهوريتهم إذا لم يسمح لهم بالعودة إلى المتاجرة مع الأسواق المصرية والشامية . ومنح البابا البنادقة وغيرهم من المدن التجارية الأوربية تراخيص بذلك لمدة خمسة أعوام ولعدد معين من السفن كل عام وفى غير السلع الحربية (١٢٠) . ومنذ عام ١٣٤٥م بدأت السفن تجوب الموانئ المصرية وبدأت التصاريح البابوية تتسع للمزيد من السفن والأعوام والبضائع حسب المبالغ المدفوعة فى البلاط البابوى.

وهكذا لم يرجع التجار الإيطاليون للأسواق الداخلية فى قارة آسيا لأنهم - منذ عام ١٣٤٥م - كانوا يحصلون على كل المنتجات الآسيوية من ميناء الاسكندرية (منطقة جذب) دون أن يقطعوا آلاف الأميال داخل مجاهل آسيا التى لم تعد آمنة للتجارة (بل منطقة طرد) والتى أصبحت مخاطرها أكثر كثيرا من أرباحها غير المنظورة .

وهكذا انسدل الستار عن فصل من العلاقات التجارية بين المدن الإيطالية وآسيا الداخلية تحت النفوذ المغولى لبدأ فصل جديد بعد ذلك من الصراع على الطرق التجارية الآسيوية ، ولكن هذه المرة ليس بين المماليك وتجار المدن الإيطالية ولكنه بين الأتراك العثمانيين والبرتغاليين .

الهوامش

- 1- Labib , Sobhi, "Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area "Recueils de la Societe Jean Bodin pour L'Histoire Comprative des Instituions , XXXII Premiere Partie . Bruxelles 1974 , p. 231 .
- ٢- ياروسلاف سيزار ، جوزيف فوزار « نقاط التلاقى والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠-١٥م) » ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف أنظر للمترجم : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . الاسكندرية ١٩٨٣ ص ١٤٧ .
- ٣- رحلات ماركو بولو ، ص ١٧٢ ، ١٨٧ .
- ٤- ابن بطوطة . رحلة ابن بطوطة - بيروت ، د . ت . ص ٦٣٢ .
- ٥- صبحى لبيب « سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك » المجلة التاريخية المصرية المجلدين ٢٨ ، ٢٩ ، القاهرة ١٩٨١ - ١٩٨٢ ، ص ١٢٨ .
- 6- Heyd , Wilhelm : Geschichte des Levante handels im Mittelalter 2 . Band . Stuttgart, 1879 , p. 119 .
- ٧- رحلات ماركو بولو ص ٤٦ ، ٤٧ .
- ٨- كانت هناك معاهدة بينهم وبين التجار الجنوبية يحصل بمقتضاها الأخيرون على نفس امتيازات البنادقة فى تلك العاصمة - فى الفترة من ١٢٠٤ حتى ١٢٦١ . وضواحيها ، وموانئ البحر الأسود فى حالة مساعدتهم عسكريا لمبختايل باليولوجس فى طرد اللاتين والتجار البنادقة منها ، وحدث ما تم الاتفاق عليه .
- 9- Lane , Frederice : Venice : A Maritime Republic . John Hopkins University Press , Baltimore & London , 1973 , pp . 75-77 .
- 10- Ehrenkreutz , Andrew , "Strategic Implications of the Slave Trade Between Genoa Second Half of the Thirteenth Century" in A . L . and Mamluk Egypt in Udo Udovitch (ed) The Islamic Middle East , 700-1900 ' Studies in Economic and Social History . Princeton , 1981 , pp. 335 - 46 .
- 11- Lane : Venice A Maritime Republic , p. 130 .
- 12- Heyd , op . cit , pp . 133 , 134 .
- ١٣- عفاف سيد صبره : العلاقات بين الشرق والغرب : علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م . القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٨٧ ، ويقول صبحى لبيب أن المسيحيين المحليين أنفسهم - وإن لم يمنعوا من السفر فى البحر الأحمر أو فى بحر الخجاز - إلا أنهم قد حرموا قانونا من حق الإقامة فيه أو فى مناطق منه على الأقل وينقل عن ابن بطوطة قوله أن تجار نصارى الشام لم

يكونوا يتعدون قرية الفلا جنوبى تبوك جنوبا . انظر للمؤلف «التجار الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى» المجلة التاريخية المصرية مايو ١٩٥٢ ، ص ١٣ .

١٤- صبحى لبيب : المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

15- Ashtor , Eliyahu : Levant Trade in the Later Middle Ages. Princeton , 1983 , p. 57 .

وينقل محمد صالح القزاز (الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ص ٢٦٠ ، ٢٦١) عن المقرئى والمعنى أن الخان أبو سعيد أمر بإبطال جميع المكوس التى تجبى من التجار الواردين إلى بلاده عام ٧٢٠هـ / ١٣٢١م .

١٦- انظر الترجمة الكاملة لنصوص هذه المعاهدة : عفاف صبره : المرجع السابق ص ٢٩١ - ٢٩٩ .

17- Ashtor , op . cit . p. 57 .

١٨- عفاف صبره : المرجع السابق ، ص ٨٦ ، ٨٧ نقلا عن ابن واصل وأبو شامة .

١٩- ينقل أشتور عن ابن الوردى قوله أنه عندما أغارت قوات المماليك على ميناء اياس الأرمنى عام ١٣٣٥ م كان يوجد به ألفين من تجار بغداد المسلمين . وهذا يلقى الضوء على أن أعداد التجار الإيطاليين كانت ضئيلة ودورهم كان ثانويا فى حركة التجارة الداخلية أو الخارجية للإيلخانية .

Cf . Ashtor , “ Observations on Venetian Trade in the Levant in the XIV th Century , The Journal of European Economic History , vol . 5 , 1976 , p. 536 .

٢٠- استقى بتروشفسكى الاحصائية التالية من حمد الله القزوينى (نزهة القلوب) وهى توضح مقدار الضريبة (التغمة) على التجارة مقارنة بضريبة الخراج .

المدينة	ضريبة التغمة (على التجارة)	ضريبة الخراج
تبريز	٨٧٥٠٠٠ دينار	٢٧٥٠٠٠
بغداد	٨٠٠٠٠ دينار	غير معروف
شيراز	٤٥٠٠٠ دينار	غير معروف
واسط	٤٤٨٠٠٠ دينار	غير معروف
أصفهان	٣٥٠٠٠ دينار	٥٠٠٠٠
حمدان	١٠٥٠٠ دينار	١٣٦٠٠٠
مراغة	٧٠٠٠ دينار	١٨٥٠٠٠
قزوين	٥٥٠٠ دينار	٥٥٠٠٠
السلطانية	٣٠٠٠ دينار	غير معروف

Cf Petrushuvky I P “ The Socio - Economic Condition of Iran Under the Il.

Khans “ Cambridge History of Iran vol V p. 508

21- The Travels of Friar Odoric of Pordenone . Cf. Cathay and the Way Thither , II , p. 10H.

٢٢- رحلات ماركوپولو ، ص ٤٢ .

٢٣- رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٣ .

Cf . Heyd , op . cit . pp. 130-132 ; Howorth , A History of the Mongols, III , pp . 631-3.

٢٥- رحلات ماركوپولو ص ١٤ .

26- Ashtor : Levant Trade , pp . 57 , 58 .

27- "Pegolotti's Notices of the Land Routes to Cathay Ca . 1330-1340 " , in Cathay and the Way Thither . III , p. 154 .

28- Ashtor , op . cit . , p. 49 .

٢٩- عفاف صبره : المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

30- Richard , Jean , " The Eastern Mediterranean and its Relations with its Hinterland (II th - 15th) Centuries " , in his , les Relations entre L' Orient et L' Occident au Moen Age. London , 1977 , I , p. 15 .

٣١- رحلات ماركوپولو ص ٥٥ .

32- Clavijo , Ruy Ganralez ; Narrative of his Embassy to the Court of Timour at Samarcand A . D . 1403 - 6 . Trans. by C.R . Markbam . London , n . d . p. 14 .

٣٣- رحلات ماركوپولو ص ٤٨ .

٣٤- المصدر السابق ، ص ٤٩ .

٣٥- نفس المصدر ، ص ٣٧ .

٣٦- نفسه ، ص ٣٨ .

٣٧- المصدر السابق ، ص ٤٢ .

38- Cf Narrative of his Embassy to the Court of Timour , p. 93 .

٣٩- رحلات ماركوپولو ص ٣٤ .

٤٠- الخللجان : من المواد كثيرة الاستعمال فى الطب وشجرته تعرف باسم خسر ودار ، وهو يرد من الهند ويستعمل فى الطب والطهى .

٤١- الزنجبيل : من أهم توابل العصور الوسطى - يدخل فى صناعة العقاقير الطبية والطهى وتحضير الخمور وحفظها . ينزرع فى الهند والصين وسمرقند .

٤٢- العصفة الجوزية : ثمرة شجر يكون أحمر اللون عند نضجه فيجفف ويسحق وكان يستخدم فى الأضمد والصبغة .

٤٣- الزعفران : ويسمى الكركم يستخدم فى العلاج الطبى وفى الطهى والعطور وألوان الرسم .

٤٤- السنامكى : شجر طيب الرائحة له سناهل صغيرة يجلب من الهند .

٤٥- عفاف صبره : المرجع السابق ، ص ١٦٩ ، ١٧١ ، وقد أورد بيجلوتى أسعار هذه المنتجات فى أسواق تانا وكافا ، وهذا يدل على أنها كانت من واردات التجار البنادقة والجنوية من أسواق آسيا الصغرى وفارس أيضا .

Cf . Pegolotti , op . cit . , pp . 164 - 8 .

46- Ashtor : Levant Trade , pp . 57 , 58 .

47- Kedar , Benjamin . Merchants in Crisis : Cenoese and Venetian Men of Affairs and the Fourteenth Century Depression . Yule University Press , 1976 , p. 21 .

48- Lopez , R . S “ European Merchants in the Medieval Indies : The Evidence of Commercial Documents “ , in the Journal of Economic History , Vol . III , Nov 1943 , p. 166 .

٤٩- طبقا لمكمل حولية ابن العبرى السريانية ويقول الراهب الدومنيكانى وليم آدم أنهم من الجنوية .

Cf . Richard , Jean , “European Voyages” in Iran Journal of Persian Studies , VI , p. 49 .

٥٠- يقول ابن بطرطة (الرحلات ص٦٣٣) أن هذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند ولكنه اسم أطلق عليها . وأن مرساها من أعظم مراسى الدنيا بل هو أعظمها ورأى به نحو مائة جنك كهار أما الصغار فلا يحصى عدده .

51- Lopez , “European Merchants” op . cit. , . p. 16 ; Richard , “European Voyages”p. 47.

٥٢- رحلات ماركو بولو ص٣٤ .

53- Geschichte des Levantehandels in Mittelalter , 2 . Band , pp. 112 . 113 ; also cf .

Richard , “ European Voyages “ , p. 50 .

٥٤- عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام ، ص٩٨-٩٩ .

Ashtor , Levant Trade , pp . 17-25 .

٥٥- بدأت تحذيرات حكام أوروبا من التجارة مع المسلمين منذ القرن الثامن الميلادى وعندما حمل البنادقة إلى الشرق الأقمشة والأخشاب والأسلحة ، أصدر الامبراطور البيزنطى ليو الخامس (٨١٣-٨٢٢م) مرسوما حذر فيه البنادقة من المتاجرة مع المسلمين فى مصر وبلاد الشام وقد

تكررت هذه التحذيرات فى مناسبات تجدد الصراع الأوروبى - الإسلامى فى منطقة البحر المتوسط خاصة بعد قدوم الصليبيين واستقرارهم فى سواحل الشام . ففي عام ١١٧٩م أصدر البابا اسكندر الثالث قرار الحرمان ضد الأوروبيين الذين يقومون بتزويد المسلمين بالأسلحة والحديد والأخشاب التى تصلح لبناء السفن . وفى عام ١١٩٨ - أى بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي - أصدر البابا أنوسنت الثالث مرسوما منع بمقتضاه التجار الإيطاليين من المتاجرة مع المسلمين وهدد هذا البابا أيضا فى مجمع اللاتيران عام ١٢١٥م بإصدار قرار الحرمان على كل من يخالف أوامره . وتكررت هذه التهديدات وتلك التحذيرات من خلفائه ومن القادة العلمانيين لغرب أوروبا ورغبة فى نجاح الجهود الصليبية لكسر شوكة المسلمين ، ولكنها لم تجد أذانا صاغية من التجار - إلا لعدة شهور قليلة بعد إصدارها - وبعد ذلك تستمر الأمور على ما كانت عليه من قبل . عفا صبره : المرجع السابق ، ص ٨٢-٨٧ .

٥٦- كان انحراف البنادقة بالحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية أقوى دليل على صحة هذا الرأي .

٥٧- صبحى لبيب «سياسة مصر التجارية» ، ص ١٢٦ .

٥٨- كانت الصيغة الشائعة للمشاركة Commenda أو كما هى معروفة فى البندقية Colleganza أسلويا شائعا لشركات المساهمة الذى عرفته المدن الإيطالية فى ذلك القرن . وكانت بهدف القيام برحلة واحدة فقط ويشترك فيها المستثمرون أو أصحاب رأس المال وهؤلاء لهم ثلاثة أرباح المكسب والتجار الذين يغامرون بالترحال لهم ربع الأرباح نظير السفر والعمل . وصيغة الشركات المساهمة كانت تتيح للتاجر المسافر الحق والحرية فى اتخاذ القرارات المناسبة حسب الظروف التى يواجهها أثناء الرحلة . ولما كانت الرحلات التجارية داخل آسيا تحتاج لإمكانات مادية كبيرة ليست فى مقدرة التاجر الواحد أو الفرد العادى فإن معظم التجار البنادقة والجنوية كانوا إما من النبلاء أو أطراف فى شركات مساهمة فى الوطن الأم أو حصلوا على قروض بئاندة من أقاربهم . ولهذا فعندما يموت التاجر أثناء الرحلة فإن زملاء كانوا يرسلون تجارتهم أو نصبه منها للوطن الأم لعرض الأمر على الدائنين أو الشركاء وكانت عقود المشاركة توثق قبل الخروج بالرحلة ولها نصوص معينة وعشر على كثير منها بأرشيات المدن التجارية . للمزيد من التفاصيل :

Cf . Kedar : Merchants in Crisis , pp . 25 , 44 - 49 .

59- Cf " European Merchants in Medieval Indies , " op . cit . III , p. 168 .

60- Ibid , pp . 169 , 170 .

61- Beazley , R. : The Dawn of Modern Geography , III , p. 414 .

62- Lopez "European Merchants" , op . cit . III , pp. 171 , 2 .

63- Petrushevsky , "The Socio - Economic Condition of Iran Under the Il - Khans"

Cambridge History of Iran . vol . 5 , p. 511 .

المزيد من التفاصيل أنظر : صبحى لبب «الفندق : ظاهرة سياسية اقتصادية قانونية» فى : مصر وعالم البحر المتوسط ، إعداد وتقديم رعون عباس . القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٢٨٧ ، ٣٠٥ .

65- Heyd , Geschichte des Levantehandels ; p. 131 .

٦٦- نشر روبرت لويز وارننج ريموند مقتطفات من هذا القاموس بلغاته الثلاثة .

Cf - R . Lopez & I . Roymond (eds.) Medieval Trad in the Mediterranean World .
Columbia University Press , 1969 , pp . 346-8 .

67- Martin , M.E. "The Venetian - Seljuk Treaty of 1220 , Notes and Documents " ,
English Historical Review , vol . XCV , 1980 pp. 321-330 .

68- Lane : Venice : A Maritime Republic , pp . 75-80 .

٦٩- ماركوپولو : الرحلات (صفحات متفرقة) Lane : Venice , pp . 80-85 ,

٧٠- رحلات ماركوپولو ص ٢٨-٥ : Lane , op . cit , pp . 80-85

٧١- قام المؤرخون مول ويول ويلير Moule , Yule & Polliot وهم أعظم من ترجم مذكرات ماركوپولو وعلق عليها (بتقدير ثروته التى تركها عند وفاته - ومعظمها من رحلته بين المغول بأربعة عشر مليوناً و٧٦٥ ألف جنيه استرليني انجليزى طبقاً لمقارنة قيمة العملة الهندية بنظيرتها الإنجليزية وحساب فروق الأسعار فى بداية القرن العشرين وللتفاصيل أنظر .

Hart , Henry H : Marco Polo : Venetian Adventurer . Oklahoma , 1967 , pp . 252 , 3

٧٢- قام ريموند بينزالى Raymond Beazley أستاذ الجغرافية التاريخية الأسبق بجامعة أكسفورد بدراسة تأثير مذكرات ماركوپولو على حركة الكشوف الجغرافية الحديثة وتوصل إلى أن التجار القطلانيين قد استفادوا أياً استفادة من الخرائط التى رسمها ماركوپولو للصين والهند وجزر الهند الشرقية وكذلك من وصفه الدقيق لمواقع هذه البلاد ، وأن الأمير بيدرو Pedro الشقيق الأكبر لهنرى الملاح قد حصل على نسخة من مذكرات ماركوپولو مرفقاً بها خريطة الأخير للبلاد التى زارها كهدية من دوج الهندية وقد أفادت هذه المدونات هنرى الملاح فى تنمية طموحه ومغامراته البحرية لمحاولة الوصول للهند . فضلاً عن ذلك فإنه تم العثور على نسخة لمذكرات ماركوپولو باللغة اللاتينية فى متحف كولبس فى سيفيلا Seville بها مدونات وملاحظات بخط كولبس (كريستوفر) نفسه على وصف ماركوپولو للصين واليابان وبلاد «البهارات» وأن الشروات التى وصفها الأخير قد أسالت لعاب كريستوفر ورفاقه (مثل سابقيهم) حتى ذهبوا لاكتشاف أمريكا معتقدين أن هذه هى جزر الهند التى وصفها ماركوپولو أو هذه هى مملكة الخان الأعظم ، للمزيد من التفاصيل أنظر :

Cf Beazley : The Dawn of Modern Geography , III , pp . 14-21 , 140- 160 ; Henry Hart;
Morco Polo : Venetian Adventurer . University of Oklahoma Press , 1967 , pp . 254-58 .

73- Heyd , op . cit . , II , pp . 124-126 ; Ashtor ; Levant Trade , p . 58 .

74- Heyd , op . cit . , II . , pp . 123-125 ; Howorth , History of the Mongols , III , pp . 629-
33 ; Ashtor , Levant Trade , pp . 58-59 .

75- Lane : Venice : A Maritime Republic , pp . 128-129 .

76- Heyd , op . cit . , II , pp . 127 , 8 ; Howorth , op . cit . , pp . 631 , 2 .

77- "Pactum Cum Monsait , impratoreTurisn , per Michaellem Delphino , amboxatarem
Ducis Venetiarum A..d . 1320 , die 22m . Decembris , " in G.M. Thomas(ed.) Di-
plomatarium Veneto- Levantinum , I , pp . 173 -176 .

وقد تفضلت على الدكتورة فيفيانا آمارى بجامعة باليرمو ترجمة نصوص هذه المعاهدة من اللغة
الإيطالية (الدارجة) إلى اللغة الألمانية ، وقد قمت بترجمتها عن الألمانية إلى اللغة العربية .

Also cf. Mas Latrie , " Privilege Commercial accorde en 1320 a la Republique de
Venise par un Roi de Perse " in Bibiliotheque de L'Ecole des Chartes . Paris ,
XXX , 1870 , pp . 72 -102 .

٧٨- نشرت الدكتور عفاف صبره (علاقة البندقية بمصر والشام في فترة من ١١٠٠ - ١٤٠٠م) عن
ماس لاتيروي الترجمة العربية الكاملة لنصوص مراسيم ومعاهدات الأيوبيين والمالكيين مع البنادقة
أعوام ١٢٣٨ ، ١٢٤٤ ، ١٢٥٤ ، ١٣٠٢ ، ١٣٥٥ ، ص ٢٦٩ - ٢٩٩ وقد اعتمدت عليها في
تحليلاتي عن امتيازات البنادقة في الموانئ المصرية .

٧٩- حددت معاهدة ١٣٥٥ م رسوم الذهب ٢٪ والفضة ٢٪ وأعفت اللكئى ، والمرجان والقراء
والأحجار الكريمة من الرسوم ولكن المعاهدات السابقة أعفت الذهب والفضة من كل الرسوم .

80- Beazley : Thy Dawn of Modern Geography , III , pp . 486 , 7 ; Ashtor Levant Trade,
pp . 59 , 60 .

٨١- فرنشيسكو بالدوشى بيجولوتى Francesco Balducci Pegolotti كان يعمل في شركة باردي
Bardii الفلورنسية التجارية وعمل في إنجلترا كوكيل لشركته منذ عام ١٣١٥م وانتقل بعد ذلك
لتمثيل بلاده في قبرص قنصلا في الفترة من ١٣٢٤-١٣٢٧م . وفي عام ١٣٣٥ قام ملك
أرمينيا الصغرى بمنح شركة بيجولوتى امتيازات تجارية واسعة في بلاده . وقد ترجمت أجزاء هامة
من كتابه في :

Yule (ed . & trans.) Cathay and the Way Thither , III , " Pegolotti's Notices of the

Land Routes to Cathay , “ pp. 137-177 .

82- Loc . cit . ; Beazley , op . cit . , III , pp . 488 , 9 .

83- Ashtor , op . cit . , pp . 59 , 60 .

84- For details , cf . Beazley , op . cit . , III , pp . 489 - 93

٨٥- هؤلاء التجار هم Baldovino , Paolo Loredano , Marco Solanzo , Morino , Contarini , Giovanni Vacca and Giovanni Loredano .

وقد وصلوا إلى الهند عن طريق مدينة غزنة أى الطريق الشمالى لآسيا ، وعند وصولهم إلى الهند منحهم سلطانها مائتى ألف بيزانت (تعادل ٧, ٥٠٠ ليرة بندقية) ودفعوا منهم ١٠٪ للجمارك و١٠٪ للمسئول عن الجمرک ودفعوا أيضا ألف بيزانت لرجال البلاط وقاموا بشراء لآلئ بمبلغ ١٠٢ ألف بيزانت . ونعرف من الوثيقة التى تركوها لنا أنهم اقتسموا اللآلئ فى إحدى مدن البحر الأسود وأرسلوا تركة زميلهم المتوفى وهو Baldovino إلى ورثته بالبندقية عبر ميناء فاما جوستا القبرصى ، وأن أحدهم وهو ماركو سورانزو قد أرسل نصيبه من اللآلئ ليبيع فى أسواق فرنسا .

Cf . Lopez , “ European Merchants in the Medieval Indies , “ op . cit . III , pp . 174-178 .

86- Ibid , pp . 182-4 ; Ashtor , Levant Trade , pp. 61 , 62 .

87- Ashtor , op . cit . , p. 62 .

88- Bar Hebrallus : The Chronography , p. 486 .

89- Cf , “ A Second Letter from F . Jordanus(1324) . “ in Cathay and the Way Thither . vol III (ed. & trans.) by Henery Yule , pp . 79 , 80 .

٩٠- وقد تشكك المؤرخ الفرنسى ريشارد - (فى المحاضرة التى ألقاها فى مؤتمر «الملاحة فى المحيط الهندى» الذى عقد فى بيروت عام ١٩٧٠) - من رواية وليم آدم عن اساطيل للجنوبية فى المحيط الهندى . ويبدو أن أشتور لم يقرأ هذا المقال بعد .

Cf . Richard , Jean , “European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12 th - 15 th Centuries” , op . cit . , pp . 45-52 .

91- Cf . “ Pegolotti`s Notices of the Land Route to Cathay” op . cit . , III , pp . 151-155 .

92- Lopez , Robert Sabadino , “China Silk in Europe in the Yuan Period “ in Journal of the American Oriental Society , vol .72 , no . 2 , April - June , 1952 , pp . 72 - 76 ; Ash-
tor , Levant Trade , pp . 60-61 .

93- Cf . “ Marignolli`s Recollections of Eastern Travel , in Cathay and the Way Thither ,

٩٥- للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر

Pouzyna I, V. : La China , L'Italie et les debuits de la Renaissanc X II et XIV Siecles . Paris , 1935 ;

Mollat , M : (ed.) Societes et Compagnies de Commerce en Orient et dans L'Ocean Indien . Paris , 1970 ;

Richards D.S . (ed) Islam and the Trade of Asia : A Colloquim . Oxford , 1970 ;

Smith ,Howard : "Zaitun`s Five Centuries of Sino Foreign Trade : , Journal of the Royal Asiatic society , 1958 , Parts 3 , 4 , pp . 165-178 ;

Franke , Herbert , " Sino - Western Contacts Under the Mongol Empire , " Journal of the Hong Kong Branch of the Royal Asiatic Society , vol . 6 , 1966 pp.

49-72 ; Petech, Luciano, "Le Marchands Italiens dans. L'Empire Mongel " dans Journal Asiatique 250 , 1962, pp;249-44 ;

Lopez , R.S . " Novueaux Documents sur les Marchands Italiens en China a L Epoque Mongol " ; Academie des Inscriptions & Belles - Lettres , Avril ,1977 , pp . 445-457 .

٩٦- عفاك صبره : علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م ص٩٨-١٠٥ .

٩٧- ولد مارينوسانود والتورسيلي فى مدينة البندقية من أسرة نبيلة كان لها دورا متميزا فى الانحراف بالحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية . وقد سافر إلى بيزنطة وأرمينيا الصغرى وسوريا ومصر فضلا عن عواصم الغرب الأوربي وفى عام ١٢٨٦ م كان يعيش فى حى البنادقة بمدينة عكا ورحل عام ١٢٨٩م إلى موانئ بحر إيجة عام ١٢٩١م . وكان دارسا لعلم عصره وسابقه وساعدته خبرته البحرية والتجارية أن يكون فقيه عصره فى الجغرافيا والاقتصاد وله عدة مؤلفات يهمننا منها Liber Secretorum Fidelium Crucis الذى يدور حول كيفية استعادة الأراضى المقدسة لحوزة الصليبيين ، والذى قدمه للبابا كليمنت الخامس فى يناير عام ١٣٠٧م . وعكف على تطوير أفكاره ومشروعه حتى أعاد تقديمه فى ٢٤ سبتمبر عام ١٣٢١ م للبابا يوحنا الثانى والعشرين . وقد أرسل نسخا منه للعديد من الكرادلة وملوك نيبلاء أوروبا لاقناعهم بمشروعه .

. Cf . Beazley : The Dawn of Modern Geography , III , p . 319 ; Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages , pp . 114 - 127 .

98- Beazley , op . cit , III, pp . 310-19 .

99- Atiya , op . cit . , p. 118 . Ashtor : Levant Trade in the Later Middle Ages , pp.44,45.

١٠٠- عفاف صبره : المرجع السابق ص١٠٦ .

101- Cf . Lopez “ European Merchants “ op . cit , p . 172 ;

Ashtor , op . cit . , pp . 45 , 46 ; Frederic Lane “ The Venetian Galleys to Alexandria , 1344 “ , in Wirtschaftskräfte und Wirtschaftswege I . Band , Klitt - Cotts , 1978 , pp . 431 - 440 .

١٠٢- يستند الدكتور صبحى لبيب على الآتى :

أولا : عند دراسة الحوليات المصرية المعاصرة لفترة الحصار الاقتصادي أو التالية لها نجد أنه ليس هناك أي دليل على إغلاق فندق القنصل البندقي من الجانب المصرى .

ثانيا : لم تذكر هذه الحوليات أيضا أنه ترتب على التحريم غلق الفندق من جانب البنادقة أنفسهم ، وأن البنادقة فى أحاديثهم مع البابا - لم يعترفوا بانسحابهم من فنادقهم بالاسكندرية .

ثالثا : أشارت الحوليات المصرية فى الفترة من ١٣٣٠م حتى ١٣٤٠م عن وجود البنادقة والفرنج فى ميناء الاسكندرية كما أورد المقرئى حدوث زلزال فى الاسكندرية فقال " فارتفعت سفن البنادقة إلى الساحل" .

رابعا : سفارات البابوية نفسها فى تلك الفترة للبلاط المملوكى ، إذ كيف تحرم التجارة معهم ثم ترسل وفودا لهم ؟

خامسا : فى حديث الحوليات المصرية عن الفتنة التى وقعت فى الاسكندرية سنة ١٣٢٤م أشارت أن نشاط الفرنج ضخم وأنه تم عزل قاضى الاسكندرية لأنه حكم ضد الفرنج .

سادسا : أن التجار الأوروبيين دفعوا وشاوى فى البلاط البابوى للحصول على تصاريح مؤقتة لعدد محدود من السفن للتعامل مع موانئ المماليك فى مصر .

سابعا : أن الحكومة المصرية لم تشكو عاما واحدا من بوار التوابل و (الفلفل بالذات) فى الاسكندرية فى تلك الفترة ، بل كان البنادقة يحملونها على سفنهم أو على سفن مستأجرة ويرسلونها إلى قبرص أو كريت خاصة وأن البابوية لم تكن تملك أسطولا للمراقبة .

ثامنا : أن الرحالة الايرلندي سيمون سيميوني Simeon Semeonis الذي زار الاسكندرية فى نهاية عام ١٣٢٣ وصف فى مذكراته فنادق وقناصل البنادقة والجنوبيين والقطلاتيين وتجار مرسيليا . وهذا كله يؤكد أن التجارة مع الممالك لم تنقطع أبدا ولكنها تقلصت عن ذى قبل حتى عام ١٣٤٥ . (صباحى لبيب فى حديث خاص للباحث - قسم التاريخ جامعة كيبيل فى الفصل الدراسى الأول عام ٨٦-١٩٨٧) .

١٠٣- صباحى لبيب « سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك » المرجع السابق ص ١٣٢ .

104- "Exemplum Litterae transmissae demino Duci per Marcum de Molino , Consuleim Venetorum in Turisio A.D . 1324 6m . Juny " , Diplomatarium Veneto - Levantinum , I , pp . 192 - 194 .

105- Ashtor : Levant Trade , p. 59 .

106- Howorth : History of the Mongols , III , p . 633 .

107- "Genoa Applies Sanctions Against Persia , " in R . Lopez & Irving w . Raymond (ed . & trans.) Medieval Trade in the Mediterranesn World . Columbia University Press . 1968 , pp . 323 , 4 ; Lopez . " European Merchants in the Medieval Indies , " op . cit . III , 181 - 3 .

108- Heyd , op . cit . , pp . 130 , 131 .

109- Lopez , " Europen Merchants , " op cit . III , pp . 182 , 3 .

110- Lane : Venice A Marctcme Republic , p. 131 ; Ashtor : Levant tiade , p. 63 .

١١١- للتفاصيل انظر : عقاف صيره : المرجع السابق ص ١٠٩ - ١١١ .

Ashtor , op . cit . , pp . 64-9 .

112- " Privilegium Securitatis datum ab imperatore Tourisii , Oweis Khan A.d . 1370 , " in Diplomatarium Veneto - Levantinum , II , p. 158 .

113- Kedar : Merchants in Crisis, p. 128 .

114- Clovijo : Narrative of his Embassy to the Court of Timour at Samarcand , pp . 88 , 89 .

115- Kedar : Merchants in Crisis , p. 128 .

116- Ibid , pp . 129-130 .

117- For details, cf . Lybyer ,A. H ., The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade “ , in the English Historical Review , Vol , 30 , 1915 . pp . 577 - 588 .

118- Ashtor ; Levant Trade , p. 63 ; also ,” Observations on Venetian Trade in the Levant in the XIV Century , “op . cit ., pp. 538 - 540 .

119- Lopez , Robert ., “ The Trade of Medieval Europe : TheSouth” in Cambridge Economic History of Europe, vol . II Cambridge , 1952 , pp . 338 , 339 ; Dols , Michael W. : The Black Death in the Middle East . Princeton University Press , 1975 Daniel Williaman (ed.) The Black Death : The Impact of the Fourteenth Century Plague. New York , 1982 .

١٢٠- عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠ م ص١٠٦-١١٠-٢٩٣ .

Ashtor , “ Observations on Venetian Trade “ , op . cit ., pp. 539 - 42 ; Norman Housley : The Avignon Papacy and the Crusades , 1305 - 1375 . Oxford , 1986, pp . 207 - 211 .

خاتمة

اعتقد الأوروبيون - فى العصور الوسطى المبكرة - بوجود مملكة مسيحية خلف ظهر المسلمين . وتطور هذا الاعتقاد - فى عصور الحروب الصليبية - بأن ملكها «الكاهن يوحنا» على استعداد لغزو المدينة المقدسة أو التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين وازدادت اسطورة «الكاهن يوحنا» رواجاً فى أوقات حاجة الصليبيين للنجدة من الغرب . ولكن الملك الذى خرج من الشرق فى باكورة القرن الثالث عشر لم يكن مسيحياً بل هو جنكيز خان الذى سيطرت قواته على شرق آسيا ووسطها فى الربع الأول للقرن الثالث عشر .

ولا اعتقاد المغول أن جنكيز خان مفوض من السماء لاختضاع كل العالم لسلطانهم ، ولسهولة سيطرتهم على ممالك شاسعة فى شرق قارة آسيا ووسطها فى غضون سنوات قليلة ، وحصولهم على غنائم وافرة أسالت لعاب قادتهم للمزيد من السيطرة والتوسع ، فان خليفته أوجوداى ١٢٢٧-١٢٤١م أرسل القوات المغولية لغزو أوروبا . واستطاعت قوات المغول فى الفترة من عام ١٢٣٧ حتى ١٢٤٢م إخضاع روسيا وبولندا والمجر ومورافيا لسيطرة المغول بعد أن حطمت المدن والكنائس والأديرة ، وذبح الغزاة سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعهم . أى أن المغول كرروا مع الأوروبيين ما فعلوه تقريباً مع المسلمين فى الدولة الخوارزمية من قبل ، ولكن جاءت وفاة الخاقان المغولى - وما تبع ذلك من انسحاب القوات المغولية من أوروبا - إنقاذاً لبقية أوروبا من الدمار والخضوع للسيطرة المغولية . ولم يفعل الأوروبيون شيئاً أمام المغول إبان وجود الأخيرين فى أوروبا ، وذلك لاحتدام الصراع بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى .

وأرسل البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) سفراء من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان إلى قادة المغول للتفاهم معهم ومحاولة تنصيرهم لإبعاد خطرهم عن أوروبا وضمهم تحت لواء البابوية .

ولكن المغول- الذين كانوا فى أوج قوتهم - لم يستمعوا إلى نداءات البابوية ، ولم يتركوا الرهبان يبشرون بالمسيحية بين رعاياهم ، بل وأرسلوا معهم خطابات للبابوية والملك فرنسا - لويس التاسع - يدعونهم للحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة للخاقان المغولى فى قراقورم وأن يدفعوا الجزية عن رعاياهم وهم صاغرون .

وعلى أثر سفارة - مشكوك فيها - من قادة المغول فى آسيا الصغرى للملك الفرنسى لإبلاغ الأخير برغبة المغول بالتحالف معه ضد المسلمين واعتناق المسيحية ، فان لويس التاسع أرسل سفارة لقادة المغول ، ولكن ما سمعه سفراء لويس وردود قادة المغول عليه حولت هذه الأمانى إلى سراب . فقد سمع لويس التاسع نفس الادعاءات المغولية بالسمو والسيادة العالمية فى خطاب للخاقان المغولى (مانجو خان) أرسله مع وليم روبروك الذى كان فى بعثة بين المغول (١٢٥٣-١٢٥٥) .

غير أنه فى عامى ١٢٥٩ - ١٢٦٠م تغيرت موازين القوى السياسية فى آسيا ، إذ أن وفاة الخاقان المغولى عام ١٢٥٩ أكدت وعمقت التقسيمات الجغرافية للإمبراطورية المغولية إلى أربعة أجزاء فى الصين ، والتركستان ، وفارس ، وروسيا . وكان لهزيمة المغول فى موقعة عين جالوت عام ١٢٦٠ ، واندلاع الحرب بين مغول روسيا ومغول فارس أثره على اتصال هولاكو خان بالقوى الأوربية للبحث عن حلفاء له ضد المماليك .

وقد لعبت مملكة أرمينيا الصغرى دورا بارزا فى التقريب بين وجهات نظر مغول فارس وبين القوى الصليبية فى الشرق والغرب فيما يتعلق بهذا التحالف ، وحسن معاملة المسيحيين بين المغول ، باعتبار أن الملك الأرمنى لم يجد بدا من أن يكون أحد أتباع (أفصال) مغول فارس ليضمن استمرار مملكته - التى قدر لها أن تقع بين القوى الكبرى الطامعة فيها من جميع الجهات - على الخريطة السياسية .

ولكن فى الميدان السياسى باءت جهود المغول بالفشل فى التحالف مع الغربيين ضد المماليك رغم العديد من السفارات المتبادلة بين الطرفين . فالمماليك استطاعوا تقويض الكيانات الصليبية نهائياً من بلاد الشام فى عام ١٢٩١م ، ووجهوا ضربات متلاحقة لمملكة أرمينيا الصغرى وجعلوا حكامها يدينون بالولاء للقاهرة . واستطاع المماليك أيضا هزيمة جيوش المغول فى أعوام ١٢٧٦ م (فى ابلستين بالأناضول) ، ١٢٨١ (موقعة حمص الأولى) ، ١٣٠٣م (فى موقعة مرج الصفر) ، مما أوقف المد المغولى شرقى نهر الفرات . ولاشك أن الانتصارات الإسلامية على الصليبيين ومملكة أرمينيا الصغرى ومغول فارس كان لها أكبر الأثر فى فشل مشروع التحالف اللاتينى - المغولى ضد المسلمين .

كما أن الغرب الأوروبى انشغل بمشاكله الداخلية واهتماماته الاقليمية وحروبه المحلية عن تطلعاته الخارجية فى شرق البحر المتوسط ، خاصة بعد أن تقلص نفوذ البابوية التى فقدت

السيطرة على زمام الأمور بأوروبا وتلاشت الروح الصليبية ليحل محلها اهتمامات جديدة فرضتها المتغيرات لاقتصادية والثقافية فى الغرب الأوروبى فى نهاية القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وكان لبعد المسافة بين الغرب الأوروبى والشرق المغولى والاختلافات فى الدين واللغة والأهداف أثرها على أن ظل مشروع التحالف المشترك بينهما ضد المماليك حلمًا ، ولم يخرج إلى حيز التنفيذ يوما ما .

أما عن نتائج جهود البابوية فى إرسال الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان لتنصير مغول فارس على المذهب الكاثوليكي ، فانها هى الأخرى باءت تقريبًا بالفشل ، اللهم إلا فى تحسين معاملة إيلخانات المغول البوذيين لرعاياهم المسيحيين (وهذا عاد بأبلغ الضرر على الأخيرين بعد اعتناق الإيلخانيين للإسلام) ، فقد حاولت البابوية وملوك الغرب الأوروبى الضغط على إيلخانات فارس بتأجيل النظر فى التحالف معهم ضد المماليك إلى حين استجابتهم لاعتناق المسيحية الكاثوليكية أملًا فى اقتفاء رعاياهم البوذيين والمسيحيين الشرقيين لخطى ملوكهم . وأسس الرهبان الكاثوليك أديرة وكنائس فى المدن الهامة بإيلخانية فارس وفى الهند والصين أيضا ، وإنشأوا كاتدرائيتين فى عاصمة مغول فارس وعاصمة مغول الصين على حد سواء .

ولكن الإسلام - لأسباب كثيرة - بدأ ينتشر رويدًا رويدًا بين عامة المغول منذ بداية مجيئهم إلى وسط آسيا الإسلامية، حتى اعتنقه بعض قادتهم . وتوج انتصار الإسلام باعتراف غازان ١٢٩٥-١٣٠٥م لهذا الدين الذى أصبح الديانة الرسمية للدولة المغولية فى فارس . بل وقد ساهم المغول - بطرق عديدة - فى نشر الإسلام فى مناطق لم تعهد الإسلام من قبل .

وتمثل ميدان النجاح الوحيد فى العلاقات بين المغول والغرب الأوروبى فى الميدان الاقتصادى إذ سمح المغول للتجار الإيطاليين فى ارتياد الأسواق التى كانت تحت سيطرتهم ومنحهم الامتيازات المغرية فى بلادهم . وساهم الأخيرون فى انعاش اقتصاد دولة الإيلخانية ، وتزويدهم بسلع الغرب الأوروبى . كما أن إيلخانات فارس اتخذوا من هؤلاء التجار سفراء لهم للغرب الأوروبى ، واستخدموهم فى قصورهم كمستشارين وإداريين ومترجمين .

وكان لانهياد دولة الإيلخانيين بوفاة أبو سعيد خان عام ١٣٣٥ دون وريث شرعى - أثره السيئ على استمرارية التجار الإيطاليين فى الأسواق الداخلية لقارة آسيا . وشجعهم على التوقف عن ارتياد أسواق آسيا الداخلية عودة التجارة مع الموانئ المصرية الآمنة قُما ، وحصولهم على امتيازات تجارية جديدة من السلاطين المماليك .

وكان لتوافد العديد من السفراء الأوروبيين والرهبان الكاثوليك والتجار والرحالة الإيطاليين فى ايلخانية فارس والهند والصين منذ عام ١٢٤٥ حتى عام ١٣٤٥م تقريباً أثره الكبير فى ازدياد معلومات الأوروبيين - من خلال الكتابات والتقارير التى دونها هؤلاء السفراء والرهبان والرحالة - عن مدن آسيا وموانئها وأسواقها وتجارتها وكنوزها ورخص أسعار منتجاتها مقارنة بأسعار هذه المنتجات فى الموانئ المصرية . وكان لتلك الكتابات أهميتها البالغة فى إلهاب مشاعر الأوروبيين وتشجيعهم على ارتياد هذه المناطق واكتشافها وهذا ما حدث فعلاً على يد فاسكوداجاما وخلفائه بدءاً من نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

الملاحق

الملحق الأول :

ثبت بأسماء حكام وقادة القوى السياسية التي تناولتها هذه الدراسة في الفترة التاريخية المعنية بالبحث : أباطرة المغول ، ايلخانات فارس ، خانات القبيلة الذهبية في روسيا ، سلاطين دولة المماليك الأولى ، ملوك أرمينيا الصغرى ، البابوات ، ملوك كل من إنجلترا وفرنسا ، وقشتالة وأرجون .

الملحق الثاني :

التقرير الذي قرأه سفير أبقاخان أمام مجمع ليون الثاني (المجمع المسكوني الرابع عشر ، ١٢٧٤م) .

الملحق الثالث :

خطاب أرغون خان إلى فيليب الرابع ملك فرنسا ، عام ١٢٨٩م .

الملحق الرابع :

خطاب اوجايتوخان إلى فيليب الرابع عام ١٣٠٥م .

الملحق الأول

ثبت بأسماء حكام وقادة القوى السياسية التي تناولتها الدراسة
فى الفترة التاريخية المعنية بالبحث

أولا : المغول العظام :^(١)

- ١- جنكيز خان (١٢٠٦-١٢٢٧م)
- ٢- اجوداى (١٢٢٩-١٢٤١م)
- ٣- كيوك (١٢٤٦-١٢٤٨م)
- ٤- مانجور (١٢٥١-١٢٥٨م)
- ٥- قوبلاى (١٢٦٠-١٢٩٤م)

ثانيا : ايلخانات فارس :^(١)

- ١- هولاكسو (١٢٥٨-١٢٦٥)
- ٢- أبغسا (١٢٦٥-١٢٨٢)
- ٣- تكودار أحمد (١٢٨٢-١٢٨٤)
- ٤- أرغسون (١٢٨٤-١٢٩١)
- ٥- كيخاتو (١٢٩١-١٢٩٥)
- ٦- بايبدو (١٢٩٥)
- ٧- غازان محمود (١٢٩٥-١٣٠٤)
- ٨- أوجايتو (١٣٠٤-١٣١٦)
- ٩- أبو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥)

ثالثا : خانات القبيلة الذهبية فى روسيا :^(١)

1- Boyle , John Andrew : The Successors of Genghis Khan , Trans lated from the Persian of Rashid al - Din . Columba University Press , 342 -45 .

- ١- باترو (١٢٣٧-١٢٥٦)
- ٢- بركة (١٢٥٧-١٢٦٦)
- ٣- مانجو تيمور (١٢٦٧-١٢٨٠)
- ٤- تودي مانجو (١٢٨٠-١٢٨٧)
- ٥- تولى بوقا (١٢٨٧-١٢٩١)
- ٦- طقطا (١٢٩١-١٣١٢)
- ٧- اوزبك (١٣١٣-١٣٤١)

رابعاً : سلاطين دولة الممالك الأولى : (٢)

- ١- شجر الدر (١٢٥٠)
- ٢- المعز أيبك (١٢٥٠-١٢٥٦)
- ٣- المنصور ابن المعز (١٢٥٧-١٢٥٨)
- ٤- المظفر قطز (١٢٥٨-١٢٥٩)
- ٥- الظاهر بيبرس (١٢٥٩-١٢٧٧)
- ٦- السعيد بن بيبرس (١٢٧٧-١٢٧٩)
- ٧- العادل بن بيبرس (١٢٧٩)
- ٨- المنصور قلاوون (١٢٧٩-١٢٩٠)
- ٩- الأشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣)
- ١٠- بيدرا يوم واحد
- ١١- الناصر محمد (السلطنة الأولى) (١٢٩٣-١٢٩٤)
- ١٢- العادل كتبغا (١٢٩٤-١٢٩٦)
- ١٣- حسام لاجين (١٢٩٦-١٢٩٨)
- ١٤- الناصر محمد (السلطنة الثانية) (١٢٩٨-١٣٠٨)
- ١٥- بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨-١٣٠٩)
- ١٦- الناصر محمد (السلطنة الثالثة) (١٣٠٩-١٣٤٠)

خامسا أسرة بيرونيان الأرمنية (ملوك أرمينيا الصغرى) : (٢)

- ١- هيشوم الأول (١٢٢٦-١٢٧٠ م)
- ٢- ليسون الثالث (١٢٧١-١٢٨٩).
- ٣- هيشوم الثاني (مرة أولى) (١٢٨٩-١٢٩٣)
- ٤- طوروس الثالث (١٢٩٣-١٢٩٤)
- ٥- هيشوم الثاني (مرة ثانية) (٩٤-١٢٩٦)
- ٦- سمبباد (٩٧-١٢٩٩)
- ٧- قسطنطين الأول (١٢٩٩)
- ٨- هيشوم الثاني (مرة ثالثة) (١٢٩٩-١٣٠٥)
- ٩- ليسون الرابع (١٣٠٥-١٣٥٧)
- ١٠- أوشتين الأول (١٣٠٨-١٣٢٠)
- ١١- ليسون الخامس (١٣٢٠-١٣٤١ م)

سادسا : البابوية : (٣)

- ١- جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١)
- ٢- انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤)
- ٣- الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦٠)
- ٤- أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤)
- ٥- كليمنت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨)
- ٦- جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦)
- ٧- نيقولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨١)

٢- فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ص ٢٩٢-٢٩٤ .

- ٨- مارتين الرابع (١٢٨١-١٢٨٤)
 - ٩- هنريوس الرابع (١٢٨٥-١٢٨٧)
 - ١٠- نيقلولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢)
 - ١١- سلسنتين الخامس (١٢٩٤)
 - ١٢- بونيفاس الثامن (١٢٩٥-١٣٠٣)
 - ١٣- بندكت الحادى عشر (١٣٠٣-١٣٠٥)
 - ١٤- كليمنت الخامس (افينون) (١٣٠٥-١٣١٤)
 - ١٥- جنا الثانى والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤م)
- سابعا : ملوك انجلترا : (٣)

- ١- هنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧١)
- ٢- إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٨)
- ٣- إدوارد الثانى (١٣٠٧-١٣٢٧)
- ٤- إدوارد الثالث (١٣٢٧-)

ثامنا : ملوك فرنسا : (٣)

- ١- لويس التاسع (١٢٢٦-١٢٧٠)
- ٢- فيليب الثالث : (١٢٧٠-١٢٨٤)
- ٣- فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤)
- ٤- لويس العاشر (١٣١٤-١٣١٦)
- ٥- فيليب الخامس (١٣١٦-١٣٢١)
- ٦- شارل الرابع (١٣٢٢-)

تاسعا : قشتالة : (٣)

- ١- الفونسو العاشر (الحكيم) (١٢٥٢-١٢٨٣م)

٢- سانشو الرابع (١٢٨٥-١٢٩٥م)

٣- فرديناند الرابع (١٢٩٥-١٣١٢م)

٤- ألفونسو الحادي عشر (١٣١٢-)

عاشرا : أرجون : (٣)

١- جيمى الأول (١٢١٢-١٢٧٤)

٢- بيتر الثالث (١٢٧٦-١٢٨٤)

٣- ألفونسو الثالث (١٢٨٥-١٢٩٠)

٤- جيمى الثانى (١٢٩١-١٣٢٦)

٥- ألفونسو الرابع (١٣٢٧-)

الملحق الثانى

التقرير الذى قرأه سفير ابغاخان أمام مجمع ليون الثانى
(المجمع المسكونى الرابع عشر ، ١٢٧٤م)

مقدمة :

سبق الإشارة أن أبغا خان قد أرسل سفارات إلى الغرب الأوروبى بدءاً من عام ١٢٦٦م يطلب التحالف العسكرى المشترك ضد المماليك . وفى عام ١٢٧٤م أرسل الإيلخان المغولى سفارة مكونة من ستة عشر عضواً على رأسهم الراهب الإنجليزى الدومنيكانى ديفيد الأشبى David of Ashby لحضور جلسات مجمع ليون فى محاولة لجذب أنظار كافة القوى السياسية والدينية فى أوربا - التى لها ممثلين فى هذا المجمع - لأهمية التعاون معه ضد المماليك فى تدعيم الصليبيين فى الشرق .

وقدم البابا جريجورى العاشر سفراء ابغاخان لأعضاء المجمع فى نهاية الجلسة الرابعة فى يوم ٧ يولية (١٢٧٤) حيث قام (ريخالدوس) أحد المترجمين اللاتين من أعضاء سفارة ابغا بقراءة التقرير الذى حملوه من ابغاخان .

وقد عثر الباحث الإيطالى جينو بورغيزو Gino Borghezio على هذا التقرير فى الأرشيفات البابوية ، ونشره عام ١٩٣٦ بنفس اللغة اللاتينية للمخطوط وقدم له بدراسة موجزة عن العلاقة بين البابوية والمغول ^(١).

ونشر الباحث الألمانى بورخارد روبرج Burkhard Roberg فى عام ١٩٧٣ مقالا عن «التتار فى مجمع ليون الثانى عام ١٢٧٤» ^(٢) وفى نهايته أعاد نشر نفس التقرير بلغته اللاتينية معتمداً على جينو بورغيزو . والإضافات التى جاء بها روبرج تتمثل فى مقدمة مستفيضة عن العلاقة بين التتار وأوربا وكذلك دراسة لغوية للأصل اللاتينى لهذا التقرير . ومبلغ علمى أن هذا التقرير لم يترجم بعد لأية لغة شرقية أو غربية معاصرة . وقد تفضل

1- Cf . Borghezio , Gino , "Un Episodio Delle Relazioni tra la Santa Sede e i Mongoli , 1274". in Rome Rivista di Studi e ai Vita Romana , XIV , Nov , 1936, no. II , pp . 361-372.

2- Cf . Roberg , Burkhard . "Die Tartaren auf dem 2 . Konzil von Lyon 1274 , " Annuaire-ium Historiae Conciliarum , 1973 , Heft 2 , pp . 247-302 .

على البروفيسور فرانز كواد لباور Prof . Dr . Franz Quadlbauer أستاذ اللغة اللاتينية في العصور الوسطى بقسم الدراسات الكلاسيكية بجامعة كبيل - بترجمة هذا التقرير إلى اللغة الألمانية . وهانذا أنقله إلى اللغة العربية لأهميته البالغة لموضوع الدراسة .

وقد تضمن هذا التقرير عدة نقاط هامة استعان بها الباحث في دراسته للسفارات المتبادلة بين هولكو وأبغا من ناحية وبين الغرب الأوروبي من ناحية أخرى وهى :-

أولاً : أنه أثناء وجود قوات هولكو ببلاد الشام (عام ١٢٦٠م) فان بطريك بيت المقدس (فى عكا) أرسل الراهب ديفيد الأشبى على رأسه بعثة من الدومنيكان لاستطلاع نوايا المغول تجاه الصليبيين فى الشرق ، وقد نجحت هذه البعثة فيما فشل فيه وليم روبروك ورفاقه فى البقاء بين ظهرانى المغول للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية حتى حضر ديفيد الأشبى على رأس سفارة أبغا لمجمع ليون الثانى .

ثانياً : تحدث التقرير عن اعتناق هولكو المسيحية وتعميده على يد ديفيد الأشبى (وهذا غير صحيح تاريخياً) ، وعن إيثار هولكو وخليفته للمسيحيين ، ومنحهم الإعفاءات الضرائبية للأخيرين ، وتقديم الحماية لهم والعطف عليهم.

ثالثاً : أشار التقرير إلى أن هولكو قد سبق وأن أرسل سفارة إلى الغرب الأوروبى ، ولكن الملك مانفريد بن فردريك الثانى قبض على أعضاء السفارة وصادر الرسائل وأعاد السفراء للمغول ثانية .

رابعاً : أوضح هذا التقرير أن هدف أبغا من هذه السفارة هو طلب التحالف مع اللاتين لدحر «البابليين الكافرين» ، وأشار إلى أن الايلخان المغولى قد أضحى متفرغاً تماماً لمواجهة المصريين .

نص التقرير :^(١)

ليعلم أقدس الآباء رئيس القساوسة الأعلى ،

و (ليعلم) الآباء الأفاضل السادة الكرادلة وجميع السادة الأحرار الكثيرون القائمون على خدمة كنيسة روما المقدسة ، وليعلم جميع ملوك المسيحية وأمراؤها : أن أسلاف الملك المعظم أبغا من شعب المغول الذين تسمونهم بالتر - هؤلاء هم الذين أخضعوا - بعون الإله الحى -

ويقوتهم كثيرا من بلدان الشرق وسيطروا ببطشهم على جميع ممالك الشمال وممالك الجنوب من البداية حتى نهر جيحون .

(ونود أن نبلغكم) بأن والد الملك المعظم أبغا المذكور آنفا هو واحد منكم ، ووالده هو الأمير الهمام الشريف هولكو ، أما نحن : فمبعوثو الملك أبغا .

(والملك هولكو) هو الذى عبر النهر المذكور بعاليه ، وأخذ بشجاعته جميع ممالك فارس من أيدي المسلمين . وتكن أخيراً من التقدم حتى وصل إلى مدينة بغداد العظيمة واحتلها بعد حصار وقتال ، وقتل الخليفة : الذى هو أكبر أمراء المسلمين ، وكان قصره يحميه السيف ويدافع عنه قوة حرس كبيرة من المسلمين المذكورين وشعبهم الملعون . ثم استمر الملك بالتقدم وقتل المسلمين (ص ٣٧٠) حتى وصل إلى نهر (بيرز) وبعد أن عبر هذا النهر استسلمت له خالدة ؟ وفضعت له منطقة المدر ؟ التى تمتد حتى نهر الفرات العظيم . ثم أخضع بقوته جميع المناطق التى تقع فى تركيا (أى سلاحقة الروم) وذلك من جبال الخزر (قزوين) حتى البحر . وهكذا استطاعت جيوشه فى التقدم حتى البحر المتوسط حيث تقع المناطق التالية : فريجيا ، بامفيلين ، كبادوكيا ، وكاليتانيا . وبعد أن سيطر على هذه المناطق عبر نهر الفرات وطارده وأجلى سلطان حلب ودمشق (الناصر يوسف) : ذلك السلطان الذى كان يعد من أعظم السلاطين . ثم احتل مدينة حلب وحطم حصونها القوية تحطيماً كلياً . وبعد ذلك استسلمت له مدينة دمشق ، وسارت جيوشه مخترقة مملكة القدس حتى وصلت إلى جبال الصحراء التى وطنتها أقدام بنى إسرائيل .

وبعد أن جاء مبعوثوا البطريق الذى كان سابقاً فى عكا ، والذى كان على رأس جميع المسيحيين اللاتين والمسيحيين الآخرين فى الشرق ، وأعنى بذلك الأب المقدس وهو (كما نعلم) كان أحد الرهبان الوعاظ الدومنيكان^(١) ، (بعد أن جاء هؤلاء المبعوثون) إلى الملك العظيم (هولكو) حدثوه كثيراً عن عقيدة الدين المسيحى الكاثوليكي ، وعن قداسة الكرسي الرسولى ، وعن عظمة الملوك اللاتين الذين يدعون بالفرننج .

١- إشارة إلى البابا أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤) الذى كان بطريقاً لبسب المقدس (فى عكا) إبان وجود قوات المغول فى الشام (١٢٥٩-١٢٦٠) وهو الذى أوفد ديفيد الأيبى إلى هولكو للتفاهم معه .

وكان أحد هؤلاء المبعوثون هو الراهب ديفيد (الأشبي) مبعوث بطريق مدينة القدس ، وممثل ملك مملكة القدس وقبرص والذي رافقنا حتى مقر المجمع إلى هنا وحافظ بصورة تستحق المدح والثناء على سلامتنا .

وكان هولاء (فى الحقيقة) واحدا منهم (من المسيحيين) وهو الذى ضمن - وبوحى من الإله - للمسيحيين جميعا العيش فى سلام ، وأمر بإعفاء كل رجال الكنائس - وفى جميع المناطق المذكورة آنفا - من الضريبة والإتاوة ، كما ضمن لجميع الكنائس حريتها فى كل مكان. ويقصد الوفاق مع اللاتين وبهدف الوصول إلى عقد تحالف معهم أمر هولاء أن تتمتع جميع مدن المسيحيين وحصونهم وأراضيهم وممتلكاتهم بالطمأنينة والسلام ، ومنع رجاله منها باتا من أن يتعرضوا بالأذى للمسيحيين وأصدر أوامره السلطانية بذلك . (ص ٣٧١) كما أنه استطاع توحيد مدينة بيت المقدس المقدسة مع مملكتها وجعلها تحت إمرته كما يعرف ذلك جميع المسيحيين فى أقطار ما وراء البحار^(١). وكما يشهد على ذلك الراهب التقى ديفيد (الأشبي).

وقد ساعد الراهب ديفيد فى جميع القضايا - التى ذكرناها - بالاشتراك مع إخوانه الرهبان التابعين لنفس الكنيسة والذين كانوا معه . وكان (الملك المغولى) هولاء يبيع بأسراره إلى هذا الراهب (ديفيد) وكأنه صديقه الحميم ، ولم يكن يبيع بمثل ذلك لأى - إنسان آخر مثل اعتناقه للدين المسيحى ، وحصوله على التعميد !! كل ذلك حقيقة ولكن مشيئة الإله طالبتنا أن ندفع ثمن خطايانا فاخطفت يد المنون (هذا الملك) من بيننا .

وبعد أن توفى هذا الملك الجليل (أى هولاء) الذى كان عادلا مع المسيحيين ومنصفا لهم ، وكذلك كانت عقيلته الأميرة (دوقوز خاتون) الملكة المسيحية - لأنها كانت بنت ملك الهند العظيم (الكاهن) يوحنا - (أقول بعد وفاة الملك) خلفه فى جميع مملكته وفى جميع شؤون دولته سيدنا الملك المعظم الشريف (أبغا) الذى سار على خطى والده المذكور آنفا ولا يعيد عن طريقه ولا عن فكره . وهو الآن يعرف عند المغول بـ «سجنين» بمعنى صاحب الذات ، وهو بدوره يؤيد جميع الامتيازات التى منحها والده لصالح المسيحيين . كما أنه أصدر أوامره

١- لم يحدث أن استولت قوات هولاء على المدينة المقدسة أو قامت بتوحيدها مع مملكتها الصليبية .

بزيادة بعض هذه الامتيازات . لقد كانت مساعدة هذا الملك لأولئك المسيحيين كبيرة جدا ، ويشهد على ذلك مبعوثوا البابا ومبعوثوا ملوك المسيحيين . (أى الأوروبيين) الذين حظوا بلقائه وقاتعوا بلطفه ومودته .

وما أشبه هذا الملك بوالده ، فكلاهما رحيم . فقد وجد أسرى مكبلين بالحديد والأطواق فأمر باطلاق سراحهم قبل المدة المعينة ، ومنح إياهم الحرية وأمر بإيصالهم بسلام إلى البحر المتوسط . ويشهد على ما مر ذكره الراهب التقي ديفيد التابع للكنيسة الدومنيكية والذي يعيش الآن معنا . وقد شهد (هذا الراهب) بنفسه كثيرا من المعارك ، كما شهد حصار كثير من المدن .

والملك هيلي (أى هولاكو) هو الذى بعث بأفضل ما عنده من مبعوثين إلى السيد البابا - قدس الله سره - كما بعث بهم إلى جميع الملوك والأمراء بهدف الوصول إلى تحالف دائم معهم وأقل واحد من بين هؤلاء السفراء هو أنا . . ريكالدوس : كاتب العدل عند الملك المعظم ، والمترجم الخاص للغة اللاتينية (له) . وقد اعترض طريقنا نحن المبعوثين السيد مانفريد (ملك صقلية) وهو ابن الامبراطور السابق فرديريك (الثانى) ومنع مواصلةنا للسفر وأجبرنا بالقوة على الرجوع .

ولهذا نريد أن نعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملكنا صاحب العظمة أيبغا خان يريد التحالف ، ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين للكنيسة روما المقدسة .

وقد قرر إرسالنا - نحن المبعوثين الدائمين - إلى قداسة البابا وإلى المجمع المقدس الحالى لإبلاغهم (قرار الملك هذا) كما يؤيد ذلك ختم الملك على الرسائل (المكتوبة باللفة) المغولية واللاتينية . وقد عرضنا (هذه الرسائل) على الأب المقدس وعلى الأمراء (العلمانيين) بحضور السادة المحترمين الكرادلة والسادة الأحرار الآخرين .

ولربما يتعجب الآباء والسادة الحاضرون من شأن ملكنا وذلك أنه مع عظمته هذه يظهر الآن رغبته وحبه للمسيحيين (ولربما يتساءلون) لماذا لم يتحرك ضد الباباين (المصريين) أعداء العقيدة المسيحية حتى الآن ؟ وللإجابة على مثل هذه الأسئلة نقول أنه بعد وفاة والد (ملكنا) المحمود السيرة - كما تقضى الطبيعة البشرية بذلك - أحاط بوجه ملكنا أشجع أعدائه الشائرين ، فكان كل واحد من هؤلاء الأعداء معززا بثلاثة أمثال القوة المعززة بها سلطان بابل (أى ملك مصر) ، فتقدم ملكنا معززا بروح الإله إلى تحجاء هؤلاء الأعداء المذكورين واحدا

فواحدة وفى أوقات مختلفة، وانتصر عليهم فى القتال انتصارا حاسما ^(١). وقد أيد قسم منهم حكمة وخضعوا لطاعته ، وعقدوا صلحا وسلاما دائمين معه . وبعد أن قضى (أبغا) على هذه المشاكل فى السنة الماضية ، قرر أن يتقدم تجاه البابليين الكافرين المذكورين آنفا . فجمع جيوشه ، فاذا برسل أولاد الملوك يتقاطرون عليه ليقدموا له العون فى ظروفه الآتية .

وبينما كان (الملك أبغا) يتدبر هذه الأمور غا إلى علمه فى هذه الأثناء معلومات مباشرة فحواها أن المؤمنين اللاتين بصدد المجمع المقدس الحالى ، مما دعاه إلى إرسال تهانيه إلى حبرنا الأعظم (البابا جريجورى العاشر) . وقد عيننا الملك (أبغا) لهذا السبب ممثلين عنه لحضور الاجتماع المقدس الحالى وكما يؤيد ذلك بوضوح مضمون الرسالة المفتوحة .

١- ربما كانت الإشارة عن انشغال قوات أبغا فى مواجهة أعدائه (مغول روسيا ومغول التركستان) فى محاولة من سفير الخان المغولى تفسير عدم اشتراك قوات سيده مع قوات حملة إدوارد ضد المماليك .

الملحق الثالث

خطاب أرغون إلى فيليب الرابع عام ١٢٨٩م

مقدمة :

وصلت العلاقات السياسية بين مغول فارس والغرب الأوربي للذروة في عهد أرغون خان حيث أرسل الأخير أربعة سفارات للقوى الكبرى في غرب أوروبا لطلب التعاون العسكري المشترك ضد المماليك . وفي عام ١٢٨٩م أرسل أرغون سفارة يرأسها بوسكاريللو جيزولفو الجنوي باقتراحات محددة لتنفيذ هذا التعاون ووضع تواريخ وأماكن محددة لالتقاء الجيشين : المغولي والأوربي في بلاد الشام . وكان هذا الخطاب موضوع هذا الملحق « ، أحد رسالتين سلمهما بوسكاريللو إلى فيليب الرابع (الجميل) ملك فرنسا .

وكان الباحث الفرنسي راموزا M. Abel - Remusat هو أول من قدم دراسة شاملة عن العلاقات بين المغول والقوى الأوربية عامة ، وبين مغول فارس وملوك فرنسا خاصة ونشرها في عامي ١٨٢٢ ، ١٨٢٤ ، وفي دراسته ، نشر راموزا عشر وثائق (خطابات متبادلة بين المغول والأوروبيين) باللغة اللاتينية والمغولية وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية ، وهذا الخطاب جاء ضمن هذه الوثائق التي نشرها راموزا وترجمها ^(١) .

وقد نشر ميادوس Meadows عام ١٨٥٠ - نقلا عن راموزا وغيره - ترجمة الإنجليزية لهذا الخطاب مقرونة بالأصل المغولي له ^(٢) . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ترجم هذا الخطاب إلى العديد من اللغات الأوربية . ولكنه لم يترجم بعد إلى اللغة العربية لسبب جوهري وهو أن هذا الموضوع لم يبحث من قبل بحثا أكاديميا قائما على الوثائق الشرقية والغربية على حد سواء .

نص الخطاب :

بقدره السماء الأبدية ، وفي ظل (وحماية) الملك

1- Cf . R`emusat , Abel , " M`emoires sur les Relations Poletique des Princes Chre`tiens et particulierement les Rois des France avec les Empereus Mongols " , Memoires de L`Academie Royale des Inscriptions et Belles - Lettres , IV - V , 1821 - 2 .

2- Meadows " Translations and Notice of Two Mongolian Letters to Philip the Fair , King of France " , Chinese Repository , 19 , 1850 , pp. 526-535 .

(فيما يلي) خطاب ملكنا أرغون :

إلى ملك فرنسا

(فيما يتعلق) باقتراحك الذي أرسلته إلينا في السنة الماضية بواسطة الوفد (السفارة) الذي كان على رأسه بار صاوما ساهورا (مضمونه) : « أنه إذا غزت جيوش الإيلخانات (المغولي) مصر فانتا كذلك سنقوم من هنا بغزوها ونشارك في العمليات (الحربية) مباغتين العدو من الخلف » ، فانتا وافقنا (على اقتراحكم) ولذلك قررنا - بمشيئة السماء - أننا سنركب خيولنا في آخر شهر من شتاء عام النمر^(١) . (يناير ١٢٩٠م) وسننزل أمام دمشق في منتصف أول شهر من الربيع (١٥ فبراير ١٢٩١) .

ونعلمك الآن بأننا بمقتضى صدق كلامنا سنبعث جيوشنا في الموعد والمكان المتفق عليه . فاذا أخضعنا - بقدره السماء - تلك الشعوب ، فإننا سنعطيكم القدس . أما إذا أهملتم الموعد وجعلتم جيوشنا تخوض عملية (حربية) فاشلة . وقد يكون هذا ممكنا (وسوف تندمون) ، وحتى إذا ندمتم عليه فسوف لا ينفعكم الندم . وإذا أرسلتم رسولا من قبلكم إلينا بمهمة ما وكلفتموه بحمل أشياء نفيسة من أرض فرنسا مثل الصقور والجواهر المختلفة الألوان ، فلتشهد قدرة السماء وجلالة الملك على أننا سنكافئكم على ذلك بطريقة ما .

هذا ما أردنا أن نقوله . ومرسل هذا الخطاب (بيد) حامل الكنانة موسكريل (أى بوسكاريللو) .

كتب هذا الخطاب في اليوم السادس من الثالث الأخير للشهر الأول من صيف عام الثور (١٢٨٩) خلال إقامتنا في كوندلن .

١ - اخترع المغول تقويما يناسب حياتهم الرعوية ويكون أقرب لعقولهم باعتبار أنهم كانوا - أصلا - قبائل بدوية تعيش على الرعى وصيد الحيوانات ، وكانوا لا يعرفون القراءة والكتابة . فرتبوا السنوات في دورة قوامها اثني عشر عاما ، وكل عام يسمى باسم حيوان مألوف لديهم وهى بالترتيب : القط ، الثور ، النمر ، الأرنب ، الثنين ، الحبة ، الحصان ، الخروف ، القرد ، الديك ، الكلب ، الخنزير . وعلى سبيل المثال كان عام النمر موافقا للأعوام الآتية :

١٢٥٤ ، ١٢٦٦ ، ١٢٧٨ ، ١٢٩٠ ، ١٣٠٢ ، ١٣١٤ وهكذا كل اثني عشر عاما . وترتب على اعتناق غازان خان للإسلام أن بدأ مغول فارس يستخدمون التقويم الهجرى الإسلامى فى مراسلاتهم :

Cf . Boyle , J. A : The Successors of Genghis Khan . Columbia University Press , 1971 , p. 346 .

الملحق الرابع

خطاب أولجايتوخان إلى فيليب الرابع ملك فرنسا عام ١٣٠٥م

مقدمة :

أرسل أولجايتوخان (١٣٠٤-١٣١٦م) سفارة إلى الغرب الأوروبي في عام ١٣٠٥ لمحاولة إحياء الاتصالات بين مغول فارس والغرب الكاثوليكي . واهتم المؤرخون المحدثون بخطاب أولجايتو إلى فيليب الرابع نفس اهتمامهم بخطاب أرغون خان - الذي سبق ترجمته في الملحق الثالث - لنفس الملك الفرنسي . ومرجع ذلك أنه آخر خطاب يُعشر عليه في الاتصالات بين مغول فارس والغرب الأوروبي ، ولأن هذا الخطاب وإن لم يشر لطلب التحالف مع الأوروبيين صراحة - ربما لأن أولجايتو كان في حالة صلح مع المماليك - إلا أن السفير المغولي وهو توماس اوجي السيني Tomas Ugi of Siena قد سلم الملك الفرنسي - وغيره من الحكام مذكرة أو خطاب عن عروض خيالية من أولجايتو للملك الغرب بتموين وإمداد جيوشهم في حالة الحضور إلى الشرق ضد المماليك^(١).

وقد ترجم هذا الخطاب منذ راموزا إلى عدة لغات أوروبية^(٢) ، وقمت بترجمته إلى اللغة العربية لأهميته في دراسة تطور العلاقات السياسية بين المغول والأوروبيين .

نص الخطاب :

هذا خطاب سلطاننا أولجايتو :

إلى ملك فرنسا

منذ القديم كان لكم يا سلاطين شعب فرنسا جميعا علاقات ودية مع آباء أجدادنا الكرام ، ومع أجدادنا الكرام ، ومع أبينا الكريم ، ومع أخينا الأكبر الكريم . وبالرغم من البعد بيننا كنا نجد (من خلال رسلكم إلينا) تقارباً في الرأي ، وذلك في إبلاغكم إيانا بجميع أخباركم وفي تبادل البعثات وإرسال هدايا السلم .

فلماذا أهملتم الآن كل ذلك ؟

١- انظر ما سبق دراسته ص ١٣٧-١٤١ .

٢- عن المراجع المعاصرة التي أوردت ترجمة هذا الخطاب انظر ص ١٦٢ حاشية رقم ١٥٧ .

وخصوصا الآن ، وقد اعتلينا العرش العالى - بفضل قدرة السماء - وأبدينا الرغبة فى الحفاظ بدقة على ما رسمه وما نظمه جدنا الكريم وأبونا الكريم وأخونا الأكبر الكريم ، وعلى ألانتخلى عن الاتفاق (الذى وقعوه) مع رؤساء الأراضى القدامى الموزعة حسب النظام الجديد . بل إننا نعتبره واجبا مقدسا . ونريد الاتصالات أكتف مما كانت عليه فى الماضى وذلك من خلال تبادل الرسل (المفوضين) .

لقد أثرت اقتراعات جلساء السوء على حينا نحن الإخوان ولكن السماء وهبتنا الرأى (x) بأننا نحن وتيمور خان (١) وطقطاخان (٢) وجابار وتوغا (٣) ، والأخيرين أحفاد جنكيز خان يجب علينا أن نضع حداً للإهانات المتبادلة التى شاعت بيننا منذ خمسة وأربعين عاما وحتى الآن ويفضل السماء (x) فقد تصالحنا نحن الإخوان وجعلنا مراكز الحدود بين ولاياتنا ترتبط بعضها ببعض .

ونحن الآن نميل إلى الاعتقاد بأنكم كذلك تريدون استمرار العلاقات الودية (معنا) كما كانت مع أجدادنا الكرام وآبائنا الكرام وأخينا الأكبر الكريم . (ولهذا) نبعث لكم بالرسولين مالغ وتومان .

لقد وصل إلى علمنا أنكم يا سلاطين الفرنسيين جميعا متفاهمون مع بعضكم . وليس هناك فى الحقيقة أفضل من التفاهم . وإذا وجد بينكم أو بيننا أناس لا يريدون التفاهم فسنقف بقدرة السماء - صفا واحداً فى وجوههم والسماء شاهدة على ما نقول (x) .

كتب خطابنا هذا فى عام ٧٠٤ هجرية (١٣٠٥م) فى عام الحية فى اليوم الثامن من الثلث الأخير لأول شهور الصيف خلال إقامتنا فى أليمان .

١- خاقان الصين (١٢٩٤-١٣٠٧م)

٢- Toqta Khan حاكم القبيلة الذهبية (١٢٩١-١٣١٢م)

٣- توغا خان التركستان (١٢٨٢-١٣٠٧م)

x- ربما قصد أوجايتو من كتابة هذه التعبيرات البوذية فى خطابه إخفاء حقيقة إعتناقه الإسلام عن ملوك الغرب الأوربي حتى لايبأسوا من التعاون معه ضد الممالك المسلمين .

الخريطة



خريطة للوصلة بين آسيا وأوروبا من عصر المثلثين إلى ١٢٤٥.
أقصى اتساع للبرية المغمورة
الطريق التجارية الرئيسية بين الشرق والغرب
لحمية بوضوح الكاريبي
لحمية على أوبولو

From Newton: Travel and Travellers in the Middle Ages.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأولية :

أ- المصادر العربية والعربية

- ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) على بن أحمد بن أبي الكرم .
الكامل فى التاريخ . تسعة أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ .
ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :
تحفة النظائر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزآن . القاهرة ، ١٩٣٤-١٩٣٧ م .
ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م) القاضى محبى الدين أبو الفضل .
_____ الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر . حققه عبد العزيز الخويطر الرياض ، ١٩٧٦ م .
_____ شريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور . حققه مراد كامل القاهرة ، ١٩٦١
ابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرن الطبيب الملقب
تاريخ مختصر الدول . بيروت ، ١٨٩٠ م .
ابن الفوطى (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٢ م) كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق . البغدادى
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة . طبعة بغداد ، ١٣٥١ هـ .
جوانفيل / جان دى :
القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة حسن حبشى . القاهرة ، ١٩٦٨ م .
ماركو بولو :
رحلات ماركو بولو : ترجمتها للإنجليزية وليم مارسدن ونقلها إلى اللغة العربية عبد العزيز
جاويد ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
المقرئى (٨٤٥ هـ / ١٢٤٢ م) تقى الدين أحمد بن على .
السلوك لمعرفة دول الملوك . الجزآن الأول والثانى (٦ أقسام) تحقيق محمد مصطفى زيادة .
القاهرة ، ٣٤ - ١٩٥٨ . الجزء الثالث والرابع (٦٠ أقسام) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور .
القاهرة ، ٧٠ - ١٩٧٢ .
الهمدانى (ت ٧١٩ هـ / ١٣١٨ م) رشيد الدين فضل الله :
جامع التواريخ (تاريخ المغول) . المجلدان الأول والثانى نقلهما إلى اللغة العربية محمد
صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد ، وراجعه يحيى الخشاب .
القاهرة ، ١٩٦٠

ب- المصادر المكتوبة باللغات الأوربية والمترجمة إليها

Bretschneider , E. (ed. & trans.)

Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources . Vol . I . London , 1910.

Chabot , J . B .(ed.)

“ Notes sur les relations du roi Argun avec L`Occident , “ Revue de L`Orient Latin , II , 1894 , pp. 566-644 .

The Chronicle of Bury St Edmunds , 1212- 1301 . Trans . from Latin by Antonia Gransden . London , 1964 .

The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471 .

Trans . from Russian by Robert Michell and N . Farbes . Camden Third Series , vol . 25 . London , 1914 .

Clavijo , Ruy G .

Narrative of his Embassy to the Court of Timour at Samercand A.D. 1403 - 6. Trans , by C.R. Markham . London . n.d.

Dawson , Christopher (ed.)

The Mongol Mission : Narratives and Letters of the Franciscan Missionaries in Mongolia and China in the Thirteenth and Fourteenth Centuries . Translated from Latin by a Nun of Stanbrook Abbey . New York , 1955 .

Grigor of Akanc

History of the Nation of the Archers (The Mongols) .

The Armenian text , ed . with Eng . trans . and notes by Robert Blak , and Richard Frye . Cambridge , 1954 .

Haenisch , Erich ,

“Zu den Briefen der Mongolis chen II - Khane Argun und Oljeitu an den Philipp den Schonen von Frankreich (1289 u . 1305 “ , Oriens , II , 1949 , pp . 216 - 235 .

Hebraus , G.A.

The Chronography of Gregory Abu`L - Faraj .

The Syriac text , ed . with English trans . by Wallis Budge .

Amsterdam , 1932 , Pepr . London , 1979 .

Iwamura , Shinabu (ed. & trans.) ,

“Mongol invasion of Poland in the Thirteenth Century” ,

Memoirs of the Research Department of Toyo Bunko ,Tokyo, No . 10 , 1938
 , pp.103-157 .

John of Marignolli ,

“Account of his Mission” . Ed. & trans . by Henry Yule :

Cathay and the Way Thither. vol , III . London , 1913 .

John of Monte Corvino ,

“The Letters of John of Monte Corvino” . Ed . and translated to English in C
 . Dawson : The Mongol Mission , pp . 224-232 ; A.C. Moule : Christians in
 China Before the Year 1550 . London , 1930 , pp. 171-183 ,

H. Yule : Cathay and the Way Thither. Vol . III , pp. 45-58.

John of Plano Carpini ,

History of the Mongols . In C. Dawson (ed.) :

The Mongol Mission , pp . 3-72 .

Joseph de Cancy ,

“A Crusader Letter from the Holy Land , May 1282 “ .

Palestine Pilgrims ` Text Society . vol . V, part 3 , pp . 1-16 .

Meadows ,

Translations and Notice of Two Mongolian Letters to Philip the Fair , King
 of France “ , Chinese Repository , 19 , 1850 , pp . 523-535 .

Meyvaert , Paul ,

“An Unknown Letter of Hulagu , Il - Khan of Persia to King Louis IX of
 France “ Viator , XI , 1980 , pp . 242-249 .

Mostaert , A . & F.W. Clcaves ,

“ Les Lettres de 1289 et 1305 “ dans Harvard Yenching Institute Scripta
 Mongolica . Series I , Cambride , Mass ., 1962 .

_____ "Trois documents Mongols des Archives Secretes Vaticanes " Harvard Journal of Asiatic Studies . XV , 1953 , pp. 419-506 .

Odoric of Pordenone ,

"Itinerarium" . Ed , and trans , by H. Yule :

Cf . Cathay and the Way Thither . vol . II . Rev . ed . by . H . Cordier . London , 1913 , pp. XV - 367 .

Otto , Bishop of Freising ,

The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1146 A. D .
Trans . from Latin by Charles Christopher Mierow . Columbia Univ . Press ,
1928 .

Paris , Matthew ,

English History from the Year 1235 to 1273 .

Trans . from Latin by J.A. Giles , 3 vols . London , 1852 .

Pegolotti , Francesco Balducci

"Pegolotti's Notices of the Land Routes to Cathay c. 1330-1340 " in H. Yule
: Cathay and the Way Thither . vol . III . London , 1913 .

Sawma , Rabbban

The Monks of Kublai Khan ... or the History of the Life and Traveles of Rab-
ban Sawma . Eng . trans . from Syriac . by . Wallis Budge . London , 1928 .

Schroeder , J . (ed. & trans.)

Disciplinary Decrees of the General Councils :

Tex, Translation and , Commentary . London , 1937 .

Szczesniak , Boleslaw ,

"Hagiographical Documentation of the Mongol Invasions of Poland in the
Thirteenth Century" , Memoirs of the Research Department of the Toyo Bun-
ko , Tokyo . Vol . 17 , 1958 , pp . 167 - 195 .

٢٩٣

Diplomatium Veneto - Levantinum . 2 vols . Venice , 1880 , I , Venice , 1880 , 1889 .

Tisserant , E .

"Une Lettre de L'Ilkhan de Perse Abgha adressée en 1268 au Pape Clement IV" , Le Museon , 59 , 1946 , pp. 547 - 556 .

Voegelin , Eric ,

"The Mongol Orders of Submission to European Powers , 1245-1255" , Byzantion , XV , 1940-41 , pp . , pp . 378-413 .

William of Rubruck

The Journey of William of Rubruck . In C. Dowson (ed.) The Mongol Mission , pp . 89-224 .

Yule , Henry (ed.)

Cathay and the Way Thither . 3 vols . London , 1913 .

ثانيا : المراجع الثانوية

أ- المراجع العربية والمعرية

أحمد مختار العبادى (الدكتور)

قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام . بيروت ، ١٩٦٩م

أرنولد ، توماس :

الدعوة إلى الإسلام : بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية . ترجمة إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوى ، القاهرة ، د.ت .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

لويس التاسع فى الشرق الأوسط . ١٢٥٠-١٢٥٤م . القاهرة ، ١٩٥٦ .

حافظ أحمد حمدى (الدكتور) :

الدولة الخوارزمية والمغول : غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية . القاهرة ، ١٩٤٩ .

حسن إبراهيم حسن (الدكتور) :

«انتشار الإسلام بين المغول والتتار» . صحيفة الجامعة المصرية ، ١٩٣٣ .
سيزار ، ياروسلاف ، جوزيف فوزار :

«نقاط التلاقى والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠-١٥م)» .
«ترجمة وتعليق جوزيف نسييم يوسف : انظر جوزيف نسييم يوسف : دراسات فى
تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. الاسكندرية ١٩٨٣ .

صبحى لبيب (الدكتور) :

«سياسة مصر التجارية فى عصرى الأيوبيين والمماليك» . المجلة التاريخية
المصرية ، مجلد ٢٨ ، ٢٩ ، ١٩٨١ - ١٩٨٢ .

عبد السلام فهمى (الدكتور) :

تاريخ الدولة المغولية فى إيران . القاهرة ، ١٩٨٠ .

عفاف سيد صبره (الدكتورة) :

العلاقات بين الشرق والغرب : علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من
١١٠٠-١٤٠٠م . القاهرة ، ١٩٨٣ م .

فايد حماد عاشور (الدكتور) :

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى .
القاهرة، د.ت .

فايز نجيب اسكندر (الدكتور) :

مملكة أرمينيا الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ١٢٥٠-١٣٧٥م /
٦٤٨-٧٧٦هـ . رسالة دكتوراة غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة
الاسكندرية ، ١٩٨٠ م .

فؤاد عبد المعطى الصياد (الدكتور) :

السلطان محمود غازان حاكم المغول واعتناقه الاسلام ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

لويس شيخو اليسوعى :

- «النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول . مجلة الشرق ، السنة السادسة عشرة ١٩١٣ ، ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .
- محمد صالح داود القزاز (الدكتور) :
- الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية . بغداد ، ١٩٧٠ .
- مصطفى طه بدر (الدكتور) :
- مغول إيران بين المسيحية والإسلام . القاهرة . ١٩٤٢ .
- ب- المراجع الأجنبية

Andersen , Andrew R . :

Alexander's Gate , Gog and Magog and the Inclosed Nations . Cambridge , 1932.

Ashtor , Eliyahu :

Levant Trade in the Later Middle Ages . Princeton , 1983 .

_____ " Observations on Venetian Trade in the Levant in the X IV th Century " , The Journal of European Economic History , vol . 5 . 1976 , pp . 533 - 586 .

Atiya , Aziz Suryal :

Egypt and Aragon : Embassies and Dipomatic Correspondence Between 1300 and 1330 , A.D . Leipzig , 1938 .

_____ "The Crusade in the Fourteenth Century " , in Setton (ed) A History of the Crusades , III , pp . 3-26 .

_____ The Crusade in the Later Middle Ages . London , 1938 .

Baldwin , W . Marshall :

" Missions to the East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries " in K . Setton (ed.) A History of the Crusades. Vol. 5 : The Impact of the Crusades on the Near East . Wiscinson , 1985 .

Barthold , W .

Turkestan down to the Mongol Invasion . 3 rd Eng . ed . with trans . by Mrs . T . Minorsky . London , 1968 .

Bausani , A .

"Religion Under the Mongols . " Cambridge History of Iran , vol . 5 . Cambridge , 1968.

Beazley , Raymond :

The Dawn of Modern Geography . 3 vols . New York , 1949 .

Beckingham , C.F.

"The Achievements of " Prester John " An Inaugural Lecture at the School of Oriental and African Studies , 1966 . London , pp. 3-24 .

_____ " The Quest for Prester Jhon " , Boyle Memorial Lecture , John Rylands University Library of Manchesters , 1979 . In Bulletin of the John Rylands University Library 62 , Manchester , 1980 , pp. 291-310 .

Borghezio , G .

" Un episodio delle relazioni Tra la Santa ei Mongoli (1274) " Rome , XIV , 1936 , pp. 361 - 372 .

Boswell A . Bruce :

"Territorial Division and the Mongol Invasions , 1202-1300 " Cambridge History of Poland , Vol . I , Cambridge , 1950 .

Boyle , John Andrew :

"The Il - Khans of Persia and the Christian West" History Today , XXXIII , 8 , 1973 , pp . 551-562 .

_____ The Successors of Genghis Khan . Columbia University Press , 1971 .

_____ " The Journey of Het'um , King of Little Armenia , to the Court of the Great Khan Mongke " , Central Asiatic Journal , IX , 1964 , pp . 175-189 .

Brown , Matthias :

"Missionary Problems in the Thirteenth Century : A Study in Missionary Preparation" , Catholic Historical Review , vol . 25 , 1939-40 , pp. 145-149

Browne, Edward :

A Literary History of Persia . 3 Vols . Cambridge , 1933 .

Browne, Laurence E. :

The Eclipse of Christianity in Asia Cambridge, 1933 .

Chambers, James :

The Devil's Horsemen : The Mongol Invasion of Europe . Londone , 1979 .

Cheshire, Harolde T :

" The Great Tartar Invasion of Europe , " in the Slavonic Review , vol . 5 ,
1926 , pp . 89-105 .

Connell, Charles William :

Western Views of the Tartars , 1240 - 1340 . Unpublished Ph . D . Rutgers
State Unviersity , 1964 . Xeroxed by University Microfilms International
Ann Arbor , Michigan , U.S.A.

Dienes, M. :

"Eastern Missions of the Hungarian Dominicans in the First half of the-
Thirteenth Century , " Isis , vol . 27 , 1937 , pp . 225-241 .

Dmytryshyn, Basil (ed. &Trans.) :

Medieval Russia : A Source Book , 100-1700 . New York , 1967 .

Ehrenkreutz, Andrew :

" Strategic Implications of the Slave Trade Between Genoa and Mamluk
Egypt in the Second Half of the Thirteenth Century " , in A.L. Udovitch(ed.):
The Islamic Middle East , 700-1900 ; Studies in Economic and Social His-
tory . Princeton , 1981 , pp . 335-346 .

Grousset, Rene :

Histore des Croisodes et du Royame Franc de Jerusalem . 3 vols . Paris ,
1936 .

Guzman, Gregory C .

Simon of Saint Ouentin and the Dominican Missions to the Mongols , 1245-

1248 . Unpublished Ph . D . diss . Cincinnati Univ . , 1968 .

_____ " Simon of Saint Ouentin and the Dominican Missions to the Mongol Baiju " .
Speculum , XLVI , 1971 , pp . 232-251 .

Hart , Henry H . :

Marco Polo : A Venetian Adventurer . Univ . of Oklahoma Press , 1967 .

Heyd , Wilhelm :

Gerchichte des Levantehandels in Mittelattar . 2 . B and . Stuttgart , 1879 .

Housley , Norman :

The Avignon Papacy and the Crusades 1305 - 1375 . OXford , 1986 .

Houston , G . W . :

" An Overview of Nestorians in Inner Asia " Central Asiatic Journal , vol .
XXIV , 1980 , pp 60-68 .

Howorth , Henry :

History of the Mongols . vol . III , London , 1888 .

Hsiang , Paul Stanislaus :

The Catholic Missions in China During the Middle Ages (1294-1368) Ph . D .
Diss . Washangton D . C . , 1949 .

Jackson . Peter :

" The Crisis in the Holy Land in 1260 " , in English Historical Review , 1980
 , pp . 481-512 .

_____ " The Dissolution of the Mongol Empire " Central Asiatic Journal , XXII ,
vols . 3-4, 1978 , pp . 187-243 .

Kedar , Benjamin Z . :

Merchants in Crisis : Genoese and Venetian Men of Affairs and the Four-
teenth Century Depression . Yale University Press , 1976 .

Labib , Sobhi :

" Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area " , Recueils de

la Société Jean Bodin Pour L'Histoire Comparative des Institutions , XXXII ,
Premiere Partie . Bruxelles , 1974 , pp . 225-241 .

Lach , Donald :

Asia in the Making of Europe . Vol . I , The Century of Discovery . Chicago ,
1965 .

Lane , Frederic C .:

Venice : A Maritime Republic . John Hopkins University Press , Baltimore &
London , 1973 .

_____ " The Venetian Galleys to Alexandria , 1344 " , Wirtschaftskräfte Und Wirtschaftsweg . I . Band , Klett - Cotta , 1978 , pp . 431 - 440 .

Latrie , M.:

" Privilège Commercial accordé en 1320 a la Republique de Venice Par un
Roi de Perse " , in Bibliotheque de L'Ecole des Chartes . Paris , XXX , 1870 ,
pp . 72-102 .

Letts , Malcolm :

"Prester John : Sources and Illustrations " in Notes and Queries , vols 188 ,
189 , 1945 .

Lockhart , L .:

"Persia as Seen by the West " , in A . J. Arberry (ed.) The Legacy of Persia .
Oxford , 1953 . pp . 318-350 .

_____ "The Relations Between Edward I and Edward II of England and the Mongol II
- Khans of Persia " , Iran Journal of Persian Studies , VII , 1968 , pp . 21-32 .

Lopez . R. S .:

" China Silk in Europe in the Yuan Period " , Journal of the American Oriental
Society , vol . 72 , n . 2 April - June , 1952 , pp . 72-76 .

_____ " European Merchants in the Medieval Indies : The Evidenc of Commercial
Documents " The Journal of Economic History , vol III , Nov . 1943 , pp .

164-184.

_____ "The Trade of Medieval Europe : The South " , Cambridge Economic History of Europe , vol . II , Cambridge , 1952 , pp . 257 - 355 .

Martin , M.E.:

"The Venetian - Seljuk Treaty of 1220" , English Historical Review , vol . XCV , 1980 , pp . 321-330 .

Muldoon , James :

"Missionaries and the Marriages of Infidels : The Case of the Mongol Mission " , Jurist , vol . 35 , 1975 , pp . 125-141 .

Moule , A.C.

Christians in China Before the Year 1550 . London , 1930 .

_____ , " The Failure of Early Christian Mission to China " East and the West , 1914 , pp . 398 - 410 .

_____ , " The Primitive Failure of Christianity in China " , in the International Review of Missions , vol . 20 , 1931 , pp . 455-60 .

Nersessian , Sirarpie der

"The Kingdom of Cilician Armenia " , in K . Setton (ed.) A History of the Crusades . Vol . II : The Later Crusades , 1189-1311 . Univ . of Wisconsin Press , 1965 , pp . 630 - 661 .

Nowell , C.E .

"The Old Man of the Mountain " . Speculum , vol . XXII , 1947 , pp . 497 - 519 .

Pelliot , Paul ,

"Les Mongols et la Papauté " , Revue de L'Orient Latin , 3rd Series " 23 (1922 :3) , 3-30 ; 24 (1924) , 225-335; (1931) , 3-84 .

Petrushvsky , I.P. :

"The Socio - Economic Condition of Iran Under the IL - Khans " Cambridge

۳.۱

History of Iran .5 . Cambridge .

Phaire , Barbara Rose :

Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245-1254 : An Analysis. Unpublished Ph . D . New York Univ . 1972 .

Powicke , F.M . :

King Henry III and the Lord Edward . 2 Vols . Oxford , 1947 .

Rachewiltz , Igorde :

Papal Envoys to the Great Khans . London , 1970 .

Richard , Jean :

"European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12th- 15 th Centuries) , Iran Journal of Persian Studies) vol . VI , pp . 47-54 .

_____ , " The Mongols and the Franks " , Journal of Asian History , III , 1969 , pp . 49 - 57 .

_____ , Les Relations entre L'Orient et L'Occident au Moyen Age . London , 1977 .

Ross . E . Denison :

"Prester John and the Empire of Ethiopia " , in A.P. Newton (ed.) Travel and Travellers of the Middle Ages London , 1930 .

Runciman Steven :

" The Crusader States , 1243-1291 " , in K. Setton (ed.) A History of the Crusades , vol . II , pp . 557-599 .

Ryan , J . D . :

The International of the Oriental Mission and Crusade Activities of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 . ph D. Diss . New York University , 1972 .

Saunders , J . J . :

The History of the Mongol Conquests . London , 1971 .

_____ " John of Plan Carpini " , History Today , vol . XXII , 1972 , pp 547 - 55 .

_____ Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Ed . C. W . Rice . Canterbury , 1977 .

Schein , Sylvia :

“ Gesta Dei Per Mongols 1300 , the genesis of a non - event “ , The English Historical Journal , vol . , 14 . Oct . 1979 , pp . 805-819 .

_____ , “ Philip IV and the Crusade : A Reconsideration “ , in Edbury , Peter W . (ed.) Crusade and Settlement . Univ . College Cardiff Press , 1985 .

Setton K . :

The Papacy and Levant . Vol I . London , 1976 .

Sinor , Denis :

History of Hungary . London , n . d .

_____ “ The Mongols and Western Europe “ in K . Setton (ed.) A History of the Crusads . vol . III . Wisconsin University Press , 1985 .

Slersarev , Vsenolod :

Prester John : The Letter and the Legend . Minnesota , 1959 .

Smith , Riley J . :

The Knights of St . John in Jerusalem and Cyprus (1050-11310) London , 1967 .

_____ What were the Crusade ? London , 1977 .

Southern , R.W . :

Western Views of Islam in the Middle Ages . Harvard University Press , 1962 .

Spuler , Barlold :

History of the Mongols Based on Eastern and Western Accounts of the Therteemth and Fourteenth Centuries . London , 1972 .

_____ Die Mongolen in Iran . Leipzig , 1939 .

Stevenson , W . B . :

۳ . ۳

The Crusaders in the East . Beirut , 1968 .

Strayer , Joseph R :

"The Crusades of Louis IX " , K . Setton (ed.) A History of the Crusades .
Vol II . The Later Crusades 1189-1311 , pp . 487-522 .

Szczesniak , Boleslaw :

"The Mission of Gioveinni de Plano Carpini and Benedict the Polc of
Vratislavia to Halicz" , in Journal of Ecclesiastical History . Vol . VII , no . I
 , April 1956 , pp . 12-20 .

Throop , Palmer A . :

A Criticism of the Crusade : A Study of Public Opinion and Crusade
Propaganda 2 nd ed. Philadelphia , 1975 .

Turner , H . Hudson :

" Unpublished Notices of the Times of Edward I , Especially of his Re-
lations with the Monghul Sovereigns of Persia , " in the Archaeological Jour-
nal . London , 1851 . vol . VIII , pp . 45-5 .

Ullendorff , Edward , C.F. Beckingham :

The Hebrew Letters of Prester John . Oxford Univiersity Press , 1982 .

Vernadsky , G . :

The Mongols and Russia . New Haven , 1953 .

Vine , Aubrey :

The Nestorian Churches . London , 1937 .

رقم الإيداع ٩٧/٣٨٦٢

I.S.B.N. 977-5487-64-1



وأثرها على العالم الإسلامي



للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES